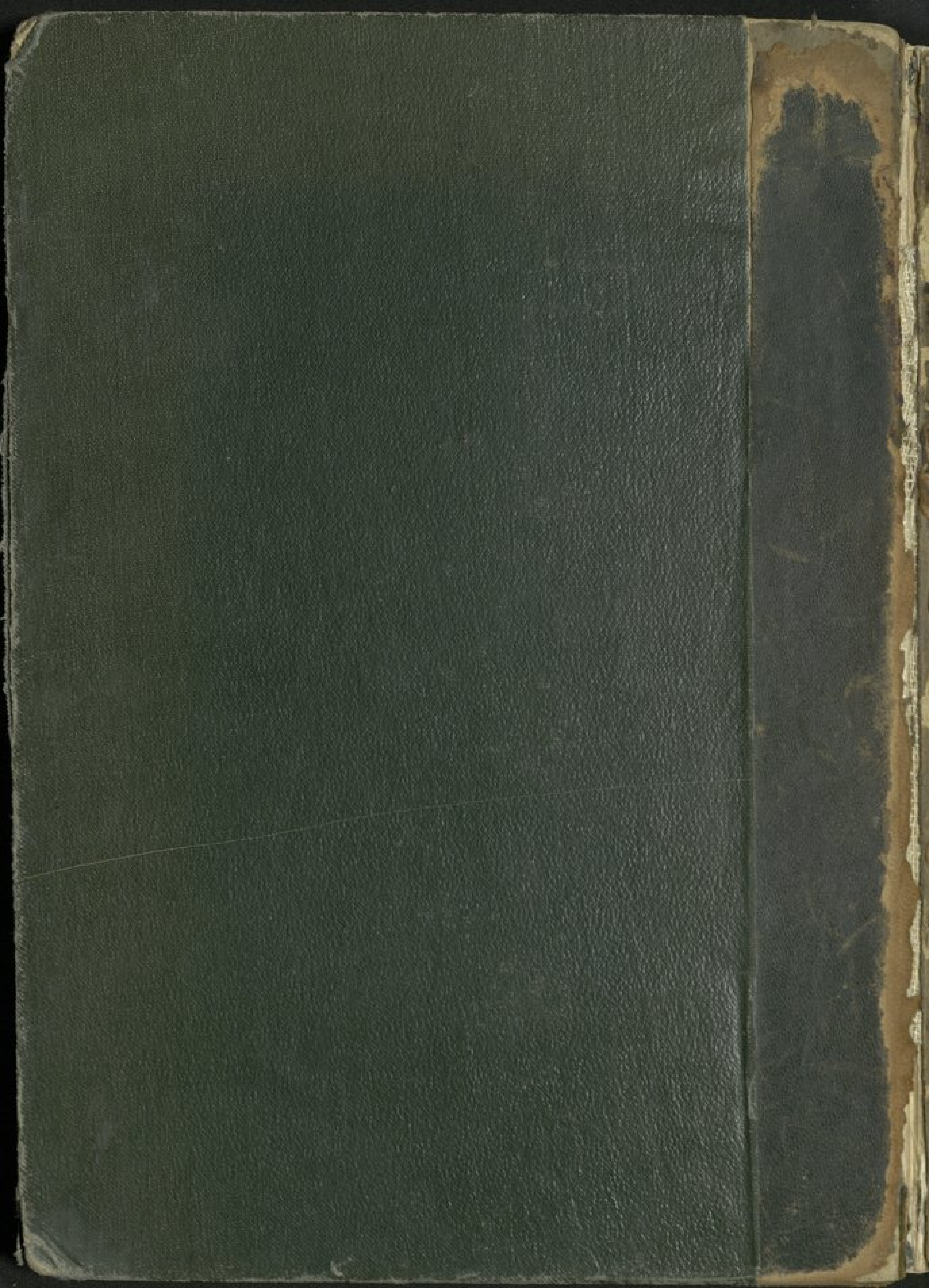
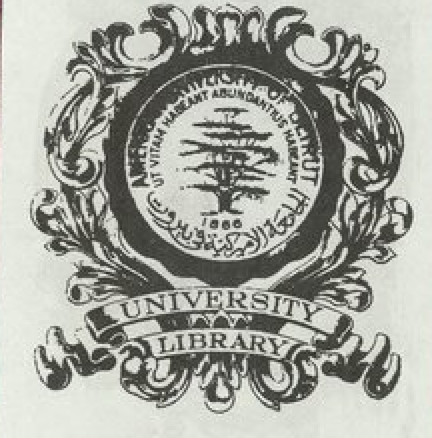
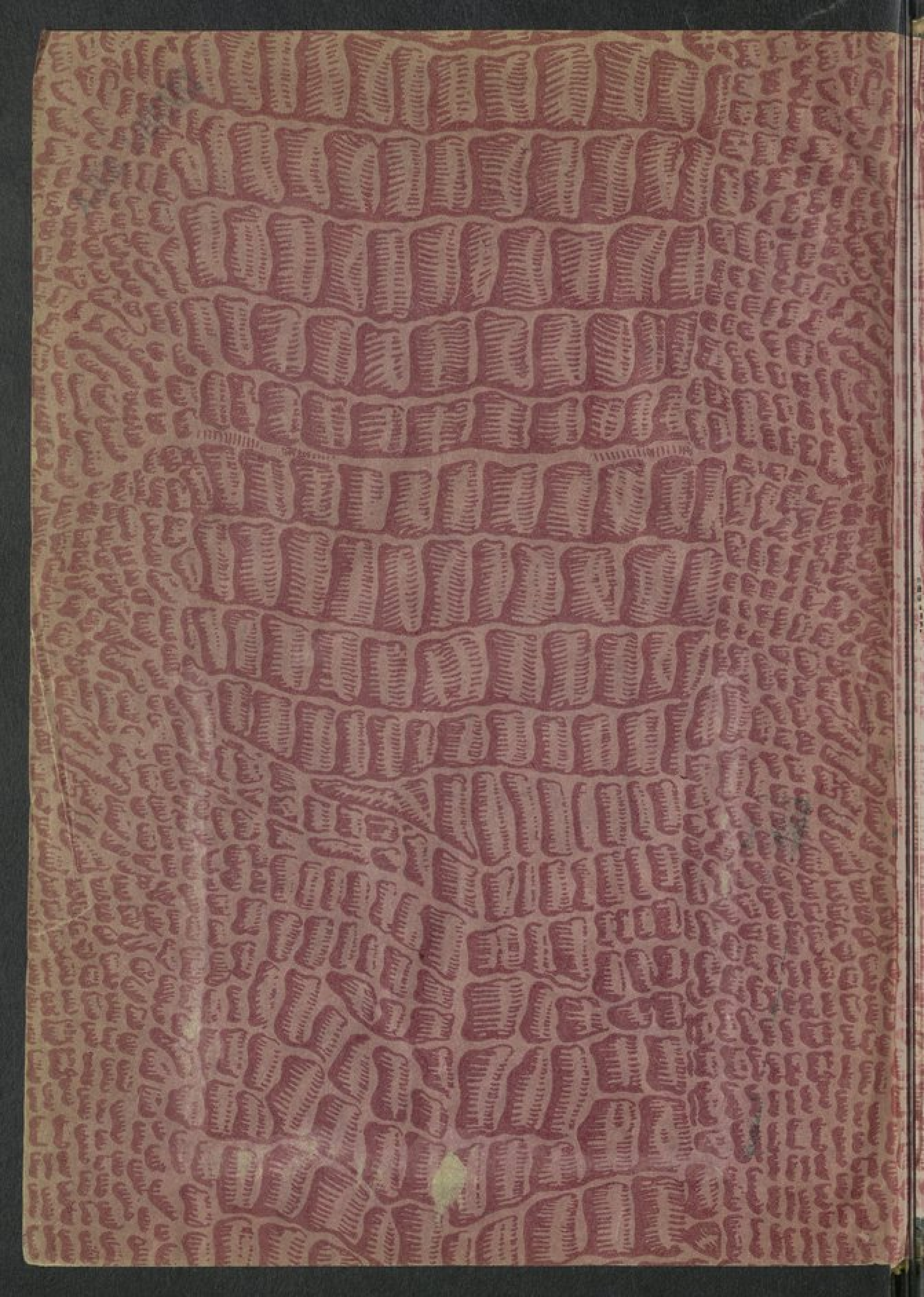



UNIVERSITY
LIBRARY



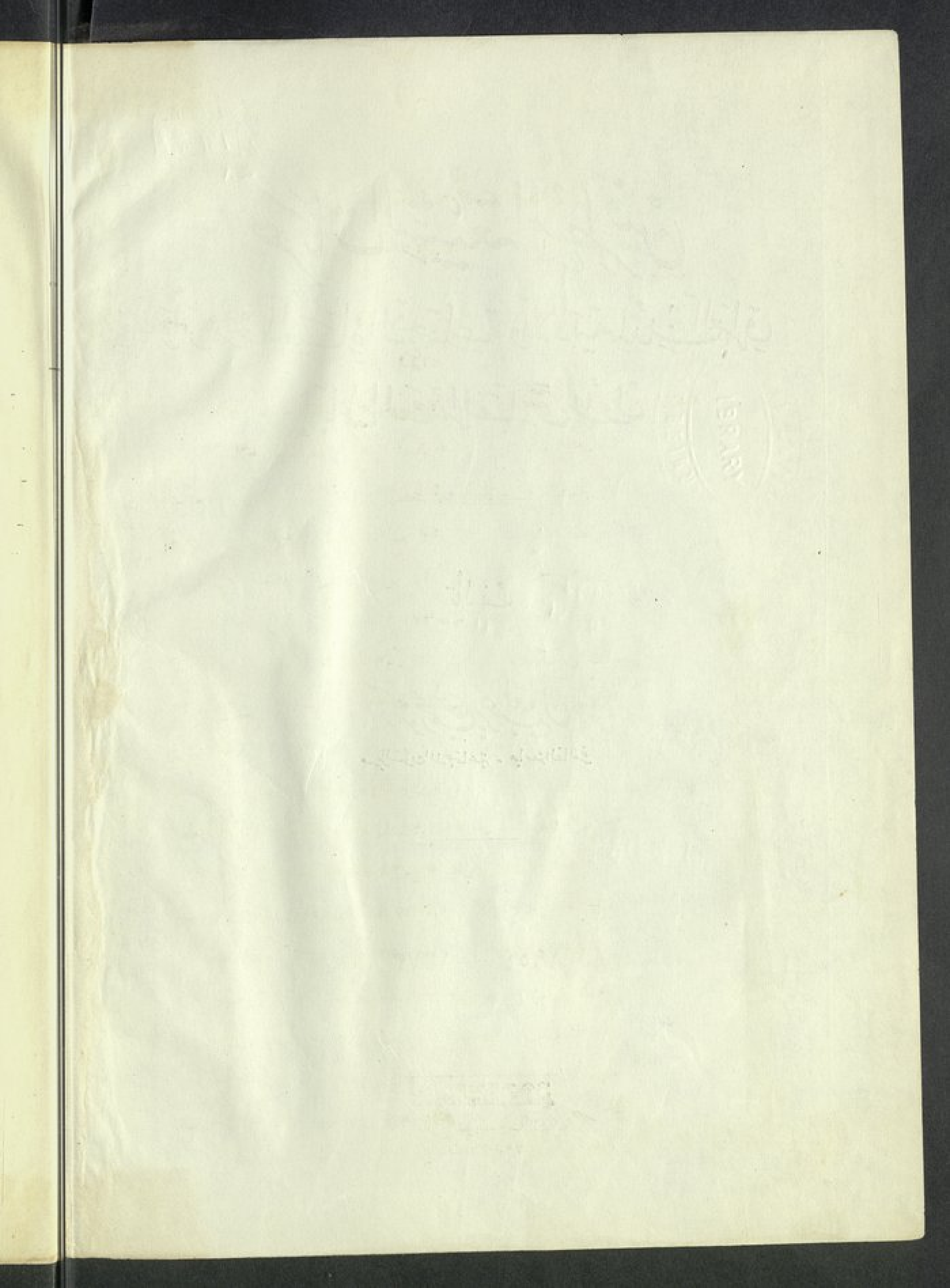
حركات الشيعة المتطرفين
وأثرهم في الحياة الاجتماعية والأدبية لمدن العراق
إبان العصر العباسي الأول

تأليف

دكتور محمد جابر عبد العال
مدير الشئون الاجتماعية - جامعة القاهرة

١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م

مطبعة السنة المحمدية
١٧ شارع شريف باشا الكبير
ت ٧٩٠١٧



موضوعات البحث

موضوعات البحث — الصفحة

موضوعات البحث | الصفحة

موضوعات البحث — الصفحة

موضوعات البحث	الصفحة
الفصل الثانى ـ رد فعل الدعوة إلى اللذة	٣٢٤ـ٣٤٠
حركة المقاومة بالأحاديث ٣٢٤ ـ ٣٢٦ الفوضى فى بغداد ٣٢٦ ـ ٣٢٧ قيام حركة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ٣٢٨ حركة خالد الدرويش وسهل بن سلامة ٣٢٨ ـ ٣٣٦ حركة أحمد بن نصر الخزاعى ٣٣٦ ـ ٣٤٠	
واسط والمذاهب الكوفية المتطرفة	٣٤٠ـ٣٤١
خاتمـــة	٣٤٢ـ٣٤٣

تصويب

الخطأ	الصفحة	السطر	التصويب	الخطأ	الصفحة	السطر	التصويب
القدمام	٣	١١	القدماء	حماد عجر	١١١	٨	حماد عجرد
و بدأ	٥	١٥	و بدا	الشاذه	١١٢	٤	الشاذة
الأشعت	١٠	٢	الأشعث	استمتعوا	١١٢	١١	استمعوا
المعارضه	١٠	٣	المعارضة	علبه	١٣٤	١٦	عليه
82a	١٦	هامش ٢٣	28a	المتمثلان	١٣٩	٢١	المتمثلين
يصيحوا	٢٧	٧	يصيخوا	يصحبهم	١٥١	٢٠	يعجبهم
وأعنتهم	٢٨	٩	وائتمنتهم	هنالا	١٥٩	١٨	هناك
الإرشارة	٢٨	١٠	الاشارة	والاشاد	١٦٩	٥	والارشاد
المتطرفين	٣٠	١١	المتطرفون	ذلة	١٧٠	١٧	زلّة
متة	٣١	٨	منه	غير مم	١٧٣	٩	غيرهم
فوق الشية	٤٧	٤ الهامش	فرق الشيعة	اضطواب	١٧٥	٢	اضطراب
الرافض	٥٥	٧	الرافضة	الدعاية	١٨٠	٨	الدعابة
تناه لها	٥٥	٩	تناولها	الجاليتان	١٨٠	١٥	الجاليتين
التصارى	٦٣	٢	النصارى	Miscellary	١٩٣	الهامش	Miscellany
علىّ	٦٣	٤	عليّ	فأحاره	٢٠٠	١٢	فأجاره
يين	٦٨	١٠	بين	محتشتم	٢٠١	٨	محتشم
(٢)، (٣)	٧٥	الهامش	(١)، (٢)	فطاما	٢٠٢	١٣	عظاما
يبيح	٧٧	٩	يبيح	الدراسا	٢٠٥	٩	الدارسا
ألفو	٨١	١٦	ألفوا	و يبدو	٢١١	٩	و يبدو
—	١٠١	١٠	أمرها (تضاف آخر السطر	موسى	٢١٤	١	عيسى

الخطأ	الصفحة	السطر	التصويب	الخطأ	الصفحة	السطر	التصويب
المباحث	٢١٩	١٤	الباحث	إلى	٢٨٠	٢	إن
المقفع	٢٢٠	١٢	ابن المقفع	الكوخ	٢٨٠	١٥	الكرخ
تقول	٢٢٣	٣	تقول	دعوتة	٢٨٣	٣	دعوته
بظفر	٢٤٩	١٢	يظفر	الصادر	٢٩٤	١٠	الصادرة
عن	٢٦٤	١٤	على	يضرب	٣٠٠	١٥	بضرب
الثورة	٢٦٧	٢١	الثروة	المنزل	٣٠٤	١٥	النزل
حماد الرواية	٢٦٨	١٨	حماد الراوية	نبذات	٣١١	٢	تبذلت
العمرية	٢٧٤	١٠	المعمرية	لجعد	٣١٦	٢	الجعد

المقــدمة

خرج العرب من صحرائهم غزاة فاتحين باسم دين الإسلام ، يثلون العروش ويخضعون أمماً قديمة لها تاريخ وماض عريق فى الحضارة والتقاليد والسؤدد ، ونجحوا فى ذلك نجاحاً رائعاً ، جعل منهم سادة لهذه الأمم التى غُلبت على أمرها ، جُمعوا تحت راية الإسلام ، وانطلقوا يحملون سيوفهم باسمه ، فبوأهم فى الدنيا مكانة رفيعة ، ونقلهم من ذل الفقر والعوز إلى عز الجاه والسلطان ، وأخرجهم من فيافى الصحراء وشيحها وقيصومها ، إلى أرض غناء تجرى فيها الأنهار ، وتزدهى بأنواع من المزروعات والثمار ، فكان لهذا التطور فى حياة العرب الذى جاء بفضل الإسلام أثر خطير فى نفوسهم ، جعلهم ينظرون إلى هذا الدين على أنه منشىء هذه الدولة ، التى قامت باسمه ، وثمرة من ثماره الشهية العاجلة ، وغلبت على بعضهم ـ وهم الشيعة ـ العاطفة الدينية ، فقادتهم إلى أن ينظروا إلى اختيار رأس هذه الدولة ـ أو اختيار الإمام كما يعبر القدماء ـ على أنها مسألة تمس الدين من قرب ، وأن أحق الناس بها هو علي كرم الله وجهه ، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوج ابنته التى أنجب عليّ منها من البنين ماجعل شجرة النبوة حية نامية ، وحاول الشيعة أن يحققوا ما كانوا إليه يطمحون ، ولكن تدخل الأهواء والعواطف نأى بالمسلمين عن جادة الصواب ، وفرقهم شيعاً وأحزاباً ، ثم دعى الشعر إلى الميدان فراح يرضى أصحاب المذاهب المختلفة ، ويتلوّن بميولهم ونزعاتهم المذهبية ؛ اتصل الشعر من ذلك الحين بالحياة الدينية ، ينظر إليها ويستقى من مناهلها ، وظلت هذه العلاقة بين الشعر وبين المذاهب الإسلامية قائمة ، حتى قام المتشيعون المتطرفون بحركتهم السرية الخطيرة فى القرن الثانى الهجرى ، التى يريدون بها أن يوجهوا الحياة الإسلامية فى الطريق الذى يميلون إليه ، ومن هنا

تبدو أهمية دراسة التشيع المتطرف واستخراج خفاياه ، فهمًا للحياة الإسلامية العامة ثم الأدبية بخاصة .

ودراسة تاريخ الشيعة المتطرفين جزء من تاريخنا ، يجب أن لانحجم أمام أية عقبة فى سبيلها ، وعلينا أن نمضى فى كشف ما اكتنف تاريخنا السياسى أو الأدبى أو الاجتماعى من غموض ، حتى يستضىء الحاضر بما حدث فى الماضى ؛ وللمستشرقين فى ميدان دراسة الشيعة وبخاصة الغلاة منهم جهد مشكور ، وهو جهد قد بذل فى دراسة مذاهبهم ، وأثر حركاتهم التى قاموا بها فى السياسة ، وسائر نشاطهم وجدهم العجيب فى نشر عقائدهم ، وان كانت أبحاثهم تشهد لهم بالعمق وسعة الأفق ، إلا أن كثيراً من المسائل لم تتناولها دراستهم ، ولا تزال غامضة فى حاجة إلى مزيد من عناية ، وإلى جهد يبذل للكشف عنها . حقاً أن البحث فى موضوع الشيعة المتطرفين شاق مضن ، ويحتاج إلى صبر يتجدد كلما غمضت المسائل ، لأن الباحث أمام حركة سرية شهدها القرن الثانى الهجرى يحجبها الظلام ، وتدبر فى الخفاء ولا يدرى عنها العالم الا قليلاً ، وهذا القليل الذى حفظه لنا النقلة ، والذى لابد من جمع أشتاته ، من مختلف المصادر التاريخية والأدبية والفقهية والجغرافية ليضاف إلى ما كتبه مصنفو كتب الفرق ، يلقى ضوء يهدى إلى تبيان الأمور ، ويعطى صورة وإن كانت إجمالية ، إلا أنها تمكن الباحث من أن يستنطق الحوادث ، فيفهم الأهداف والأغراض . وهذا البحث الذى أقدمه ، إنما هو مساهمة فى هذا الميدان ، وإنى لأرجو أن تكون محاولة مثمرة لها ما بعدها .

تطور عقائد الشيعة المتطرفين من فكرة تصور الدفاع عن حق آل البيت فى الخلافة ، إلى اتخاذ هذا البيت الكريم وسيلة لنشر مذاهب دينية خاصة ، تهدف إلى أغراض سياسية يحار أمامها المسلم ، كل ذلك لمن الأمور التى حاول الكتاب المحدثون دراستها ، ولكنهم يختلفون أهى اليهودية أو غيرها التى اقتحمت

مسرح الحياة الإسلامية بادىء ذى بدء ، وقدمت للشيعة المتطرفة الغذاء الذى جعلهم يقفون من الإسلام هذا الموقف ، فهذا فان فلوتن وجمهرة من الباحثين الغربيين والشرقيين ، يرون فى اليهودية المورد الذى أمد هؤلاء المتطرفين فى أول الأمر بالنظريات والعقائد ، بينما فريدلندر وكايتانى يحاولان أن يثبتا أن الدور المنسوب إلى عبد الله بن سبأ – الذى ترد إليه نشأة التطرف فى التشيع – إنما هو من اختلاق المتأخرين ، يريدان بذلك أن يبطلا قول مخالفيهم ، الذين يذهبون إلى أن حركة التشيع الثورية أقامتها اليهودية حرباً على الإسلام ، وأن اليهودية بريئة مما نسب إليها . فإذا انتقلنا من هذا الخلاف ونظرنا إلى عقائد الشيعة المتطرفين أنفسهم ، وما تقضى به طبائع الأشياء من تدرج وتطور ، والأدوار التى مر بها هذا التطور حتى بدت له مذاهب دينية لها تعاليم ، ترسم لأتباعها منهج حياتهم ، وطريقة تعبدهم ، وانقسام المجتمع الشيعى نفسه إلى طوائف ، تعتنق هذه العقيدة أو تلك ، رغم مشابهة بعضها بعضاً ، أو اعتماد واحدة منها على أخرى ، رأينا أنفسنا أمام مشكلات تنتظر البحث ، وإنا لمضطرون إلى المساهمة فى دراستها ، لأنها هى التى مهّدت لهذه العقائد المتطرفة أن تعمل فى الحياة الأسلامية بمظاهرها المختلفة ، وبدأ انتصارها فى الحياة الأدبية ، إذ نقلتها – صدر الدولة العباسية – من طور إلى طور نقلا يعد خطوة هامة فى تاريخ الأدب العربى .

ظهر الشيعة المتطرفون فى الكوفة ولا عجب ، إذ أنها كانت مقر المعارضة السياسية أيام بنى أمية ، ويتطلع أهلها إلى نصرة من يظاهر علياً كرم الله وجهه ؛ استغل هذه الظاهرة المؤملون فى إيقاد الثورة ، والطامعون فى الغلبة ، فقام فيها دعاة من الموالى باسم التشيع ، ينشرون مذاهب يبدو فيها احياء لديانات قديمة ، غلبت على أمرها ، وتضاءلت مستقرة فى أرض السواد من العراق ، بعد أن استطاعت أن تفيض على اليهودية والنصرانية فى أرض العراق ، من التعاليم ما أخضعهما لطابع هذا الأقليم . وساعد على ذلك أن كانت الكوفة بجوار هذه

الأرض التى يصفها الباحثون فى الديانات السامية بأنهـا كانت مقراً لديانات مختلفة ، منها ما هو سامى ومنها ما هو عريق فى القدم قبل ظهور هذه الديانات السامية . كانت الكوفة مسرح الثورة على الدين الحنيف ، وعلى أرضها نمت وترعرعت عقائد ، نشرها دعاة باسم التشيع ، وتطاير شررها خفية إلى بعض بقاع العالم الإسلامى . هذا الوضع الذى أحدثه المتطرفون من الموالى فى مدينة الكوفة ، وما انتشر فيها من آراء أو عقائد ، يجعلها هدف الباحث يتطلع إليها لتكون بيئة الدرس فى موضوع التشيع ، حتى نرى ما أمدت به غيرها ، من مدن العراق فى العصر العباسى الأول ، وأثر ذلك فى الحياة الأدبية .

تعود الناس أن يتحدثوا عن مصادرهم التى اعتمدوها فى بحثهم ، وربما لا تكون مصادرى فى حاجة إلى تقديم خاص ، وعلى الرغم من ذلك أريد أن أشير إلى أنى جمعت فى ذلك ، بين ما كتب الشيعة وما كتب أهل السنة ، التمس الحقيقة جهدى ، وأنى لحريص فى التناول حين ألجأ إلى هذين الينبوعين ، لأننا نعلم أن من بين أهل السنة من تعصب على الشيعة ، وأمعن فى ذلك امعاناً جعله يرميهم دون تثبت باتهامات يتبين لذى العين البصيرة أنها باطلة ، أملاها التعصب والتشاحن المذهبى ، الذى تقضى به طبيعة الخلاف الدينى ، كما نعلم أن من أهل الشيعة من غلا فى هواه وجاوز الحد ، وجمع دون تثبت فملأ كتبه بأساطير تنفيها النظرة الصادقة ، ولعل هذا هو الذى حدا بمرجليوث فى دراسته للخطابية ، أن ينبه إلى عدم الثقة فيما كتب الكشى فى كتابه أخبار الرجال . وعلى ذكر مصادرى أوجه النظر إلى أنى استعنت بمخطوطة فى المتحف البريطانى (رقمها Add:22376) منسوبة إلى هشام بن محمد بن السائب الكلبى المتوفى سنة ٢٠٤ هـ معروفة باسم الأنساب ، ويعتقد بعض الباحثين أنها النسخة الأصلية ، أى أنهـا وصلت إلينا سليمة ، وهذه المخطوطة منسوخة فى عصر متأخر ، وهى تحوى أخباراً ذات فائدة محققة لمؤرخى الأدب والسياسة والاجتماع ، وأرجو الله أن يعيننى على

نشرها ، لأنى لا أشك فى نسبتها إلى صاحبها . وفى سبيل الدراسة قرأت كثيراً من المخطوطات ، استعنت بواحدة منها هى « كتاب الخراج وصناعة الكتاب » منسوبة إلى قدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣٣٧ ﻫ . محفوظة فى المكتبة الأهلية بباريس (برقم Arabe 5907) ، وذلك بجانب الكتب العديدة المطبوعة .

ولا أستطيع أن أفرغ من هذه المقدمة ، دون أن أوجه الشكر خالصاً للقائمين على الأمور فى المكتبات التى زرتها ، وانتفعت بها أحسن النفع ، أخص بالذكر مكتبة مدرسة اللغات الشرقية والأفريقية ـ جامعة لندن ، المتحف البريطانى ، مكتبة الهند بوزارة المستعمرات البريطانية ، مكتبة المركز الإسلامى الثقافى ، كل ذلك بلندن ، ومكتبة بودليان بأكسفورد ، والمكتبة الأهلية بباريس ، ومكتبة المدرسة الأهلية للغات الشرقية الحية بباريس أيضاً .

ويطيب لى أن أختم هذه المقدمة ، بتقديم الشكر الصادق لأستاذى الكبير أمين الخولى ، الذى أشرف على هذا البحث ، وكان لنقده وتوجيهه أعمق الأثر فى نفسى ، ولروحه الجامعية ومنطقة القوىّ النفّاذ ما أنار السبيل أمامى ، وهدانى إلى سلوك طريقى المرسوم ، وبعث فى قلبى الرغبة فى السير قدماً إلى الهدف المنشود ، والله أسأل أن يجزيه عنّى خير الجزاء ؟

١٥ مايو سنة ١٩٥٤ — محمد جابر عبد العال

(من الأمناء)

الباب الأول

الفصل الأول

بدء التطرف الشيعي وتطوره في الكوفة

نريد أن نتحدث هنا في إيجاز عن بدء التطرف في عقيدة التشيع ، وما نالها من انحراف قبل أن تلعب عقائد المتطرفين دورها على مسرح الكوفة في القرن الثاني الهجرى ، ممهدين لذلك بما يعطى فكرة عامة عمن يعيشون في هذا العصر .

منزلة الإسلام عند بعض أهل الكوفة

لم يكد الدين الجديد الذى أتى به محمد صلى الله عليه وسلم يستقر حتى ظهر المتنبئون في حياته ، هبّت فتنة في الجنوب من بلاد العرب ، إذ ادعى النبوّة باليمن الأسود العنسى ، وتابعه قومه مؤمنين بداعيتهم مؤثرينه على رسالة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واشتد ساعد هذا الدعى ، وغزا نجران ودانت له كما دانت له مذحج ، ولكن المخلصين لدين الله في هذه البقعة من الجزيرة العربية استطاعوا قتله غيلة ، و بذلك انتهى أمره ، كما تنبأ مسيلمة الكذاب باليمامة ، وانضمت إليه بعض القبائل . ولم تكد هذه القبائل التى ثارت تسمع بوفاة الرسول ، حتى علا لهيب الثورة واشتد سعيرها ، وشملت كثيراً من القبائل ، ولكل منها عذر تبديه ، فهذه تمنع الزكاة وتلك تتبع دعيا قد أتى لهم بقرآن ينافس القرآن ، الذى أنزله الله على النبى القرشى ، وأخرى ترفض الإسلام جملة وتفصيلا ، وهم جميعاً عازمون على أن يصونوا استقلالهم الذى ألفوه في الجاهلية بالسيف . ظهر المتنبئون وآمن

بهم قومهم لاعلى أنّ ماجاءوا به الحق المبين ، و إنما على سبيل العصبية[1] . و إن عناد هذه القبائل وثباتهم أمام جيوش المسلمين ، ليصور ما فى نفوسهم من منزع إلى التحلل من الإسلام ، وما فى قلوبهم من هوى نحو أقوال أصحابهم ، يدل على رضاهم واطمئنانهم إلى تعاليمهم التى بذلوا فى سبيلها دماءهم .

خلف أبو بكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذه الطعنات القاسيات تصوب نحو وحدة الجزيرة العربية والدين الجديد ، ولكنها لم تجد فيه خوراً يحول بينه و بين توطيد سلطان الإسلام ، فتجرد لها وأصر على أن تثوب القبائل إلى رشدها، وتعود إلى الإسلام راغمة أو راضية ، قابل الموقف بقلب المؤمن الثابت الجنان ، وظهر بمظهر القوى الصلد الذى لا يأبه للحوادث و إن كانت جساماً ، فسير الجنود إلى كل بقعة ظهر فيها التحلل من الإسلام أو من بعض فروضه ، أرسل المهاجر ابن أبى أمية بجيوش استردت صنعاء ، وأسرت زعماء الفتنة ، ثم ذهبت إلى كندة بحضرموت لتنضم إلى جيش عكرمة بن أبى جهل ، فحاربوا كندة حتى غلبوهم وأسروا الأشعث بن قيس سيد كندة[2] . والقارىء لحركة الردة يبدو له أمران :

١ ـ إن أعند الثائرين كانوا باليمامة وفى الجنوب حيث اليمن وحضرموت .

٢ ـ إن الثائرين أرغموا بالقوة على الخضوع للدولة وللإسلام .

هذان الملحظان ضروريان لبحثنا هذا الذى نتصدى له ، ولهما خطرهما العظيم فى دراسة الكوفة ، ذلك لأن من هذه القبائل التى ثارت زمن النبى وأبى بكر وعرفت بعنادها للاسلام ، من استقر فى الكوفة واتخذوها موطناً ، بعد أن فرغوا من القتال الذى وجههم إليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، نلقى منها كندة وعلى رأسها الأشعث بن قيس وهى القبيلة التى غلبت على أمرها ، وخضعت للإسلام بحد الحسام ، ونزل معها كثرة يمنية بالمصر جعلها تسوّد كبير كندة ، استقر بالكوفة

(١) الطبرى سنة ١١ ص ١٨٩٣ و ص ١٩٣٧ طبعة أوروبا .

(٢) الطبرى سنة ١١ ص ٢٠٠٠ ـ ٢٠١٠ ط . أوروبا .

من اليمنية والمضرية مايدل سلوكها على أنها من هذه القبائل التى لم ترض بالإسلام ديناً ، يدلنا على ذلك تمردها وميلها للمعارضة وتحفزها للثورة ، وجعلها الأشعث بن قيس الذى قاد المعارضة للإسلام زعيم المصر ، فإذا أضفنا إلى هذا ، ماروى أن ابن مسعود أمر بقتل عربى ، لأنه يؤمن بمسيلمة الكذاب [١] ، قويت الشبهة لدينا فى أن بعض أتباع هذا الدعى سكن الكوفة ، وبذلك كله يمكننا أن نرجح أن الإسلام ، لم يكن قوياً فى قلوب بعض أهل الكوفة ، وأن ذلك من الأسباب التى جعلت بعض الكوفيين يرهفون السمع لبعض أصحاب الديانات الأخرى .

تطور المجتمع بالكوفة

اختطت القبائل فى الكوفة ، واتخذت كل منها موضعاً ، وأخذت الكوفة تزيد بسكانها على حساب المدن المجاورة ، وخاصة من الحيرة النصرانية التى تكثر حولها البيع والصوامع ، وسكانها قوم إما عرب أو ألفوا العرب [٢] . تضخمت المدينة على حساب المدن والقرى المجاورة ، ولم تقتصر الهجرة على أهل المنطقة المجاورة ، بل وفد على الكوفة أيضاً أربعة آلاف من رعايا الفرس عرفوا بين أهلها بحمراء الديلم [٣] . هذه الهجرة قد جلبت إلى المدينة أناساً مختلفين فى عقائدهم وفى مدنياتهم ، واختلاط مثل هؤلاء بقوم لم يتمكن الإسلام فى قلوبهم ، أمر له خطورته ، انتهى إلى ماشكا منه سعيد بن العاص الوالى فى كتابه إلى عثمان رضى الله عنه قال « إن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم وغلب أهل الشرف منهم البيوتات والسابقة والمقدمة والغالب على تلك البلاد روادف ردفت وأعراب لحقت حتى ماينظر إلى ذى شرف ولا بلاء من نازلتها ولا نابتتها [٤] » . كان لهذا

(١) الخراج ـ مخطوطة لجعفر بن قدامة ورقة ١٣٠ .
(٢) راجع ماذكره المسعودى فى مروج الذهب جـ ١ ص ٢١٨ ـ ط . باريس
(٣) البلاذرى ـ فتوح البلدان ص ٢٨٩ القاهرة سنة ١٩٠١ .
(٤) الطبرى سنة ٣٠ ص ٢٨٥٢ . ط . أوروبا .

الاختلاط أثره الواضح فى أخلاق أهل الكوفة لحظه حذيفة بن اليمان أيضاً فبيّنه فى خطاب له قائلا « يامعشر أهل الكوفة إنكم أول مامررتم بنا كنتم خيار الناس فغيرتم بذلك زمان عمر وعثمان ثم تغيرتم وفشت فيكم خلال أربع بخل وخبّ وغدر وضيق لم تكن فيكم واحدة منهن فنظرت فى ذلك فإذا ذلك فى مولديكم فعلمت من أين أتى فإذا الخب من قبل النبط والبخل من قبل فارس والغدر من قبل خراسان والضيق من قبل الأهواز[١] » هذا التحول السريع يدل على أن الحياة فى الكوفة تتأثر بالبيئة التى تحوطها ، و بالقوم الذين يعاشرونهم ، وأن عرب الكوفة ليسوا من قوة الأخلاق حتى يفرضوا صفاتهم على هؤلاء الطارئين ، بل هم إلى الاستجابة لهم أقرب من كراهيتهم لأخلاقهم . وهذه مسألة لها أثر خطير فى تاريخ الكوفة ، ولعلها أحد الأسباب الرئيسية التى جعلت أهلها يستمعون إلى مايلقى عليهم من هؤلاء الناس الغرباء عن الإسلام فيؤمنون به .

الكوفة والسياسة

حين بدت فى أفق السياسة مسألة أحقية على كرم الله وجهه للخلافة ، وقف أهل الكوفة إلى جانب على رضى الله عنه ، و يروى ابن السائب الكلبى أن عمرو ابن زرارة بن قيس (من بنى قيس بن سعد من النخع) كان أول خلق الله تعالى فى خلع عثمان بالكوفة ، ومبايعة على بن أبى طالب عليه السلام[٢] . والمتتبع لهذه الفترة من التاريخ الإسلامى يرى أن أغلب أهل الكوفة أظهروا رضاهم عن خلافة على ، وهذا ماحدا به رضى الله عنه أن ينتقل إليهم بعد مقتل عثمان ، وأن يحكم السيف بينه و بين معاوية بن أبى سفيان فى مصير أمر الخلافة . اتخذ الكوفيون خطوة إيجابية فى سبيل نصرة قضية علىّ فعقدت اليمنية والربعية[٣] حلفاً

(١) ابن مسكويه — تجارب الأمم — ص ٤٣٥ . ليدن سنة ١٩١٣ .
(٢) ابن الكلبى — الأنساب ورقة ٤٤ .
(٣) المصدر السابق ورقة ٢٥ .

على نحو ما كانوا يفعلون في جاهليتهم . وأنشأوا بينهم و بين جيرانهم من أهل السواد علاقات صداقة تحمى ظهورهم . ذهب أهل الكوفة إلى صفين ، إلا أن خديعة التحكيم ، التي لعب فيها الأشعث بن قيس دوراً خطيراً ، جعلتهم ينكلون ويجبرون علياً رضى الله عنه على قبول التحكيم . قاتل الكوفيون خصوم عليّ ، كما ذهبوا معه لقتال الخوارج إلا أننا نلاحظ فى هذه الحروب التى دعا فيها عليّ الكوفيين إلى القتال ، أن الكوفيين يشتعلون حماساً حين ذهابهم إلى ميدان الوغى ، فإذا ما طال القتال أو رأوا بادرة للتخلص منه فتر عزمهم[1] ، والهتهم الأهواء عن الطريق الذى وجهوا إليه .

فى هذه الحروب التى حرّض فيها عليّ على القتال ، انضم إلى جيشه قوم من أهل الكتاب ، كما يذكر اليعقوبى فى واقعة الجمل من أن النصارى قاتلوا مع عليّ ، وأنه لم يميّز بينهم و بين المسلمين فى العطاء ، وسئل عن ذلك فقال : « قرأت ما بين الدفتين (يقصد القرآن) فلم أجد لولد إسماعيل على ولد اسحاق فضلا[2] » . هذه الزمالة فى القتال جعلتهم يأنسون بأهل الكتاب ، و بخاصة أنهم من جنسهم أو مألوفون لهم ، ولهذا أثره فى تطور العقيدة التى سنتناول أمرها فيما بعد . ولا يغيبن عن البال أن العقيدة النصرانية أو اليهودية قد طعمت بالأديان المتوطنة فى العراق ، فلبست ثوباً غير اللباس الذى أتت به العراق .

قسمت السياسة أهل الكوفة قسمين : قسم ظاهر قضية عليّ وهم أغلب سكان المصر ، وقسم قلّة وقفوا إما على الحياد ، و إما مع بنى أُميّة ، وظهر المجتمع حزبين شيعة وسُنّة ، وظل هذا الانقسام قروناً . قال صاحب الأغانى فى وصف سماك بن مخرمة الأسدى ومسجده « وكان عثمانياً وأهل تلك المحلة إلى اليوم كذلك فيروى أهل الكوفة أن عليّ بن أبى طالب صلوات الله عليه لم يُصَلِّ فيه وأهل

---

(١) المسعودى - مروج الذهب - ج ٤ ص ٤١٨ ط باريس

(٢) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٢١٣ ط . أوروبا

الـكوفة إلى اليوم يجتنبونه[1] » وساعد على هـذه الفرقة إنشاء القبائل للمساجد الخاصة فى المناطق التى اختطوها ، وظل المسجد الأول الذى أُسس مع الـكوفة المسجد الجامع .

انتصر معاوية على علىّ ، وأُجبر الـكوفيون على الخضوع للسلطان الأموى ، فانطوت صدور المتشيعين على بغض بنى أميّة ، ولـكنهم لم يكونوا يستطيعون الجهر به ، مختلفة حالهم باختلاف الوالى الذى يحكمهم ، وظلوا على ولائهم للبيت العلوى وحقه فى الخلافة ، ولم يعترفوا بتنازل الحسن لمعاوية عن هذا الحق ، وظلوا كذلك حتى دعوا الحسين بن على رحمه الله إليهم ، معلنين عزمهم الوطيد على نصره أو القتل فى سبيل حقه ، ولـكنهم حين وصل إليهم الحسين ورأوا سيف ابن زياد يبرق بالموت نكص أغلبهم ، وبقى السبط فى قلة لا حول له ولا طول ، شاهراً السيف حتى قتل شهيداً ، وذهب دمه نتيجة الغدر ، ويلاحظ أن فعلهم مع الحسين كان على مثال فعلهم زمن أبيه وهذا يدعونا إلى التساؤل ، ألم تكن هناك أيدٍ خفية تثبط الهمم ؟ وما بالهم يهيجون ثم يفترون ؟ ألا يوجه نظرنا إلى ذلك طائفة التوابين ، الذين عرفوا خطأهم فى عدم نصرة الحسين فوهبوا أنفسهم تكفيراً لهذا الجرم ؟ وجدّوا فى ذلك جدًّا ينبىء أنهم أيقنوا أن ما أُلقى فى روعهم لينكصوا خطأ يجب أن يكفروا عنه بدمائهم ؟ من المؤكد أن الخوف لم يكن السبب فى ذلك ، لأنهم قوم كما عرفهم التاريخ شجعان ، والجبن عند العربى صفة لا يطيق أن يوصف بها ، ومن الخطأ أن نظن أن هذا النكوص كان من مكائد بنى أميّة ، لأنهم لا يسمحون لأموى أن ينخرط فى جماعتهم ، ولأن دعوة الحسين كانت سرية ، ولم يكن هناك وقت لبنى أميّة حين انكشف الأمر أن يبيتوا الدسائس ، أظن أن الأمر كان بتدبير ممن يبغض الإسلام والمسلمين ، من هؤلاء الموالى الذين فى صفوف الشيعة ، لتتمكن الفرقة ويستقر الحقد بين الطائفتين الشيعة والأموية ،

(١) أبو الفرج الإصفهانى ـ الأغانى ـ ج ١٠ ص ٨٠ ـ الساسى . القاهرة ١٣٢٣ هـ

حتى لا يكون هناك سبيل إلى السلام بينهما . ويعتبر مقتل الحسين رحمه الله حادثاً خطيراً لا فى السياسة وحدها بل فى تطور عقائد الشيعة أنفسهم ، إذ اتخذه نهازو الفرص فى الكوفة وسيلة لاقتناص عقولهم وقلوبهم وألا نوهم لقيادتهم ، وكان الدعامة الكبرى التى جعلت المختار بن أبى عبيد أن يظهر ويوطد سلطانه بمعونة القائد الشهير إبراهيم بن الأشتر ، إذ أثارت الدعوة إلى الانتقام لدم الحسين حفيظة المتشيعين أجمعين ، وأعماهم الغضب وحب الانتقام أن يتحققوا من اخلاص الدعوة ، وتجاهلوا أن المختار دعى يمخرق عليهم بكرسيه ، الذى وضعه لهم ليقاتلوا من حوله ؛ بلغ الأمر حدا أن كان أول من سدن هذا الكرسى ذلك الفقيه المعروف موسى بن أبى موسى الأشعرى ، ولما عوتب فى ذلك تنبه لما أقدم عليه فانسحب ، وفى ذلك يذكر الطبرى أنه « لما جىء بالكرسى كان أول من سدنه موسى بن أبى موسى الأشعرى . وكان يأتى المختار أول من جاء ويحف به لأن أمه أم كلثوم بنت الفضل بن العباس بن عبد المطلب ثم انه بعد ذلك عتب عليه فاستحيا منه فدفعه إلى حوشب البرسمى فكان صاحبه حتى هلك المختار[١] » . فإذا كان هذا الفقيه قد انخدع فكيف يكون إذن حال الباقين من العامة ؟ ! .

يجدر بنا هنا أن نتناول أمر أهل الكوفة وموقفهم إزاء المختار ، لأن اتجاه القبائل نحوه ونحو المبادىء التى أثيرت فى زمنه كان عاملا خطيراً فى تكييف حياة المجتمع الشيعى وعقائد الكوفيين ، كان كثرة الموالى يتفانون فى الاخلاص وعلى رأسهم كيسان ، مثلهم فى ذلك مثل بجيلة وهمدان وكندة ، أما غيرهم من العرب فقد آزره منهم من آزره ، ولكن لم يكونوا فى مثل حماس هذه القبائل ، وشمّر له عن ساعد الخصومة العرب الذين كانوا يقطنون المنطقة المعروفة بجبانة السبيع ، والذين كانوا يقطنون منطقة الكناسة وغالب هؤلاء مضريون أو عثمانيون ،

---

(١) — الطبرى — سنة ٦٦ ص ٧٠٦ — ط أوروبا .

وتوعدهم المختار قائلاً « لأقتلن أزد عمان وجل قيس عيلان وتميما أولياء الشيطان حاشا النجيب[١] ظبيان » . والمتأمل فى تاريخ هذه القبائل التى عادت المختار يراها قد رفضت الغلو والتطرف ، إذ آثر الأزد وهم يمنية أن ينحازوا إلى زيد بن علي فكانوا المعتدلين من الشيعة ، وظل أهل السنة وغالبهم من مضر محتفظين بمذهبهم قروناً .

كان سلطان المختار فى الكوفة رهيباً ، اضطر عامر بن شراحيل الشعبى الفقيه الشهير أن ينجو بعقيدته ، هارباً إلى المدائن ، أما غيره فقد فروا إلى البصرة منضمين إلى مصعب بن الزبير ، وقاتلوا فى صفوف جنده حين تجرّد لقتال المختار ، وكان حقدهم على مواطنيهم من أهل الكوفة أنصار المختار عظيما يفوق كل حقد كان يثيره المختار فى النفوس ، أما أنصار المختار أنفسهم فقد كانوا حزبين فى واقع الأمر وإن كانوا وحدة فى الظاهر : حزب العرب الذين أنفوا أن يتساووا مع الموالى ويذكر وصفهم الطبرى قائلاً « ولم يكن فيما أحدث المختار عليهم شىء هو أعظم من أن جعل للموالى من الفىء[٢] نصيباً » مستجيبين لطبيعتهم البدوية التى تأبى أن تنزل إلى مستوى النبط ؛ والحزب الآخر وكان أغلبه من الموالى تحت زعامة أبى عمرة كيسان مولى بجيلة ، الذى كان رئيس شرط المختار وعرفوا بالكيسانية كما عرف الآخرون فيما يظهر بالمختارية[٣] .

تولى الحجاج أمر العراق واستطاع بما أوتى من عزم وحزم أن يتغلب على

(١) الكامل للمبرد ج ٣ ص ١٥٨ القاهرة سنة ١٣٣٩ هـ

(٢) الطبرى سنة ٦٦ ص ٦٥٠ ـ ط . أوروبا .

(٣) ناقش الدكتور حسن إبراهيم حسن فى كتابه تاريخ الإسلام السياسى هامش ج ١ ص ٤٣٥ إلى ص ٤٣٧ الخلط الذى وقع فيه القدماء والمحدثون فى المختارية والكيسانية وأورد النصوص التى تثبت أن الكيسانية والمختارية فرقتان متميزتان وهو بحث قيم . وتناول هذا الموضوع أيضاً فى كتابه « الفاطميون فى مصر » ص ٣٤ ـ ٣٥

المعارضة ، فحبست أنفاسها ، واتخذ فى سبيل ضبط الأمور من الشدة والقسوة ما أثار النفوس ، وما كاد عبد الرحمن بن الأشعث يتحرك ويتحدى الحجاج حتى رأوا متنفساً فانضموا إليه ، إلا أن الحجاج استطاع أن يتغلب على الثائرين ، ويثبت سلطان الأمويين بعد حروب شاقة طويلة ، انتصر فى نهايتها وعاقب الثائرين والخارجين عليه عقاباً صارماً ، قتل منهم من قتل ، وعذّب منهم من عذّب ، فخاف من بطشه كثير من الكوفيين ، الذين يمقتون حكم بنى أمية ، وفرّوا من الكوفة ، ولجأ بعضهم إلى الحجاز ؛ وعاقب الحجاج الموالى الذين انضموا إلى الخارجين عليه ، بأن أمر بطردهم وتشتيتهم فى قرى السواد ، وحرّم عليهم العودة ، فظلوا بعيدين عن الكوفة حتى موت الحجاج ، والسماح لهم بالعودة إلى الكوفة ، فعادوا إليها فى خلافة سليمان بن عبد الملك ، وكان لعودتهم أثر فعال فى تطور العقيدة كما سنرى .

ظهور المذاهب المتطرفة فى الكوفة

استقر عرب الكوفة فى أقليم اختلفت عليه مدنيات وعقائد متباينة(١) ، منها النصرانية التى كان لها تأثير قوى فى حياة هذا الأقليم عصوراً طويلة ، وآوى اليهودية قبلها دهوراً ، وكان مركزها الروحى ومأوى لمعظم أتباعها ، وعلى أرضه نما التلمود وتطور حتى أخذ شكله النهائى وأصبح نبراس حياة اليهود(٢) ؛ وفى هذه الأرض اشتهر السحر ويشير إلى ذلك القرآن الكريم « واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت . . .(٣) » وكان منتشراً

---

(١) راجع Lectures on the Religion of the Semites by W. Robertson Smith : P, 14

(٢) راجع The journal of the American Oriental Society (82 A), pp. 4,5.

(٣) سورة البقرة — آية ١٠١

فى المنطقة ، يدل على ذلك قول الجاحظ « أن مسيلمة طاف قبل التنبى فى الأسواق التى كانت بين دور العجم والعرب يلتقون للتسوق والبياعات كنحو سوق الأبلة وسوق حكمه[١] وسوق الأنبار وسوق الحيرة يلتمس الحيل والنيرنجات واختيار المنجمين والمتنبئين[٢] » نشأت الكوفة بجوار الديانتين اليهودية والنصرانية التى جاورت عقائد السكان الأصليين من ماندية[٣] وزرادشتية ومزدكية ثم مانوية ، فإذا أضفنا إلى هذا أن أصحاب هذه العقائد خالطوا أهل الكوفة ،

(١) فى الأصل لقه ورجح الناشر أنها تحريف ولقد حاولت أن أجد هذه الكلمة فى الكتب التى تذكر الأماكن والبلدان فلم أوفق وليس بعيداً أن تكون هذه تحريفاً لاسم السوق القريب من الكوفة المعروفة بحكمه (معجم البلدان ـ ياقوت ج ٣ . ليبزج سنة ١٨٦٨)

(٢) الحيوان ج ٤ ص ٣٦٩ ، ص ٣٧٠ نشر هارون . وقد ورد فى الأصل واختبار النجوم وأظنه خطأ كتابياً .

(٣) لما كانت العقائد الزرادشتية والمزدكية والمانوية ذكرت كثيراً فى كتابات المحدثين الشرقيين فعلينا أن نلخص عقيدة الماندية لندرة ذكرها ، وهى كما يقول برانت على الوجه الآتى :

فى أعلى عليين ـ فيما وراء ملكوت الكواكب ـ يوجد عالم كله نور وروعة تستقر فيه « الحياة » الإله الأعظم ـ كما يسميه بعضهم ـ والكائنات القدسية ، أو يستقر ملك النور الممجد ـ الإله الأعظم كما يسميه بعضهم الآخر ـ تحيط به الملائكة جالسين متوجين ـ من هذه المملكة اشتقت روح الإنسان ـ روح آدم وأرواح أبنائه من المانديين ـ ويقابل مملكة النور هذه دنيا الظلام فى أسفل سافلين بمياهها السوداء التى تجمد جزء منها وأصبح فى حالة الصلابة فكانت الأرض التى يعمرها الإنسان . والأرض فى وضعها الحالى حوت المياه السوداء فى جزئها الجنوبى أما فى الشمال فهى تمتد إلى حيث الجبال الشاهقة إلى عالم النور الذى منه يبدأ جريان الأنهار مخترقة الجبال إلى الأرض ولذلك فهم يعتبرون استحمامهم فى مياه الأنهار بمثابة اتصال بالعالم العلوى .

وهم يعتقدون أن أرواح الصالحين منهم تعيش فى هذه الدنيا فى موطن غريب (أى أنهم غرباء على الأرض) لأنه تتحكم فيها الأرواح الشريرة التى تتلاءم مع قوى =

ومنهم من كان من المرتدين أو من لا يزال على عقيدته فى نبوة مسيلمة الكذاب كما يفهم من قول قدامة بن جعفر وكتب (أى مسيلمة) إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع عبادة بن الحارث أحد بنى عامر بن حنيفة وهو ابن النواحة الذى قتله عبد الله بن مسعود فى الكوفة لما بلغه أنه وجماعة يؤمنون بكذب مسيلمة[١]»

تبين لنا مقدار الخطر على عقيدة هؤلاء الناس، الذين لم يتمكن الاسلام من قلوبهم، وخاصة أنه لم يكن هناك حرج على معتنقى هذه الديانات غير الاسلامية أن يظهروا فى الكوفة أو يعيشوا فيها ـ وفى قصة يذكرها اليعقوبى والمسعودى أن ساحرا يهوديا يقطن الكوفة كان يعمل الأعاجيب زمن خلافة عثمان، وأن الناس كانت تجتمع عليه لترى أنواع السحر والخيالات[٢]، فإذا نظرنا إلى حياة أمثال هذا الساحر فى الكوفة، وإلى الوافدين من القرى المجاورة، وإلى اشتراك النصارى فى جيش علىّ لقتال أعدائه وأعداء أهل الكوفة، رأينا أن الفرصة لأصحاب هذه الديانات غير الاسلامية كانت مهيأة، ولقد اقتنصوها وتقدمت اليهودية أول الأمر بارزة فى هذا المضمار بعبد الله بن سبأ، ليلعب دوره الخطير فى الفرقة بين المسلمين، وإيجاد مذهب غير مألوف، وتلقين الطامحين عقائد غريبة عن التشيع، ظهرت بوادرها أيام المختار، ومضت نافذة تحتل مكانها فى عقيدة السبئية والروافض،

= الظلام المحبوسة على الأرض التى هى آلهة الأقوام الآخرين ودياناتهم وهذه الآلهة ومخلوقاتها أو عبيدها لمما تجعل حياة المانديين على الأرض جحيما ولهذا ينتظر المندى فى شغف ساعة خلاصه من حياته على الأرض . ويعتقدون أنه فى ساعة الموت ينزل إليهم كائن ربانى من عالم النور يسمونه المخلص لينتزع الروح من البدن يحملها صاعداً بها فى السماوات حتى عالم النور وعالم الحياة العظمى (راجع دائرة معارف الاديان والأخلاق مادة Mandians

(١) كتاب الخراج ـ مخطوطة قدامة المحفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس ورقه ١٣٠

(٢) المسعودى ـ مروج الذهب ج ٤ ص ٢٦٦ ـ ٢٦٨ ط . باريس اليعقوبى ج ٢ ص ١٩٠ ـ ط . أوروبا .

وأقدمت غيرها فى القرن الثانى الهجرى تنفث سمومها كما سنرى عند الغلاة . رفض المستشرقان فريدلندر وكايتانى ما نسب إلى ابن سبأ وردّد مذهبيهما برنارد لويس قائلا « وينسب كثير من المؤرخين المسلمين بداءات التشيع الثورى إلى رجل اسمه عبد الله بن سبأ وهو يهودى يمانى عاصر علياً وكان يدعو إلى تأليهه فأمر علىّ بحرقه لما دعا إليه ومن هنا قيل إن أصل التشيع مأخوذ من اليهودية ولكن البحث الحديث قد أظهر أن هذا استباق للحوادث وأنه صورة مثل بها الماضى وتخيلها الرواة فى القرن الثانى الهجرى من أحوالهم وأفكارهم السائدة آنئذ وأظهر ڤلهاوزن وفريد لندر بعد دراسة المصادر دراسة نقدية أن المؤامرة والدعوة المنسو بتين إلى ابن سبأ من اختلاق المتأخرين و بيّن كايتانى فى فصل حسن الحجة أن مؤامرة مثل هذه بهذا التفكير وهذا التنظيم لا يمكن أن يتصورها العالم العربى عام ٣٥هـ بنظامه القبلى القائم على سلطان الأبوة وأنها تعكس أحوال العصر العباسى الأول بجلاء »[1] أما ما ذهب إليه المستشرقون من نفى وجود فكرة تأليه علىّ فى أيامه فانى أميل إلى رأيهم ، لأننا لا نجد دليلا قاطعاً على دحض هذا الرأى ، ولأن المتتبع لحركة شواذ الشيعة فى أيام على فى الطبرى ، يراهم قوما لا يعنون إلا بأمر واحد ، وهو خلق العداوة بين المسلمين المتنازعين والطعن فيهم ، ولم يسلم علىّ نفسه من لسانهم ، يدلنا على ذلك ما ذكره الطبرى (سنة ٢٦ ص ٣٢٢٧ طبعة أوروبا) ولما فرغ على من بيعة أهل البصرة ، نظر فى بيت المال فإذا فيه ستمائة ألف وزيادة ، فقسمها على من شهد معه ، فأصاب كل رجل منهم خمسمائة خمسمائة وقال « لكم إن اظفركم الله عز وجل بالشام مثلها إلى أعطياتكم وخاض فى ذلك السبئية وطعنوا على عليّ من وراء وراء » ونحن لا نجد فى أخبار هؤلاء

---

(١) أصول الاسماعيلية ـ الترجمة ص ٨٦ ، ص ٨٧ طبع القاهرة سنة ١٩٤٧ والأصل The Origin of Ismàilism, P. 25.

السبئية فى الطبرى شيئا يدل من قرب أو بعد على أنهم ألهوا عليا ، و إذا كان المعاصرون أنفسهم ـ سواء أكانوا من الشيعة أو من أهل السنة ـ الذين نقلوا لنا أخبار الأحداث وسلوك أهل الشيعة لم يقولوا لنا أن أحداً من أهل الشيعة أو المنضمين إليهم قد ألّه عليا رحمه الله ، فمن العسير أن نصدق هذا القول من المتأخرين فى القرن الرابع أو الخامس دون أن تقام الحجة عليه . أما المؤامرة التى دبرها ابن سبأ فالبحث المبرأ من الهوى وتصور الحالة السياسية ، وتقدير المؤرخ للخصومة التى كانت بين اليهود والمسلمين أيام الرسول ، تلك الخصومة التى جعلت المسلمين قد عملوا على اجلاء اليهود من الجزيرة العربية ، اجلاء أخرجهم منها صاغرين ، بعد أن قتل منهم من قتل وصودر من أملاكهم ما صودر ، تقدير المؤرخ لهذه الخصومة بين المسلمين واليهود ، يجعله يرجح أن اليهودية الموتورة التى لاتستطيع الانتقام بحد الحسام، تلجأ إلى الحيلة أو المؤامرة لايجاد الفرقة أو بث الروح الثورية بين المسلمين ليضربوا بعضهم بعضا ، ليس غريباً أن حاكت اليهودية المؤامرة لانطواء صدورهم على الحقد والرغبة فى الانتقام ، على أنى أسارع فأقول أنها لم تكن مؤامرة على النحو الذى يُدَبَّر فى زماننا ، وإنما كانت لبث بذور الفتنة ، تقدم عبد الله بن سبأ ولبس ثوب المشفق على الحياة الاسلامية والتقاليد الاسلامية فاستفز النفوس ، وفى هذا الجو عمل الايحاء بما يريد و يبتغى ، مثّل دوره فى غيرة كاذبة ، تهدف إلى اثارة النفوس و إيجاد الفرقة بين المسلمين ، وهذا ما يتبيّن من أقوال الرواة ، و يتلخص الدور الذى لعبه فى أنه استطاع أن يجذب إليه الذين رأوا فى تصرفات عثمان خروجا منه عن منهج سالفيه ، وأن سيرته فى الحكم اتخذت طريقا غير الطريق المرسوم من صاحبيه من قبل ، وهذا ما دعا لأن يعيبوه ، وكان دور عبد الله بن سبأ أن ينشر هذه الأمور ، فى شكل يلفت النظر و يثير نفوسهم على عثمان رحمه الله ، وتناقلتها الألسن والناس ميالون إلى التهويل ، وشاء الخيال أن يضيف ما يضيف ، وفى هذا الجو تمكن هذا

اليهودى الذى تدثر بالاسلام أن يوحى إليهم بمؤاخذة عثمان ، أو كما يروى النقلة إلى انتقاصه ، و يؤيد هذا قول ابن حزم « فانه لعنه الله أظهر الاسلام لكيد أهله فهو كان أصل اثارة الناس على عثمان رضى الله عنه [(١)] » هـذا التصوير لا يهدى إليه أقوال الرواة فحسب و إنما نلحظه من رواة الحديث أيضا ، ذكر الخطيب البغدادى (حـ ١٣ ص ٧) « كان أهل مصر ينتقصون عثمان حتى نشأ فيهم الليث بن سعد فحدثهم بفضائل عثمان فكفوا عن ذلك » . كان دور ابن سبأ نشر معايب عثمان ، وليس هذا أمراً يسيراً ، لأن عثمان ذا النورين فضلا عن مصاهرته رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرابته إليه ذو حظ فى الاسلام طويل عريض ، وذو مكانة اكتسبها فى قلوب المسلمين ، استطاع ابن سبأ بمهارته أن يحطم هذه الهالة التى أحاطت بخليفة المسلمين ، وأن يجرئهم عليه ، ومن ثمّ نشأت الاستهانة بالصحابة ، التى نرى صداها يتردد عند الروافض فى سبهم وشتمهم ، لم يكن انتقاص عثمان رحمه الله على هذا الوجه بالأمر الذى يمر عابرا مع الأحداث ، إذ غضب أناس لا يرضيهم هذا التجريح فنراهم يرحلون تاركين هذا الاثم ، ناجين بما ثبت فى فؤادهم ، قال ابن الكلبى « لم تقبل بنو الأرقم من كندة أن تقيم فى الكوفة حيث يشتم عثمان فرحلت إلى الجزيرة وخرجت معهم بنو أحمر بن عمرو (من كندة أيضا) وبعض بنى الحارث بن عدى و بنو الأخرم من بنى حجر ابن وهب فقدموا على معاوية فقال يا أهل الشام هذا حى من كندة عظيم قدموا على ناقمين ، فكان إذا قدم عليه من أهل العراق (يقصد أهل الكوفة) أنزلهم الجزيرة مخافة أن يفسدوا أهل الشام فأنزلهم نصيبين ثم انزلهم الرها وشهدوا صفين مع معاوية [(٢)] » .

(١) ابن حزم جـ٢ ص ١١٥ القاهرة سنة ١٣١٧ هـ .

(٢) الانساب — ابن الكلبى — ورقة ٢٥ . وابن حوقل القسم الأول ص ٢١٥ ، ص ٢١٦ ، يقول وأهل الموصل « عرب ولهم بها خطط وأكثرهم ناقلة الكوفة والبصرة » ط . ليدن ، سنة ١٩٣٨ .

لا شك أن هذا الذى لقّنه ابن سبأ أو أوحى به ، كان تطوراً خطيراً فى النظر إلى السابقين الأولين وهم الصحابة جلة المسلمين ، وأن تجريحهم إنما كان تشجيعاً وحضاً على تمزيق لباس الهيبة والجلال الذى أضفاه عليهم تاريخهم فى الإسلام ، كان فتحاً للطريق وتمهيداً لمن لم يتمكن الإسلام فى قلبه ليمرق منه . وذلك مانلحظه فى هـذه الطائفة التى اتبعت تعاليمه ونسبت إليه وسميت السبئية ، وكانوا كوفيين يعملون جاهـدين أيام علىّ كرم الله وجهه على إثارة الفرقة بين المسلمين ، حتى لا يكون هناك مجال لتتصافى فيه النفوس أو تهدأ لترجع إلى جادّة الصواب ، وذلك بأن يفسدوا ما كان أريد به من إيثار للسلم والصلح ، ويشير إلى ذلك الطبرى (سنة ٣٦ ص ٣١٩١ طبعة أوروبا) ذاكراً أنهم أفسدوا الاتفاق على الصلح بين علىّ وطلحة والزبير بأن أثاروا الحرب بعد أن كان قد اتفق على حسمها « وقبل القوم وأمامهم السبئية يخافون أن يجرى الصلح » . وتمّ لهم ما أرادوا بأن تحارب الفريقان فى موقعة الجمل ، التى انتصر فيها علىّ كرم الله وجهه . هذا وأنه لمن الخطأ الجسيم أن نعتقد أن كل الذين أيدوا علياً أو بقوا فى الكوفة من المتشيعين تصوّر فى نفوسهم الاستهانة بالصحابة ، لأن منهم من رأى فيهم آنذاك ما كان يراه أهل السنة .

انقضى أمر علىّ كرم الله وجهه وخضعت الكوفة لسلطان بنى أُميّة ، وكان معاوية حكيماً إذ أرسل إليهم داهية العرب ، المغيرة بن شعبة والياً ، يسوسهم برفقه ، واستطاع بدهائه أن يحجب هـذه الظاهرة التى تفزع النفوس السليمة . ظلت الكوفة هادئة حتى مقتل الحسين رحمه الله وظهور المختار مطالباً بدمه وداعياً إلى الثأر من القتلة ، وهنا رأى المتشيعون الفرصة سانحة للتكفير عن ماضيهم ، فاجتمعوا على المختـار وكانوا خليطاً من « السبئية » ـ على حد تعبير عبد القاهر البغدادى (١) ـ وعبيد أهل الكوفة أى الموالى ؛ ويشير التعبير بالسبئية إلى أنهم

(١) البغدادى ـ الفرق بين الفرق ص ٣٥ طبعة بدر

عرب خرجوا عن المألوف فى تشيعهم ، ويبدو لى أنه لم يكن أكثر من الاستهانة بعثمان والتطاول عليه رحمه الله ، وهو وصف أفردهم عن بقية الشيعة ، ونظر إليه على أنه تطرف فهمه المتأخرون على أنه غلو ، لأنه كان أساساً أو بذرة له .

و بظهور المختار ظهرت طائفتان : المختـارية وأغلب الظن أن كثرتهم عرب ، واتخذت محمد بن الحنفية إماماً إذ كان يعاصرهم ، والـكيسانية ويبدو أن كثرتهم من الموالى ، لأن رئيسهم كيسان مولى بجيلة وقالوا أيضاً بأمامة محمد بن الحنفية .

ظهرت فى هذه الحقبة من الزمن كما يقول النقلة عقيدتان : عقيدة المهدى[1] والرجعة[2] التى يبدو أنها كانت أظهر من عقيدة المهدى فى حياة الـكوفيين ، يدلنا على ذلك مارواه ابن قتيبة على لسان اسماعيل بن مسلم المحدث البصرى الذى زار الـكوفة إذ قال « كنت بالـكوفة فإذا قوم من جيرانى يكثرون الدخول على رجل . فقلت من هذا الذى تدخلون عليه ؟ فقالوا هذا علىّ بن أبى طالب فقلت أدخلونى معكم فمضيت معهم وخبأت معى سوطاً تحت ثيابى فدخلت فإذا شيخ أصلع بطين فقلت له أنت علىّ بن أبى طالب فأومأ برأسه أى نعم فأخرجت السوط فما زلت أقنعه وهو يقول ـ لتاوى لتاوى[3] فقلت لهم يافسقة : علىّ بن أبى طالب نبطى ثم قلت له ويلك ماقصتك ؟ ! قال جعلت فداك أنا رجل من أهل السواد أخذنى هؤلاء فقالوا أنت علىّ بن أبى طالب[4] » . و بعض النقلة

(١) تنسب عقيدة « المهدى المنتظر » بعد انقسام الشيعة إلى فرق الروافض والسبئية والمهدى المنتظر عندهم هو محمد بن الحنفية المتوفى سنة ٨١ هـ .

(٢) يجب أن يفرق بين عقيدتى الرجعة والتناسخ لأن الرجعة هى عودة الشخص بنفسه مرة أخرى إلى الحياة الدنيا بعد موته أما التناسخ فهو عودة الروح فقط أو تقمصها فى جسد آخر بعد موت صاحبها .

(٣) هذا اللفظ لم أجـد له تفسيراً حتى عند أساتذة اللغة النبطية فى مدرسة اللغات الشرقية بلندن وربما كان أثراً بقى من لغة قديمة .

(٤) عيون الأخبار ج ٢ ص ١٤ ط ـ دار الـكتب . اسماعيل بن مسلم محدث بصرى عرف بالمـكى وكان معاصراً للحسن البصرى المتوفى سنة ١١٠ هـ

يضيفون إلى المختار عقيدتى البداء ومعارضة القرآن ، وهما العقيدتان اللتان ظهرتا فى عصر متأخر زمن ثورة الغلاة كما سنذكر ذلك فى موضعه . ولا يغيبنَّ عن البال أن اليهودية ظلت تعمل حتى لقّنت من عقائدها الرجعة والمهدوية ، وبذلك انتصرت فى الميدان الذى اقتحمته ، إذ ربطت طائفة من المتشيعين بعقائدها يأخذون مايروقهم .

بعد موت المختار يحدثنا المؤرخون عن طائفة كانت تعمل فى الظلام ، ولم يكن لها آنئذ أثر ملحوظ فى الحياة الاجتماعية ، ولكنَّهم فيما يبدو لى هم الواضعون الحقيقيون للغلو ، الذى يضاف إلى ابن سبأ وهو تجسد الألوهية ، تلك العقيدة التى لعبت دوراً هاماً فى القرن الثانى الهجرى على مسرح الكوفة ، والتى أريد بها أن تحل محل العقيدة التى أتى بها القرآن الكريم ، وأن يعيش المجتمع عليها وعلى النظم التى جاءت معها . هذا الذى نراه فى نشأة الغلو نلمحه مما يورده الطبرى ، أن امرأتين إحداهما تسمى هند بنت المتكلفة المزنية والأخرى ليلى بنت قمامة الناعطية ، كان يجتمع إليهما كل غالٍ من الشيعة بعد حرب المختار [١] وانتهاء أمره ، ولولا أن الحجاج ضبط العراق ، وعنى بالكوفة عناية خاصة وأقام فيها رجالا أشداء ، ينفذون أحكامه ولا يتهاونون فى أية صغيرة ، لبدت هذه العقائد الغريبة ، ولكن لم يكن فى الكوفة إبان عهده سبيل للمتطرفين أو للمعتدلين أن يبدوا آراء تخالف مايعتنقه السلطان ، أو يظهروا مايخالف القرآن والسنة ، فاختفت من المصر الآراء الدينية المتطرفة [٢] . هذا الحزم الذى أظهره الحجاج أطلق لسان

(١) الطبرى سنة ٦٧ هـ ص ٧٣١ ط . أوروبا

(٢) ولى الحجاج عبد الرحمن بن عبيد التميمى الشرطة قال عنه الشعبى « فلا والله مارأيت صاحب شرطة قط مثله ، كان لايحبس إلا فى الدين وكان إذا أتى برجل قاتل بحديدة وشهر سلاحا قطع يده وإذا أتى بنباش حفر له قبراً ودفنه فيه وإذا أتى برجل قد أحرق على قوم منازلهم أحرقه ، وإذا أتى برجل يشك فيه وقد قيل إنه =

أعشى همدان بالمديح ، فقال له فى قصيدة يمدحه ويشير فيها إلى هذه العقائد الغريبة[1] .

وما أَحْدَثُوا من بِدْعَةٍ وَعَظِيمَةٍ من القولِ لَمْ تَصْعَدْ إلى الله مَصْعَدَا

وفيها يصف تطهيره المصر منهم قائلاً :

فَكَيْفَ رَأَيْتَ اللهَ فَرَّقَ جَمْعَهم وَمَزَّقهم عُرْضَ البلادِ وشَرَّدَا

اختفت هذه الآراء الغريبة تحت السلطان القوى ، وتوارت هذه العظائم التى يشير إليها أعشى همدان ، والتى كانت تلقن عند هاتين المرأتين الكوفيتين ، وسنرى فيما بعد أنها لم تكن غير بوادر عقائد الغلاة التى سنتحدث عنها فى الفصل القادم ؛ و بظهور هذه العقائد الغالية نرى العقائد الغنوسطية وغيرها من العقائد القديمة تقتحم الميدان بجوار اليهودية ، تلبس ثوب التشيع و يعرف أصحابها فى التاريخ بالغلاة ، وهم طائفة من شذاذ الشيعة لفظهم التشيع ، ولكن كان لهم أثر خطير فى الحياة الأدبية بخاصة .

= لص ولم يكن منه شىء ضربه ثلاثمائة سوط فربما أقام أربعين ليلة لا يؤتى بأحد فضم إليه الحجاج شرطة البصرة مع شرطة الكوفة » محمد بن الحسن البغدادى تذكرة ابن حمدون ص ٧٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٢٧ .

(١) الأغانى جـ ٥ ص ١٥٢ ـ ط . الساسى سنة ١٣٢٣ هـ . وأعشى همدان هو عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث من قحطان ويكنى أبا المصبح وكان زوج أخت الشعبي الفقيه الشهير والشعبى زوج أخته وكان أحد الفقهاء القراء ثم ترك ذلك وقال الشعر وكان شاعر أهل اليمن بالكوفة . ولقد سجل فى شعره كثيراً من أحداث الكوفة ويظهر أنه مات بعد العشرة الثانية من القرن الثانى الهجرى لأنه يسجل فى شعره أحداثاً وقعت أيام خالد القسرى وبعده بقليل وليس صحيحاً مايذكره صاحب الأغانى أن الحجاج قتله لخروجه مع ابن الأشعث (الأغانى جـ ٥ ص ١٣٩ طبعة الساسى سنة ١٣٢٣ هـ) .

الباب الأول

الفصل الثانى

حركة الغلاة والمتطرفين

العامل الاقتصادى يشجع الغلاة :

كانت الكوفة مركزاً تجارياً وصناعياً ملحوظاً فى حياة المجتمع الإسلامى فى القرن الأول الهجرى ، ازدهرت فيها صناعة المنسوجات الحريرية ، وهى ماسموها عمل الوشى والخز ، وكانت هذه المصنوعات تلقى رواجا فى الأقطار الإسلامية (١) ؛ ولم تكن براعتهم الصناعية تقف عند حد هذه المصنوعات ، بل استطاعوا أن يستخرجوا من الأزهار التى زرعوها أنواعاً من الطيب ، طبقت شهرتها الآفاق (٢) .

وكان إلى جانب هذه الشهرة الصناعية ، التى تميزت بها الكوفة ودرّت على أهلها الأموال والخير الكثير ، مجهود فى الزراعة يصور نشاطهم ورغبتهم فى التفوق فى ميدان الاقتصاد الإسلامى ، إذ عنوا باستنبات أنواع جعلتهم يفاخرون غيرهم بجودة ماأنتجوا ، فاخروا بأنواع من التمور والفواكه والخضر ورأوا فيها مثلاً يحتذى ، كل ذلك جعل الكوفة مركزاً صناعياً وزراعياً يشار إليه بالبنان ، وجعل أهلها فى رغد العيش و بسطة المال .

تولى الحجاج أمر المصر والحالة الاقتصادية فى ازدهارها ، ونستطيع أن ندرك

---

(١) الجاحظ — المحاسن والأضداد ص ٣٤٢ ط . ليدن الأغانى ج ٢ ص ١٧٣ الساسى ، المقدسى أحسن التقاسيم ص ١٢٨ ط . ليدن سنة ١٩٠٦ .

(٢) الثعالبي لطائف المعارف ص ١٠٤ . ط ١٨٦٧ ابن خلكان ج ١ ص ٢٧٠ ط بولاق .

ذلك من قول عبد الملك بن عمر الليثى « بينما نحن بالمسجد الجامع وأهل الكوفة يومئذ ذوو حال حسنة يخرج الرجل منهم فى العشرة والعشرين من مواليه أتانا آت فقال هذا الحجاج قد قدم أميراً على أهل العراق [1] » ولكنه بدلا من أن يساعد فى رقيها كان بلاء عليها ، واندفع إلى ذلك بسبب تمرد أهل الكوفة ونفاقهم وخروجهم على السلطان ، لم يقنع بإخماد أصواتهم بالقوة فتقدم يستأصل الشر من جذوره ، وذلك بعد أن أنذرهم فى خطابه المعروف ، أنه يضمر عقاباً للثائرين والخارجين على الدولة لم يألفوه من قبل ، ولكنهم لم يذعنوا ولم يصيخوا إلى دعوته ، فتجرد لعقابهم واتخذ فى سبيل ذلك إجراءات قاسية ، كانت هى التى قتلت الحياة الاقتصادية فى المصر ، وسببت الخراب الذى بكوه ، ومن الحق أن نذكر أنه لم يقصد خراب المصر لميله إلى الشر والتخريب ، وإنما ليكسر شوكة الكوفيين ويقتل الشر فى نفوسهم ، عالج ثورات الكوفيين بحكم شديد قاس ، لكل من تحدثه نفسه بالخروج على أوامره أو عدم إطاعته ، ثم نظر فرأى موالى الشيعة أعواناً لهم فى ثورتهم مع ابن الأشعث ، فأمر بطردهم كما طرد الموالى الذين اشتركوا فى هذه الثورة ، وحرّم عليهم العودة ، وقد كانوا يساهمون بنصيب وافر فى المجهود الصناعى والزراعى ، ففقدت الصناعة والزراعة الأيدى العاملة النشيطة القديرة على إنمائهما ، وعاقب المؤلبين على سلطان الدولة من العرب فهربوا وتفرقوا فى الآفاق ، وزاد الأمر سوء بما فرضه على الباقين بالمصر من ضرائب أرهقتهم وقتلت نشاطهم ، فكان من أثر ذلك كله أن تحطمت الحياة الاقتصادية ، وكأن الكوفة لم تغن بالأمس ولم تكن بها تلك النهضة الصناعية والزراعية الرائعة ؛ ويصور سوء الحالة الاقتصادية عصر الحجاج ما ذكر ابن خرداذبه (ص ١٥ طبعة ليدن سنة ١٨٩٨) أن الخراج انحط فى عصر الحجاج انحطاطاً لا نظير له لعسفه وخرقه وظلمه ، ويصور

(١) المبرد — الكامل ج ١ ص ٢٧١ القاهرة سنة ١٣٣٩ هـ . تذكرة ابن حمدون ص ١٠٦ ، ١٠٧ — القاهرة سنة ١٩٢٧ .

ما نال أهل المصر من أذى فى حياتهم الاقتصادية أن يزيد بن المهلب أبى أن يقبل ولاية العراق بعد الحجاج ، ويذكر الطبرى فى ذلك أنه قال (سنة ٩٧ ص ١٣٠٦ طبعة أوربا) « أن العراق قد أخربها الحجاج وأنا اليوم رجاء أهل العراق ومتى قدمتها وأخذت الناس بالخراج وعذبتهم عليه صرت مثل الحجاج » هذه الحالة الاقتصادية السيئة كان لها صدى فى نفوس أهل الشيعة ، جعلتهم يتصورونها على أن الله سلّط عليهم الحجاج ليخرب بلدهم ، لأنهم اختلفوا فيما بينهم ، ولأنهم لم يفوا لآل البيت ، حين سعوا إليهم طالبين منهم أن يقفوا معهم ، يذودون بسلاحهم عن حق آل البيت فى الخلافة ، ووضعوا على لسان علي كرم الله وجهه أنه قال لأهل الكوفة : « اللهم كما نصحتهم فغشونى ، وأئتمنتهم فخانونى فسلط عليهم فتى ثقيف (الإرشارة إلى الحجاج كما هو واضح) الذيال الميال يأكل خضرتها ويحكم فيها بحكم الجاهلية [١] » .

انمحى أو كاد من سجل الاقتصاد الإسلامى ما تميزت به الكوفة من تفوّق صناعى وثراء ، وتولى سليمان بن عبد الملك الخلافة والأمر على هذا السوء ، فأراد أن يعالج المشكلة فأمر برفع الحظر الذى فرضه الحجاج ، ليعود الموالى وتستعيد الحياة الاقتصادية سيرتها الأولى ، عاد الموالى إلا أنهم أتوا إلى المصر بأخلاق متغايرة ، وصدور قد انطوت على كثير من الشر ، فلم يعملوا على انفراج الأزمة ، ولم ينجح هذا التدبير فى رد الأمور إلى نصابها ، وتولى عمر بن عبد العزيز الخلافة من بعده فلم تغير شيئاً تعلياته إلى واليه ، أن يعامل الناس بالرفق وأن يحكّم الكتاب والسنة فيلغى مالم يقولا به ، كتب إلى واليه يقول « سلام عليك ، أما بعد : فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء شديد وشدة ، وجور فى أحكام الله وسنة خبيثة استنها عمال السوء . . . » وفى كتابه يرسم ما يراه الإسلام فى حكم

---

(١) ابن الفقيه الهمدانى — البلدان ص ١٨٦ طبعة أوربا سنة ١٨٨٥ .

الناس وفى فرض الضرائب [1] ؛ لم تنجح وسائل الخليفتين سليمان وعمر ، لأن التدهور الاقتصادى كان أعمق مما بدا للمصلحين ، وسار الأمر من سيىء إلى أسوأ ، وظل أهل الكوفة يشكون البلاء ، وجرى على ألسنتهم تشبيه أيام الحجاج بأيام يوسف بن عمر [2] (تولى من ١٢٠ إلى ١٢٦ هـ) .

كانت هذه الحالة الاقتصادية السيئة عاملا هاماً يثير النفوس ، و يستفز حنق وسخط الكوفيين على القائمين بالأمر ، فانضاف العامل الاقتصادى إلى العامل السياسى يغذيه و يؤيده ، ويدفع الناس إلى الخلاص من هذه الحياة القاسية ، يرون فى كل داعية بصيصاً من نور ، يهديهم إلى النجاة من هذه الظلمات التى أطبق بعضها على بعض ، ذلك لأن الأزمات الاقتصادية إذا طال أمدها تضعف العقول ، وتجعلها فريسة للمذاهب الهدامة ، التى تبرق للناس مورية بحياة سعيدة . رجع الموالى فى هذا الجو الخانق ، واختلطوا بسكان الكوفة ، ورأوا فيهم الفرصة الذهبية لنشر مبادئهم ، ووجدوهم يتطلعون لمن يقودهم إلى حياة تنجيهم من شقاء سياسى واقتصادى ، فاقتنصوا الفرصة وعملوا جادين فى تلقين الناس مبادئهم .

عاد الموالى إلى الكوفة فى هذه الضائقة الاقتصادية ، وقد أتوا من قرى متعددة ، وكل منهم مشبع بعقائد القوم الذين عاشرهم ، وتجول فى خاطره نفس الهواجس والأمانى التى تكمن فى نفوس أهله وعشيرته ، وصفهم المبرد فقال « ونظر الحجاج فإذا جل من خرج مع عبد الرحمن (بن الأشعث) من الفقهاء وغيرهم من الموالى فأحب أن يزيلهم عن موضع الفصاحة والأدب و يخلطهم بأهل القرى والأنباط فقال إنما الموالى علوج و إنما أتى بهم من القرى فقراهم أولى بهم فأمر بتسييرهم من الأمصار و إقرار العرب بها وأمر أن ينقش على يد كل إنسان منهم اسم قريته وطالت ولايته فتوالد القوم هناك فخبثت لغات أولادهم وفسدت

(١) راجع الطبرى سنة ١٠١ ص ١٣٦٦ ، ص ١٣٦٧ . ط أوربا .

(٢) الجاحظ ـ البيان والتبيين جـ ٣ ص ١٤٦ ـ ط القاهرة سنة ١٣٣٢ هـ .

طبائعهم فلما قام سليمان بن عبد الملك أخرج من كان فى سجن الحجاج من المظلومين فيقال: أنه أخرج فى يوم واحد ثمانين ألفاً وردّ المنقوشين (الموالى) فرجعوا فى صورة الأنباط » اختلط هؤلاء الموالى بأهل الكوفة ، فلما اطمأنوا إلى أن الكوفيين قد أنسوا بهم ، وكان بعضهم من الذكاء وقوة الشخصية بحيث استطاع أن يجذب إليه النفوس ، أخذوا ينشرون عقائدهم فى ثوب التشيع لآل البيت ، يساعدهم الفقر والجهل والرغبة فى تغيير الحالة القائمة ، وظهرت عقائد نادى بها هؤلاء الدعاة الأذكياء ، هى فى حقيقتها تحد للإسلام ، الذى يدينون له بالطاعة راغمين ، سنحاول بسطها فى هذا الفصل من هذا البحث ، لأنها كانت المورد الذى استقى منه الشعراء وغيرهم مذاهبهم ، التى بدت فى الشعر والتى نقلت الحياة الأدبية من طور إلى طور فى صدر الدولة العباسية .

المتطرفين وعقائدهم

ظهر الغلاة والمتطرفون وكان الوالى آنئذ خالد بن عبد الله القسرى ، وكانت الحركة ذات مظهرين ، مظهر إنكار لما جاء فى القرآن الكريم حول صفات الله ، ومظهر تفسير لبعض آى الذكر الحكيم ، أما مظهر الإنكار فأول من يطالعنا به فى الكوفة الجعد بن درهم ، وقد يستدل على هذا الاتجاه من خطاب لخالد القسرى والى الكوفة يوم النحر قال «من كان منكم يريد أن يضحى فلينطلق فليضح فبارك الله له فى أضحيته فإنى مضح بالجعد بن درهم زعم أن الله لم يكلم موسى تكليماً ولم يتخذ إبراهيم خليلاً ، سبحان الله عما يقول الجعد وتعالى علواً كبيراً ثم نزل إليه فذبحه (٢) » على أن هذه الفكرة التى قال بها الجعد لم يكن لها كبير

---

(١) المبرد ــ الكامل جـ ٣ ص ٨١ القاهرة سنة ١٣٣٩ هـ .

(٢) الخطيب البغدادى ــ بغداد جـ ١٢ ص ٤٢٥ أثار مذهب الجعد بن درهم فى نفوس الناس نفوراً ، وكان الجعد أستاذاً لمروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية =

أثر فى الحياة الاجتماعية والأدبية ، وإن كانت ذات أثر خطير فى التطور الفكرى .

أما المظهر الآخر فقد بدا فى تفسير آيات من القرآن الكريم ، تفسيراً يخرجها عن مدلولها اللغوى إلى تأييد لعقيدة هى إحياء لتعاليم أديان قديمة عاشت على أرض العراق ، وقد صاغوها صياغة خاصة ، فكانت من أخطر الحركات التى شاهدها القرن الثانى ، تحارب الإسلام سافرة وتتحدى أسسه والاوضاع الاجتماعية الإسلامية ؛ وهذه الحركة قد وضعت بذرتها كما قلت فى الفصل السابق بعد حركة المختار ، عند هاتين المرأتين الناعطية والمزنية ، وأعشى همدان والجاحظ يتحدثان بما يفهم منه ذلك ، قال الأعشى من قصيدة يذكر فيها الغلاة .

وكلهم شَرٌ على أنّ رأسهم حُمَيْدَةُ والميلاء حاضِنَةُ الكِسْفِ

ويعلق الجاحظ قائلا . « وأما حميدة فكانت من أصحاب ليلى الناعطية ولها رياسة فى الغالية والميلاء حاضنة أبى منصور صاحب المنصورية وهو الكسف [1] »

فالصلة بين هؤلاء الغلاة الذين ظهروا فى القرن الثانى وبين هؤلاء الذين عاشوا فى القرن الأول واضحة من هذا الشعر ، وتصور أنهم خلفاؤهم ، وقبل أن نبدأ فى تفصيل عقائدهم نود أن نشير إلى أنهم طائفة تختلف عن السبئية فى العقيدة ،وعلى ذلك يجب أن يفرق بين طائفة الغلاة ، أولئك الذين يجعلون تجسد الألوهية أساسا لعقيدتهم وبين السبئية الذين وصفهم أعشى همدان فقال [2] .

شَهِدْتُ عَلَيْكُمْ أَنَكُمْ سَبَئِيَّة وأنى بكم يا شُرْطَةَ الكفرِ عارِفُ

وأقسم ما كُرْسِيُّكم بِسَكِينَةٍ وان كان قد لُفَّتْ عليه اللفائف

= فاستغل خصوم مروان هذا النفور من مذهب أستاذه وسموه الجعدى ليبغضوه إلى الناس .

(١) الجاحظ ـ الحيوان جـ ٦ ص ٤٣٩ جـ ٢ ص ٢٦٨ . طبعة هارون .

(٢) الطبرى سنة ٦٦ ص ٧٠٤ ، ص ٧٠٥ طبعة أوروبا ـ الجاحظ ـ الحيوان جـ ٢ ص ٢٧١ وص ٢٧٢ . طبعة هارون .

وان لبس التابوت فُتُنًا[1] وان سمت   حمام حواليه وفيكم زخارف
وإنى امرؤ أحببت آل محمد   وآثرت وَحْيا ضمنته المصاحف
وأن شاكرا طافت به وتمسحت   بأعواد ذاو دبرت لا تساعف
ودانت به لابن الزبير رقابنا   ولا غبن فيها أو تحز السوالف
وأحسب عقباها لآل محمد   فينصر مظلوم ويأمن خائف
ويجمع ربى أمة قد تشتت   وهاجت حروب بينهم وحسائف

يصور أعشى همدان السبئية من أصحاب المختار ، حين وضع لهم الكرسى فى ميدان القتال وقد لف بالحرير ، وأقام عليه السدنة ، وأرسل حواليه الحمام يطير ، زاعما أنها الملائكة تنصر جنوده ، وأن كان هذا الكرسى فتن قوما ، حتى ظنوا أن تمسحهم به يضفى عليهم صفات الايمان بالتشيع ، ويقيم الدليل على اخلاصهم لعلى ، وأن ابن الزبير (مصعبا) استطاع أن يحطم هذا الوهم بانتصاره على المختار وجنوده ، فأقام الدليل على كذب المختار وخرافة الكرسى والحمام . فالسبئية على هذا الوصف هم الكيسانية ، الذين يدينون بعقيدة المهدى المنتظر ولا يؤلهون عليا ، أو يخرجون أنسانا عن طبيعته البشرية ، وهى العقيدة التى تميز بها الغلاة ، إذن فالفارق بين الطائفتين كبير ،فالطائفة التى عرفت بالسبئية انما تستعين بالمخارق ولا تؤله أحدا ، على عكس الغلاة الذين ألهوا عليا أو أحد أبنائه ، محيين عقائد قديمة لها صلة بعقيدة النور القديمة على صورها المختلفة ، التى عاشت فى أرض العراق فى عصور عريقة فى القدم ، والتى هى الأساس لمذاهبهم المختلفه[2] .

---

(١) فتنه يفتنه فتناً ـ أوقعه فى الفتنة ـ تاج العروس ـ الحسائف فسرها أبو عبيدة بالضغينة

(٢) لما اتصف به السبئية من تطرف كثيراً ما ينعت المتأخرون هؤلاء الغلاة بأنهم سبئية كما يصفهم صاحب العقد الفريد « وكان المغيرة بن سعيد من السبئية الذين أحرقهم على رضى الله تعالى عنه » ج ٢ ص ٤٠٦ طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر وهو خطأ يلقانا فى كثير من الكتب المتأخرة . والسبئية وصف قد يطلق أيضا على الروافض .

ونحب أن نلفت النظر إلى أن بعض المتأخرين أمثال ابن عبد ربه ، خلطوا بين السبئية و بين الغلاة الذين جعلوا تجسد الألوهية أساسا لعقيدتهم ، فيجب أن يحترز من ذلك حتى يمكن فهم كل طائفة على حدة .

الآن وقد فصلنا بين الطائفتين ، طائفة الغلاة وطائفة السبئية فلنمض إلى الغلاة ، ذاكرين مذاهبهم محاولين أن نرتبهم تاريخيا .

بيان بن سمعان التميمى

بدأ بيان نشاطه باشتراكه فى هـذه الحركة التى أحدثها الجعد بن درهم فى الكوفة ، وكانت سبب قتله بيد الوالى خالد القسرى ؛ شارك فيها وفى هـذا الجو أعلن أن القرآن مخلوق ، ويؤيد هذا قول ابن قتيبة « وهو أول من قال بخلق القرآن[(١)] » ، على أن هذه النظرية لم تحدث الدوىّ الذى كان ينتظر لها ، والذى أقام العالم الإسلامى وأقعده فى القرن الثالث الهجرى ؛ ثم انتقل بيان من الحديث حول صفات الله إلى وضع مذهب نسب إليه ؛ ذكر الكشى[(٢)] أن بياناً كان يعتقد أن إله السماء غير إله الأرض ، وأنهما مختلفان ، وأن إله السماء يفنى جميعه إلا وجهه ، ذاهباً إلى أن القرآن يؤيده فى ذلك فى قوله تعالى « و يبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام[(٣)] » ، وأضاف أتباعه إلى ذلك أن هـذا الإله من نور[(٤)] .

حاول بيان أن يدعم مذهبه بآيات من الذكر الحكيم ، مفسراً إياها بما يؤيد مذهبه القائل : أن كل شىء يفنى ، وأن ذات الإله نفسه تفنى عدا وجهه ،

(١) ابن قتيبة ـ عيون الأخبار ج ٢ ص ١٤٨ ـ طبعة دار الكتب

(٢) الكشى ـ أخبار الرجال ص ١٩٦ ـ طبعة بومباى .

(٣) سورة الرحمن ـ آية ٢٧

(٤) البغدادى ـ الفرق بين الفرق ص ٢١٤ طبعة بدر .

مستدلاً على ذلك بقول الله تعالى « كل شيء هالك إلا وجهه[١] » ، ودعته هذه الجرأة فى تفسير القرآن إلى القول أنه مرسل إلى البشر ، وأن الكتاب الكريم يعنيه فى محكم التنزيل بقوله « هذا بيان للناس » ، ويقول الأشعرى « وحكى عنهم (عن البيانية) أن كثيراً منهم يثبت لبيان بن سمعان النبوة[٢] » ، ويظهر أن ادعاء بيان النبوة جاء بعد ادعائه أنه وصى أبى هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية ، المتوفى سنة ٩٧ هـ ، والذى اتخذه إماماً ، ويشير الأشعرى إلى دعوى بيان فى ذلك أن البيانية « تدعى أن أبا هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية نص على إمامة بيان ابن سمعان ونصبه إماماً » ، وأن ليس لبيان أن يوصى بها إلى عقبه[٣] .

يشير الأشعرى والبغدادى إلى أن بياناً قد توسل لإظهار شخصيته بالقدرة أمام الناس بالسحر ، وهو أمر شاع بين هؤلاء الأدعياء فى الربع الأول من القرن الثانى الهجرى . قال الأشعرى وادعى بيان أنه يدعو الزهرة فتجيبه ، وأنه يفعل ذلك بالاسم الأعظم ، ويزيد البغدادى أنه زعم أنه يهزم بالاسم الأعظم العساكر[٤] ، وعقيدة بيان كما تبدو متأثرة باليهودية والعقائد الغنوسطية .

والقارىء لتاريخ بيان بن سمعان لايستطيع أن يدرك بسهولة زمن ظهوره بدعوته ، ذلك لأن الرواة منهم من يجعله مع المغيرة بن سعيد العجلى المتوفى سنة ١١٩هـ ، ومنهم من يؤخر ظهوره ويجعله بعد المغيرة ، والطبرى فى أخبار سنة ١١٩ يذكر أنه كان فى زمن المغيرة بن سعيد ، ولكى نستطيع أن نعرف الزمن الذى ظهر فيه بيان بن سمعان ، نستعين بقول الشاعر يتحدث عن المغيرة :

---

(١) سورة القصص — آية ٨٩

(٢) الأشعرى — مقالات الإسلاميين جـ ١ ص ٥ — ٦ ط . استانبول سنة ١٩٢٩

(٣) المصدر السابق جـ ١ ص ٥ و ٦ و ٢٣

(٤) مقالات الإسلاميين جـ ١ ص ٥ ط . استانبول سنة ١٩٢٩ . الفرق بين الفرق ص ٢٢٧ طبعة بدر

طالَ التَّجَاوُرُ من بيان واقفاً ومن المغيرةِ عند جِذْعِ العَاشِرِ
يَالَيْتَه قد شال جِذْعَا نَخْلَةٍ بأبى حنيفة وابن قيس الناصر

نراه يشير إلى أن المغيرة قد قتل وصلب بجوار بيان ، وأنه قد مضى عليه كذلك وقت طويل ، و إذا لاحظنا أن الرواة لا يختلفون فى أن الذى قتل بياناً والمغيرة هو خالد القسرى ، تبين لنا أنهما ظهرا أيام هذا الوالى الذى قتلهما ، بعد أن أعلنا مذهبيهما ، ويذكر الطبرى أن المغيرة بن سعيد قتل سنة ١١٩ هـ ، ويقول هشام ابن القاسم « أخذ خالد بن عبد الله (القسرى) المغيرة فقتله وصلبه بواسط عند منظرة العاشر »(١) ومن هذه النصوص يبدو لنا أن بياناً قتل قبل المغيرة ، على أننا نستطيع أيضاً أن ندرك أنّ بياناً كان أسبق فى الظهور من المغيرة بن سعيد ، إذا عرفنا من تاريخ غلاة الشيعة أن الأدعياء الذين ظهروا فى القرن الثانى ، كانوا يزعمون أن الإمام العلوى الذى يعاصر أحدهم كان يوصى له بأن يكون قائد الشيعة ، ولما كان بيان بن سمعان قد زعم أنه وصى أبى هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية المتوفى سنة ٩٧ هـ ، فإنه يكون أسبق فى الظهور من المغيرة بن سعيد ، الذى ادعى أن محمدا الباقر المتوفى سنة ١١٧ هـ قد أوصى له ؛ ومن هذا كله يمكن القول أن بيان ابن سمعان بدأ حركته بعد موت الحجاج وظل يبثها فى خفاء حتى أظهرها أيام خالد القسرى فقتله ، وتلاه المغيرة بن سعيد العجلى فقتل وصلب بجواره .

نسب بعض الرواة نظرية تجسد الألوهية إلى بيان بن سمعان ، ذاهبين إلى أنه قال بألوهية على والحسن والحسين ومحمد بن الحنفية من بعدهم بنوع من التناسخ ، ويبدو لى أن أمر بيان هذا اختلط عليهم بغيره من الغلاة ، لأن المتتبع لحركة بيان ابن سمعان والمغيرة بن سعيد فى الكامل لابن الأثير ، يلاحظ أن بعض الرواة خلطوا بين بيان هذا ، و بين رجل آخر كانوا يعرفونه بابن بيان واسمه عمير

---

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة ج ٢ ص ١٤٨ — طبعة دار الكتب .

ابن بيان العجلى ، الذى ظهر أيام يزيد بن عمر بن هبيرة ، أى بعد بضع سنوات من قتل بيان بن سمعان التميمى ، وكان هذا الرجل من الخطابية الذين اعتنقوا مذهب تجسد الألوهية فى علي وأبنائه ، ويظهر أن تشابه الاسمين على هؤلاء الرواة كان يجعلهم يخلطون بين الرجلين ، فيضيفون إلى بيان بن سمعان مذهب عمير بن بيان فى تجسد الألوهية فى أبناء على ، والذى يرجح لدينا أيضاً نفى نسبة نظرية تجسد الألوهية إلى بيان بن سمعان ، أن هذه النظرية لا تذكر فى الكوفة إلا مقرونة بفرق الخطابية لا قبلها ، ومن الجائز أن تكون البيانية بعد منشئها قد تأثروا بالخطابية فقالوا بهذا الذى نسب إلى بيان بن سمعان ، ويلاحظ فريد لندر خطأ آخر ، إذ ذكر أن بعض النقلة أخطأوا فأضافوا لبيان بن سمعان نفس المعتقدات التى نادى بها المغيرة بن سعيد ، الذى تلاه وهو خطأ وقعوا فيه ، لأن الرجلين كانا متعاصرين ، وكانا يعملان فى بيئة واحدة ، وكان أمر بيان بن سمعان خفياً .

انتهت دعوة بيان بالقضاء عليها ، ولم تكن ذات خطر فى الحياة الاجتماعية للكوفة ، لأنها لم تتغلغل بعد بين الناس ، بيدأن بياناً خلف وراءه فكرة ، كان لها أثر خطير فى تاريخ الغلو ، وهى زعمه أن الإمام العلوى قد أوصى إليه ، وأنه بهذه الوصية قد أصبح إماماً ، كانت هذه الفكرة خطيرة ، لأنها رسمت للغلاة من بعده الوسيلة التى يخدعون بها الناس ، ويعتمدون عليها فى تنصيب أنفسهم دعاة وقادة وجبت طاعتهم .

المغيرة بن سعيد العجلى

تلا المغيرة بن سعيد العجلى بالولاء « بياناً » ويعتبر المغيرة من أكبر الشخصيات التى ظهرت فى عالم الغلو والمتطرفين بين المتشيعين ، وله أثر عميق فيهم ، وكان لتعاليمه أثر قوى فى نفوسهم ، جعلها تعيش قروناً بعده ، وكان لخروجه منادياً بعقيدته دوى أزعج خالداً القسرى وأذهله ، وقد سمع به وهو على المنبر فنادى أن

« أطعمونى ماء » يريد أن يشرب فهجاه بها خصومه ، قال يحيى بن نوفل :

تَقُولُ من النَّوَاكةِ أَطْعمونى شراباً ثم بلت على السرير
لأعـلاجٍ ثمانيةٍ وَشَيْخٍ كليلِ الحـدِّ ذِى بصرٍ ضَرِيرِ

وكان المغيرة أعمى إلا أن شخصيته كانت قوية ، ويعتبر خروجه بعقيدته حداً فاصلا بين التأرجح بإظهار الغلو وإخفائه ، كما كان نبراساً لغيره وقدوة يقتدى ، وخرج بالتطرف فى التشيع إلى نقل علي رضى الله عنه وأبنائه من البشرية إلى مرتبة فوق البشر ، قال الأعمش « دخلت على المغيرة بن سعيد فسألته عن فضائل علي فقال : إنك لا تحتملها ، قلت بلى ، فذكر آدم صلوات الله عليه فقال عليّ خير منه ، ثم ذكر من دونه من الأنبياء ، فقال على خير منهم حتى انتهى إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال على مثله ، فقلت : كذبت عليك لعنة الله ، قال قد أعلمتك أنك لا تحتملها »[1] .

عقيـدته :

روى النقلة أنه قال « إن الله على صورة رجل على رأسه تاج ، وأن أعضاءه على عدد حروف الهجاء ، وأنه لما أراد أن يخلق تـكلم باسمه الأعظم فطار فوقع على تاجه ، ثم كتب بأصبعه على كفه أعمال عباده من المعاصى والطاعات ، فلما رأى المعاصى أرفض عرقاً ، فاجتمع من عرقه بحران ، أحدهما ملح مظلم والآخر عذب منير ، ثم اطلع فى البحر فرأى ظله ، فذهب ليأخذه فطار فأدركه ، فقلع عينى ذلك الظل ومحقه فخلق من عينيه الشمس والقمر وسماء أخرى ، وخلق من البحر الملح الـكفار (أو أعداء الشيعة كما يقول البغدادى) ومن البحر العذب المؤمنين (أو الشيعة كما يذكر البغدادى) » ويضيف البغدادى إلى هذه العقيدة أنه كان يقول بألوهية عليّ وتـكفير أبى بكر وعمر وسائر الصحابة إلا من ثبت مع

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٤٠٥ — لجنة التأليف والترجمة والنشر .

عليّ [1] ؛ وهذه الإضافة يبدو أنها من أقوال المغيرية من بعده ، ذلك لأن ابن الأثير وهو يتحدث عن مذهب المغيرة بأسهاب ، والمتقدمين من النقلة ، لا يذكرون أن المغيرة ألّه علياً ، ويثبتون أنه قال : إن علياً مخلوق ، وما أورده البغدادى نفسه على لسان المغيرة متحدثاً عن مذهبه ، لا يختلف عن قول ابن الأثير وغيره فى شيء ، ولا يتضمن تأليه عليّ ، ويبدو أن المغيرية ألّهوا علياً متأثرين بالخطابية ، الذين قالوا بتجسد الألوهية فى عليّ وأبنائه ، ويجمع الذاكرون لمذهب المغيرة أنه كان يقول : إن أول ماخلق الله ظل محمد ، مدعياً أن القرآن الكريم فى ذلك يؤيده ، زاعماً أن مايراه هو تفسير قوله تعالى (إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين [2]) ثم أرسل ظل محمد إلى ظلال الناس ، ثم عرض على السموات والجبال أن يمنعن على بن أبى طالب من ظالميه فأبين ذلك ، فعرض ذلك على الناس ، فأمر عمر أبا بكر أن يتحمل نصرة على ومنعه من أعدائه ، وأن يغدر به فى الدنيا ، وضمن له أن يعينه على الغدر به ، على شرط أن يجعل له الخلافةَ من بعده ، ففعل أبو بكر ذلك ، مدعياً أن ذلك تأويل (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً [3]) .

ولإكمال الصورة عن عقيدة هذا الرجل ، نختمها بما يذكره عنه الرواة ، أنه ذهب إلى أن ماء الفرات محرم ، وأن كل نهر أو عين أو بئر وقعت فيه نجاسة فهو أيضاً محرم ، وبذلك يتبين لنا المصادر التى اقتبست منها العقيدة ، ويغنينا

---

(١) البغدادى الفرق بين الفرق ص ٢٢٨ ـ طبعة بدر .

(٢) الزخرف آية ٨١

(٣) ابن الأثير ـ الكامل جـ ٥ ص١٥٥ ـ الأشعرى مقالات الإسلاميين جـ ١ ص ٧ طبعة استانبول ، والشهرستانى على هامش ابن حزم الفصل فى الملل جـ ٢ ص ١٣ ، ١٤ طبعة القاهرة سنة ١٣١٧ والآية القرآنية ٧٢ من الأحزاب .

فريدلندر عن البحث عن أصولها فى قوله « إن مذهبه ـ إن جاز أن يسمى مذهباً ـ يصور مزيجاً عجيبا للديانات الشرقية القديمة ، ويدل فى جلاء أنه يتأثر بالغنوسطية وخاصة الماندية والمانوية ، وقد كان المانديون كثيرين فى العراق ، ويقال ان كان لهم زمن العباسيين أربعمائة معبد ، وكان رأسهم يقطن بغداد ، أما اتباع المانوية فيتميزون باستقرارهم فى العراق »[(١)] .

قلنا إن عقيدة المغيرة تعتبر حداً فاصلاً ، لأنها أبرزت فكرتين مهمتين ، كان لهما أخطر الأثر لا فى حياة الكوفة فحسب بل فى العالم الإسلامى كله ؛ أما إحداهما فهى تفسيره كلمات فى القرآن على أنها تشير إلى رجال بعينهم ، كأبى بكر وعمر رضوان الله عليهما ، تلك الفكرة التى استغلت استغلالاً خطيراً من بعده ، للتحلل من المحرمات و إسقاط الفرائض كما سنرى عند الخطابية .

وأما الأخرى فهى إحياء العقائد القديمة ، التى شاع فيها ما ينكره الدين الإسلامى والأديان السماوية كالزنا وشرب الخمر والتمتع بملاذ الدنيا أينما وجدت وكيفما كانت .

ونلاحظ أنه فى نظر هؤلاء المتطرفين ينفصل هنا الفرعان من بيت علي : أبناء فاطمة ، وهم الذين اتخذهم هؤلاء الغلاة دعامة لعقائدهم ، وفرع ابن الحنفية حيث يعيش بين الذين اتخذوه إماماً ومهدياً منتظراً ، يعود إلى الدنيا فيملؤها عدلاً ونوراً كما ملئت ظلماً وظلاماً ؛ اتخذ المغيرة إمامه محمداً الباقر ، ولم يكد يعلم بموته حتى صنع كما صنع بيان من قبل ، من تنصيب نفسه إماماً ، وفى ذلك يقول الشهرستانى ان المغيرة « ادعى لنفسه الامامة بعد محمد (المعروف بالباقر) بن علي ابن الحسين و بعد ذلك ادعى النبوة لنفسه وغلا فى حق علي »[(٢)] .

---

(١) The Journal of the American Oriental Society, vol. 29. p 80

(٢) الملل والنحل للشهرستانى على هامش ابن حزم ج ٢ ص ٤١٣ ص ١٤ القاهرة سنة ١٣١٧ هـ . الأشعرى ـ مقالات الإسلاميين ج١ ص٧ . طبعة استانبول سنة ١٩٢٩ .

علا سلطان هذا المغيرة ، لما بدَا من تمكّن بالسحر لخدع الناس ، ذكر الطبرى « كان المغيرة يخرج إلى المقبرة فيتكلم فيرى مثل الجراد على القبور »[١] ، ويقول الأشعرى انه زعم « أنه يحيي الموتى بالاسم الأعظم وأراهم أشياء من النيرنجات والمخاريق[٢] » ، هذا الذى كان يفعله رفع شأنه فى أعين مواطنيه ، فظل اسمه مكيناً عندهم مدة طويلة ، ورأساً يشار إليه بالاحترام ، وهو مادعا الأعمش على جلاله أن يذهب إليه كما قدمنا ، ويُذكر أنه سمعه يقول « لو أردت أن أحيي عادا أو ثمود أو قروناً بين ذلك كثيراً لأحييتهم[٣] » ، ومن ذلك يبدو أن شأن المغيرة عند الشيعة دفع الأعمش أن يتعرف خبره .

خرج المغيرة داعيا إلى عقيدته فى سبعة نفر ، وكانوا يدعون الوصفاء ، وكان خروجهم بظهر الكوفة ، فأخبر بأمرهم خالد القسرى فأخذهم وقتلهم سنة ١١٩ هـ ، وعدد الذين رافقوا المغيرة موضع اختلاف عند المؤرخين ، وليس بعيداً أن يكون القائلون بأن عددهم سبعة والمغيرة ثامنهم أقرب إلى الصواب من غيرهم ، لأن المغيرة كان متأثراً بالعقائد القديمة ، ورقم سبعة له أهمية خاصة فى هذه العقائد[٤] ويؤيد ذلك يحيى بن نوفل السابق ذكره .

لأعلاج ثمانيـــة وشيخ　　　كليل الحد ذى بصر ضرير

وليس يعنينا عدد هؤلاء الرفقاء ، وإنما يعنينا الوصف الذى أطلق عليهم وهو « الوصفاء » ، وهو وصف يبدو أنه يشير إلى أنهم الخاصة ، الذين اصطفاهم المغيرة

---

(١) الطبرى سنة ١١٩ ص ١٦١٩ — طبعة أوروبا .

(٢) الأشعرى — مقالات الإسلاميين جـ ١ ص ٧ و ص ٨ — طبعة استانبول .

(٣) الطبرى سنة ١١٩ ص ١٦١٩ — طبعة أوروبا .

(٤) للعدد سبعة أهمية عند الساميين القدماء وخاصة فى الأمور التى لها علاقة بالشعائر والعقائد راجع ص ١٦٦

W. Robertson Smith : Lectures on the Religion of the Semites p. 166

خداما للدين ، يذودون عنه و ينشرون تعاليمه ، إذن فقد كانت حركة سرية لها تدبيرخاص لنشرها وحمايتها من الضياع ، هذا النظام السرى للدعوة كان مثالاً عمل على نمطه الخلف من الغلاة ، وكانت الحركات السرية التى هددت كيان المجتمع .

قتل المغيرة وصلب بجوار بيان بواسط ، كما قتل أصحابه ، ولكن حركته لم تخمد إذ تزعمها من بعده جابر الجعفى [1] ، وأنزله أصحاب المغيرة بمنزلة المغيرة نفسه ، ومات جابر وادى وصيته بكر الأعور القتات الهَجَرِى فصيروه إماما من بعد جابر ، وتطورت عقيدتهم فى إمامهم هذا فقالوا إنه لايموت .

أبو منصور العجلى

يعتبر المستشرقون المغيرة بن سعيد أستاذ الغلاة ومعلمهم ، وأن حركته كانت من أخطر الحركات التى وجهت لهدم الحياة الإسلامية ، ذلك لأنه علم أتباعه كيف ينشرون مذهبهم ، ويدبرون أمرهم ، وغرس فى قلوبهم الشجاعة للذود عنه ، فلم تفلح فيهم حملات القمع التى قام بها الولاة . لم يكد المغيرة يقتل ويصلب حتى علا شأن أحد تلاميذه ، وهو أبو منصور العجلى ، وهو عربى من عبد القيس ، ولأول مرة فى تاريخ الغلاة ـ بمعناها الاصطلاحى ـ يطالعنا وجه عربى ، يقود بنفسه هذه الحركة ، التى كان يتولاها الموالى ، يدبرونها فى الخفاء مع من يثقون به ، ولعل أبا منصور قد وصل إلى هذه الدرجة ، وعلى الرغم من أنه صار زعيما ، فانه لم يكوّن لنفسه عقيدة ، كما كان يفعل غيره من هؤلاء القادة الغلاة ، يصفون ربهم و يضعون عقيدة تتلاءم مع ميولهم ، يقتبسون عناصرها من الديانات أو العقائد التى يعرفونها ، و إن كان قد أتى بشىء فهو إضافة لا تمس جوهر الأصل ؛ يؤيد هذا الذى نذهب إليـه قول فخر الدين الرازى عن المنصورية ،

---

(١) كان جابر الجعفى من كبار رواة الحديث عند الشيعة مثلما كان المغيرة ابن سعيد .

وهم أتباع أبى منصور هذا ، أنهم كانوا على مقالة المغيرية ، وزادوا عليها أشياء[1] ، وهذه الزيادة سنتعرض لها فيما بعد ، إلا أن أبا منصور كان زعيما خطراً ، وتعتبر حركته حركة انتقال بالغلو من ناحية الاعتقاد ، أى من الناحية النظرية العقلية ، إلى الناحية العملية ، لأنه استحدث لأصحابه طريقة الخنق ، ليجبروا خصومهم على التسليم أو الخضوع لهم ، ويمكن أن تسمى حركة أبى منصور ثورة على الأوضاع القائمة لإقامة عقيدة الغلاة مكانها .

بدأ هذا الرجل الخطر زعامته ، بأن وصف نفسه أنه من أتباع أبى جعفر محمد ابن علي المعروف بالباقر ، إلا أن الباقر لما عرف طويته ، وتحقق من سوء مايفعل ، تنصل منه وطرده ، فاضطر إلى أن يزعم أنه هو الامام ، ودعا الناس إلى نفسه ، وأسعفه حظه بأن مات الباقر ، فأعلن أن الامامة قد انتقلت إليه بالوصية ، مترسماً خطى بيان بن سمعان ، وأنه الإمام الشرعى بعد أن كان من قبل وكيلاً[2] وزعم أنه يتولى سبعة أنبياء من قريش وسبعة من بنى عجل[3] ، ثم ادعى النبوة زاعما أنه عرج به إلى السماء ، فمسح معبوده رأسه بيده ثم قال له : أى بنى أذهب فبلغ عنى ثم نزل إلى الأرض فكانت معجزته بين أصحابه ، واتخذوها يميناً للحلف ، يقولون ألا والكلمة (التى هى : أى بنى اذهب فبلغ عنى) ؛ ويلاحظ أن أبا منصور لم يعتمد على السحر كما كان شأن سابقيه . وإذا انتقلنا من دعاواه هذه نجده يسلك سبيل بيان فى أن آية بعينها فى القرآن تعنيه ، نراه يسمى نفسه « الكسف » زاعماً أنه المعنى بقول الله تعالى « وان يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحاب مركوم » .

---

(١) الفخر الرازى اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص ٥٨ ـ طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨

(٢) الشهرستانى ـ الملل والنحل على هامش ابن حزم ، الفصل جـ ٢ ص ١٤ طبعة القاهرة سنة ١٣١٧ هـ . النوبختى ـ فرق الشيعة ص ٣٤ . ط . استانبول

(٣) ابن الفقيه الهمدانى ـ البلدان ص ١٨٥ . طبعة ليدن سنة ١٨٨٥

وهنا يجب أن نقف للنظر إلى التاريخ لنحدد موقف أبي منصور من الزمن ، حتى نتمكن أن نعرف حركة الغلاة فى تطورها ، يبدو أن هذا الرجل الأفاك طمح إلى الزعامة والمغيرة لا يزال حياً ينفث سمومه ، وأراد أن يقيم هذه الزعامة ، وإن ظل مخلصا لعقيدة سيده المغيرة ، بأن أعلن اتصاله بالباقر ، الذى انتقل إلى رحمة ربه سنة ١١٧ ﻫ ، فلما قتل المغيرة سنة ١١٩ ﻫ خلا له الجو ، وأعلن أنه الوصى وأضحى الزعيم الفرد ، ويدلنا على أن زعامته كانت بعد المغيرة ، أن أتباعه وأتباع المغيرة اشتركوا فى حركته الثورية ، كما سنقيم الدليل على ذلك ، ولو كان المغيرة حياً ما جاز لأتباعه أن يشتركوا فى ثورة أبي منصور ، إلا بإذن منه ، وإذا لاحظنا أن المؤرخين الرواة لا يذكرون شيئاً عن ثورة كانت حتى خرج المغيرة وأصحابه ، ونالوا جزاءهم الحق وهو القتل والصلب ، تبين لنا أن زعامة أبي منصور الحقيقية كانت فى سنة ١١٩ ﻫ بعد قتل المغيرة ، ولقد طلبه خالد القسرى أشد الطلب فأعياه ، إذ اختفى أو هرب حتى عزل خالد[1] . وتابع نشاطه فى العلن بعد هذا العزل بأن خرج مع جماعة من أتباعه فى بنى كندة ، ووقف على أمرهم يوسف بن عمر الثقفى ، الذى تولى أمر العراق من سنة ١٢٠ إلى سنة ١٢٦ ﻫ ، فتمكن من القبض عليه وعلى أصحابه وقتله وصلبه ، ويبدو أن ذلك كان قبل ظهور زيد بن علىّ على مسرح الكوفة ، لأنّ أهل الكوفة انضموا إلى هذا العلوى ، ولو كان أبو منصور حياً لانضم إليه ، وهذا ما لم يقل به أحد[2] .

عقيدة أبي منصور :

لقد سبق أن قدمنا أنه يدين بعقيدة المغيرة بن سعيد ، وقلنا إنهما لا يختلفان فى الجوهر ، كما يتبين من أقوال النقلة ، أما اختلافهما فكان يسيراً ، إذ زعم أبو منصور

---

(١) النوبختى – فرق الشيعة ص ٣٥ طبعة استانبول سنة ١٩٣١

(٢) فى مقاتل الطالبيين (ص ١٠٦ طبعة النجف سنة ١٣٥٣ ﻫ) أن قتل زيد ابن على كان يوم الجمعة فى صفر سنة ١٢١ ﻫ .

أن أول من خلق الله هو عيسى عليه السلام ، مخالفاً فى ذلك قول سيده المغيرة ، الذى يرى أن ظل محمد صلى الله عليه وسلم هو أول الخلق ، وسبب ذلك الخلاف فيما يبدو ، أن أبا منصور كان متأثراً بالنصرانية ، فجعل الداعى لها وهو عيسى عليه السلام مكان محمد صلى الله عليه وسلم ، أما الزيادة التى أحدثها فهى قوله أن الرسالة لاتنقطع أبداً ، بمعنى أن الأنبياء يظهرون فى جميع العصور والأوقات ، وهى فكرة خطيرة وذات أهمية خاصة ، لأنها تبرر ادعاءه وادعاء أمثاله النبوة ، وتقيم دعواه على أساس النبوة ، وتمهد للخلف أن يبرزوا إلى الناس أنبياء ، ينشرون فيهم ترهاتهم وادعاءاتهم الباطلة ، التى فوق أنها غير مقبولة عند كل ذى عقل سليم ، تعمل على فساد المجتمع ؛ ومعظم النقلة وعلى رأسهم البغدادى والشهرستانى يضيفون إلى أبى منصور أنه قال بإباحة المحرمات ، وأنه أحل النساء والخمر والميسر والدم ولحم الخنزير ، اعتماداً على أن التحريم المذكور فى القرآن لايشير إلى هذه الأشياء بعينها ، وإنما يشير إلى رجال ، أى أن للكلمات معنى باطناً هو المقصود ؛ والمظنون أن أبا منصور لم يذهب إلى هذا كله ، لأنه لم يكن معنياً بإنشاء عقيدة مستقلة عن سلفه المغيرة بن سعيد ، لأن همّه كان فى أن ينشر الذعر بوسيلته التى أشار بها على أصحابه ، وهى الخنق ، وإن أباح شيئاً فقد أباحه دون أن يحتال على ذلك بتفسير عقلى ، أو تخريج للألفاظ على وجه يقيم عليه دعواه فى التحليل ، والدليل على ذلك أن الشهرستانى حين يذكر عقيدته يقول إن أبا منصور لم يستحدث فى العقيدة ، أى فى العقيدة المغيرية ، سوى قوله أن عيسى عليه السلام هو أول الخلق[1] ، وإذا عرفنا أن الشهرستانى لم يشر إلى عقيدة سابقة تضمنت هذه الإباحة للمحرمات ، جال فى نفوسنا أن ما يقال عن هذه الإباحة إنما هو إضافة فى غير موضعها ، هذا والنوبختى وهو شيعى كثيراً مايبدو خبيراً بأحوال هؤلاء الغلاة ، لايذكر شيئاً من

---

(١) الملل والنحل ص ١٣٥ . طبعة لندن .

ذلك حين يتحدث عن عقيدة أبي منصور[1] ؛ وهذه الفكرة التى تقول أن للكلمات القرآنية معنى باطناً هو المقصود ، جاءت على لسان الخطابية الذين ظهروا على مسرح الكوفة بعد أبي منصور ، و بها أباحوا المحرمات التى ينهى عنها الشرع الحنيف ، و يجب أن نفرق بين هذه الفكرة و بين فكرة المغيرة ، التى تقول بأن بعض كلمات القرآن تشير إلى رجال بأعينهم كأبى بكر وعمر وعلى ، والتى جاء بها زاعماً أنها تصف المؤمن والكافر ، كما يتضح ذلك من تفسيره قول الله تعالى : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا » ، الذي سبق أن أشرنا إليه ، وهذا الفرق يبدو من نظر كل من المغيرة والخطابية إلى الكلمات القرآنية ودلالاتها ، استخدم المغيرة اللفظ القرآنى ليدلل به على المؤمن والكافر وتابعه على ذلك تلميذه أبو منصور ، ولم يقل أحد أنه خالفه أو زاد عليه شيئاً ، أما الخطابية فقد نظروا إلى الألفاظ القرآنية على أن لها ظاهراً لا يراد ، و باطناً هو المقصود ، وتوصلوا بذلك إلى إباحة الملذات وتحليل ماجاء فى كتاب الله من تحريم ؛ ولعل السبب الذى دعا كثرة النقلة لنقل هذا المذهب ، وهو إباحة المحرمات منسو باً إلى أبى منصور ، هو أن هؤلاء المنصورية اشتركوا فى الحركات الخطابية ، واقتبسوا منهم هذه الإباحة للمحرمات .

والذى يتتبع تاريخ أبي منصور العجلي يرى أن همّ هذا الرجل كان منصباً على إخضاع المجتمع لسلطانه ، بالطريقة التى حض أصحابه على اتباعها ، وهى خنق المخالفين فى العقيدة وقتلهم غيلة ، مما أحدث الخوف والفزع فى حياة الكوفة الاجتماعية

الخنق

اصطنع أبو منصور هذه الوسيلة لإرهاب المجتمع ، وألزم أصحابه خنق مخالفيهم

(١) راجع فرق الشيعة ص ٣٤ ، ص ٣٥ . طبعة استانبول سنة ١٩٣١

وقتلهم خفية ، مبيناً لهم أن القضاء على المخالفين فى العقيدة إنما هو من شعائر دينهم ، قال النوبختى : « وكان يأمر أصحابه بخنق من خالفهم وقتلهم بالاغتيال و يقول من خالفكم فهو كافر مشرك فاقتلوه فإن هذا جهاد خفى [١] » ، ومن هذا يتبيّن أن الخنق عندهم جهاد دينى ، مفروض عليهم القيام به ضد الكفار المخالفين وهم المسلمون ؛ هذه الفكرة الخطيرة التى مارستها المنصورية أثارت الرعب والفزع فى قلوب الناس ، وكان أصحاب أبى منصور يؤمنون بهذه العقيدة إيماناً قوياً ، جعلهم ينشطون للقضاء على الكفار أو المخالفين ، و يصور أعشى همدان فعلهم قائلا :

إذا سرتَ فى عجلٍ فسِرْ فى صحابةٍ ... وكندة فاحْذَرْها حذارك للخَسْفِ
وفى شِيعةِ الأعمى زيارٌ وغيلةٌ ... وقَشْبٌ وأعمالٌ لجندلةِ القَذْفِ
وكلهم شرٌ على أنَّ رأسهمْ ... حُميدةُ والميلاء حاضنةُ الكسفِ
متى كنتَ فى حيٍ بجيلة فاستمعْ ... فإن لهم قصفاً يدلُ على حَتْفِ
إذا اعتزموا يوماً على خنق زائرٍ ... تَدَاعَوْا عَلَيه بالنُّبَاحِ و بالعَزْفِ

ولقد حفظ لنا الجاحظ صورة من نشاطهم ، التى يشير إليها هذا الشعر ، قال : « أن الخناقين يظاهر بعضهم بعضاً فلا يكونون فى البلاد إلا معاً ولا يسافرون إلا معاً فربما استولوا على درب بأسره أو على طريق بأسره ولا ينزلون إلا فى طريق نافذ و يكون خلف دورهم إما صحارى و إما بساتين و إما مزابل وأشباه ذلك وفى كل دار كلاب مربوطة ودفوف وطبول ولا يزالون يجعلون على أبوابهم معلم كتاب منهم فإذا خنق أهل دار إنساناً ضرب النساء بالدفوف وضرب بعضهم الكلاب فسمع المعلم فصاح بالصبيان (صيحوا) وأجابهم أهل كل دار بالدفوف

(١) المصدر السابق ص ٣٥ . وهذه الطريقة نفسها يعتنقها جماعة فى الهند تدعى (Thugs) وترجع نشأتها إلى أوائل الخلفاء الراشدين . راجع فريد لندر ص ٩٢
The Journal of the American Oriental Society vol(29)p,92

والصنوج كما يفعل نساء أهل القرى وهيجوا الكلاب فلو كان المخنوق حماراً لما شعر بمكانه أحد[١] » .

لم يكد يوسف بن عمر الوالى زمن هشام بن عبد الملك يقف على أمرهم ، ويراهم يخرجون مع أبى منصور فى بنى كندة ، حتى تصدّى لهم وقبض عليهم ، وقتل أبا منصور وصلبه ، ولكن هذا لم يكن ليفت فى عضدهم ، إذ ظلت تعاليم أبى منصور تحتفظ بسلطانها فى نفوسهم ، وأقاموا ابن الزعيم وهو الحسين بن أبى منصور إماماً بدلا من أبيه ، قال النوبختى « وقد تنبى وادعى مرتبة أبيه وجبيت إليه الأموال[٢] (التى كان يستولى عليها الخناق من مغتاله) وتابعه على رأيه ومذهبه بشر كثير وقالوا بنبوته فبعث المهدى فقتله فى خلافته وصلبه بعد أن أقر بذلك وأخذ منه مالا عظيما وطلب أصحابه طلباً شديداً وظفر بجماعة منهم فقتلهم وصلبهم[٣] » وهذا ينبينا أن هؤلاء الأشرار ظلوا يعيثون فى الأرض فساداً ، يقتلون الناس إما بالخنق إذا تمكنوا من ذلك ، وإما بالتشميم وهو البنج ثم القتل ، وإما بالرضخ بالحجارة ، ويأخذون أموالهم ، ويعطون منها سيدهم الذى أثرى ثراء فاحشاً مما جبى إليه ؛ هذه الوسائل التى توسلوا بها لقتل المسلمين يذكرها أبو معدان الأعمى الشميطى وهو شيعى قائلا :

خشبى وكافر سبيانى كربى وناسخ قتال[٤]

---

(١) الحيوان ج ٢ ص ٢٦٤ و ص ٢٦٥ و ج ٦ ص ٣٩ طبعة هارون

(٢) المظنون أنه كان يأخذ الخمس من أموال المغتال كما هو الحال عند القرامطة الذين يمتون إليهم بسبب ، يعطون زعيمهم خمس المال الذى يصيبونه بهذه الطريقة

(٣) فوق الشية ص ٣٥ ط . استابنول

(٤) فى الأصل حبشى وصحته خشبى والخشبية طائفة من الغلاة يقتلون بالخشب فقط وهى تتبع المنصورية ، وفى الأصل أيضا : حربى وصحته كربى نسبة إلى الكربية الذين كان منهم حمزة بن عمار البربرى الذى ادعى أنه نبى وأن محمد بن الحنفية إله والكربية طائفة من السبئية ، وسبيانى نسبة إلى السبئية ، أما قوله تلك تيمية فى البيت الثانى فهو إشارة إلى قول الغلاة فى أبى بكر الصديق رحمه الله

تلك تيمية وهاتيك صمت ثم دين المغيرة المغتـــال

خنق مرة وشم بخـــار ثم رضخ بالجنـدل المتوالى

ويسمون الذى يجيد القتل بالخنق والتشميم جامعاً ، أى جامعاً للقتل بالخنق والتشميم وهو البنج ، ويفصل القول الجاحظ فيقول « . . لأن من الخناقين من يكون جامعاً و بذلك يسمونه إذا جمع الخنق والتّشميم وحمل معه فى سفره حجرين مدملكين وململمين فإذا خلا برجل من أهل الرفقة استدبره فرمى بأحدهما قمحدوته وكذلك إن كان ساجداً فإن دمغه الأول سلبه و إن هورفع رأسه طبق بالآخر وجهه وكذلك إن ألفاه نائماً أو غافلا » و يقول أيضاً « ولقد صحب منهم ناس رجلا من الرى وفى حقوه هميان فكان لا يفارق معظم الناس ، فلما رأوه قد قرب من مفرق الطريقين ورأوا احتراسه وهم نزول إما فى صحراء و إما فى بعض سطوح الخانات والناس يتشاغلون بأمورهم فلم يشعر صاحب الهميان نهاراً والناس حوله إلا والوهق فى عنقه وطرحه الآخر حين ألقاه فى عنقه ووثب إليه وجلس على صدره ومد الآخر برجليه وألقى عليه ثوباً وأذن فى أذنه فقام إليهم بعض أهل الرفقة كالمعين والمتفجع فقالوا له مكانك فإنه إن رآك خجل واستحى فأمسك القوم عنهم وارتحل القوم وأعجلوا بصاحبهم فلما خلوا به أخذوا ماأحبوا وتركوا ماأحبوا ثم حملوه على أيديهم حتى إذا برزوا رموه فى بعض الأودية »(١) وحيل الخناقين فى قتل الناس غيلة كثيرة ؛ فمنهم من كان يقتل بالحجارة ، ومنهم طائفة تقتل بالخشب وحده ، ومنهم من يقتل بإلقاء حبل يمسك بعنق الضحية و يشد و يلقى به على الأرض ثم يقتل ، ومنهم من يقتل بالشم ثم القتل ، إلى غير ذلك من الوسائل التى تعينهم على قتل مخالفيهم فى العقيدة .

ساعد على فجورهم وعدم التمكن منهم والالتفات إلى أمرهم ، أن كان

---

(١) الحيوان جـ ٢ ص ٢٧١ طبعة هارون

الأمر مضطرباً أواخر الدولة الأموية والحكومة المركزية مشغولة بالقضاء على المتجردين لسلب السلطان منها ، وظل الاضطراب يسود شئون الدولة حتى قامت الدولة العباسية ، وأخذت هى بدورها تجاهد مكافحة فى هذا السبيل ، حتى استقر لها الأمر بعد لأى شديد وجهد جهيد ، ولذلك كان الخناقون فى هذه الفترة من الزمن بعيدين عن سلطان القانون ، آمنين من بطش السيف ، يتفننون فى الوسائل التى يرونها قاضية على مخالفيهم ، حتى تمكنوا أن يلقوا الرعب فى القلوب ، على شكل لم تألفه الحياة الإسلامية من قبل ، ويصور لنا هذا الارهاب وفزع أهل الكوفة أبو السرى معدان الأعمى الشميطى[1] قائلا :

إن ذا الكسف بذّ آل كميل ... وكميل رذل من الأرذال

تركا بالعراق داء دويا ... ضلّ فيه تلطف المحتال

تنبهت الدولة بعد أن هدأ الأمر إلى خطر هذه الجماعة ، فوجه المهدى همه للقضاء عليهم ، فاستأصل شأفتهم من الكوفة ، فتفرقوا فى الآفاق ومختلف بقاع العالم الإسلامى ، ناجين من السيف المصلت على رقابهم ، بأيدى هؤلاء الذين رصدتهم الدولة لصيدهم أينما ثقفوا وقتلهم ، على أن عين الحكومة الساهرة على القضاء عليهم لم تكن لتبيدهم ، لتفرقهم وحرصهم الشديد على إخفاء طويتهم ، وحذرهم فى تنفيذ أحكامهم .

ويجدر بنا قبل أن ندع هؤلاء الخناقين ، أن نشير إلى القبائل العربية الكوفية التى ظاهرتهم ، وعملت بأساليبهم أو آمنت بعقيدتهم ، نجد كندة فى المقدمة ويقول فى ذلك سليمان بن عيينة[2] مشيراً إلى هذه القبيلة .

إذا ما سرك العيش فلا تمرر على كنده

---

(١) الحيوان ج ٢ ص ٢٦٨ إلى ص ٢٧١

(٢) الجاحظ ـ الحيوان ج ٦ ص ٣٨٩ ، طبعة هارون

ويؤيد ذلك ابن قتيبة فى قوله : «إن أكثر الخناقين بالكوفة من كندة[1]» . ولقد زاملهم وأيدهم قبيلتا عجل و بجيلة أيضاً ، ومن الملاحظ أن هذه القبائل الثلاث هى التى استجابت للمغيرة بن سعيد ، ولذلك نرى اسم المغيرة مقحماً مع الخناقين ، لأن المغيرية أتباعه عملت بتعاليم خلفه أبى منصور فى الخنق والإرهاب .

وختام القول فى هؤلاء الخناقين ، أن مطلع الدولة العباسية شهد آثامهم فى الكوفة ، حتى إذا تفرقوا لم يكن لهم ذلك الخطر ، الذى كان لهم وهم مجتمعون فى الكوفة ، ثم اختلطوا بغيرهم واستأنفوا نشاطهم فى غير العصر الذى نتحدث عنه ، بعد أن تشبعوا بعقائد غيرهم .

ظهور زيد بن علي

بينما كان الغلاة يعملون لعقائدهم يدعون إليها أهل الكوفة باسم آل البيت ، إذا بزيد بن على بن الحسين يظهر فى الكوفة يبشر بإمامته ، وهو رجل من صميم آل البيت ، جده الحسين الذى أظهر الكوفيون شوقهم فى الأخذ بثأره ، فهرع إليه كثرة الكوفيين مجيبين، وسمع بخبره يوسف بن عمر الوالى من سنة ١٢٠ ﻫ إلى سنة ١٢٦ ﻫ فأرسل إليه جيشاً للقضاء على حركته ، ويتجرد زيد لقتال الأمويين ، وفى هذا الوقت الذى يتطلب الاتحاد ، ومجابهة العدو المشترك بجنان ثابت وعقيدة واحدة ، ينشأ الخلاف بين صفوف الشيعة ويثار الجدل ، يريدون أن يعرفوا زيداً وآراءه ونظره إلى التشيع ، وإثارة الجدل ملحظ نشاهده فى جيش الكوفيين منذ قاتلوا مع علىّ فى صفين ، برزت طائفة كبيرة لزيد تستجو به «إنّا ننصرك على أعدائك بعد أن تخبرنا برأيك فى أبى بكر وعمر اللذين ظلما جدك على بن أبى طالب» ، فقال زيد «إنى لا أقول فيهما إلا خيراً وما سمعت أبى يقول فيهما إلا خيراً ، وإنما خرجت على بنى أمية لأنهم قتلوا جدى الحسين وأغاروا على

---

(١) ابن قتيبة ـ عيون الأخبار ج ٢ ص ١٤٧ ، طبعة دار الكتب

المدينة يوم الحرّة ثم رموا بيت الله بحجر المنجنيق والنار » ويذكر الاسفراييني أن هذا الجدل قد حدث بعد أن اشتدت المعركة بينهم و بين الأمويين [١] ، وذلك هو المألوف من هؤلاء الشيعة الكوفيين فى تاريخهم من قبل ؛ انتهى هذا الجدل وهذا الاستجواب الذى يرويه المؤرخون ، بأن رفضت الأكثرية الوقوف إلى جانبه ، وذلك لأنه لم يشايعهم فى بغضهم وعداوتهم لأبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، إذ كان معتدلا مقسطاً ، ويقول المسعودى فى سنة ١٢٢هـ كان ظهور زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب بالكوفة فى نفر يسير وعليها يوسف بن عمر الثقفى ، وقد كان بايعه خلق كثير ثم قعدوا عنه ولم يفوا له ، وأنه قتل وصلب بالكناسة [٢] ؛ ويلاحظ أن المسائل التى أثيرت وموقف زيد منها ، يدل على أن دعوة زيد كانت محاولة لإرجاع التشيع إلى عصره الأول ، حين كان دفاعاً عن الحق والنفس ، ولم يكن فيه تكفير واتهام للغير ، أو طعن فى إخلاصهم فكلهم خير إلا أن علياً أفضلهم لتقواه وقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

كان ظهور زيد بن علىّ على مسرح الحوادث فى الكوفة السبب المباشر فى تمايز هؤلاء المتطرفين ، الذين رفضوا أن يمضوا فى القتال معه إلى نهايته وعرفوا بالروافض [٣] ، فأصبح المجتمع الشيعى أربع فرق (١) طائفة الغلاة وهم الذين يغلون فى حق علىّ وأبنائه ، يحيون فى التشيع نظما وعقائد قديمة لا صلة لها بالإسلام (٢) وفريق الزيدية وهم الذين تابعوا زيداً فى دعوته وهم الشيعة المعتدلون ، وإن كان فريق منهم أسرف حتى ليعد خارجاً عنهم . (٣) وجماعة

---

(١) الإسفرايينى ـ التبصير فى الدين وتمييز الفرقة الناجية عن فرق الهالكين ورقة ١١٥ مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس .

(٢) المسعودى ـ التنبيه والاشراف ص ٣٢٣ ، طبعة ليدن

(٣) هذه التسمية تطلق أيضاً على المخالفين عدا أهل السنة والأمامية وقد كان ذلك هو السبب فى الخلط الذى وقع فيه بعض المتأخرين فى عدم التمييز بين الغلاة والروافض .

الرافضة أو الروافض وهم هؤلاء الذين جادلوا زيداً وحاولوا أن يثنوه عن اعتداله فيجعلوه متطرفاً فى عقيدته ، على نحو ما كانوا يعتقدون ، كما سنتحدث عن ذلك فيما بعد (٤) والفريق الرابع وهم هؤلاء الذين لم ينضموا إلى طائفة من هذه الطوائف الثلاث وهؤلاء عرفوا فيما بعد بالإمامية . والذى يميز هذه الفرق الأربع بعضها عن بعض العقيدة فى الإمام ، فالغلاة إمامهم جعفر الصادق وأبوه محمد الباقر ، والأئمة عندهم آلهة كما تقضى نظرية الحلول ، التى قالوا بها والتى تبين فى أقوال الخطابية كما سنبين ذلك ، والزيدية يعتقدون أن علياً أفضل من صاحبيه أبى بكر وعمر ، وأنه أحق بالخلافة منهما ، ولا يكفرون أحداً فى سبيل هذه الأفضلية ، أما الرافضة فتجعل إمامها محمد بن الحنفية وهو المهدى المنتظر عندهم ، وتنكر الوصية كما تنكرها الزيدية ، وأما الأمامية فيقصرن الإمامة فى أبناء فاطمة ، ويجعلون علياً مستحقاً للإمامة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بوصية مكتوبة أخفيت ، ويعنينا من هؤلاء جميعاً المتطرفون وخاصة الغلاة والرافضة .

يجدر بنا قبل أن نتحدث عن الرافضة والمتطرفين ، أن نلقى نظرة سريعة على المجتمع لنتبين هواه واتجاهه ، لقد سبق أن قلنا أن كندة وعجلا و بجيلة آثرت الغلو ومضت فيه ، أو على وجه أدق كان كثرتهم قد استجابوا للغلو ، كما استجاب كثرة الأزد لزيد وأصبحوا زيدية ، وسبب ذلك يسير لأن ماتواضع عليه الأزديون يصور حالهم أناساً معتدلين فى تشيعهم ، رفضوا أن ينضموا إلى المختار وهددهم بالقتل كما سبق أن أشرنا ، ويروى لنا ابن الكلبى أنهم نظروا إلى جدهم حجر ابن عمران على أنه نبى [١] ، وهذا يهدينا إلى أنهم رأوا فى ذلك غنى عن نسبة النبوة إلى غير أجدادهم ، وإن كان ولابد من نبوة جديدة فنى أنفسهم ، ويظهر أنهم ظلوا محتفظين بما تجيش به صدورهم حتى ظهر زيد بدعوته المعتدلة فانضموا

---

(١) ابن الكلبى ـ الأنساب ورقة ٦٤

إليها ؛ أما مسلك هذه الطوائف ، فالغلاة والرافضة كانا يتحينان الفرص للتمرد والثورة كما يتضح ذلك من تاريخهما ، وأما الإمامية والزيدية فكان بينهما شقاق وعداء يصوره الاسفراييني فيقول « واعلم أن الزيدية والإمامية منهم من يكفر بعضهم بعضاً والعداوة قائمة دائمة[1] » ، كانت الروح الغالبة فى مجتمع الكوفة هى التطرف ، وأن هذه النزعة كانت تدعو إلى الثورة ، ولذلك يصفهم الرواة ، بأنهم قوم لايستقرون على حال و يميلون للثورة ، هذه النزعة ربما كانت هى الدافع الذى جعلتهم يسمون الزيدية المعتدلة بالضعفاء ، أياً ما كان الأمر فشيعة زيد لم تكن ذات سلطان فى الكوفة ، وأن أصحاب هذه العقيدة اضطروا إلى البحث عن أنصار لها خارج الكوفة فى خراسان واليمن بعد زيد ؛ هذا مسلك أهل الشيعة أما أهل السنة فمنهم من تابع الأمويين كسماك الأسدى وأهل بيته ، وتفردت باهلة من بين القبائل جميعاً بانتسابها إلى رأى جماعة المسلمين[2] قال الشاعر .

لو تصفحت أولياء على لم تجد فى جميعهم باهليا

متطرفو الزيدية

تطرف من الزيدية قوم عدهم بعض المؤرخين من الرافضة ، وهم فى ذلك محقون ، لأن عقيدتهم تخرجهم من دائرة الزيدية ، هؤلاء المتطرفون عرفوا بالجارودية ، وهم أصحاب أبى الجارود بن المنذر العبدى ، ولقد أداهم تطرفهم و إسرافهم إلى أن زعموا أن النبى صلى الله عليه وسلم نص على إمامة على بن أبى طالب بالوصف دون التسمية ، فكان هو الإمام من بعده ، وأن الناس ضلوا وكفروا بتركهم إقامته إماماً من بعده ، والاقتداء به بعد الرسول صلى الله عليه وسلم ،

---

(١) الإسفراييني ـ التبصير فى الدين وتمييز الفرق الناجية عن فرق الهالكين ورقة ١٧ مخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس

(٢) ـ الجاحظ ـ البيان والتبيين ج ٢ ص ١٧٧ طبع القاهرة سنة ١٣٣٢ هـ

ويتلو عليا الحسن فالحسين ، وانقسمت هذه الجارودية إلى طوائف اقتبست مذاهب الرافضة ، إذ زعمت إحداها أن محمد بن عبد الله بن الحسن المعروف بالنفس الزكية ، لم يمت وأنه يخرج ويغلب ، وفرقة زعمت أن محمد بن القاسم صاحب الطالقان حى لم يمت وأنه يخرج ويغلب ، وأخرى لها مثل هذا الزعم فى يحيى بن عمر[١] ، الذى قام بحركته فى الكوفة سنة ٢٥٠ هـ . وهنا يجدر بنا أن نشير إلى خطأ وقع فيه فريد لندر ، إذ ذهب إلى أن أبا الجارود أسرف فى عقيدته حتى أنكر إمامة زيد نفسه ، وهو خطأ وقع فيه بسبب خطأ فى طبعة لندن للملل والنحل للشهرستانى ، إذ أضيفت نقطتان فوق ضمير الغائب فقرأ (إمامه) إمامة[٢] زيد فى النص الآتى : « وقد خالف أبو الجارود إمامه (فى الأصل إمامة) زيد بن على فإنه لم يعتقد بهذا الاعتقاد » ، لم ينكر أبو الجارود إمامة زيد ، وإنما خالفه فى كثير مخالفة تجعله بعيداً عن مذاهب الزيدية ؛ ويصف النوبختى الجارودية فيقول « فسموا كلهم فى الجملة زيدية إلا أنهم مختلفون فيما بينهم فى القرآن والسنن والشرائع والفرائض والأحكام » هذا والمذاهب الزيدية الأخرى ـ حتى المعتدلة منها ـ لم تخل من إسراف ، إذ أنهم ينتقصون عثمان وطلحة والزبير ، ويرون الخروج مع من خرج من ولد على رضوان الله عليه ، يذهبون فى ذلك إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر[٣] . قلنا أنه لم يكن للزيدية شأن يذكر فى الكوفة ولذا يكفينا ماقد ذكرناه من أمرهم .

---

(١) ـ الأشعرى ـ مقالات الإسلاميين ص ٦٧ جـ ١ . طبعة استانبول والبغدادى ـ الفرق بين الفرق ص ٢٢ و ص ٢٣ . طبعة بدر ، الشهرستانى على هامش ابن حزم جـ ١ ص ٢١٢ و ص ٢١٣ و ص ٢١٤ . طبعة القاهرة سنة ١٣١٧هـ والمسعودى ـ مروج الذهب جـ ٢ ص ١٤٤ طبعة بولاق .

(٢) الملل والنحل ص ١١٨ ط لندن .

(٣) النوبختى ـ فرق الشيعة ص ٥٠ ، ص ٥١ طبعة استانبول ، وراجع فريد لندر . J. A. O. S. vol (29), p. 22 ـ ولقد لعب هذا المذهب دوراً خطيراً =

الرافضة

سبق أن ذكرنا أن أغلب من بايع زيداً قعد عنه ، وأنهم منذ ذلك الوقت عرفوا بالروافض ، ولقد خاض القدماء والمحدثون فى سبب هذه التسمية ، تحدث عن ذلك الشهرستانى فى الملل والنحل حين تكلم عن الرافضة ، كما تناول الأمر الأستاذ الدكتور حسن إبراهيم حسن فى تاريخ الإسلام السياسى ص ٥٠٢ و ص ٥٠٣ ، وهذا يغنينا عن الخوض فى هذه المسألة ، وخاصة أنها تخرج عن الدائرة التى رسمناها لأنفسنا .

كان هؤلاء الرافض يعملون على مسرح الحياة ، وعلى أرض الكوفة فى جلاء ، ولعل هذا هو الذى جعل الناس يخلطون بينهم و بين الغلاة ، الذين كانوا يدبرون أمورهم فى خفاء ، كانت آراء الرافضة معروفة ، تناولها الجاحظ وغيره من الكتاب بالنقد ، وهاجمها المعتزلة وكان بينهما صراع جدلى ، كان يثار فى المجالس الخاصة ، حتى إذا لقوا العامة أخفى الروافض حقيقة أمرهم خشية منهم ، ولقد حفظ صاحب الانتصار طرفاً لا بأس به من هذا الجدل ، الذى أثاره ابن الراوندى حول ما كتب الجاحظ المعتزلى ، كما حفظ لنا المسعودى فى مروج الذهب طرفاً مما كان يجرى فى مجالس البرامكة ، من مسائل كانت تثار ويدلى فيها الروافض بآرائهم ، إذن فنحن فى أمن من الشك والريب فيما نقرأ عن هؤلاء الروافض ، إذ نستطيع أن نجد السبيل إلى مذاهبهم أو عقائدهم على وجه أصح .

الأصل الأول للعقيدة هو الرجعة

قال صاحب العقد الفريد « والروافض كلها تؤمن بالرجعة وتقول لا تقوم

= فى بغداد فى فترة النزاع بين الأمين والمأمون وهدد بزوال الحكم العباسى ، وكبار أتباعه من الشيعة كانوا من رجال الفقه والحديث منهم سفيان بن سعيد الثورى وابن أبى ليلى والفضل بن دكين (ص ٧ فرق الشيعة للنوبختى طبعة استانبول) .

الساعة حتى يخرج المهدى وهو محمد بن على (ابن الحنفية) فيملؤها عدلا كما ملئت جوراً ويحيى لهم موتاهم فيرجعون إلى الدنيا ويكون الناس أمة واحدة[1] » ويظهر أن هذا قول الأكثرية ، لأن الأشعرى يقسمهم إلى رأيين فى الرجعة[2] : الأول وهو السائد : وهو أن الأموات يرجعون إلى الدنيا قبل يوم الحساب ، وهذا قول الأكثرية منهم ، وزعموا أنه لم يكن فى بنى إسرائيل شىء ، إلا ويكون فى هذه الأمة مثله ؛ والرأى الآخر : وهو رأى القلة الذين ينكرون القيامة والآخرة ، فيقولون ليس هناك قيامة ولا آخرة ، وإنما هى أرواح تتناسخ فى الصور ، فمن كان محسناً جوزى بأن ينقل روحه إلى جسد لا يلحقه فيه ضرر ولا ألم ، ومن كان مسيئاً جوزى بأن ينقل روحه إلى أجساد يلحق الروح فيها الضرر والألم ، وليس شىء غير ذلك ، وأن الدنيا لا تزال هكذا أبداً ، والنوبختى يؤيد الأشعرى فى ذلك ، ويصور عقيدتهم فى تناسخ الأرواح العاصية الكافرة فى أجساد ، هى بين دباغ أو حجام أو كناس أو غير ذلك من الصناعات المذمومة القذرة ، على قدر معصية العاصى[3] ؛ والمتأمل فى هذين الرأيين يرى الأول من تأثير اليهودية ، والآخر أنه كان تأثراً بالغلاة الخطابية أو بالفلسفات التى كانت بالقرب منهم .

ومن الذين يعتقدون فى الرجوع قبل يوم الحساب قوم ، يذهبون إلى أن على ابن أبى طالب سيرجع إلى الدنيا ، فيقتل معاوية بن أبى سفيان وآل أبى سفيان ويهدم دمشق ويغرق البصرة[4] ؛ ولهم فى علىّ كرم الله وجهه معتقدات يزعمون أنه فى السحاب ، فإذا أطلت عليهم سحابة قالوا السلام عليك يا أبا الحسن ،

---

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٤٠٦ — ط لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٢) مقالات الاسلاميين ج ١ ص ٤٦ طبعة استانبول .

(٣) فرق الشيعة ص ٣٦ ، ص ٣٧

(٤) المصدر السابق ص ٣٧

معتقدين أنه لم يقتل ، وأنه حى لم يمت ، وأنه فى السحاب ، وأنّ الرعد صوته ، والبرق سوطه ، وأنه ينزل إلى الأرض [١] بعد حين ، قال الشاعر مندداً بهذه العقيدة

برئت من الخوارج لست منهم   من الغزال منهم وابن باب
ومن قوم إذا ذكروا عليا   يردون السلام على السحاب
ولكنى أحب بكل قلبى   وأعلم أن ذاك من الصواب
رسول الله والصديق حقا   به أرجو غداً حسن الثواب

ويلاحظ أن الرجعة مقرونة بالكيسانية ، فاعتقاد الروافض بها ينبىء أنهم خلفاؤهم ، أوهم الكيسانية نفسها التى بدت فى الأفق مع المختار بن أبى عبيد ، قد استكملوا عقائدهم فى القرن الثانى الهجرى ، ويلاحظ فريد لندر أن الرجعة ملازمة لعلىّ كرم الله وجهه ولابنه محمد بن الحنفية [٢] ، على أن البغدادى يذكر جماعة يسمون المحمدية ، يعتقدون فى الرجعة وينتظرون محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب ، الذى قتله جيش المنصور سنة ١٤٥هـ فى المدينة ، وهو المعروف بالنفس الزكية ، يرونه المهدى المنتظر ولا يصدقون بموته ، ويزعمون أنه فى جبل حاجر من ناحية نجد ، وأنه سيظل فيه إلى أن يؤمر بالخروج [٣] ؛ ومن الذين يعتقدون فى تناسخ الأرواح قوم ، يأخذون البغال والحمير يضربونها ويعذبونها بالحرمان من الشراب والطعام ، معتقدين أنها تحمل روح أبى بكر أو عمر رضى الله عنهما ، ولم يقف الأمر عند هذين الشيخين الجليلين ، بل تجاوزهما إلى أم المؤمنين رضى الله عنها ، وذلك بأن كانوا يأخذون عنزة تضرب وتعذب لأن روح عائشة أم المؤمنين قد حلت فى هذا الحيوان المسكين [٤] .

---

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٤٠٥ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر والخطط للمقريزى ج ٢ ص ٣٥٢ طبعة بولاق

(٢) فريد لندر J.A.O.S. vol(29),p. 25

(٣) البغدادى ـ الفرق بين الفرق ص ٤٢ . طبعة بدر

(٤) J. A.O S ,(28A.),P.58.

الأصل الثانى للعقيدة ـ الدين طاعة رجل

كما كانت الرافضة أمة واحدة فى الرجعة فى صورها المختلفة ، كان يجمعهم القول بأن الدين طاعة رجل ، وهذا الرجل هو الإمام كما هو واضح من عقيدتهم ، وكان لهم فى أئمتهم مذاهب انقسموا فيها إلى ثلاثة مذاهب :

١ ـ من يرى أن الأئمة لا يكونون أفضل من الأنبياء ، وهؤلاء جوزوا أن يكونوا أفضل من الملائكة .

٢ ـ من يراهم أفضل من الملائكة دون احتمال

٣ ـ من يرى أن الأنبياء والملائكة أفضل من الأئمة ، وهؤلاء هم الذين عاشروا المعتزلة وأخذوا منهم .

وينقسمون إلى فريقين فى علم الإمام : ـ

(١) فريق يرى أنه يعلم كل ما كان وكل ما يكون ، ولا يخرج شىء من علمه من أمر الدين ولا أمر الدنيا ، فكأنه إله الأرض الذى زعمه بيان بن سمعان التميمى ، وهؤلاء زعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعرف الكتابة وسائر اللغات ، وسيقوا إلى ذلك تطبيقا لنظرهم إلى الإمام .

(٢) وفريق يرى أن الإمام يعلم كل الأمور الشرعية والأحكام ، ولكنه لم يحط بغيرهما علماً[1] .

والإشارة إلى الإمام وعقيدتهم فيه تسوقنا إلى عقيدتهم فى الإله ، والرافضة وإن كانوا قد اعترفوا بالنبوة ، إلا أن معبودهم يخالف ما يعرفه أهل السنة ، وهم لا يجتمعون على وصف واحد لهذا الإله الذى يرونه من نور ، وأشهر أقوالهم عنه[2] .

١ ـ من قال إنه جسم وله نهاية وحد ، طويل عريض عميق ، وزعموا أنه من نور ساطع .

---

(١) راجع ذلك كله فى مقالات الإسلاميين للأشعرى جـ ١ من ص ٤٧ إلى ص ٥٠ طبعة استانبول . (٢) المصدر السابق من ص ٣١ إلى ص ٣٥ .

٢ ـ من قال إنه على صورة الإنسان ، وينكرون أن يكون لحماً ودماً ، وهو نور ساطع .

٣ ـ من قال أن ربهم ضياء خالص ، وأنكروا أن يكون على صورة الإنسان وهم بعد ذلك يختلفون إلى مذاهب كثيرة من حيث صفات الله و إرادته . وصف الجاحظ عقيدتهم فى الإله فقال « وتكلمت هذه الرافضة فقالت جسيما وجعلت له (للإله) صورة وحدا ، وأكفرت من قال بالرؤية على غير التجسيم والتصوير »[١]

مميزات الرافضة

أولاً ـ سب الصحابة

ومن أظهر سجايا هؤلاء الرافضة بغضهم لصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذين خالفوا علياً أو حاربوه ، ودعا هذا الحقد إلى أن سبّ بعضهم الصحابة على نحو يأباه الذوق السليم ، وينكره من أوتى حظاً من احترام لخصمه ، أو تقديراً لطبيعة العقل الإنسانى ، سلطوا عليهم لسانهم الذى لا يعرف الحياء ولا العفة ولا الإبقاء على الحرمات وعرفوا فى الحياة بالسبابة[٢] ، لا لسبب إلا لأنهم خالفوا علياً كرم الله وجهه ، أو وقفوا فى صف أعدائه ، وتلك كانت جريمتهم عند الرافضة ، وكأن الخلاف السياسى خلاف فى العقيدة ، سبوا الصحابة سباً يحمل فى طياته الحقد والرغبة فى الثلب ، وخاصة الشيخين الجليلين أبا بكر وعمر[٣] ؛ هو مذهب لو تأملناه ورحنا نقرأ حوادث التاريخ ، لرأيناه تطوراً لنفس الفكرة التى ولدت مع حركة عبد الله بن سبأ اليهودى ، التى أثارها ضد عثمان

---

(١) الجاحظ ـ رسالة بنى أمية ص ٢٣ ـ القاهرة سنة ١٩٤٦

(٢) يرجع بعض الباحثين التسمية إلى رجل اسمه عبدالله بن سباب قيل إن علياً نفاه إلى الجازر ولكن هذا الاحتمال بعيد لأن هذه الفرقة لم تعرف إلا فى عصر متأخر ويبدو أن التسمية جاءت من تسليط لسانهم نحو الصحابة رضوان الله عليهم

(٣) فريد لندر J. A. O. S. (29), p, 143, (28A),70

رضى الله عنه ، والتى كانت تتضمن الطعن والنعى على أفعاله ، تطورت هذه الفكرة إلى هذا النحو العجيب ، الذى يصور إسراف هؤلاء الرافضة ، كما هو شأن المتطرفين فى الكوفة فى هذا العصر الذى نتحدث عنه .

ولئن كان السب قد نسب إلى بعضهم ، فجميعهم يرون الصحابة قد كفروا بمخالفتهم علياً ، وهذا ما يفهم مما يورده الخياط المعتزلى « وأما ما رماهم به من اكفار الصحابة والطعن عليهم (قال) فإنى لا أعلم بين الشيعة اختلافا فى كفر من أكفر من الصحابة وسأصف لكم جملة من قولهم يستدلون بها على أن الجاحظ لا يخلو من أن يكون بهت القوم أو جهل قولهم يقال له قد علم الجاحظ أن الرافضة ليس تكفر على بن أبى طالب ولا الحسن ولا الحسين ولا سلمان ولا المقداد مع ثلاثة أو اربعة من الصحابة ولكن خبر عنهم أنهم يكفرون المهاجرين والأنصار جميعاً إلا نفراً خمسة أو ستة هذا قولهم المعروف المشهور فأما اكفار الجماعة حتى لا يبقى منهم أحد فلم يخبر بذلك الجاحظ عنهم [١] » وهذا التفسير الذى نعته الرافضة على الجاحظ ، يبدو أنه تفسير لعبارة عامة أوردها الجاحظ ، أن الرافضة تكفر الصحابة ، فأوخذ على هذا التعميم ، ولعل الذى دعا الجاحظ إلى هذا التعميم ، هو أن طائفة من هؤلاء الروافض لم يبق من الصحابة أحداً على الإسلام ، وهى الكاملية التى أخذت اسمها من منشئها أبى كامل ، الذى قال بكفر جميع الصحابة بتركها بيعة علىّ رضوان الله عليه ، ثم طعن فى علىّ نفسه بتركه حقه لأبى بكر وعمر وعثمان ، ويرى أن ليس له عذر فى القعود عن المطالبة به ، وكان يجب عليه أن يخرج ويظهر الحق ، ولهذا فعلىّ استحق لعنتهم وسلاطة لسانهم ، وقيل إن بشار بن برد كان يميل إلى هذا المذهب [٢] . أسرف الرافضة فى وصف

---

(١) الانتصار ص ١٣٧ ، ص ١٣٨ — القاهرة سنة ١٩٢٥

(٢) الأشعرى — مقالات الإسلاميين جـ ١ ص ١٧ طبعة استانبول والبغدادى — الفرق بين الفرق من ص ٣٩ إلى ص ٤٢ طبعة بدر — والشهرستانى الملل والنحل ص ١٣٣ طبعة لندن .

الصحابة إسرافاً جعلهم يرونهم منافقين فى أيام الرسول ، وهذا يتضح مما يذكره الخياط المعتزلى « والرافضة بأسرها تزعم أن أبا بكر وعمر وعثمان وأبا عبيدة بن الجراح وجلة المهاجرين وخيار الأنصار لم يزالوا منافقين فى حياة رسول الله وأنه قد نزل فى نفاقهم وعداوتهم لله ولرسوله آى كثير منه (ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلاً) ـ ومنه ـ (أفمن يمشى مكباً على وجهه أهدى أمّن يمشى سوياً على صراط مستقيم) فى آى كثير تزعم الرافضة أنها نزلت فى أبى بكر وعمر وأشباههما من أهل السابقة والفضل [١] » ، وهذا المذهب فى تفسير القرآن وفق هواهم يبدو أنهم إقتبسوه من الغلاة ، لأنه لم يظهر قبلهم ، وهذا يؤيد القول فى ظهور هؤلاء السبابة فى عصر متأخر .

ثانياً ـ قولهم فى القرآن ولهم فيه رأيان مشهوران يتلخصان فيما يلى : ـ

١ ـ القرآن قد جاءهم ناقصاً ، ويقولون إنه قد ذهب منه كثير ، على أن الإمام يحيط علماً به .

٢ ـ أن القرآن قد زيد فيه (والنسخة المنشورة للأشعرى لا تتعرض بذكر لهذا الرأى ولعل ذلك راجع إلى أن هذا الرأى كان يعتنقه قلة أو سقط من المخطوطة التى نشرت) .

فليس عجيباً إذَنْ أن تكون تلاوة القرآن تحنقهم ، ولا ترضى شعورهم فينفرون من سماعه ، وهذا ما لاحظه الخياط المعتزلى قال « فلم صارت الرافضة تغتاظ إذا تلى عليها القرآن حتى صارت تفزع لقراءته وتغتاظ لتلاوته . . [٢] » هذا التساؤل لا محل له ، إذا عرفنا رأيهم أن القرآن الذى يسمعونه ليس القرآن الذى يرتاحون إليه ، لأنه فى رأيهم إما قد ناله نقصان أو زيادة .

---

(١) الانتصار ـ ص ٢٤١ ـ القاهرة سنة ١٩٢٥

(٢) المصدر السابق ص ١٥٠ ، ١٥١

الرافضة فى المجتمع

هذه المعتقدات التى دان بها الرافضة جعلتهم ينشئون لأنفسهم نظاماً خاصاً لا يقبلون مايقبله المعتزلة والشيعة والخوارج والمرجئة، أذانهم وصلاتهم غير صلاة المسلمين، وكذلك عتقهم وطلاقهم وحجهم، لهم فقهاؤهم وأئمتهم وطريقتهم فى قراءة القرآن وتفسيره، ويجمل الجاحظ وصف الرافضى فى قوله « وحلاله غير حلالنا وحرامه غير حرامنا فلا نحن منه ولا هو منا (١) » ويصفهم صاحب الانتصار قائلا « وكيف لا يخرج أهل الإمامة بأسرهم من الإجماع وقد خالفوا الأئمة فى أكثر ماسنّ لهم وفرض عليهم ؟ فعرف ذلك من قولهم فى الطهور والصلاة والأذان وفى عدد الصلاة وفى التشهد وفى الفرائض حتى كان المبعوث إلينا غير المبعوث إليهم فبهذا ونحوه أخرج المسلمون أهل الإمامة من الإجماع (٢) » ولم يقف الأمر على بغض عقيدتهم وإبداء الرأى فيها، وإنما تطوع قوم بوضع الأحاديث على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم تصور حال الرافضة، لتؤكد خروجهم عن الإسلام، ففى حديث يرويه عمرو بن سلمة الهمدانى « أن قوماً يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية وأيم الله ماأدرى لعل أكثرهم منكم » وآخر يرويه الفضل بن غانم يقول « دخل علي وفاطمة على رسول الله فقال : أنت وأصحابك فى الجنة، إلا أن ممن يحبك قوماً يضفرون (٣) الإسلام بألسنتهم يقرأون القرآن لايجاوز تراقيهم لهم نبز يسمون الرافضة (٤) فإذا لقيتهم فجاهدهم فإنهم مشركون، قال قلت يارسول الله : ماعلامة

---

(١) الجاحظ — حجج النبوة . رسالة ص ١٢٢ وص ١٢٣ . القاهرة ١٩٣٣ ،

(٢) الخياط المعتزلى — الانتصار ص ١٦٤ . القاهرة ١٩٢٥ .

(٣) يضفرون الإسلام : يلقنونه ثم يتركونه ولا يقبلونه (النهاية لابن الأثير) .

(٤) نبز لقب (اللسان ، والنهاية) .

ذلك فيهم ؟ قال يتركون الجمعة والجماعة و يطعنون فى السلف [(١)] » و يجعلون الشعبى يصف عقيدتهم و يقارن بينها و بين عقائد اليهود والنصارى ، قال مالك بن معاوية قال لى الشعبى وذكر الرافضة « يامالك لو أردت أن يعطونى رقابهم عبيداً وأن يملأوا بيتى ذهبا علىّ على أن أكذب لهم على علىّ (رضى الله عنه) كذبة واحدة لقبلوا ، ولكنى والله لا أكذب عليه أبداً ، يامالك : إنى درست الأهواء كلها فلم أر قوماً أحمق من الرافضة ، فلو كانوا من الدواب لكانوا حميراً أو كانوا من الطير لكانوا رخماً ، ثم قال : أحذرك الأهواء المضلة شرها الرافضة فإنها يهود هذه الأمة يبغضون الإسلام كما يبغض اليهود النصرانية ولم يدخلوا فى الإسلام رغبة ولا رهبة من الله ولكن مقتاً لأهل الإسلام ونعياً عليهم ، وقد أحرقهم على بن أبى طالب رضى الله عنه بالنار ونفاهم إلى البلدان ، منهم : عبد الله بن سبأ نفاه إلى ساباط وعبدالله بن سباب نفاه إلى الجازر وأبو الكروس ، وذلك أن محنة الرافضة محنة اليهود ، قالت اليهود : لا يكون الملك إلا فى آل داود ، وقالت الرافضة : لا يكون الملك إلا فى آل على ، وقالت اليهود : لا يكون جهاد فى سبيل الله حتى يخرج المسيح المنتظر و ينادى مناد من السماء ، وقالت الرافضة : لا جهاد فى سبيل الله حتى يخرج المهدى و ينزل سبب من السماء ، واليهود يؤخرون صلاة المغرب حتى تشتبك النجوم وكذلك الرافضة ، واليهود لا ترى على النساء عدة وكذلك الرافضة ، واليهود تستحل دم كل مسلم وكذلك الرافضة ، واليهود حرفوا التوراة وكذلك الرافضة حرّفت القرآن ، واليهود تبغض جبريل وتقول هو عدوها من الملائكة ، وكذلك الرافضة تقول : غلط جبريل فى الوحى إلى محمد بتركه على ابن أبى طالب ، واليهود لا تأكل لحم الجزور وكذلك الرافضة ، ولليهود والنصارى فضيلة على الرافضة فى خصلتين ، سئل اليهود من خير أهل ملتكم ؟

---

(١) الخطيب البغدادى – بغداد جـ١٢ ص ١٦٣ و ص٣٥٨ .

فقالوا : أصحاب موسى ، وسئلت النصارى ، فقالوا : أصحاب عيسى ، وسئلت الرافضة من شر أهل ملتكم ؟ فقالوا أصحاب محمد ، أمرهم الله بالاستغفار لهم فشتموهم فالسيف مسلول عليهم إلى يوم القيامة ، لا تثبت لهم قدم ، ولا تقوم لهم راية ولا تجمع لهم كلمة دعوتهم مدحورة وكلمتهم مختلفة وجمعهم مفرق كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله » ويقول أيضاً الشعبى عند سماعه الرافضة « لقد بغضوا إلينا حديث على بن أبى طالب [1] » .

أما وصف أخلاقهم فقد تولاه البغدادى [2] قال « روافض الكوفة موصوفون بالغدر والبخل ، وقد سار المثل فيهم حتى قيل : أبخل من كوفى وأغدر من كوفى ، والمشهور من غدرهم ثلاثة أشياء . أحدها : أنهم بعد قتل على رضى الله عنه ، بايعوا ابنه الحسن ، فلما توجه لقتال معاوية غدروا به فى ساباط المدائن فطعنه سنان الجعفى فى جنبه فصرعه عن فرسه ، وكان ذلك أحد أسباب مصالحة معاوية ، والثانى : أنهم كاتبوا الحسين بن على رضى الله عنه ودعوه إلى الكوفة لينصروه على يزيد بن معاوية ، فاغتر بهم وخرج إليهم فلما بلغ كربلاء غدروا به وصاروا مع عبيد الله بن زياد يدا واحدة عليه حتى قتل الحسين وأكثر عشيرته بكربلاء ، والثالث : غدرهم بزيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب بعد أن خرجوا معه على يوسف بن عمر ثم نكثوا بيعته وأسلموه عند اشتداد القتال حتى قتل ، وكان أمره ما كان » وظاهر أن عبد القاهر البغدادى يرجع بأصل الرافضة إلى أيام على كرم الله وجهه ، ويراهم خلفاء الشيعة الغادرين السابقين وهو نفس الرأى الذى ذهبنا إليه حين تحدثنا عن السبئية .

على أننا لا نستطيع أن نختم القول فى هؤلاء الرافضة ، دون أن نشير إلى أن

---

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٤٥٩ وص ٤١٠ ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ،

(٢) الفرق بين الفرق ص ٢٦ طبعة بدر .

هؤلاء الناس لم يكونوا فرقاً بالمعنى المفهوم ، و إنما كانت لهم آراء ، يتبع هذا رأيا وذاك آخر ، دون أن ينظموا أنفسهم فى جماعات مستقلة فى الرأى عدا القليل منهم كالكاملية ، مثلهم فى ذلك مثل أهل السنة الآن ، يتبعون هذا المذهب أو ذاك ، دون أن يتكتلوا ، ولكنهم يتميزون بخصلة هى التعصب الشديد لما يعتنقون من آراء ، هذا و إن عقيدتهم خليط من الديانتين اليهودية والنصرانية ، والعقيدة القديمة فى العراق وهى النور وهى عقيدة الماندية [١] .

ظهور الإباحيين الغلاة

لم تكد تمضى بضع سنوات على ظهور المغيرة بن سعيد العجلى بعقيدته ، حتى أخذت المذاهب الغريبة عن الإسلام تترى متطورة لتستكمل أداتها ، يساعد على قبولها ذلك الفقر الذى بليت به الكوفة ، والذى أشرنا إليه فى مطلع هذا الفصل ، و يمهد لها سبيلها فى نفوس الحانقين على نظام الحكم القائم ، ما كان يجرى عليه رجال الدولة من عداء لأهل الشيعة ، و إنقاص نصيبهم فى الفىء وحرمان طائفة الموالى ، ذلك الحرمان الذى كان يحز فى نفوسهم و يملؤهم حنقاً و بغضاً ، [٢] والذى حفز بعضهم أن يحتالوا على هدم هذا النظام القائم ، بتلقين عقائد جديدة ، استمدوا أصولها من الديانات القديمة التى كانت قد توطنت فى العراق ، ثم

---

(١) سبق أن أشرنا إلى عقيدة الماندية ونريد هنا أن نذكر ما استخلصه برانت من وصفهم للاله من كتابات لهم يرجح أنهم كتبوها إما فى القرن الرابع أو الخامس الميلادى ، أى قبل دخول الاسلام بقرنين ، يصفون فيها ربهم بأنه « الواحد هو ملك النور المتسامى فى مملكته هو رب الكائنات العلوية ، مصدر كل خير خالق كل الأشكال ذو عظمة وخير غير متناهيين ممجد من الملائكة الذين يقفون بحضرته ، ويسكنون فردوسه » ومن عقيدة الماندية التى استخلصها أيضاً كاتب البحث « أن الأرض والسماوات بكل ماتحوى من كواكب ونجوم ورياح ونار وزرع وحيوان وكائنات بشرية مخلوقة بأمر ملك النور بواسطة عترا (ملك) يسمى جبريل السفير»

(٢) Wellhausen : The Arab Kingdom, 278, 279

اندفعوا يجاهرون بعدائهم ومعهم المحنقون أمثالهم ، يقتلون ويشيعون الذعر فى المجتمع ، ثم تطورت هذه الثورة بظهور الغلاة الإباحيين ، الذين اقتبسوا من المزدكية ماتميزت به من إباحية وتحلل من القيود الخلقية ، وأتوا بعقائدجديدةتعارض الإسلام والنظام الذى أقامه على أساس مدنى مستمد من أقوم الأسس والمبادىء الكريمة ، هى عقائد تبدت لتحرر صاحبها من قيود الأخلاق ولتحطم نظام الأسرة القائم على صيانة الحرمات ؛ أعلن الغلاة مذاهبهم ونشطوا فى إعلان الإباحية فى سبيل القضاء على الإسلام ، وساعدهم على ذلك اتفاق ظهورهم إبان اضطراب الأمر أواخر الدولة الأموية ، وانشغال أولى الأمر بقمع الثورات المتوالية .

وبدأ دور الغلاة الإباحيين فى حقيقة الأمر بظهور عبد الله بن معاوية ، الذى رنا ببصره نحو الكوفة ، يبتغى لآل بيته أنصاراً ، وكان أهل الكوفة قد أسقطوا آل بيته من حسابهم ، أو غفلوا عنهم ولم يفكر فيهم المتشيعيون ، سعى إلى الكوفة يقدم نفسه إلى أهلها ، يزكيه أنه ابن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، من ذرية ذلك البطل الذى شهد له السابقون الأولون بالجرأة والشجاعة والمركز الوطيد ، لم تكد تطأ أقدامه أرض المصر حتى رأى ماحدّث نفسه به يتبدد مع الرياح ويذهب مع الأحلام ، خاب ظنه لأن أهل الكوفة لم يستجيبوا له ، واضطر أن يهجر الكوفة مع قليل من أهلها ، مصراً على الإبقاء على أمله ، ولكن فى موضع آخر ، قال صاحب الأغانى : « فاجتمع إليه وبايعه بعض أهل الكوفة ولم يبايعه كلهم وقالوا : مافينا بقية ؛ قد قتل جمهورنا مع أهل هذا البيت وأشاروا عليه بقصد فارس وبلاد المشرق [1] » وهنا نقف لنقول إن ظهور عبد الله ابن معاوية فى الكوفة يلتمس الأنصار ولا يجد إلا نفراً قليلا يؤازره ، ولا يستطيعون أن يؤلفوا حزباً يؤيده ، ويواجه به السلطان إذا أعلن عن نفسه

(١) الأغانى — ج ١١ ص ٧٠ — الساسى القاهرة سنة ١٣٢٣ هـ .

وقاوم السلطان أو تصدى له ؛ يصور أن كثرة الكوفيين المتشيعين لم يكونوا يرون فى إمامته أو فى بيته مايضفى عليه صفة الإمامة ، أو يعطيه حقاً فيها ، وهم فى ذلك إنما يستجيبون لما وقر فى نفوسهم نحو آل البيت ، فهم قد ألفوا الإمامة فى على وأبنائه رضوان الله عليهم ؛ وأنها أصبحت فيهم تقليداً ، ولم يكن من اليسير هدم مابناه الزمن ؛ لم يكن الغلاة فى الكوفة على استعداد لقبوله أيضا ؛ لأن أنصارهم استقر فى أذهانهم أن حق الإمامة إنما هو لعلى وأبنائه ، وعملت الدعاية الواسعة التى جعلت من علىّ وذريته مثلاً عليا ، لمن ابتغى الإمام الحق والهادى المثالى والحاكم العادل ، فى تثبيت هذه الفكرة فى قلوبهم ، فليس عجيباً أن يرجع عبدالله ابن معاوية خائبا ، ويلتمس لنفسه أنصاراً فى غير الكوفة ، حيث لاسبيل إلى إيجاد عقيدة تقوم على غير على وأهل بيته ، وما هذا التعليل الذى قيل – أن ليس فيهم بقية – إلا عذر يصرفونه به ، لأنه فى هذه الفترة كان المتشيعون ماضين فى ثورتهم لايكلّون ولايهدأون ، إما تحت قيادة الحسين بن أبى منصور العجلى ، الذى خلف والده فى رياسة الخناقين ، وإما تحت قيادة أبى الخطاب الأسدى ، الذى سنتحدث عنه فيما بعد ، وقاموا بمظاهرة خطيرة أفزعت الوالى .

تمكن الأمل من عبد الله بن معاوية ، وهداه حظه أن يتجه إلى المشرق ، متبعاً فى ذلك رأى من بين له الصراط المستقيم ، وإشارة من محضه النصح خالصاً ، اتجه نحو فارس واستقر به النوى فى أصبهان ، وهناك وجد ضالته فى رجل يدعى عبد الله بن الحارث[1] ، استطاع أن يجذب إليه الأتباع ، ويكون له فرقة تستمع

---

(١) عبد الله بن الحارث هو رجل من المدائن من شذاذ الشيعة . بعد موت عبد الله ابن معاوية أصبح هذا الرجل زعيم الطائفة ومن ثم عرفت بالحارثية التى يصفها الشهرستانى (الملل والنحل ص ١١٣ طبعة لندن) أنهم يعيشون عيشة الرجل الذى يرى أن ليس شيئاً محرماً ، على أن هذا الرجل أفاق وتاب بعد ذلك وأعلن توبته صراحة لأتباعه وأظهر لهم فساد عقيدتهم إلا أنهم لم يصدقوه وظلوا على عقيدتهم

لتعاليمه وتدين له بعقيدتها ، ويصف لنا النوبختى هؤلاء الأتباع ، بأنهم كانوا من شذاذ صنوف الشيعة(١) ، وكان عبد الله بن معاوية يمتاز بسحر فى البيان وحسن فى تصريف فنون القول ، كان فيهما مضرب المثل .

لم يكد عبد الله بن معاوية يرسل دعوته إلى هذا الإقليم ، الذى استقر فيه حتى كثر المستجيبون له ، وتمكن بأنصاره أن يوطد سلطانه وسيطرته ، وأن يضرب السكة باسمه ، وعرف أتباعه بالجناحية نسبة إلى جده جعفر الطيار ذى الجناحين ، اللذين يطير بهما فى الجنة . على أن هنا نقطة نريد أن نجليها ، وهى أن هؤلاء الجناحية كان أكثرهم من فارس وقلتهم كانوا من الكوفة ، وليس من اليسير أن نعرف هوية هؤلاء الكوفيين قبل انضمامهم إلى عبد الله بن معاوية ، لأن المصادر التى بين أيدينا لا تحدثنا بشىء عن سيرتهم ، ولا عن القبائل التى كانوا منها ، ولا عن الطائفة أو الطوائف المتشيعة التى كانوا يظاهرونها قبل انتسابهم إلى هذا العلوى ، على أنه من المظنون أنهم كانوا من المتطرفين ، الذين تستهويهم المذاهب المسرفة . وليس بشىء مايقوله البغدادى ، أن المغيرية الذين تبرأوا من المغيرة بن سعيد بعد قتل محمد بن عبد الله بن الحسن المعروف بالنفس الزكية ، خرجوا من الكوفة إلى المدينة يطلبون إماماً ، فلقيهم عبد الله بن معاوية فدعاهم إلى نفسه ، زاعماً أنه الإمام بعد علىّ وأولاده من صلبه ، فبايعوه على الإمامة ورجعوا إلى الكوفة(٢) ، ذلك لأن هذا القول يتعارض مع التاريخ ويدل على خلط شديد ، يتعارض مع التاريخ لأن عبد الله بن معاوية ظهر فى الكوفة أيام يزيد الناقص ، وظل بأصبهان بعد مغادرته الكوفة حتى قتل سنة١٢٩ ه ، أى قبل ظهور محمد النفس الزكية الذى قتله جيش المنصور سنة١٤٥ه بستة عشر عاما، ويدل على الخلط لأن نجاح عبد الله بن معاوية كإمام كان فى فارس ، ولم يكن فى المدينة ، وأن المغيرية حين ظاهرت النفس الزكية فى المدينة لم يكن عبد الله بن معاوية حيًّا ،

(١) فرق الشيعة ص ٣١ ط . استانبول
(٢) البغدادى ـ الفرق بين الفرق ص ٢٣٥ طبعة بدر

وأنهم رجعوا لينضموا إلى إخوانهم الغلاة الإباحيين من الخطابية فى الكوفة .

ألهمت البيئة عبد الله بن معاوية فاستطاع أن يكوّن عقيدة ، لقيت رضا وهوى وإخلاصاً من معتنقيها ، هى إلباس التشيع ثوب الإباحية السافرة ، المشتقة من عقائد الفرس القديمة ، التى نشرها أمثال مزدك ، هذا الثوب طرّز بعقيدة تأليه الإمام وإنكار مابعد الموت ، ليهنأ التابع بلذة لا ينغصها بعث وحساب وعقاب ، وجاد خياله ببدعة أضفت على آل بيته تفرداً بين الناس أجمعين ، إذ خلع عليهم كسوة العلم الإلهى ، يجيش فى صدورهم دون حاجة إلى معلم أو مرشد ، ويصوّر لنا المقريزى ذلك كله فى قوله « وزعم أنه إله وأن العلم ينبت فى قلبه كما تنبت الكمأة وأن روح الإله دارت فى الأنبياء كما كانت فى علىّ وأولاده صارت فيه » ، ويقول عن الجناحية « ومذهبهم استحلال الخمر والميتة ونكاح المحارم وأنكروا القيامة [1] » ، هذا الوصف الذى يقول به المقريزى يجمع عليه واصفو العقائد ، ويضيف البغدادى أنهم أسقطوا وجوب العبادات [2] ، ويبدو لى أنها إضافة استنتجها من عقيدتهم ، لأنها فكرة الخطابية يتدينون بها كما سنصف ذلك عند الحديث فى عقيدتهم .

ينسب بعض المؤرخين إلى عبد الله بن معاوية أنه عارض القرآن فى بيانه ونظمه [3] ، وهى الفكرة التى أضيفت إلى المختار بن أبى عبيد ، ويبدو لى أن نسبتها

---

(١) المقريزى ـ الخطط ج ٢ ص ٣٥٣ . بولاق

(٢) الأشعرى ـ مقالات الإسلاميين ج ١ ص ٦ . طبعة استانبول ومختصر الفرق بين الفرق ص ١٥٤ والشهرستانى ـ الملل والنحل طبعة لندن ص ١١٣ والفخر الرازى اعتقادات فرق المسلمين ص ٥٨

(٣) فريد لندر J.A.O.S.(29)p.45 ، عن بلاغة عبد الله بن معاوية وميله إلى التعبير المسجوع ، راجع البيان والتبيين للجاحظ ج ٢ ص ٤١ و ص ٤٢ طبعة القاهرة سنة ١٣٣٢ .

إلى عبد الله بن معاوية أجدر وأنسب ، لأنه بعيد أن تكون هـذه الحركة قد ظهرت أيام المختار للأسباب الآتية :

أولا — لم يكن الناس مهيئين أو مستعدين لقبول هذه الفكرة أيام المختار ، لأن عقيدة التشيع لم تكن قد تطورت بعد ، التطور الذى يأذن لمثل هذه الفكرة أن تذاع بين الشيعة .

ثانياً — كان أهل الكوفة فى أيام المختار و بعده لا يزالون يشتركون فى الفتوح ، يشهرون السيف باسم الإسلام والقرآن ، ولهم فى ذلك بلاء مشهور ، فلا يعقل أن تكون هذه حالهم وتظهر فيهم حركة تحدى القرآن ، ثم يحاربون الناس فى سبيل نشره بمثل الشجاعة التى يحفظها التاريخ لهم .

ثالثاً — انضم إلى حركة المختار بعض الفقهاء أمثال موسى بن أبى موسى الأشعرى ، و يستبعد جداً أن ينضم مثل هـذا الفقيه إلى حركة يتحدى قائدها القرآن ، أو يعارضه أو يأتى بمثيل له .

رابعاً — كان سلطان الفقهاء عصر المختار قوياً ، وكان لهم فى نفوس الناس هيبة اكتسبوها بشجاعتهم فى إعلانهم عن آرائهم ، وهم قوم لا يصبرون على ما يمس كتاب الله ، ألا تراهم عارضوا الحجاج وهم يعلمون أن الجزاء هو القتل أو العذاب ، لأنهم رأوا فى حكومته خروجاً على تعاليم الدين ، فكيف يصمتون ! أو يغفل التاريخ عن غضبتهم ! إن كانت هذه الفكرة — فكرة معارضة القرآن — أعلنت ، وهى أخطر بكثير مما غضبوا من أجله أيام الحجاج .

خامساً — إذا استأنسنا بعد ذلك بالشعر ، الذى حفظه لنا النقلة تصويراً لمخاريق المختار ، رأيناه لا يشير إلى هذه العقيدة ، و إنما يشير إلى هذا الحمام الذى كان يطلقه اثناء المعارك ، يوهم أصحابه أنها الملائكة تشد أزرهم ، وأنه مؤيد من الله ، وهذا الشعر منسوب لسراقة بن مرداس البارقى قال :

ألا أبلغ أبا إسحاق أنى رأيت البلق دهماً مصمتات
أري عينى مالم تنظـراه كلانا عالم بالـترهات
كفرت بوحيكم وجعلت نذرا علىّ قتالكم حتى الممات

ولهذا الشعر قصة يذكرها الطبرى والبغدادى ، ومنها يتبين مراد الشاعر ، ففى الطبرى أنه لما انتهى سراقة بن مرداس البارقى إلى المختـار ، وكان قد أخذ أسيراً ، قال سراقة للمختار « أصلحك الله أيها الأمير ، سراقة بن مرداس يحلف بالله الذى لا إله إلا هو لقد رأى الملائـكة تقاتل على الخيول البلق بين السماء والأرض فقال له المختار فاصعد المنبر واعلم ذلك المسلمين ، فصعد فأخبرهم بذلك ثم نزل فخلا به المختار فقال إنى قد عرفت أنك لم تر الملائـكة و إنما أردت ماقد عرفت أن لا أقتلك فاذهب عنى حيث أحببت لا تفسد علىّ اصحابي » ، والبغدادى يذكر هذه القصة فى شىء من التفصيل والدقة ، فيقول إنه كان فى الأسراء رجل يقال سراقة بن مرداس البارقى ، فقدم إلى المختار وخاف البارقى أن يأمر بقتله ، فقال للذين أسروه وقدموه إلى المختـار ، ما أنتم أسرتمونا ، ولا أنتم هزمتمونا . لعدتـكم ، و إنما هزمتنا الملائـكة الذين رأيناهم على الخيل البلق فوق عسكركم ، فأعجب المختار قوله هذا فأطلقه ، فلحق بمصعب بن الزبير بالبصرة ، وكتب إلى المختار[1] هذه الأبيات ؛ وظاهر أن كلتا القصتين تتحدث عن الشعر يعنى الحمام ، الذى زعم المختار أنه الملائـكة ، والذى اعتبره آيته ، ولو كان للمختار آية اخرى لما تردد الشاعر أن يسخر بها كما سخر من الحمام ، وهذا يجعلنا نشك شكاً قوياً فى نسبة فـكرة معارضة القرآن أو تحديه للمختار ، ويخيل إلىّ أن هذه الدعوى نسبت إليه ، لأن المختار كان يميل إلى التعبير المسجوع فى بيانه ، كما يتضح ذلك مما يورده الطبرى على لسانه ، وقد سبق أن ذكرنا منه شيئاً ؛ لذلك كله يبدو أنه

(١) الطبرى سنة ٦٦ ص ٦٦٤ وص٦٦٥ طبعة أوروبا البغدادى ـ الفرق بين الفرق ص٣٥ طبعة بدر .

من الأجدر إضافة فكرة معارضة القرآن إلى عبد الله بن معاوية ، لما تتصف به عقيدته من تحد للإسلام ، ولما عرف به الرجل من براعه فى التعبير وقوة البيان ؛ أيًّا كان الأمر فقد أضيف إلى عبد الله بن معاوية معارضة القرآن ، التى تتناسب مع مانسب إليه من القول بالعلم الإلهى ، الذى يصوره صاحب الأغانى فى قوله « وكان عبد الله بن جعفر لايؤدب ولده ، ويقول إن يرد الله جل وعز بهم خيراً يتأدبوا فلم ينجب فيهم غير معاوية »(١) ، وهذه النجابة التى استقرت فى فؤاد معاوية ، جعلت أباه عبد الله بن جعفر وهو على فراش الموت يدعوه فيوصى إليه ، وورث عبد الله أباه ؛ هذه النظرية لو تأملناها لرأيناها ضرورية لوضع إمامة عبد الله ابن معاوية فى قالب التشيع ، لأن الإمامة عند المتشيعين تقوم على الوصية .

فى الوقت الذى كانت فيه دعوة عبد الله بن معاوية تنفذ مُغَرِّبة مُشرِّقة فى أصبهان ، ظهر فى الكوفة شخص يدعى أبا الخطاب ، لعله أخطر وأقوى شخصية عرفها الغلو فى القرن الثانى الهجرى ، فلقد بشر هذا الرجل بنفس العقائد التى دعا إليها عبد الله بن معاوية ، وكانت حركته منظمة تحملها قلوب آمنت بها ، وكان لها تأثير خطير فى كثير من نواحى الحياة المختلفة ، وشقت طريقها فى مختلف الصور إلى كثير من الجماعات التى لاتدين بالغلو ، فأخذت أو صاغت فى قالبها هى كثيراً ممانلاحظه بعيداً عما دعا إليه الإسلام فى نقائه وطهارته ، وكان ذلك من تأثير البيئة بهذه التعاليم الغالية ، ولقد أبعدها عن المظنة أنها لبست ثوباً أبعدها عن الشك .

أبو الخطاب الأسدى

دعا هذا الرجل إلى عقيدة عرف اتباعها بالخطابية نسبة إليه ، وقد كان رجلا من الموالى اشتهر بكنيته دون اسمه ، فالشهرستانى يذكره على أنه محمد بن زينب الأسدى الأجدع ، والمقريزى يثبته محمد بن أبى ثور ، ويذكر أنه قيل فى اسمه

---

(١) الأغانى جـ ١١ ص٦٧ الساسى ط . القاهرة سنة ١٣٢٣ هـ

محمد بن يزيد الأجدع ، ويرى مرجليوث أن اختلاف اسم الأب ربما نتج عن تحريف فى كنية الوالد وهو « زينب » ؛ ظهر هذا الرجل وكان الاضطراب السياسى فى أوجه ، والدعوة العباسية تشق طريقها فى ثبات وفى نجاح ، فساعدته الظروف المواتية أن يجمع حوله من أبناء الكوفة تلاميذ يلقنهم تعاليمه ، ويرسم لهم خطط الدعوة والتجمع والظهور ، ولقد بلغ من أحكام نظامه أن عدّ المقريزى خمسين فرقة كلها تنتسب إلى الخطابية[1] ، وكانت حركتهم سرية محكمة إلى حد أن ابن قتيبة ـ وليس بينه بين أبى الخطاب زمن طويل ـ لايعرف عنه أو عن جماعته كثيراً ، إلا ما اشتهر بين الناس أنهم يتدينون بشهادة الزور على خصومهم ، وأنهم يعتنقون خنق مخالفيهم ، ويحللون الزنا ، دون أن يذكر شيئاً عن فرقهم[2] ، ودون أن يميز بينهم و بين الخناقين ، الذين يخضعون لتعاليم كبيرهم الحسين بن أبى منصور العجلى .

عقيدة أبى الخطاب :

قبل أن نمضى إلى عقيدة أبى الخطاب وجب أن نشير إلى مايراه مرجليوث ، أن تحقيق مذهب الخطابية يتطلب منا دراسته من كتابات قد سطرتها أقلام الخطابية أنفسهم[3] ، ذلك مذهب سليم ، ولكن الأخذ به يجعلنا حيارى هل نقف إزاءهم مكتوفى الأيدى وهم قوم لم يعثر لهم على شىء مكتوب ؟ الحق أن مذاهب البحث العلمى لاتضيق بنا حتى تلقى القلم ، إذ أن فى إجماع الكتاب من أهل السنة وأهل الشيعة على أساس مذاهبهم يضىء السبيل أمام الباحث، فيتحرى الأمر ويستطيع أن يضع لنفسه مقياساً يعرض عليه أقوال النقلة ، فإذا أضفنا إلى هذا أن للخطابية عقائد عرفوا بها فى المجتمع ، ونقلها إلينا رواة من أهل الشيعة

---

(١) الخطط جـ ٢ ص ٣٥٢ . طبعة بولاق

(٢) المعارف ص ٣٠٠ . طبعة القاهرة سنة ١٩٣٥

(٣) راجع دائرة المعارف الإسلامية . مادة الخطابية

وأهل السنة ولا سبيل إلى تكذيبهم لإجماعهم عليها ، وجدنا السبيل إليهم وأقدمنا نفحص أحوالهم ، ونحن فى ذلك نسلك طريقاً علمياً لاغبار عليه ، ومرجليوث نفسه لم يعتنق مذهبه الذى دعا إليه ، حين كتب عن الخطابية فى دائرة المعارف الإسلامية ، وهو بذلك يؤيدنا فى الطريق الذى سلكناه .

ليس من اليسير الوصول إلى العقيدة التى دعا إليها أبو الخطاب، لأنها وصلت إلينا بعد تطورها ، على أن إجماع الخطابية على اختلاف فرقهم على أن جعفر بن محمد المعروف بالصادق هو إله ، يجعلنا نذهب إلى أنه دعا إلى مذهب الحلول ، وتقديم جعفر الصادق على أن روح الإله قد حلّت فيه ، يضاف إلى هذا أن من الأصول عند الخطابية جميعاً شهادة الزور لموافقيهم و إباحة المحرمات ، ومن ذلك يمكننا أن نقول إن ذلك من تعاليم شيخهم أبى الخطاب ، ويصور لنا أمر أبى الخطاب القاضى أبو حنيفة النعمان التميمى المغربى فى كتابه المعروف بكتاب دعائم الإسلام (ص٦٢ و ص ٦٣) بقوله « ثم كان أبو الخطاب فى عصر جعفر بن محمد من أجل دعاته فأصابه ما أصاب المغيرة فكفر وادعى أيضاً النبوة وزعم أن جعفر بن محمد إله ـ تعالى الله عن قوله ـ واستحل المحارم كلها ورخص فيها وكان أصحابه كلما ثقل عليهم أداء فريضة أتوه وقالوا ياأبا الخطاب خفف علينا فيأمرهم بتركها حتى تركوا جميع الفرائض واستحلوا جميع المحارم وارتكبوا المحظورات وأباح لهم أن يشهد بعضهم لبعض بالزور وقال من عرف الإمام فقد حلّ له كل شىء كان حرّم عليه فبلغ أمره جعفر بن محمد فلم يقدر عليه بأ كثر من أن لعنه وتبرأ منه وجمع أصحابه فعرفهم ذلك وكتب إلى البلدان بالبراءة منه و باللعنة عليه » ، هذا ويمدنا المقريزى بمزيد فيقول « وزعمت الخطابية بأجمعها أن جعفر بن محمد الصادق أودعهم جلدا يقال له جفر فيه كل مايحتاجون إليه من علم الغيب وتفسير القرآن[1] » ، فإذا ذهبنا إلى أن هذه الأصول ، التى يشترك فيها الخطابية جميعاً ،

(١) الخطط ج ٢ ص ٣٥٢ . بولاق

هى من تعاليم شيخهم أبى الخطاب وقفنا على عقيدته ، التى بشر بها ، وهى مذهب الحلول ، وجعله جعفرا الصادق إلها ، والتدين بشهادة الزور لمصلحة إخوانهم ، وتفسير القرآن وفق طريقة خاصة ، وهو أن للكلمات باطناً هو المقصود .

ظهرت هذه العقائد ، التى لقنها أبو الخطاب ، على مسرح الكوفة بعد زيد ابن على ، وأول ماتلقانا هذه العقيدة على يد إحدى الفرق الخطابية وهى العميرية ، ويمكن أن ندرك تاريخ ظهورها مما أورده الكلينى فى الكافى فى كتاب الحجة ، أن جعفرا الصادق قال إنّ الزنادقة تظهر سنة ١٢٨ هـ ، والإشارة تعنيهم كما هو واضح . خرجت العقيدة من الظلمات إلى النور ، يقود أتباعها عمير بن بيان العجلى ، الذى يقال إنه نصب خيمة فى كناسة الكوفة لأتباعه ، ثم اجتمعوا على عبادة جعفر مهللين مكبرين « لبيك جعفر لبيك » ، فأخذ الوالى يزيد بن عمر بن هبيرة زعيمهم عمير بن بيان وقتله فى الكناسة ، وحبس بعضهم [(١)] . يجعل النوبختى [(٢)] قيادة هذه الفرقة إلى رجل اسمه السرى ، ويبدو أنه أخطأ ، لأن الفرقة التى تنسب إلى السرى قالت بنبوته ، والعقيدة الخطابية ، كما يتضح من مذاهب فرقها ، تجعل هذه النبوة فى القائد أو الزعيم بعد موت أبى الخطاب ، وبما أن أبا الخطاب كان لايزال يحيا حين ظهور هذه الفرقة وبعدها ، فنحن أميل إلى قول جمهور الكتاب بنسبة العميرية — كما يشير أيضاً الاسم — إلى عمير بن بيان العجلى ؛ ويظهر أن خروج هذه الفرقة قصد به الإعلان عن العقيدة ، وأنها كانت مظاهرة دبّرها أبو الخطاب نفسه، لأنه تبع هذا الإعلان بقية تعاليم العقيدة ، إذ زعم أبو الخطاب

---

(٢) الأشعرى — مقالات الإسلاميين جـ ١ ص ١٣ طبعة استانبول والشهرستانى على هامش ابن حزم جـ ٢ ص ١٧ . المقريزى — الخطط جـ ٢ ص ٣٥٢ وفريد لندر J.A.O.S.(28A.)p.65 الكشى أخبار الرجال ص ١٩٢ ، ص طبع ١٩٣ بومباى

(٣) فرق الشيعة ص ٩٤

أن الألفاظ الواردة فى القرآن للتحليل والتحريم و إقامة الفرائض دالة على رجال سماهم ، وأن ليس للألفاظ مدلولها اللغوى ، إذ هى إشارات لرجال عرفوا فى التاريخ الإسلامى كأبي بكر وعمر رضوان الله عليهما ، ولم يكد يشاع هذا المذهب ويصل إلى أذنى جعفر الصادق حتى تبرأ منه ، وكتب إلى أبى الخطاب كما يقول الكشى « كتب أبو عبد الله عليه السلام إلى أبي الخطاب : بلغنى أنك تزعم أن الزنا رجل وأن الخمر رجل وأن الصلاة رجل والصيام رجل والفواحش رجل وليس هو كما تقول[1] » ، ويؤيد هذا النوبختى فى قوله « وجعلوا الفرائض رجالا سموهم والفواحش والمعاصى رجالا[2] » وكذلك القاضى أبو حنيفة النعمان التميمى المغربي فى كتاب دعائم الإسلام (ص ٦٤ و ص ٦٥) يؤيد هذا القول تأييداً مطلقاً ، لايدع مجالا لأى شك ، قال «وروينا عن أبى عبد الله جعفر بن محمد أنه كتب إلى بعض أوليائه من الدعاة وقد كُتب إليه بحال قوم قبله ممن انتحل الدعوة وتعدوا الحدود واستحلوا المحارم واطرحوا الظاهر فكتب إليه أبو عبد الله جعفر بن محمد بعد أن وصف حال القوم ، وذكرت أنه بلغك أنهم يزعمون أن الصلاة والزكاة وصوم شهر رمضان والحج والعمرة والمسجد الحرام والبيت الحرام والمشاعر العظام والشهر الحرام إنما هو رجل والاغتسال من الجنابة رجل ، وكل فريضة فرضها الله تبارك وتعالى على عباده فهى رجل وأنهم ذكروا أن من عرف ذلك الرجل فقد اكتفى بعلمه عن ذلك من غير عمل وقد صلى وأدى الزكاة وصام وحج واعتمر واغتسل من الجنابة وتطهر وعظم حرمات الله والشهر الحرام والمسجد الحرام وأنهم زعموا أنه من عرف ذلك الرجل وثبت فى قلبه جاز له أن يتهاون وليس عليه أن يجهد نفسه وأن من عرف ذلك الرجل فقد قبلت منه هذه الحدود لوقتها

---

(١) أخبار الرجال ص ١٨٨ و ص ١٩٥

(٢) فرق الشيعة ص ٣٨

وإن هو لم يعملها وأنه بلغك أنهم يزعمون أن الفواحش التى نهى الله عز وجل عنها الخمر والميسر والزنا والربا والميتة والدم ولحم الخنزير أشخاص ، وذكروا أن الله عز وجل لم يحرم نكاح الأمهات والبنات والأخوات والعمات والخالات وإنما حرم المؤمنين من النساء يعنى بذلك نكاح نساء النبى وما سوى ذلك مباح ، وبلغك أنهم يترادفون المرأة الواحدة ويتشاهدون بعضهم لبعض بالزور ويزعمون أن لهذا ظهراً وبطناً يعرفونه وأن الباطن هو الذى يطالبون به ومن قال به فهو عندى مشرك بالله بيّن الشرك فلا يسع أحداً أن يشك فيه » وبهذا التفسير العجيب استطاع أبو الخطاب أن يتغلب على مافرضه كتاب الله ، من حظر ومن فرائض تؤدى لله من صيام وصلاة وزكاة وغير ذلك ، وأن يبيح لأصحابه الموبقات والملذات دون قيد ، سوى قدرة الشخص على استيعابها والتمتع بمزاياها ، وفى ذلك يقول النوبختى « وأحلوا المحارم من الزنا والسرقة وشرب الخمر وتركوا الزكاة والصلاة والصيام والحج وأباحوا الشهوات بعضهم لبعض » (١)

تبرأ جعفر الصادق من أبى الخطاب وما يدعو إليه ، ولم يكد يعلن على الملأ براءته منه حتى أحدث ذلك فى صفوف الخطابية صدعاً ، إذ أعلنت طائفة منهم عرفت بالبزيغية براءتها من أبى الخطاب ، وأقامت زعيمها بزيغا مقام أبى الخطاب ، على أن هذه البراءة لم تكن لتهز الرجل ، وهو متمكن من كثرة أتباعه ، فراح يعلن أنه نبى رسول ، وأن كلمة الرسل واجب إطاعتها ، ويذهب بعض نقلة العقائد والفرق إلى أنه أعلن عن نفسه أنه إله ، ولكن هذا الزعم ليس من اليسير التسليم به ، لأنه لم يقل به ثقاة الشيعة ، الذين عاشوا فى عصر مبكر ، ومن هؤلاء النقلة أبو حنيفة النعمان التميمى المتوفى سنة ٣٦٣ ﻫ ، الذى كان قاضى الدولة الفاطمية ذات الصلات المعروفة مع غلاة الشيعة ، فإنه قال عن أبى الخطاب أنه ألّه جعفراً وادعى لنفسه النبوة ، ولم يذكر عنه أنه ادعى الألوهية لنفسه ، ولو كان

(١) المصدر السابق ص ٣٨

ادعاها لما صمت أبو حنيفة قاضى الفاطميين عن ذلك ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن القائلين بالتأليه لا يتفق قولهم والعقيدة الخطابية نفسها ، لأن عقيدة الحلول التى دعا إليها أبو الخطاب ، تقول : إن روح الإله تنتقل إلى فرد واحد وهو جعفر الصادق ، وهو إمام الخطابية و بموته تنتقل إلى غيره ، ولما كان أبو الخطاب مات أو قتل قبل موت جعفر الصادق ، فلا يتفق والعقيدة انتقال روح الإله من جعفر وهو لا يزال حياً ، ولم يتبرأ أبو الخطاب من جعفر الصادق أو ينفى عنه صفة الألوهية ، حتى يمكن فهم قول هؤلاء الكتاب أنه قال بتأليه نفسه ، ويضاف إلى هذا أنّ البزيغية بعد تبرؤ جعفر من أبى الخطاب ، أذاعت أن بزيغاً رئيسها رسول مثل أبى الخطاب ، وهذا يؤيد القول أن أبا الخطاب زعم لنفسه الرسالة ولم يتجاوزها إلى الربوبية . طفق أبو الخطاب يدعو لعقيدته ، لايعبأ بجعفر الصادق ودعوته الناس إلى البراءة من تعاليمه ، وكان لشخصيته القوية أثر فعال ، وخرج بجزء من أتباعه يقاتل بهم الدولة العباسية ، فى وقت قد أرهقها المجهود الهائل الذى بذلته فى سبيل إقرار الأمر واستتباب النظام ، على النحو الذى رآه أبو جعفر المنصور ، خرج بهم إلى مسجد الكوفة ، وكان الوالى آنئذ على الكوفة عيسى بن موسى قائد المنصور المشهور ، ولم يكد يسمع بهم ، وكان قد عرف أنهم يبيحون المحارم ، حتى أرسل إليهم قوة من جيشه العباسى للقضاء عليهم ، وندع النوبختى يصف لنا المعركة ، فيقول : «فحاربوا عيسى محاربة شديدة بالحجارة والقصب والسكاكين وكان أبو الخطاب قال لهم : قاتلوهم فإن قصبكم يعمل فيهم عمل الرماح والسيوف ورماحهم وسيوفهم وسلاحهم لا تضركم ولا تعمل فيكم فقدّمهم عشرة عشرة للمحاربة فلما قتل منهم نحو ثلاثين رجلا قالوا له ماترى مايحل بنا من القوم . . . قال لهم : إن كان قد بدا لله فيكم فما ذنبى ؟ » وأسر أبو الخطاب « فأتى به عيسى بن موسى فقتله فى دار الرزق وصلبه مع جماعة [1] » و بذلك انتهت حياة هذا

(١) فرق الشيعة ص ٥٩ و ص ٦٠ ـ طبعة استانبول

الرجل الخطر سنة ١٣٨ هـ، وهو الذى عاشت ذكراه بين أتباعه دهوراً طويلة، ونلاحظ أن فى هذه المعركة تبدو نظرية لأبى الخطاب، وهى نظرية البداء، ومعناها تغيير الإرادة الإلٰهية لقرار قد قرّر قبلا، وهى النظرية التى أضافها البغدادى إلى المختار بن أبى عبيد خطأ، لاختلاط الأخبار الواردة عن هؤلاء المتطرفين، ويشير فلهوزن إلى هذه النظرية، ويبدو أنه رأى أن إضافتها إلى المختار خطأ فراح يبحث فرآها أجدر بأن تكون تهمة حورب بها المختار، وأن الذى ابتدعها هو عبد الله بن نوف معتمداً فى ذلك على ماجاء فى الطبرى (ج ٢ ص ٧٣٢ و ص ٧٠٦ طبعة أوربا) من أن «عبدالله بن نوف خرج من بيت هند بنت المتكلفة حين خرج الناس إلى حروراء وهو يقول يوم الأربعاء ترفعت السماء ونزل القضاء بهزيمة الأعداء، فاخرجوا على اسم الله إلى حروراء فخرج فلما التقى الناس للقتال ضرب على وجهه ضربة ورجع الناس منهزمين ولقيه عبد الله بن شريك النهدى وكان قد سمع مقالته فقال ألم تزعم لنا ياابن نوف أنا سنهزمهم قال أو ماقرأت فى كتاب الله (يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب)» لم يكن المختار هو صاحب الفكرة، وإنما كان صاحبها هو عبد الله بن نوف، وأخذها عنه الغلاة من الخطابية، وهى نظرية بدت وعاشت بين غلاة الشيعة يصرفون الناس بها عن كذبهم.

فرق الخطابية

يعد الكتاب الخطابية أربعاً أو خمس فرق، ومنهم من يجعل القرامطة فرعاً منهم، ومنهم من لا يذهب هذا المذهب، على أن غالبهم يعدونهم دون ذكر القرامطة، وهى طائفة اعتنقت مذاهب هؤلاء الغلاة الذين تحدثنا عنهم، ولكن ليس من شأننا أن نتعرض لهم، لظهورها فى عصر متأخر عن العصر الذى نتحدث عنه.

ظهرت فى حياة أبى الخطاب طائفتان من الخطابية هما العميرية والبزيغية،

أما ظهور الأولى فقد كان أول مظاهرة للدعوة إلى العقيدة الخطابية ، حفزهم إلى ذلك استغلال للظروف المواتية لجهرهم بالعقيدة الخطابية ، وللإعلان عنها لا كتساب الأنصار ، إذ كانت حتى ذلك الوقت تدبر فى الخفاء وتعلم فى الظلام ، قاموا بمظاهرتهم الدينية يهللون ويكبرون ، داعين ربهم أو مجيبين لإلهم جعفر الصادق ، حتى قبض عليهم وقتل من قتل وألقى من ألقى فى غياهب السجون ، ولما قتل قائدهم عمير التبان ، الذى كان يزعم لهم أنه لو أراد أن يحوّل التبن ذهباً لفعل ، ظلت طائفة منهم مخلصين لما أتى به من سيده أبى الخطاب ، وأنكروا على إخوانهم من الفرق الخطابية الأخرى زعمهم الخلود وعدم الموت ، ولذلك أثبت الرواة أنهم فرقة ذهبت إلى تكذيب من قال منهم أنهم لا يموتون لأنهم سيموتون ولكن سيبقى خلف منهم فى الأرض أئمة أنبياء ؛ (١) أما الفرقة الأخرى فهى التى تبرأت من أبى الخطاب ، لأن جعفرا الإله قد تبرأ منه ، وتسمى البزيغية نسبة إلى منشئها بزيغ بن موسى ، واتخذوا لأنفسهم مذهباً وإن كان يتفق مع الخطابية فى الأصول ـ وهى عبادة جعفر ـ فلقد خالفوا زملاءهم فى غير ذلك ، قالوا : بزيغ نبى رسول مثل أبى الخطاب أرسله جعفر بن محمد ، وهذه الصفة التى زعمها بزيغ لنفسه لم تكن لتمنعه أن يشهد للقائد الأعلى أبى الخطاب بأنه رسول هو أيضاً ، ومعنى هذا أن كلا منهما رسول من عند جعفر الإله ، وأن أحدهما استقل عن الآخر ، ولكن هذا الاعتراف من بزيغ لم يرض أبا الخطاب ، فأعلن أنه برىء من بزيغ ومن البزيغية فأصبحت البزيغية مستقلة (٢) ، وهذا الاستقلال جعلهم أحراراً فى أن يضيفوا إلى العقيدة ما يشاؤون ، قالوا :

١ ـ إن جفر بن محمد هو الإله ، وليس هو المحسوس الذى يرونه ، ولكن لما نزل إلى هذا العالم ، لبس تلك الصورة فرآه الناس فيها .

---

(١) الشهرستانى ـ الملل والنحل على هامش ابن حزم ج ٢ ص ١٦ وص ١٧ . القاهرة سنة ١٣١٧ هـ

(٢) النوبختى ـ فرق الشيعة ص ٣٨ طبعة استانبول

٢ ــ زعموا أن كل ما يحدث فى قلوبهم وحى ، وأن كل مؤمن (يقصدون طبعاً اتباع المذهب) يوحى إليه .

٣ ــ وادعوا أن منهم من هو خير من جبريل وميكائيل ومحمد (صلى الله عليه وسلم) .

٤ ــ وقالوا إنه لايموت منهم أحد ، وهو ما أنكره العميرية ، وأضافوا إلى ذلك أن أحدهم إذا بلغت عبادته رفع إلى الملكوت ، ودعاهم زعمهم أن لايموت منهم أحد ، إلى القول أنهم يرون معاينةً أمواتهم وأنهم يرونهم بكرة وعشية[1] .

هذه الفرقة قتل منشؤها بزيغ أيام أبى جعفر المنصور .

بعد موت أبى الخطاب وتتبع عيسى بن موسى والى الكوفة لأتباعه ، فرّ بعضهم إلى السواد و بقى بعضهم الآخر فى الكوفة ، وكوّن الذين فروا فرقة عرفت بالمفضلية ، وألف الذين بقوا فرقة دعيت المعمرية ، أما الطائفة الأولى وهى المفضلية فميزتها الوحيدة أنها عرفت باسم منشئها المفضل العجلى ، الذى كان صيرفيا ، وأنها أنكرت النبوة والرسالة ، ومعنى هذا أنها أنكرت أن جعفرا الذى أقروا بربوبيّته يرسل أنبياء رسلا ، وذلك منهم أمر مفهوم ، لأنهم لو أبقوا الرسالة لأبى الخطاب وقد تبرأ منه جعفر لنفاهم الشيعة من صفوفهم ، كما نفوا المعمرية على نحو ما سنبين بعد ؛ أما المعمرية فقد ألفوا لهم عقيدة مستقلة على نحو ما فعل بزيغ من قبل ، و يبدو أنهم ظهروا بعد موت جعفر الصادق سنة ١٤٨ ﻫ ، لأنهم جعلوا أبا الخطاب إلها كما جعلوا معمرا رئيسهم إلها ، وفق نظريتهم التى تقول إن الإلوهية نور ينتقل من فرد إلى فرد ، وعقيدتهم كما يصورها الرواة تتلخص فيما يلى :

(١) أن الأئمة أنبياء ثم يصيرون آلهة بانتقال النور الإلهى إليهم ، يقصدون

(١) الشهرستانى ــ الملل والنحل على هامش ابن حزم جـ ٢ ص ١٦ وص ١٧ القاهرة سنة ١٣١٧ ﻫ . والأشعرى ــ مقالات الإسلاميين جـ ١ ص ١١ وص ١٢ . ط استانبول .

بذلك أن موت جعفر الإله جعل النور ينتقل منه إلى أبى الخطاب ، ومنه إلى معمر فهو الإله عندهم ، وذلك قولهم « الإلهية نور فى النبوة والنبوة نور فى الإمامة ولا يخلو العالم من هذه الآثار والأنوار » ، وانتقال النور من الإمام أو الإله يجعله من الملائكة أى يعد ملاكا بعد موته ، و يفسر ايڤانوف[1] قولهم هذا ، أنهم لايقصدون أنهم يصيرون ملائكة بالمعنى المفهوم فى الديانات الثلاث العالمية ـ الإسلام والمسيحية واليهودية ، و إنما بالمعنى المفهوم فى العقائد الغنوسطية أى أبناء الآلهة

(٢) وزعموا أن الدنيا لاتفنى ، وأن الجنة ما يصيب الناس من الخير والنعمة والعافية ، وأن النار ما يصيب الناس خلاف ذلك .

(٣) وقالوا بالتناسخ ، وأنهم لايموتون ولكن يرفعون بأبدانهم إلى الملكوت ، وتوضع للناس أجساد شبه أجسادهم .

(٤) واستحلوا الخمر والزنا وسائر المحرمات كغيرهم من فرق الخطابية ، وزادوا بأن جعلوا تركهم الصلاة والفرائض تدينا[2] . وتعتمد المعمرية فى تحليل المحرمات ، على القول أن الله لم يخلق هذه الأشياء ، التى تهوى إليها نفوسنا وتلذنا إلا لخلقه فكيف تكون محرمة ؟ ، ولذلك أباحوا لأنفسهم كل شىء ، كالزنا والسرقة وشرب الخمر والميتة والدم ولحم الخنزير ونكاح الأمهات والأخوات ونكاح الرجال ، و باختصار ليس هناك عقبة تحول بينهم و بين لذاتهم الجنسية أو المادية أيا كان نوعها ؛ هذه الحرية فى إباحة اللذات كانت من إيحاء البيئة ، شجعت عليها لأن الزرادشتية كانت تحمل عنصر هذه الحرية ، إذ أنها أباحت الزواج بالأخت أو بالابنة أو حتى بالأم .

---

(١) راجع ايفانوف فى كتابه .
The Alleged Founder of Ismà'ilism, P. 130

(٢) الشهرستانى ـ الملل والنحل على هامش ابن حزم جـ ٢ ص ١٦ وص ١٧ القاهرة سنة ١٣١٧ هـ . والأشعرى ـ مقالات الإسلاميين جـ ١ ص ١١ . ط . استانبول .

هذه هى الفرق الخطابية فى العصر الذى نتحدث عنه وهو القرن الثانى الهجرى ، ببرامجها التى يتبين منها أنها خليط عجيب من العقائد العريقة فى القدم لأهل السواد ، ممزوجة بعقائد فارسية كالزرادشتية والمزدكية ، ويعتمد بعض هذه الفرق فى تفسير مذاهبهم على فلسفات عاشت بجوار أرضهم .

وهنا يجدر بنا أن نقف وقفة قصيرة ، لنتأمل صلة الأئمة من آل البيت بهؤلاء القادة الغلاة ، ونظر أهل الشيعة (المحافظين) من أبناء الكوفة إليهم ، لنستكمل البحث ، أما صلة الأئمة من آل البيت فالملاحظ أن أول من رفع صوته باستنكار مذاهب الغلاة هو جعفر الصادق ، وقد أورد لنا الكشى بيانا بادعاءات هؤلاء القادة الغلاة ، فقال : إن بيانا كان يكذب على عليّ بن الحسين (المتوفى سنة ٩٤ هـ) وأن المغيرة كان يكذب على أبى جعفر محمد الباقر (المتوفى سنة ١١٧ هـ) ، وأن أبا الخطاب كان يكذب على أبى عبد الله جعفر (المتوفى سنة ١٤٨هـ) ، وأن محمد بن الفرات كان يكذب ولم يذكر المكذوب عليه ، ولعل المقصود هو موسى الكاظم (المتوفى سنة ١٨٣ هـ) ، وأن ابراهيم بن شكله المعروف بابراهيم المهدى قتله ، والظاهر أن عدم عناية أبناء عليّ منذ مبدأ الأمر أن يعلنوا سخطهم على هذه الحركات الكوفية المتطرفة ، شجع هؤلاء الغلاة أن يقوموا بثورتهم الخطيرة ، وأن ينسبوا إليهم أشياء هم أبرياء منها ؛ ويبدو أن هذه الطفرة التى بلغها المتشيعون الغلاة باتخاذ جعفر الصادق إلها ، وإخراج ألفاظ القرآن الكريم عن مدلولها اللغوى إلى أنها إشارات لرجال ، استفزت سليل البيت العلوى جعفرا أن يخرج عن التقليد الذى اتخذه الأئمة السابقون ، فيعلن تبرؤه من أبى الخطاب [١] ، وكان هذا الصنيع من جعفر الصادق صدمة للغلو ، أراد بعضهم أن يحتال فى أن يخفف وطأتها ، حتى لاتصاب العقيدة الخطابية بالوهن ، فأعلن بزيغ بن موسى النساج صاحب البزيغية تبرؤه من أبى الخطاب ، إلا أن جعفرا الصادق قضى على هذه

---

(١) الكشى — أخبار الرجال ص ١٩٧ . طبعة بومباى

المحاولة وتبرأ منه أيضاً[١] . لم تنجح أية محاولة لتخفيف الأثر الذى أحدثه إعلان جعفر الصادق تبرؤه من هؤلاء الغلاة ، وانتهى الأمر بانشقاق بعضهم على بعض ، قال النوبختى « . . . وكلهم متفقون على نفى الربوبية عن الجليل الخالق تبارك وتعالى عن ذلك علواً كبيراً و إثباتها فى بدن مخلوق مثوف على أن البدن مسكن لله وأن الله تعالى نور وروح ينتقل فى هذه الأبدان ـ تعالى الله عن ذلك ـ إلا أنهم مختلفون فى رؤسائهم الذين يتولونهم يبرأ البعض من بعض ويلعن بعضهم بعضا[٢] » ، ومن عجب أن تبرؤ جعفر لم يحدث بينهم إلا انشقاق بعضهم على بعض ، ولم يجعلهم يفكرون فى المذاهب التى أتى بها رؤساؤهم ، و بقوا على ضلالهم أولياء الشيطان ، أوفياء لعقيدتهم ، يعبدون جعفرا و يدعون للمذاهب الإباحية ، و يؤيد ماذهب إليه قول هارون بن سعيد العجلى وكان رأس الزيدية[٣] :

ألم تر أن الرافضين تفرقوا فكلهم فى جعفر قال منكرا
فطائفــة قالوا : إله . ومنهم طوائف سمته : النبى المطهرا
فإن كان يرضى مايقولون جعفر فإنى إلى ربى أفارق جعفرا
ومن عجب لم أقضه جلد جفرهم برئت إلى الرحمن ممن تجفرا
برئت إلى الرحمن من كل رافض بصير بباب الـكفر فى الدين أعورا
إذا كف أهل الحق عن بدعة مضى عليها وأن يمضوا على الحق قصرا
ولو قال إن الفيل ضب لصدقوا ولو قال زنجى تحول أحمرا
وأخلف من بول البعير فإنه إذا هو للاقبال وجه أدبرا
فقبح أقــوام رموه بفرية كما قال فى عيسى الفرى من تنصرا

---

(١) الشهرستانى ـ الملل والنحل على هامش ابن حزم جـ ٢ ص ١٦ وص ١٧ القاهرة سنة ١٣١٧ هـ

(٢) النوبختى ـ فرق الشيعة من ص ٣٩ إلى ص ٤١ طبعة استانبول أو طبعة النجف سنة ١٩٣٦ من ص ٤٤ إلى ص ٤٦ .

(٣) ابن قتيبة ـ عيون الأخبار جـ ٢ ص ١٤٥ ـ دار الـكتب

أما نظر أهل الشيعة (المحافظين) فى الكوفة إلى الغلاة ، فقد بدت رغبتهم فى إبعاد هذا الغلو القبيح عن التشيع ، ويبدو هذا فى تساؤلهم عن صلة المعمرية بالتشيع ، أخذوا يجادلون ويناقشون محاولين تسفيه مبادئهم أو إنكارها ، ويمدنا النوبختى بالدليل فيقول « فخاصمه (معمرا) قوم من الشيعة (المحافظين) وقالوا لهم : إن الذين زعمتم أنهما صارا من الملائكة (يقصدون جعفراً وأبا الخطاب) قد برئا من معمر وبزيغ وشهدا عليهما أنهما كافران شيطانان وقد لعناهما فقالوا : إن اللذين ترونهما جعفرا وأبا الخطاب شيطانان تمثلا فى صورة جعفر وأبى الخطاب يصدان الناس عن الحق ، وجعفر وأبو الخطاب ملكان (أى بعد الموت) عند الإله الأعظم إله السماء . ومعمر إله الأرض وهو مطيع لإله السماء يعرف فضائله وقدره فقالوا لهم : كيف يكون هذا ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يزل مقراً بأنه عبد الله وأن إلهه وإله الخلق أجمعين إله واحد وهو الله وهو رب السماء والأرض وإلههما لا إله غيره ؟ فقالوا : إن محمدا صلى الله عليه وعلى آله كان يوم قال هذا عبداً رسولاً أرسله أبو طالب . وكان النور الذى هو الله فى عبد المطلب ثم صار فى أبى طالب ثم صار فى محمد ثم صار فى علىّ بن أبى طالب عليه السلام فهم آلهة كلهم ...[1] » ، نظر الشيعة إلى هؤلاء الغلاة على أنهم خرجوا من المبادىء التى يعتنقونها ، ورأوهم حزباً قائماً بنفسه ، على أن هذا التمايز بين الطائفتين بإخراج الغلاة من المتشيعين ، بدا واضحاً بعد أبى الخطاب ، حين أخذوا ينفون صلة مذاهب الإباحيين بالتشيع ويعدونهم خارجين عنهم ، إلا أنه لم يكن بالوضوح الذى يجعلهما مستقلين تمام الاستقلال ، لتمسك الغلاة باعتبار أنفسهم من صميم الشيعة ، ولا يجدون من يدحض هذه الفرية ، أو يعلن فى وضوح استقلال إحداهما عن الأخرى ، ونلاحظ أن هذا النفور ، الذى جاش فى صدور الشيعة

---

(١) النوبختى — فرق الشيعة ص ٤٦ — طبعة النجف سنة ١٩٣٦

المحافظين[١] ، لم يكن ليمنع طائفة منهم أن يأخذوا من هذا الغلو ما يروقهم ، وها هى ذى البشيرية تؤيد ما نذهب إليه ، وهى طائفة كونها محمد بن بشير مولى بنى أسد من أهل الكوفة ، تقول : إن موسى بن جعفر المعروف[٢] بالكاظم المتوفى سنة ١٨٣ ه ، لم يمت ولم يحبس وأنه حى غائب وأنه القائم المهدى على نحو ما تذهب الكيسانية ، وترى أنه استخلف محمد بن بشير زعيمهم وفوض إليه أموره ، وظلّت هذه البشيرية تدين بهذه العقيدة فى ولده من بعده بالوصية ، ذاهبة إلى أن محمد بن بشير أوصى إلى ابنه سميع وسميع هذا إلى ابنه ، وهلم جرا فى أبناء هذا الدعى ، فالإمامة فى ولد سميع إلى ظهور القائم وهو المهدى المنتظر وهو موسى الكاظم ، ودعتهم عقيدتهم هذه أن يقولوا : إن على بن موسى المعروف بالرضا ، ومن ادعى الإمامة من ولده غير طيبى الولادة ، أى نفوهم عن أنسابهم ، وأسرفوا فى ذلك إسرافاً جعلهم يعتبرونهم كفاراً فى دعواهم الإمامة ، وكفروا القائلين بإمامتهم واستحلوا دماءهم وأموالهم على نحو مايرى المنصورية ، هذا ومن حيث الفرائض الدينية فقد زعموا أن عليهم إقامة الصلوات الخمس وصوم شهر رمضان فقط ، وأنكروا الزكاة والحج وباقى الفرائض ، وقالوا بإباحة المحارم من الفروج والغلمان على نحو ما ذهبت الخطابية ، واعتنقوا عقيدة التناسخ ، والأئمة عندهم واحد أى أنها تنتقل من بدن إلى بدن كما ترى المعمرية فى إلههم ، وكان بين أتباع هذه الفرقة تآلف وتآخ فرضتهما عليهم عقيدتهم ، لأنهم كانوا يرون المواساة بين أتباع العقيدة واجبة فى كل ما ملكوه من مال ، وكان كل شىء أوصى به رجل منهم يصير إلى سميع بن محمد أو إمامهم من بعده[٣] ؛ ويتضح من تعاليم البشيرية أنها فرقة

---

(١) أفضل هذا التعبير عن التعبير بالامامية لدقته ولأن هذه الفئة اتخذت أوضاعا مختلفة فى تاريخها .

(٢) حبس الرشيد موسى الكاظم ومات فى سجنه

(٣) النوبختى — فرق الشيعة ص ٧٠ وص ٧١ طبعة استانبول

جمعت فى مذهبها خليطاً عجيباً من عقائد مختلفة قائمة ، نخص بالذكر منها عقائد الغلاة .

أما تأثير الخطابية فى غيرهم من الغلاة فنستطيع أن نضرب لذلك مثالا بالبيانية ، أولئك الذين تطورت عقيدتهم بما جد على الغلو ، فيعدلون مذهبهم ويرون فى بيان ابن سمعان نبياً ، قد نسخ بعض شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، ومنهم من زعم أنه إله ، وقالوا : إن بياناً ذكر لهم أن روح الإله تناسخت فى الأنبياء والأئمة ، حتى صارت فى أبى هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية ثم انتقلت روح الإله إليه (١) .

كان هذا الغبار الذى أثاره الموالى قذى فى أعين المسلمين ، فى زمن كان التنازع على السلطان قد حمى وطيسه ، فلم يكد يستقر الأمر وتتجلى القوة فى أيدى العباسيين ، ويقضون على خصومهم ، حتى آلت الخلافة إلى المهدى ، فنظر إلى هذه الحركة الخطيرة التى تقاوم الإسلام جادة فى شكل العقائد ، نظر إليها فى حزم خشية على سلطانه ، وخوفاً على دينه الذى رفعه على أريكة العرش ، وأخذ يقاومها بما تستحقه من قوة ، عازماً أن يجعلها أثراً بعد عين ، جرد عليهم السيف يعمل فيهم قتلا ، وأقام الحكام الأقوياء والحراس والعيون يمدونه بالأخبار ، فلم يجد الفجرة المردة بداً من الهرب ، أو الاختفاء أو الظهور فى أشكال لاتريب السلطان . ويصور الطبرى عزم المهدى وجده فى قوله « أما والله لئن عشت لأقتلن هذه الفرقة كلها حتى لا أترك عيناً تطرف » ويقول المقريزى « وأمعن فى قتل الملحدين لظهورهم فى أيامه وانتشار كتبهم وهو أول من أمر بتصنيف كتب الجدل فى الرد على الزنادقة والملحدين فصُنّفت فى أيامه (٢) » ، واضطر من بقى بالكوفة أن يظهر غير مايبطن ، وأن يخضع لسلطان القانون ، قال ابن الأثير « فلما يئس أعداء الإسلام من استئصاله بالقوة أخذوا فى وضع الأحاديث الكاذبة وتشكيك ضعفة

---

(١) البغدادى ـ الفرق بين الفرق ص٢٢٧ طبعة بدر

(٢) المقريزى السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ١٥

العقول فى دينهم بأمور قد ضبطها المحدثون وأفسدوا الصحيح بالتأويل والطعن عليه فكان أول من فعل ذلك أبو الخطاب محمد بن أبى زينب مولى بنى أسد وأبو شاكر ميمون بن ديصان صاحب كتاب الميزان فى نصرة الزندقة وغيرهما فألقوا إلى من وثقوا به أن لكل شىء من العبادات باطناً وأن الله تعالى لم يوجب على أوليائه ومن عرف الأئمة والأبواب صلاة ولا زكاة ولا غير ذلك ولا حرم عليهم شيئاً وأباحوا لهم نكاح الأمهات والأخوات وإنما هى قيود للعامة ساقطة عن الخاصة وكانوا يظهرون التشيع لآل النبى صلى الله عليه وسلم ليستروا أمرهم ويستميلوا العامة وتفرق أصحابهم فى البلاد وأظهروا الزهد والعبادة يغرون الناس بذلك وهم على خلافه فقتل أبو الخطاب وجماعة من أصحابه بالكوفة وكان أصحابه قالوا له : إنا نخاف الجند فقال لهم : أسلحتهم لا تعمل فيكم فلما ابتدوا فى ضرب أعناقهم قال له أصحابه : ألم تقل إن سيوفهم لا تعمل فينا ؟ فقال : إذا كان قد بدا لله فما حيلتى ؟ وتفرقت هذه الطائفة فى البلاد وتعلموا الشعبذة والنارنجيات والنجوم والكيميا فهم يحتالون على كل قوم بما يتفق عليهم وعلى العامة بإظهار الزهد[1] » ، يشير بهذا القول إلى الخطابية وإلى جماعة عرفت فيما بعد بالاسماعيلية ، فى أنهم خدعوا الناس بما يستهويهم ، ولا يكشفون حقيقة الدعوى التى تلقى إليهم ، على أن ابن الأثير لم يكن دقيقاً حين بدأ هذه الحركة بأبى الخطاب ، لأنها من وضع جيل سبقه ، وكان لأبى الخطاب فضل تصويرها فى شكل يوافق الغرائز الإنسانية ، يؤيد ذلك قول أبى هريرة العجلى لمحمد الباقر[2] .

أتتنا رجال يحملون عليكم أحاديث قد ضاقت بهن الأضالع
أحاديث أفشاها المغيرة فيهم وشر الأمور المحدثات البدائع

أما ظهور هؤلاء المتطرفين فى ثياب الزهد فأمر كان لامناص منه ، لأنهم

(١) ابن الأثير — الكامل ج ٨ ص ٢١
(٢) ابن قتيبة — عيون الأخبار ج ٢ ص ١٥١ ط . دار الكتب

يرون السيف يبرق بالموت ؛ أظهر هؤلاء الناس الذين عرفتهم الحياة الإسلامية بالزنادقة الزهد ليخفوا حقيقتهم ، و يقوى قول ابن الأثير قولُ الجاحظ « ولم تزل الزنادقة بين مقتول وهارب ومنافق[1] » . تلك حال من بقى منهم فى الكوفة وحال غيرهم ممن هرب إلى السواد و إلى عمان والبحرين ، خضعوا لسلطان الدولة وأنفهم راغم ، واحتالوا فى إرضاء الحكام ما استطاعوا إلى ذلك من سبيل .

لم تكد تغادر هذه الطائفة الخطابية مسرح الحوادث فى الكوفة حتى بدت طائفة أخرى كانت معالمها غير واضحة من قبل ، وكانوا لايقلون خطراً عن غيرهم ، حقاً إنهم لم يهددوا الأمن ولم يعكروا صفو السلام ، ولم يحاولوا أن يفرضوا بالقوة عقائدهم ، ولكن كان لهم تأثير السم فى الجسد ، وهذه الطائفة هى من أولئك الذين دخلوا الإسلام ، وكانوا يعتنقون النصرانية أو اليهودية ، لاحباً فيه و إنما تملقاً للحياة وسبيلاً لإفساد هذا الدين الحنيف ، لم يخف أمرهم على خلفاء بنى العباس ، وهم الذين جالوا خلال أصحاب العقائد المختلفة وهم يدعون لدولتهم ، و يجدون فى سبيل إقامتها ، واستطاعوا أن يميلوهم إلى صفوفهم ، لم يخدع الخلفاء العباسيين مظهر هؤلاء الناس ، وتبينوا حقيقة أمرهم فأعملوا فيهم السيف ، قال الجاحظ « أكثر من قتل فى الزندقة ممن كان ينتحل الإسلام و يظهره هم الذين آباؤهم وأمهاتهم نصارى على أنك لو عددت اليوم أهل الظنة ومواضع التهمة لم تجد أكثرهم إلا كذلك[2] » ، وكانت هذه الطائفة تظهر الزهد على طريقة الرهبنة و يحرمون الصيد والذبح ، يقول الجاحظ « ورجال ممن ينتحل الإسلام يظهرون التقذر من الصيد و يرون أن ذلك من القسوة »، و يقول أيضاً « وأكثر ماسمعت فى هذا الباب (تحريم الصيد والذبح) من ناس من الصوفية ومن

---

(١) الحيوان ج ٤ ص ٤٣٢ . طبعة هارون

(٢) الرد على النصارى ص ١٧ ثلاث رسائل ط القاهرة سنة ١٩٢٦

النصارى لمضاهات النصارى سبيل الزنادقة فى رفض الذبائح والبغض لإراقة الدماء والزهد فى أكل اللحمان[١] » .

كان الزهد والتقشف إما نتيجة لرغبة الشخص فى إخفاء حقيقته خشية بطش السلطان ، وإما تصويراً لنفوس أهل الكتاب ، الذين دخلوا فى الإسلام رغبة فى إفساده ، وعلى أية حال كان زهداً وتقشفاً يحمل فى طياته السم للعقيدة الإسلامية ، وزعزعتها وهدم كيانها أو تحويلها إلى وجهة أخرى غير تلك التى رسمها كتاب الله ، هو زهد وتقشف وإن تلاءم مع المصدر الذى أوحى به ، إلا أنه كان وسيلة لخدع العامة وأصحاب العقول الضعيفة .

أما بعد فقد كان لهذه الدعوات المختلفة من إباحية وعقائد غريبة عن الإسلام ومن زهد وتقشف صدى وأى صدى فى الأدب العربى فى الكوفة ، وذلك موضوع الحديث فى الفصل التالى .

---

(١) الحيوان جـ ٤ ص ٤٢٧ . طبعة هارون

الباب الأول

الفصل الثالث

أثر حركات المتطرفين فى الحياة الأدبية في الكوفة

يتتبع المؤرخون هذه الحركات التى سقنا ذكرها فى الفصل السابق ، والتى قام بها متطرفو الشيعة أو الذين اتخذوا التشيع ستاراً لأغراض وأهداف سياسية ، يتتبعونها فى الجو السياسى يسجلون آثارها ، وتأثر الأحداث بها ، وما انطوت عليه من خطورة ، وما كانت تبغيه من لون السلطان ، وسلطانها فى التطورات السياسية أو تكييف مشكلات الحكم التى نتجت عنها ، وهم بعد ذلك يحاولون أن يبحثوا عن أثرهم ، وقد هربوا فى الأقطار ، وقد جد فى طلبهم الحكام ، ليروا التطورات التى كانت نتيجة القمع والقتل والتشريد ، وجهاد هؤلاء الفجرة فى الإبقاء على أنفسهم ومذاهبهم ، ولون الحياة التى عاشوها ، ثم ظهورهم بعد أن غفل عنهم السلطان وهدأ الطلب فى البحث عنهم ، يتشكلون فى أول أمرهم فى صور خفية ، وهم لايغفلون عن الانتقام لأنفسهم ، جادين فى إعلاء شأن مذاهبهم الغالية والمتطرفة ؛ كل ذلك أمور يدرسها مؤرخو التاريخ السياسى ، ولا يزالون يجدون فى سبيل الكشف عن أمور لا يزال دارسو التاريخ يجهلونها ، أما مؤرخو الآداب فيأتى دورهم بعدهم ، ولكن مهمتهم لا تقل خطراً ولا مشقة من إخوانهم الباحثين فى السياسة ، وهذا البحث تتضاعف فيه المشقات ، وتبذل فيه الجهود العنيفة ، لأن

كثيراً من مسائل التاريخ السياسى التى تعرضنا لبعضها ، وتصدينا لبحثها فى الفصل السابق ، لم يكتبها مؤرخو السياسة ، وهذا الفصل بناء على الأساس الذى أقمناه فيما قبل ، نريد أن ندرس فى هذا الفصل والفصول القادمة آثار هذه المذاهب الغالية فى نفوس الأدباء والشعراء ، وسنرى أن الفتنة بها قد أخذت منهم كل مأخذ ، وأن أثرها قوى واضح ، وسنبين مدى هذا التأثر ولونه ، وطريقة إخراج الشعراء لهذه المذاهب ، ويلاحظ أن السلطان وإن حطم القائمين على الدعوة فى هذا العصر الذى نتصدى له ، وهوى بسيفه على الرقاب لا يبقى ولا يذر من هؤلاء الفجرة ، الذين أعلنوا عن أنفسهم وانكشف ماانطوى عليه صدورهم ، فقد بقى الشعراء ممن تأثروا بمذاهب الغلاة من بعدهم ، يدعون لمذاهبهم ، سالكين سبلا شتى ، حتى لا يثيروا عليهم أولى الأمر ، ويلفتوا النظر إلى حقيقة أمرهم ، فيتجرد السيف عاملا فى تأديبهم وتطهير الحياة منهم .

يجد الباحث فى حياة الكوفة فى النصف الأول من القرن الثانى الهجرى موجة التطرف قد شملت مختلف مناحى الحياة فى المصر ، يرى الباحث تطرفاً بل وشذوذاً فى الحس والشعور عند الأدباء والشعراء ، وتطرفاً لا يقل خطراً ولا اعوجاجا عند المتكلمين ، وتطرفاً نلمح آثاره فى أحاديث الفقهاء وفتاواهم ، أولئك الذين لا يرقى الشك إلى عقيدتهم أو إلى ولائهم للإسلام ، نرى العقل والتيار الفكرى فى هذه المدينة ، بفضل الظروف السياسية والاقتصادية وإيحاءات البيئة ، قد أخذ يسلك سبيلا لاعهد للمسلمين به ، وليس من هدف هذا البحث أن يتصدى للكشف عن ذلك كله ، فالباحثون فى الفلسفة الإسلامية يعرفون رجلين كلاهما عاش بالكوفة ، أحدهما : هو هشام الجواليقى ، والآخر هو هشام ابن الحكم الذى اتخذ فى المجتمع مكاناً رفيعاً ، وتقرب إلى أصحاب النفوذ والسلطان ، حتى جعله يحيى بن خالد البرمكى « القيم بمجالس كلامه ونظره [1] » وليس عسيراً على

(١) ابن النديم الفهرست ص ١٧٥ طبعة أوروبا

هؤلاء الباحثين أن يتبينوا تأثر هذين الرجلين الواضح بمذاهب الرافضة ، والذين يدرسون تاريخ الفقه يرون أبا حنيفة رحمه الله ، لاينجو من لفحة الإسراف ، كما يبدو فى قوله الذى يذكره الماوردى فى الأحكام السلطانية (٣٨١ وص ٣٨٢ طبعة أوربا) أن الزنا مختص بالقبل دون الدبر (١) ويرون أيضاً ابراهيم النخعى ، كما يروى ابن قتيبة (الأشربة ص٩١ طبعة دمشق سنة ١٩٤٧) يفتى الكوفيين بحل الشراب ، لأن التحريم فى رأيه خاص بالسكر دون الشراب ، وليس هذا البحث يتصدى لمثل هذه الدراسة ، وإنما يقتصر على البيئة الأدبية ، يمضى فيها عسى أن يصل إلى حقيقة الأمر فيها . ودراستى لهذا الموضوع انتهت إلى أن تأثير المتطرفين والشيعة الغلاة ، يبدو فى سيرة حياة الشعراء والأدباء وشعرهم الماجن ووصفهم لملذاتهم ، وفى الهجاء ، وفى شعر أبى العتاهية الذى قاله فى الزهد وفى الدعوة إلى التذكير بالموت .

١ — الأدباء والشعراء المجان

لم تكد هذه الآراء الإباحية التى بشر بها غلاة الشيعة الإباحيون ، والتى تحض على اقتناص اللذات ، وتدعو إلى الإباحية والتحلل من قيود الأخلاق والإسلام ، تتخذ طريقها إلى آذان الشعراء حتى أغرتهم أن يستجيبوا لحاجات نفوسهم ، وما تهجس به أفئدتهم من ميل إلى اللذة ورغبة فى المتع الحسية واللذة الجنسية تلتمس عند الغلمان والنساء جميعاً ، وجروا فى حلبة اللذات لا يخشون عقاباً أنذر به الكتاب الكريم لأنهم أهملوه ، ولا يقيمون وزناً للأوضاع الاجتماعية التى أقامتها الحياة الإسلامية ، وانبنى عليها صرح من التقاليد والمثل العليا ،

---

(١) كتب المستشرق اندرسون فى مذهب أبى حنيفة بحثاً نشره فى مجلة مدرسة اللغات الشرقية والافريقية بجامعة لندن سنة ١٩٥٠ من ص ٣٦٨ وما بعدها وفيه يتحدث عن مذهب أبى حنيفة وعدول صاحبيه عن بعض آرائه لما فيها من تطرف

استمدتها من الشرع الحنيف ، لأنهم عدلوا عن ذلك كله إلى مثل تختلف اختلافاً كاملا ، وتتضاد فى صراحة مع حياة الإسلام ؛ يسعون إلى اللذة عامدين ويرتوون منها غير هيابين ؛ لايفرقون بين ذكر أو أنثى ، وإنما يعنون العناية كلها فى أن يرضوا شرههم إلى اللذة ، ورغبتهم فى تمزيق ماسماه الشرع الحنيف بالحرام ، وكان هؤلاء الأدباء شبانا ، يسعفهم شبابهم وتمدهم فتوتهم ، ولا يجدون من يقف فى سبيلهم ، فى بيئة جادت لهم بما يبتغون ، كانوا عدداً ليس قليلا ، ويروى الجاحظ أسماء بعضهم فيقول « وكان حماد عجرد وحماد الراوية وحماد بن الزبرقان ويونس ابن أبى فروة وعلى بن الخليل ويزيد بن الفيض وعبادة وجميل بن محفوظ وقاسم ومطيع ووالبة بن الحباب وأبان بن عبد الحميد وعمارة بن حمزة يتواصلون وكأنهم نفس واحدة [1] » ويصفهم أستاذنا الدكتور طه حسين بقوله « فهم كانوا يجتمعون فى دورهم وهم كانوا يجتمعون فى الأديار ، وهم كانوا يجتمعون فى البساتين والحانات . وعلام كانوا يجتمعون ؟ على الشراب والغناء والعبث بالنساء والغلمان ، يسرفون فى ذلك إسرافاً لايعدله إسراف ويسخرون فى أثناء هذا الإسراف من أصول الديانات والأخلاق والنظم الاجتماعية [2] » حقاً : إن حياة هؤلاء المجان تصورهم قوماً لا يثنيهم عن حياة اللهو والعبث والإسراف ضيق العيش أو قلة الكسب ، لأنهم تآخوا وأعان بعضهم بعضاً ، والذين كانوا يعتمدون على أنفسهم وحسب لم يقف فى سبيلهم قلة الكسب ، بل تمادوا وجعلوا ملذاتهم تكاد تستغرق ماتناله أيديهم من مال ، قال أبو الفرج الأصبهانى « كان بكر بن خارجة رجلا من أهل الكوفة وكان وراقا ضيق العيش مقتصراً على التكسب من الوراقة وصرف أكثر مايكسبه إلى النبيذ وكان معاقراً للشراب فى منازل الخمارين

(١) الحيوان جـ ٤ ص ٤٤٧ وص ٤٤٨ طبعة هارون .

(٢) حديث الأربعا جـ ٢ ص ٢٠٦

وحاناتهم وكان طيب الشعر مطبوعاً ماجنا [1] » .

كان هؤلاء المجان الشعراء والأدباء لايحتاطون ولا يخفون أمرهم ، ويصرحون بما تنطوى عليه صدورهم من حب وإغراق وشهوة ورغبة فى اللذة الحرام ، قال والبة بن الحباب :

ماالعيش إلا فى المدا م وفى اللثام وفى القبل
وإرادة الظبى الغريـ ر تسومه مالا يحل

وقال بشار بن برد :

ليس النعيم وإن كنا نزن به إلا نعيم سهيل ثم حماد [2]

ولعل تاريخ عمار ذى كناز يعطينا مثالا عما تنطوى عليه صدورهم من عقيدة نحو اللذة ، وأنها كانت استجابة لعقيدة من عقائد الإباحيين من غلاة الشيعة ؛ وعمار هذا الذى نقدمه مثالا ، هو عمار بن عمرو ولقب ذا كناز ، وهو همدانى عربى ، وقد كان لين الشعر ماجناً سكيراً معاقرا للشراب وقد حدّ فيه مرات ، كان ينصرف من الحانات فتلقاه الشرطة فيضربونه الحد ، وكان لا يعنيه أن يضرب وإنما يهمه أن يقتنص اللذة ، وظل حياته كلها يرتكب المنكرات ويأتى الفاحشة [3] وقال عنه صاحب الأغانى « وكان هو وحماد الراوية ومطيع بن إياس يتنادمون ويجتمعون على شأنهم لايفترقون ولـكنه كان متهماً بالزندقة [4] » وقصة عمارهذا مع امرأته أبلغ دليل على أنه هو ومن شا كله كانوا يأتون الفاحشة ويسعدون باللذة ، لأن عقيدتهم تبيح لهم ذلك ، نقل صاحب الأغانى من كتاب

---

(١) الأغانى ج ٢٠ ص ٨٧ الساسى القاهرة سنة ١٣٢٣ ه .

(٢) الجاحظ البيان والتبيين ج ٣ ص ١١٣ القاهرة سنة ١٣٣٢ ه الأغانى ج ١٣ ص ٧٤ الساسى سنة ١٣٢٣ ه

(٣) الأغانى ج ٢٠ ص ١٧٤ وص ١٨٥ ط . سنة ١٣٢٣ ه .

(٤) المصدر السابق ج ٢٠ ص ١٧٤

الحزنبل (محمد بن عبد الله اللغوى تلميذ بن الأعرابى) المشتمل على شعر عمار وأخباره « أن عماراً ذا كناز كانت له امرأة يقال لها دومة بنت رباح وكان يكنيها أم عمار وكانت قد تخلقت بخلقه فى شرب الشراب والمجون والسفه حتى صارت تدخل الرجال عليها وتجمعهم على الفواحش ، ثم حجت فى إمارة يوسف ابن عمر فقال لها عمار :

اتق الله قد حججت وتوبى   لا يكونن ما صنعت خبالا
ويك يا دوم لاتدومى على الخمـ   ـر ولا تدخلى عليك الرجالا
إن بالمصر يوسفا فاحذريه   لاتصيرى للعالمين نكالا
قدمضى مامضى وقد كان ما كا   ن وأودى الشباب منك فزالا

قال فضربته دومة وخرقت ثيابه ونتفت لحيته ، وقالت أتجعلنى غرضاً لشعرك فطلقها[١] » .

وهذه القصة توحى أن المرأة كانت على دين زوجها ، وكانت حياتهما لاتثير بينهما شقاقاً ولا لوماً ، حتى إذا ماحجت بيت الله،رأى الرجل أن زوجه إنمافعلت ذلك ، لأنها خرجت عن دينه فهجاها ، واطلع الناس على ماضيها ، وتلك سجية فى هؤلاء المجان حين يغضب الواحد من صاحبه ، يهجوه جداً أو هزلا كما سنصف ذلك فيما بعد ؛ كان عمار يجيز لامرأته أن تحظى من اللذة بما تشاء وهى فى عصمته، لايعوقها عن ذلك الرباط الزوجى ، الذى أقامته الحياة الاجتماعيةوالأديان السماوية على العفة والإخلاص ، أو تلك التعاليم الإسلامية التى تجعل لها حصانة وعفة ، وتطالبها أن تكون لزوجها دون الناس جميعاً ، لم تأبه دومة بنت رباح لهذا كله ، واتبعت زوجها فى عقيدته ، التى تبيح للإنسان ألا يجعل شيئاً يعوق أو يقف فى سبيل لذته ، فخرجت عن تعاليم الإسلام وتقاليد المجتمع ، ولكنها حين حجت ارعوت وآثرت أن تعود إلى دين الإسلام ، وتلك جنايتها لدى زوجها ، فصب

(١) المصدر السابق جـ ٢٠ ص ١٧٥ و١٧٦

عليها من غضبه ماشاء ، وسلط عليها لسانه . ولـكن المرأة تأبى إلا أن تضع ستاراً كثيفاً على ماضيها ، فتغضب وتضرب زوجها قائلة « أتجعلنى غرضاً لشعرك » ، وكأن مجون عمار وحده ساقه إلى العبث بها ، وليس مايقول شيئاً له نصيب من الصدق . كان هؤلاء المجان لايرون فى المرأة ذات الزوج حجاباً يمنعها أن تستمتع باللذة على نحو ماهم فيه ، ولا إحصاناً يمنع الأجنبى أن يستمتع بها أو يتعرض لها ، ويؤيد هذا ماينقله أبو الفرج الأصفهانى فى الأغانى « مرمطيع بن إياس بيحيى بن زياد وحماد الراوية وهما يتحدثان فقال لهما فيما أنتما ؟ قالا فى قذف المحصنات قالا أو فى الأرض محصنة فتقذفانها ؟ »[1] ، وهذا الذى يقوله مطيع هو بعينهما كان يراه الخطابية والجناحية ويدعون له ، فلا غرو إذا نظرنا إلى صاحبيه ، يحيى بن زياد وحماد الراوية وجميعا تربطهم مودة وألفة ويسلكون فى الحياة نهجاً واحداً ، إلى أنهما كانا يتلهيان بقذف المحصنات ، وقد اسقطا من حسابهما ما أوجبه الشرع الحنيف من احترام لحصانة الزوجات ، والذى يرجح تأثرهم بهذه المذاهب الإباحية ما ذكره المسعودى عنهم[2] ، أنهم كانوا يكتبون فى الزندقة وينشرونها على الملأ .

يحدثنا أبو الفرج الاصفهانى فى كتابه الموسوم بالأغانى عن هؤلاء الأدباء والشعراء المجان ، أن الواحد منهم كان لا يستأثر بالصديقة أو الخليلة دون صاحبه ، ويروى فى ذلك قصصاً كثيرة ، ربما تستغرق الشطر الأكبر مما يذكره عن الواحد منهم ، ويدل هذا على أنهم كانوا لايجدون غضاضة أو نفورا من أن تكون الخليلة مشاعا بين الأحباب والأصدقاء ، وهم فى ذلك يستوحون طائفتى الخطابية والجناحية ، اللتين تحضان اتباعهما على أن يلبوا وألا يحرموا أخاهم فى العقيدة من أن يستمتع باللذة كما يستمتعون . ومن الطريف فى أخبار هؤلاء المجان ،

---

(١) المصدر السابق جـ ١٢ ص ٨١

(٢) مروج الذهب جـ ٨ ص ٢٩٢ و ٢٩٣ طبعة باريس

أنّ أحدهم حاول أن يستأثر بصديقته دون صاحب له ، فلقى من صديقه و بقية الصحبة مايكره ، ذكر صاحب الأغانى « حدثنا حماد عن أخيه عن النضر ابن حديد قال أخبرنى أبو عبد الملك المروانى قال حدثنى مطيع بن إياس قال : قال لى حماد عجرد هل لك فى أن أريك حشة صديقتى وهى المعروفة بظبية الوادى ، قلت نعم ، قال إنك إن قعدت معها وخبثت عينك فى النظر إليها أفسدتها علىّ ، فقلت لا والله لا أتكلم بكلمة تسوؤك ولأسرنك فمضى بى وقال والله لا تتكلم ، ولئن خالفت ماقلت لأخرجنك ، قال قلت إن خالفت إلى ماتكره فاصنع بى ما أحببت ، قال امض بنا فأدخلنى على أظرف خلق الله وأحسنهم وجهاً » حتى إذا مااستقر بهما المقام ، رأى مطيع ألا سبيل من مخالفة مااتفقا عليه ، ونظر إلى صاحبة حماد وغازلها ، وأوقع بين حماد وخليلته حتى حدث بينهما شجار « وثاورته وثاورها فشقت قميصه و بصقت فى وجهه وقالت له ماتصادقك وتدع مثل هذا إلا زانية وخرجنا وقد لقى كل بلاء وقال لى ألم أقل لك يابن الزانية أنك ستفسد علىّ مجلسى ، فأمسكت عن جوابه وجعل يهجونى ويسبنى ويشكونى إلى أصحابنا ، فقالوا لى اهجه ودعنا و إياه ، فقلت فيه أبياتاً :

ألا يا ظبية الوادى ... وذات الجسد الرادى
وزين المصر والدار ... وزين الحى والنادى
وذات الميسم العذب ... وذات المبسم البادى
أما بالله تستحيين من خلة حماد
فحماد فتى ليس بذى عزم فتنقادى
ولا مال ولا عز ... ولا حظ لمرتاد
فتوبى واتقى الله و بتى حبل جرادى
فقد ميزت بالحسن ... عن الخلق بأفراد
وهذا البين قد حم ... فجودى منك بالزاد

فأخذ أصحابنا رقاعا فكتبوا الأبيات فيها وألقوها فى الطريق وخرجت فلم أدخل إليهم ذلك اليوم ، فلما رآها وقرأها ، قال لهم ياأولاد الزنا فعلها ابن الزانية وساعدتموه عليَّ وأخذها حكم الوادى فغنى فيها فلم يبق بالكوفة سقاء ولا طحان ولا مكار إلا غنى فيها » وغضب حماد لهجر صاحبته نتيجة التشهير بما فيه من عيب ، ولقى مطيعاً ورأى ميلا فيه إلى إرضائه ، فقال له مطيع « قم بنا حتى أمضى بك فأريك أختى وكانت لمطيع صديقة مغنية يسميها أختى وتسميه أخى » ، فذهبا معاً إلى صاحبة مطيع حتى إذا مادخلا بيتها أسرَّ مطيع إلى إحدى جوارى البيت أن تبلغ صاحبته بحضور حماد معه ، وأنه إذا طلب منها الغناء غنته قوله فيه « أما بالله تستحيين من خلة حماد » وأن تحضر لهما طعاماً وشراباً ، فحضر الطعام والشراب وأتت صاحبة مطيع وأخذوا جميعاً فى المأكل والمشرب والحديث ، حتى إذا مافرغوا من ذلك طلب حماد الغناء ، فغنت صاحبة مطيع الغناء الموعز إليها به ، فغضب حماد « فقال لها يازانية وأقبل عليَّ فقال لى وأنت يازانى ياابن الزانية وشاتمته صاحبتى ساعة ثم قامت فدخلت » فجعل حماد يتميز من الغيظ ، فقلت « أنت ترى أنى أمرتها أن تغنى بما غنت ؟ قال أرى ذلك وأظنه ظناً ! ! لا والله ولكنى أتيقنه فحلفت له بالطلاق على بطلان ظنه [1] » ، وهذه القصة تصور لنا حماد عجرد يدعو صاحبه مطيعاً إلى زيارة صاحبته ، حتى إذا ماأنس حماد من صاحبته ميلا إلى مطيع غضب أو تغاضب ، ولكنها أنانية على أية حال بدت منه ، لم يكن يتوقعها صاحبه منه ، فتشاور مطيع وإخوانه المجان فى أمر حماد ، واتفقوا على عقابه بأن يعمل مطيع على توكيد القطيعة بين حماد وصاحبته جزاء وفاقاً ، فقال هذا الشعر وعمل الصحبة على ذيوعه ، حتى كان على الألسنة ، وتزداد نكاية مطيع فى حماد أن يدعوه إلى صاحبته ليسمع هجاءه بأذنه غناء ، ويستجيب حماد لدعوة مطيع لأنه

---

(١) الأغانى جـ ١٢ ص ٧٨ و ٧٩ الساسى سنة ١٣٢٣ هـ

كان يأمل صلحاً وتعويضاً عما سلف ، فلقى ماهو أدهى وأمرّ وعقاباً مدبراً ، ذلك كان جزاء وفاقاً ، أصاب حماد عجرد ، لأنه أراد أن يستأثر بصاحبته ولايبيحها لصاحبه ، اشترك فى تدبيره الصحاب والجوارى .

وخلاصة القول كان هؤلاء المجان يلعبون و يلهون و يعبثون و يعيشون معاً كأنهم نفس واحدة ، يتوادون فلا يستأثر الواحد منهم بشىء يطلبه صاحبه ، قال صاحب الأغانى : « كان مطيع بن إياس و يحيى بن زياد الحارثى وابن المقفع ووالبة بن الحباب يتنادمون لا يفترقون ولا يستأثر أحدهم على صاحبه بمال أو ملك (يمين) وكانوا جميعاً يرمون بالزندقة [(١)] » هذا الصنيع من الأدباء والشعراء المجان ، وهو أن يدعو أحدهم صاحبه إلى خليلة ، أو يبيح له ماله وما ملكت يداه ليحقق لصاحبه من الملذات ما تشره إليه نفسه ، يصور تأثرهم العميق بدعوة الخطابية التى حضّت اتباعها أن يبيح الواحد منهم لصاحبه مايبيح لنفسه ، ولايحبس عنه مايراه متعة لصاحبه ، وأن يعاونه على التمتع بملاذ الحياة ، وأن يكونوا جميعاً إخواناً متحابين ، لا يضن أحدهم على أخيه بشىء يسره .

وهنا نقطة جديرة بالتأمل وخليقة بالبحث والدرس وهى : ألا يجوز أن يكون مابدا من المجان الشعراء والأدباء تطوراً لما كان عليه من سبقهم من شعراء الكوفة الأوائل ، فى بيئة مليئة بالحانات والأديار والبيوت ، التى أعدت ليجتمع الرجال مع النساء و يديرها قوم ليسوا عرباً وليسوا مسلمين ، أقاموها لتدر عليهم رزقا لا يجدونه فى الأرض ، التى أثقلها الخراج ؟ ذلك لأنا نلاحظ من تاريخ شعراء الكوفة الأوائل ، أن منهم من أطلق لنفسه العنان فى الشراب واللذة كالأقيشر ، وهو رجل كان فى الرعيل الأول من شعراء المصر ، يسعى إلى هذه الأديار و إلى هذه البيوت يبتغى اللذة و يشرب الخمر و يقول الشعر ؛ أفلا يمكن أن يكون الميل

---

(١) المصدر السابق ج ١٢ ص ٧٧ و ٧٨

إلى الإباحية فى القرن الثانى ، والتصريح بها ، ذلك الميل الذى ساد البيئة الأدبية كلها ، تطوراً لمثل هذه النزعة إلى اللذة والشراب ؟ هذه مسألة جديرة بالبحث حقاً ، وينبغى على الباحث قبل أن يدلى برأيه فى الشعراء المجان ، ويرد مجونهم إلى هذه الآراء الإباحية ، التى بشرت بها الخطابية والجناحية ومن إليهما من دعاة الشر والهدم وتقويض دعائم الإسلام وتحدى تعاليمه ، أن يفكر فيها وأن يحقق ويستقصى ، متتبعاً الزمن فى تطوراته والبيئات الأدبية والاجتماعية والسياسية فى الكوفة .

لا جدال فى أن تاريخ الكوفة يكشف عن كثير مما فيه مخالفة للشرع الحنيف ، ومن ذلك ما نراه يشير إلى الخمر فيما يشير ، أن كان لها عشاق من الكوفيين ، يتعاطونها فى بيوتها ، أو فى بيوتهم (١) ولا ينسى أن يذكر

---

(١) اختلف على كرم الله وجهه وابن مسعود رضى الله عنه فى أمر النبيذ . أفتى على رضوان الله عليه أنه غير حلال وخالفه ابن مسعود رحمه الله ورأى التحليل وكل منهما يعتمد على قول لرسول الله صلى الله عليه وسلم سمعه بأذنه . كثرت الروايات وأشتهرت عن ابن مسعود أنه كان يشرب نبيذ الجر وجعله الكوفيون أعظم حججهم (ابن قتيبة الأشربة ص ٤٨) وكان معظم فقهاء الكوفة على رأيه وكان سفيان الثورى يشرب النبيذ الصلب الذى تحمر منه وجنتاه وكان الأعمش يشربه ولا يخفى ذلك (ابن قتيبة الأشربة ص ٨٤) وكان إبراهيم النخعى يفتى بحله وكان يرى تحريم السكر لا تحريم الشراب وروى عن ابن إدريس عن ابن شبرمة أنه قال « كيف يترك أهل الكوفة النبيذ وفقيهم إبراهيم وهو يفتيهم بشربه وابن أبجر طبيبهم وهو ينعته لهم » (الأشربة لابن قتيبة ص ٩٢) حقاً كان بجانب الفقهاء المحللين آخرون لا يرون النبيذ حلالا منهم ابن شبرمة وعبد الله بن إدريس كانا على مذهب على رضى الله عنه ولكن أهل الكوفة لم يستمعوا إليهما فحسب بل كانوا يعيبونهما لأنهما خرجا على الأجماع ومن الحق على الباحث أن يذكر بجانب الأفتاء بالتحليل العامل الاقتصادى إذ أن كثرة الأعناب وغنى الكوفة وضواحيها بالبساتين دفعهم أن يستفيدوا اقتصاديا من الأعناب التى تبقت من الأكل وهذا مفهوم من قولهم « ولو لم تعتصر الأعناب لبارت على أهلها » ابن قتيبة الأشربة ص ٦٦ طبعة دمشق سنة ١٩٤٧ .

ويتحدث عن أحد ولاتها زمن عثمان رضى الله عنه ، أنه كان يشرب مع ندماء له من أهل الكوفة ، وأن الكوفيين انقسموا فى أمره فريقين ، أحدهما غضب وشكا وطلب عزله ، وحض الخليفة أن يتخذ قرار العزل ، وأصرّ على ذلك اصرار من لا يلين ، والآخر وقف على الحياد كأن لا شأن له بهذه المسألة ، وانتصر الفريق الغاضب وصدر قرار العزل ، ومن ذلك إشارة هذا التاريخ إلى ضواحى الكوفة أنها كانت مباءة لطلاب الرذيلة ينتجعها بعض الكوفيين ، وهناك فى بيوت النبط كانوا يستمتعون بزوجات أو بنات هؤلاء النبط مادامت جيوبهم عامرة ، حتى إذا مافرغت عادوا أدراجهم إلى مصرهم ، كل ذلك تشهد به الرواية ، ولكن يجب علينا أن نمتحن هذه الأدلة لنرى أسباب هذا الميل إلى اللذة ، ونتعرف طوية هؤلاء الكوفيين ، هل أثموا مدفوعين بتأثير عقيدة غير دين الإسلام ؟ أو كان ذلك لشبهة رأوها فيه ؟ أو لسبب من هذه الأسباب التى تجعل الإنسان يتنكر لدينه ؟ يحاول الباحث فلا يجد من الأدلة ما يشير إلى أن هؤلاء المتقدمين من الكوفيين اندفعوا لإرضاء شهواتهم جحداً للدين الإسلامى ، أو تنكراً له ، أو اعتناقا لمذهب إباحى ، ويرى بوضوح أن هؤلاء الآثمين كانوا مسلمين لاينكرون من الإسلام شيئاً ، دفعتهم إلى ذلك عوامل لا صلة لها بالعقيدة ، ونستطيع أن نضرب مثالاً بالأقيشر ، فهاهوذا يصور لنا شغفه بالخمر فيقول (١) :

وصهباء جرجانية لم يطف بها حنيف ولم تنغر بها ساعة قدر
أتانى بها يحيى وقد نمت نومة وقد غارت الشعرى وقد خفق النسر

نراه يتحدث عن الخمر هذا الحديث التقليدى الذى ألفه الشعر ، ولا ينسى أن يصف ساقيه بوصف يلفت النظر ، فيقول عنه إنه غير حنيف يعنى أنه نصرانى ، واختياره لهذا التعبير إنما يصوّر ذات نفسه ، التى أرادت أن تعبّر عن المسلم ، فبحثت عن أحب نعوت الإسلام وهى الحنيفية فاختار اللفظ . ونحن إذا تركنا

(١) ابن قتيبة الأشربة ص ٥٩ ، أنغرت القدر : غلت

هذه الروايات جانباً ، لنرى هل كان التشيع السبب الذى حرض الآثمين على اللذة ؟ وجدنا التشيع فى عصره الباكر بريئاً كل البراءة ، لانرى فيه مايحملنا على أن تتهمه ، بأنه كان من الأسباب التى حملت الآثمين أن يسعوا إلى اللذة ، ذلك لأنه كان من النقاء والصفاء مايجعله بعيداً كل البعد عن الشبهة ، فإذا ماتبدى لنا ذلك كله ، جال فى نفوسنا أن هذا الإثم الذى ارتكبه بعض الكوفيين المتقدمين كان نتيجة عوامل أخرى ، لا صلة لها بالعقيدة الدينية وهى العوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية ؛ نرى الحياة السياسية من العوامل الهامة ، لأن عقيدة الكوفيين المتشيعيين جعلتهم معارضين ، وكان الحكم قوياً فلا سبيل إلى إلقائه عن كاهلهم ، ونراهم يقومون بالنصيب الأوفر فى حروب الغزو ، وهم كمقاتلة قد وضعوا تحت إمرة قواد بنى أمية ، أولئك الذين يبغضونهم أشد البغض ، وثقيل على نفوسهم أن يكونوا خاضعين لأوامرهم ، منفذين لإشاراتهم ، طائعين لقيادتهم ، ولكنه الجهاد وهو مفروض عليهم ولا مخرج منه ، فمن أطاع فقد أطاع وهو كاره ، ومن أبَى فقد فرّ إلى ضواحى الكوفة ، يختفى فى بيوت النبط ، وفى حياة الأقيشر مايؤيد ذلك ، نراه تأبى نفسه الانخراط فى صفوف الجيش ، فإذا ما اقتيد إلى صفوفه هرب وهم خارجون بعوثاً إلى ميادين القتال ، إلى ضواحى الكوفة حيث أمضى وقت اختفائه فى القصف واللذة [1] ؛ كان موقف الكوفيين كمعارضين وكارهين لبنى أمية ، ومطيعين لهم ولقوادهم فى السلم والغزو قد خلق فيهم فيما يبدو حالة نفسية ، دفعت بعضهم أن يجد فى الأشربة سبيلاً لنسيان ماهم فيه من قلق نفسى ، فانطلقوا إلى الحانات والأديرة ينسون فى ميادين اللذة ما أقلق نفوسهم ، وكان من اليسير أن يحظوا بها مادامت جيوبهم عامرة . وكان للعامل الاقتصادى أثر وأى أثر فى إغراء بعض أهل الكوفة ، إذ دفع بعضهم إلى تذوق اللذة ، وذلك أن هؤلاء رأوا أنفسهم قد أصابهم ثراء بعد حرمان ، و بسطة فى العيش بعد فقر ، وحياة

(١) الأغانى ج ١٠ ص ٩٦ الساسى

هائثة بعد شقاء فى فيافى الصحراء ، فأحدث هذا فى نفوسهم ميلاً إلى الأخذ بمتع الحياة ، التى تكشفت لهم وتبدت فى إغواء ، فأقبلوا على اللذة فى بيئة تهيأت فيها سبلها ، يدفعهم إليها نفوس تروم التمتع بملاذ الحياة ، فأقبلوا عليها فى حذر خشية أن يتهموا بالخروج على هـذا الدين ، الذى نقلهم من فقر إلى غنى ومن ذُلٍّ إلى سيادة ، فأخذوا منها بمقدار يرضى نفوسهم المتعطشة فى خفاء ؛ وكان إلى جانب ذلك ، العامل الاجتماعى يغريهم ويشجعهم على تذوق ملاذ الحياة ، ذلك لأنهم كانوا يرون الحيريين الذين خالطوهم يشربون الخمر ، ويرون فيها لذة لا تنال إلا بشربها ، فأغوتهم أنفسهم أن يحظوا بما يحظون ، فذهبوا إلى الأديرة يشربون أو إلى قرى من سَمّوهم النبط يلهون ويشربون ، بعيدين عن رقابة الحكام وأعين المتطلعين . فإذا انتقلنا من هـذه الفترة وسايرنا الزمن فى تطوراته ، تلاقينا ثورة المختار بن أبى عبيد وأثرها الخطير فى تطور عقيدة التشيع ، لتتخذ سبلا لا عهد لها بها ، ولتكون مطية لأفكار غريبة عن الإسلام . ولـكن هذا التغيير لم يكن فيه مايحض على اقتراف الآثام ، وفوق ذلك انطوى تحت حكم الحجاج بن يوسف ، فذوى وذبل تحت عينه الساهرة ورقابته الدقيقة ، وحكمه الذى لايعرف هوادة ولا ليناً ، والذى دفع الشعراء أن يعنوا بالسياسة ، ويتركوا اللهو الذى حرّمه هذا الوالى وعاقب عليه عقاباً شديداً ، فخلا عصره فى الـكوفة من مرح الشعراء وابتساماتهم الشعرية ، وانتقلوا إلى الجد كما انتقل أهل الـكوفة إليه ، وظلوا كذلك حتى مات الحجاج ، وانقضى حكمه وطويت صفحة حياته فى حكم الـكوفة ، تلك الصفحة الخالدة التى تتحدث سطورها بأقوى عبارة عن قدرته فى وقف تيار اللهو ، وقفاً يكاد يكون تاماً ، ولعل خير مثال لذلك هو أعشى همدان ؛ على أنه من الإسراف أن نبرىء عصر الحجاج من شراب الخمر ، ذلك لأنه وإن كان قد أنذر روادها عقاباً شديداً ، وأحكم الرقابة على الشيعة والمتشعين ، فلم يخل عصره من قوم شربوها ، وهم أولئك الذين لم يكونوا موضع اتهام لدى بنى أمية ، وكان هواهم معهم ، لم يفطن

الحجاج إلى هؤلاء ، لأنه لم يحكم الرقابة عليهم ، بل لعله أفسح لهم — شأنه فى ذلك شأن رجال السياسة والحكم ، فوجدوا السبيل إلى الشراب ، فشرب منهم من مال إليه خفية ، نذكر منهم بلال بن أبى بردة ، قال فيه يحيى بن نوفل الحميرى [١] .

وأما بلال فذاك الذى تميل الشراب به حيث مالا

يبيت يمص عتيق الشراب كمص الوليد يخاف الفصالا

شرب هؤلاء ولكن فى حيطة وحذر شديدين ، أخفوا أمرهم حتى لايفتضحوا فيعاقبهم الحجاج ، ويبدو أن الدافع لهم على ذلك أن نفوسهم شرهت إلى الخمر ، وكانوا فى أمن من رقابة الحجاج ، فأغراهم ذلك بشرب الخمر ، التى لم تكن عزيزة المنال ، أما أهل الشيعة فكانوا بين نارين ، نار الأزمة الاقتصادية التى تأكلهم ، ونار الحجاج ، فلم يكن أمامهم من سبيل إلى تذوقها .

انتهى القرن الأول الهجرى أو كاد ، وقد شهد قوماً يشربون ويأتون الفاحشة أو يشربون فقط فى احتياط وفى خفاء ، وهم من أعماق صدورهم يرون الإسلام دينهم ويبغون له الكلمة العليا ، وينصرونه إذا مادعوا إلى نصرته ، وهم فى ذلك يختلفون اختلافا كاملاً عن بعض متشيعى القرن الثانى الهجرى ، وخاصة الإباحيين والغلاة والروافض . اتخذ أبناء القرن الأول اللذة وسيلة للمرح وإدخال البهجة على النفس ، شأنهم فى ذلك شأن المسلمين العاصين فى كل العصور والأزمان ، أما مُجّان القرن الثانى فقد أثموا لأن الحرام لديهم ليس حراماً ، وأن اللذة تبتغى لذاتها ، والتحليل والتحريم الذى نص عليه كتاب الله ليس له فى قلوبهم مكانة ، اتبعوا هواهم فأضلهم الشيطان فأصبحوا لايستطيعون الصبر على اللذة الآثمة ، ويجزعون جزعاً شديداً إذا حرموا منها أو فقدوها ، ونستطيع أن نضرب ببكر بن خارجة مثالا ، حين رأى الخمر قد كسرت دنانها طوعاً لأمر الوالى ، فحزن حزناً شديداً ، ولندعه يصف نفسه ومشاعره قال [٢] : —

(١) ابن قتيبة الأشربة ص ٣٢ دمشق سنة ١٩٤٧

(٢) الأغانى ج ٢٠ ص ٨٧ و ٨٨ الساسى سنة ١٣٢٣ ﻫ

يا لقومى لما جنى السلطان لا يكون لما أهان الهوان
قهوة فى التراب من حلب الكر م عقاراً كأنها الزعفران
قهوة فى مكان سوء لقد صاد ف سعد السعود ذاك المكان
من كميت تبدى المزاج لها لؤ لؤ نظم والوصل منها جمان
فإذا ما اصطبحتها صفرت فى ال قدر تختالها هى الجرذان
كيف صبرى عن بعض نفسى وهل يصـ ـبر عن بعض نفسه الإنسان

على هذا النحو كانت تبدو مشاعر مجان القرن الثانى الهجرى ، مصورة ألماً عميقاً ومرارة قاسية ، إذا مافاتتهم لذة آثمة ، تنعكس نفوس الشعراء منهم فى شعرهم ، فيبدو ما كانوا يقاسونه من ألم مزّق أفئدتهم لفقد تلك اللذات الحسية ، التى اتخذوها مذهباً فى الحياة ، وهم فى ذلك يختلفون عن أبناء القرن الأول الذين كانوا لا يطلبون اللذة لذاتها ، و إنما لتكون وسيلة للترفيه عن أنفسهم أو لاستكمال أسباب الترف .

انتهى حكم الحجاج والضائقة المالية التى خلفها وراءه تطبق على نفوس أهل الشيعة بكابوسها المخيف ، و يقدم القرن الثانى والكوفيون فى عسر مالى كما سبق أن بيّنا ، وتتطور حياتهم ، وتأخذ المثل العليا التى أقامها الإسلام تقاليد للمجتمع فى الذبول شيئاً فشيئاً ، حتى إذا ما انقضى شطر من القرن الثانى بدأ الانهيار الخلقى يتبدى ، و يأخذ الكوفيون فى التحلل من مثلهم العليا الإسلامية وقيود الأخلاق نتيجة للانهيار الخلقى ، و يبدو هذا واضحاً فى عصر خالد القسرى والى المصر ، الذى حاول علاجه ولكنه فشل ، لأنه نظر إلى أعراضه دون أن يتعرف علله ، قال المبرد [1] « إن خالداً هدم منار المساجد وحطها عن دور الناس بعد أن بلغه شعر لرجل من موالى الأنصار يقول فيه :

(١) الكامل جـ ٣ ص ٤٠ القاهرة سنة ١٣٣٩ هـ

ليتنى فى المؤذنين حياتى أنهم يبصرون من فى السطوح
فيشيرون أو تشير إليهم بالهوى كل ذات دل مليح

و يبدو أن سوء فعلهم كان يبدو واضحاً فى حفل الغناء ، فاضطر خالد القسرى إلى تحريمه ، قال صاحب الأغانى ، إن خالداً حرم الغناء فى أيامه لما كان فى مجتمعاته من سفه وعربدة ، وأباحه بعد أن شرط ألا يحضره سفيه أو معربد[١] ، وهنا نقف لننظر إلى أسباب هذا الانهيار الخلقى ؛ ودراسة هذه الأسباب تهدينا إلى أنه حدث أثناء الأزمة الاقتصادية التى خلفها الحجاج وراءه ، و إلى أنه عاصر ظهور المذاهب الغالية ، التى دعا إليها غلاة الشيعة أيام خالد القسرى ، والباحث حين يتكشف له هذان الأمران ، يرى فيهما العلة التى دفعت بالأخلاق إلى الانحدار ، الذى حاول خالد القسرى علاجه فلم يفلح ، لأنه لم يستطع التغلب على الداء نفسه . كانت مذاهب الغلاة تحطم القيود الخلقية التى وضعها الإسلام ، لانها كانت تخرج الذين يعتنقونها من قيود الإسلام الخلقية إلى جو عقيدة أخرى ، لم يعن أصحابها أن يقيدوا اتباعهم بأى قيد خلقى ، فساروا وفق هواهم ، لايردهم عن الغى إلا قوة السلطة الحاكمة ، وكان للازمة الاقتصادية التى طال أمدها مساهمة فعالة فى هذا الانهيار الخلقى ، لأن الفقر غالباً يلازمه مثل هذا الانحلال ، ومن ذلك نرى أن الأزمة الاقتصادية والمذاهب الغالية تعاونتا على النزول بالأخلاق ، إلى المستوى الذى حار به خالد القسرى فى الكوفة ، فليس غريباً إذن أن نربط بين الانهيار الخلقى و بين مذاهب الشيعة المتطرفين ، الذين لم يقصروا دعوتهم على العقيدة ، بل حضوا الناس على التحلل من القيود الإسلامية ، فإذا رأينا الشعراء مندفعين فى الطريق الذى رسمه الغلاة ، متخذين من اللذة غاية لذاتها ، و يصورون أحاسيسهم فى اللذة على النحو الذى رسمه الغلاة لاتباعهم ، كان لنا أن نرجع تأثرهم بهؤلاء الغلاة الذين عاشوا معهم فى بلد واحد .

(١) الأغانى ج ٢ ص ١١٩ و ١٢٠ الساسى سنة ١٣٢٣ ه

كان المجان فى القرن الثانى الهجرى يسعون إلى اللذة بوحى من الآراء الجديدة ، التى استحدثها الغلاة الأباحيون كما ذكرنا فى صدر هذا البحث ، ولم يكن للبيئة فضل إلا فى تهيئة السبيل لارواء غليلهم ، وإجابة ما سعوا إليه ، وجذبت الكوفة فى أواخر أيام بنى أمية أصحاب الجوارى حين رأوا فى المصر ميداناً خصباً للكسب عن طريقهن ، فأقاموا بيوتاً زينوها بالجوارى الغانيات ، فكانت كعبة قصاد اللذة ، وهيكلا تسفح فيه الفضيلة ، تتقدم الجوارى بأجسادهن ويتناثر المال تحت أقدامهن ، انتجع هذه البيوت الشبان الأثرياء أمثال محمد بن الأشعث وابن عون العبادى وابن المقفع ، يرافقهم فى ركابهم أصدقاؤهم الشعراء المجان ، الذين اتخذوا من شعرهم وسيلة لتملق هؤلاء الغانيات ، ليحظوا بما يحظى به الأثرياء ، أقبل المجان على هذه البيوت فرحين مستبشرين ، تستثيرهم غرائزهم فى اقتناص اللذات[1] ، وكان أشهر هذه البيوت منزل ابن رامين ، الذى وفد إلى الكوفة مهاجرا من الحجاز ، قال شراعة بن الزندبوذ يتحدث عن بيت ابن رامين هذا وشعره يغنى عن التعليق قال[2] ـ :

قالوا شراعة عنين فقلت لهم ... الله يعلم أنى غير عنين
فإن أبيتم وقلتم مثل قولهم ... فاقحمونى فى دار ابن رامين

وكان التنافس بين شباب الطبقة العليا على إرضاء ابن رامين يبعث فى النفس العجب ، وكانت المحاولات تبذل فى الحظوة بقلوب هؤلاء الغانيات ، بشكل يصور ما فى نفوسهم من شره إلى اللذة ، وغفلة عما جاء فى كتاب الله من نهى عن الإثم والفحشاء ، وكانت الجوارى يحدثن جوا من التبذل يشحذ الغرائز البهيمية ويثيرها ، والشعراء فى هذا المجال لايرون جمال الحياة إلا فى هذا الجو المسموم ،

---

(١) الأغانى جـ ١٠ ص ١٢٨ و ١٢٩ و جـ ١٣ ص ١٢٩ الساسى طبعة سنة ١٣٢٣ هـ .

(٢) المصدر السابق جـ ١٣ ص ١٢٨

لما فى نفوسهم من ضلال ، وما فى قلوبهم من فتنة ، على أن هذا الجو المسموم ازدهر فيه فن الغناء ، ورفع رايته ثلاث جوار حسان هن سلامة الزرقاء ، وربيحة وسعدة ، أخرجن للكوفة فناً هو ثمرة تزاوج الفن الكوفى بالفن الحجازى (١) .

وختام القول فى هؤلاء المجان الزنادقة من أبناء القرن الثانى الهجرى ، أن الدعوة التى أذاعها الغلاة المتشيعون لتحليل اللذة والفتك واقتحام الحرام ، رغبة فى التمتع بها على سبيل أنها من متع الحياة فلا حظر فيها ، ما دامت النفس ترغب فى ذلك ، شجعتهم على أن ينظروا إلى متع الحياة الحسية ، وأن يحظوا بلذائذها كلما طلبتها نفوسهم وقدروا عليها ، ودفعهم ذلك أن ينظروا إلى هذه المتع الحسية بعين الغلاة الإباحيين ، يحللون لأنفسهم ما حرّم الله ، ويعللون تحليلهم للحرام أن فيه متعة النفوس وجمال الحياة ، ويبدو أن من بين هؤلاء المجان الكوفيين من اقترفوا الأثم إيماناً بهذه العقائد الغالية ، التى أتى بها الإباحيون من الخطابية أو الجناحية ، ويؤيد هذا وصف أبى نواس حماد عجرد فى قوله « كنت أتوهم أن حماد عجرد إنما يرمى بالزندقة لمجونه فى شعره حتى حبست فى حبس الزنادقة فإذا

---

(١) ظهر الغناء فى الكوفة منذ فجر تاريخها وافدا إليها من مدينة الحيرة ، وأخذ يتطور حتى ظهر حنين الحيرى فى أيام خالد القسرى ، وقد أراد أن ينافس مغنى الحجاز فذهب إلى حمص ولكنه فشل ، وقدرلغناء الكوفة أن ينهض بانتقال ابن رامين إلى الكوفة وغنت جواريه غناء كوفيا ممزوجا بفن الحجاز ، وفى بدء الدولة العباسية بيعت جوارى ابن رامين وانتقلت سلامة الزرقاء إلى محمد بن سليمان من آل عباس وطلب منها أبوه مرة أن تغنيه :

إذا ما أم عبد الله لم تحلل بواديه

ولم تشف سقيما هيج الحزن دواعيه

قالت فديتك قد ترك الناس هذا منذ زمان » وأرادت أن تغنيه من فنها الجديد فأبى فغنته ما أراد (راجع الأغانى ج ١٣ ص ١٢٨ الساسى)

مجرد إمام من أئمتهم و إذا له شعر مزاوج بيتين بيتين يقرأون به فى صلاتهم[١] »

ويؤيد أيضاً ما نذهب إليه ما يذكره المسعودى عن هؤلاء المجان ، أن المهدى الخليفة العباسى حاربهم ، لأنهم كانوا زنادقة وكانوا يعملون على نشر الزندقة ، وذلك فى قوله فى مروج الذهب (ج ٨ ص ٢٩٢ وص ٢٩٣ طبعة باريس) أن المهدى « أمعن فى قتل الملحدين والذاهبين عن الدين لظهورهم فى أيامه و إعلانهم باعتقاداتهم فى خلافته لما انتشر من كتب مانى وابن ديصان ومرقيون مما نقله ابن المقفع وغيره وترجمت من الفارسية والفهلوية إلى العربية وما صنفه فى ذلك الوقت ابن أبي العوجاء وحماد عجرد ويحيى بن زياد ومطيع بن إياس تأييدا لمذاهب المانوية والديصانية والمرقونية فكثر بذلك الزنادقة وظهرت آراؤهم فى الناس » ، ومما له دلالة خاصة أن يحيى بن زياد وهو ابن خال أبى العباس السفاح ، أول خلفاء بنى العباس ، لم يكن له مطمح فى ملك ، كما أنه لم يكن بينه و بين المنصور أو المهدى ما يوجب ثورته عليهما ، أنه تاب فى أواخر حياته ، وفى هذا ما ينبىء أن بعض مجان الكوفة من اعتنق مذهبا غير إسلامى عن إيمان به ، وهؤلاء كانوا غالبا من الموالى يبغضون الإسلام و يميلون إلى غيره ، كما هو شأن حماد عجرد وغيره ، ولقد أباح لهم دينهم أن ينطلقوا إلى الشهوات بغير تمهل ، و يمكن أن نصف بعضهم الآخر ، بأن منطق الغلاة الأباحيين قد أغواهم ، فخرجوا عن الدين الإسلامى وتعاليمه وانطلقوا إلى شهواتهم ، وهؤلاء هم أبناء الطبقة العليا أمثال محمد ابن الأشعث ومن إليه ، وهذه الطائفة من المجان لم يكونوا أعضاء فى هذه الفرقة الغالية أو تلك ، و إنما صادف مذهب اللذة الذى نادى به الإباحيون هوى فى أفئدتهم فانطلقوا إلى لذاتهم .

غلب المجون على رجال البيئة الأدبية فى الكوفة ، لا فرق فى ذلك بين شاعر أو راوية أو وراق ، كانوا جميعاً يشربون و يأتون الفاحشة مع النساء

---

(١) الأغانى ج ١٣ ص ٧١ الساسى سنة ١٣٢٣ هـ

والغلمان ، و يتحدثون عن ذلك دون حيطة أو حذر ، وجعلت منهم حياة الخلاعة والمجون قوماً باسمين ، يتميزون بخفة الروح وحلاوة الدعابة ، فنشروا فى جو الكوفة عبير مرحهم وخفة روحهم ، ورأى فيهم الكوفيون ذلك فوصفوهم بالظرف ، نقل الثعالبى[1] ما نصه « ذكر أبو عبد الله المرزبان بإسناد له عن بعض الرواة أنه قال : ادركت طبقة بالكوفة يقال لهم حلية الأرض ونقش الزمان وهم حماد عجرد ووالبة بن الحباب ومطيع بن إياس ويحيى بن زياد وشراعة بن الزندبوذ» وأورد الخطيب البغدادى[2] فى وصف يحيى بن زياد « وكان شاعرا أديباً ماجنا نسب إلى الزندقة وكان صديق مطيع بن إياس وحماد عجر ووالبة بن الحباب وغيرهم من ظرفاء الكوفيين » هذا الوصف الذى يصور أهل الكوفة به مجانهم ، يدل على أن حياة المجان لم تكن ثقيلة عليهم ، وكانت دعابتهم محببة إليهم ، وكان هذا نتيجة للجو الذى خلقه المجان حولهم ، فخلع الكوفيون عليهم صفة الظرف ، و بذلك كانوا فتنة لضعاف العقول ، أو الذين تسيطر غرائزهم على عقولهم ومداركهم ، فذهبوا يقلدون المجان دون أن يدركوا أنهم قوم طلقوا دين الإسلام ، قلدوهم ليقول عنهم الناس أنهم ظرفاء ، ويقدم لنا الهيثم بن عدى مثالا لهؤلاء المفتونين ، فيقول « كان يحيى بن زياد يرمى بالزندقة وكان من أظرف الناس وأنظفهم فكان يقال أظرف من الزنديق وكان الحاركى محمد بن زياد يظهر الزندقة فقال فيه ابن مناذر :

يابن زياد يا أبا جعفر أظهرت ديناً غير ماتخفى
مزندق الظاهر باللفظ وفى باطن إسلام فتى عف
لست بزنديق ولكنما أردت أن توسم بالظرف

هذا الطراز من الشباب المفتون بالمجان ، يصور الفتنة القوية بحياة المجان الشعراء

---

(١) ثمار القلوب ص ٤٠٧
(٢) تاريخ بغداد ج ١٤ ص ١٠٤

والأدباء ، و يوقفنا على المدى البعيد الذى كانت فيه تلعب مذاهب الإباحية ، ويصور ما لألفاظ الشعراء المجان من سحر بهر العيون ، فكانوا بذلك دعاة للإباحية ، واقتحام المحرمات لإرضاء اللذة الجنسية ، و يلاحظ أن العباسيين و إن نجحوا فى القضاء على الفرق الشاذه من الشيعة ، فقد فشلوا فى محو الروح التى أوجدها المجان فى الكوفة ، ونستطيع أن نقول إن أصحاب المذاهب الغالية والمتطرفة و إن أخمدت أنفاسهم ، فقد خلفوا وراءهم الشعراء والأدباء المجان ، يحضون على الأقدام على اللذة على نحو ما يرغبون بطابعهم الخاص .

٢ — الهجاء

كان جو الكوفة تتجاوب فى أرجائه دعوات الغلاة والمتطرفين عامة ، وكان المجان وهم طبقة الأدباء والشعراء والرواة والوراقين — فريسة لهذه الدعايات الباطلة ، التى سممت جو المصر ؛ استمتعوا إلى الغلاة الإباحيين وهم يزوقون الاستمتاع باللذات و إتيان المحرمات ، فانطلقوا لايلوون على شىء ، يحققون مادعا إليه الإباحيون فى حماس ، وملأوا الدنيا غناء بلذاتهم ، فرحين بما يقترفون من آثام ، مغتبطين بما يأتون من محرمات ، واستمعوا إلى قوم من الرافضة عرفوا بالسبابين ينهشون أعراض الصحابة ، أعراض أولئك الذين نظر إليهم المسلمون حقاً على اختلاف الدهوز وتقلبات الأزمنة ، على أنهم مثل عليا فى الخلق الكريم والطموح الطاهر ونبل المقصد والإخلاص للعقيدة ، استمعوا إليهم وهم يسلطون ألسنتهم على هؤلاء السلف الصالح ذوى التاريخ المجيد ، تتناولهم فى أعز مايملك الإنسان فى حياته الاجتماعية من شرف وكرامة ، وفى أعز مايحرص عليه من خلق واستقامة ، مختلقين عليهم الأكاذيب ، طاعنين فى طهارة قلوبهم ونقاء عقيدتهم ، نظر المجان إلى هؤلاء السبابين الفجرة و إلى غيرهم من الرافضة ، وهم ينالون من أعراض الصحابة رضوان الله عليهم و يرمونهم بالكفر والمروق من الدين ،

فراقهم مذهبهم ورأوهم مثلا يحتذى فى هجاء الإنسان لخصمه ، فتنهم مسلك الروافض فجعلوا السب والشتم والنيل من الأعراض هدفهم فى الهجاء ، وانقادوا إلى ذلك ولم يروا فيه حرجاً ، لأنهم قد حرروا أنفسهم من تعاليم الإسلام ، ومانص عليه الكتاب الكريم من تحريم ، ولم يكن هناك قيد خلقى يهديهم سبيلا قد أخذوا أنفسهم به ، فيرون مافى ذلك من إثم وفجور ، انقادوا إلى تعاليم هذه البيئة التى أوحت إليهم الخروج عن الإسلام ، وأخذوا منهم مالاءم نفوسهم الخبيثة وأخلاقهم المنحلة ، فانطلقوا ينهشون أعراض معاصريهم و يسبون و يشتمون فى غير تحرج ، جرفهم التيار الذى أحدثه الروافض فهانت عليهم الأعراض ، وتلوّن الهجاء فصار طعناً وتجريحاً وكذباً على خصومهم ، وثلبا بالحق و بالباطل فى فحش يندى له الجبين .

ولرب معترض يقول : أليس الهجاء مجال الطعن والتجريح ؟ وكيف تطلب منه أن يكون سوى ذلك وهذه شيمته ؟ ولِمَ تجعله على لسان المجان يتأثر بمنهج الروافض ؟ وها هو ذا تاريخه يشهد أنه قد تطور فى العصر الإسلامى فأصبح مشاحنة بين شاعرين ، يحاول كل منهما أن ينال من خصمه و يهزمه ، و يريد أن يجعله مضغة الأفواه ، ويتطاول على قبيلة خصمه محاولا أن يحط من قدرها و يسخر من مكانتها ، زيادة فى النكاية من خصمه ؛ و إنّ ما كان يقال لم يخل من طعن فى الخلق والسلوك ، ولم يبرأ من لذع وتجريح ؟ ولكن الناقد يبصر مابين الهجائين من خلاف خطير ، و يرى فى هذا الهجاء الإسلامى فى القرن الأول الهجرى أنه بنى على أساس يختلف كل الاختلاف عن الأساس الذى أراده المجان فى القرن الثانى لهجائهم ، ذلك لأن الأول كان فيه ترعى الحرمات و إحصان المحصنات ولا يثلب أعراض الأمهات والآباء ، و إن كان فيه شىء من ثلب عرض ، فلم ينزل إلى سب الأم فى عرضها ، ولا الزوج فى شرفها ، ولا الخصم فى رجولته .

كان هجاء عربيا تطور من سب القبيلة وتعداد معايبها إلى هجاء شخصى

بين شاعرين يعددان معايب كل منهما ، ينازل الخصم خصمه ليظهر قوته الشعرية وليفخر بنفسه وقومه ، وليحط بقدر من يهجوه ، لايتجاوز فى ذلك التقاليد العربية التى يسمعها سخريته بخصمه ؛ أما الآخر الذى جاء به المجان ففيه قد تحطم كل قيد فرضه الإسلام ، ولم تقف أمام الشاعر الماجن أية عقبة تحول بينه و بين الشتم والسب والطعن واختلاق الأكاذيب ، التى تصور الخصم للمجتمع أنه سليل الدعارة ، أو مقصداً للذة الآثمة تبتغى فيه أو فى بيته ، وهو نفس المسلك الذى انتهجه الروافض ، فلا بدع إذا رأينا فيه أنه ثمرة من ثمار ايحاء الرافضة أو تأثيرهم ، يقودنا إلى ذلك أن الروافض أحدثوا هذا اللون من الطعن والتجريح قبل أن يظهر الشعراء المجان على مسرح الكوفة ، وأننا نرى المجان فى هجائهم والروافض فى سبهم يجرون فى حلبة واحدة ، لا يعبأون بقيود الأخلاق أو بالتقاليد .

أوحى صنيع الرافضة فى السب إلى الشعراء المجان أن يلونوا الهجاء ، فينقلوه من طابعه العربى إلى طابع يتفق وما عليه هؤلاء المجان من استهتار بالأعراض ، ينزلون به إلى حمأة تشمئز لها النفوس ؛ وكيف السبيل إلى الاستشهاد ، والفحش طابع هذا الهجاء ولعنة القانون له بالمرصاد ؟ ولكنا سنحاول أن نقتطف أعف ما قالوا ، ولنقدم حماد عجرد يشتم بشارا فيقول(1) .

أنت ابن برد مثل بر د فى النذالة والرزالة
من كان مثل أبيك يا أعمى أبوه فلا أبا له

ويطعن فى عرضه فيقول .(2)

لقد صار بشار بصيرا بدبره وناظره بين الأنام ضرير

وها هو ذا دعبل الخزاعى ، وإن لم يكن قد عاشرهم فقد تأثر بمنهجهم ، وجرى فى حلبتهم وشرب من منهلهم ، قال يرمى المتوكل بالابنه :ــ

(١) الأغانى جـ ١٣ ص ٧٢ الساسى

(٢) الأغانى جـ ١٣ ص ٧٥ راجع بقية الشعر ففيه فحش شديد

وليست بقائل قذفا ولـكن لأمر ما تعبدك العبيد[١]

ونـكتفى بهذا القدر لأن فحش هؤلاء المجان يتحرج القلم من تسجيله ، ولا تبيحه الآداب العامة ، ونكتفى بما ذكر آملين لمن أراد المزيد أن يقرأ فى تراجم هؤلاء المجان وفى شعرهم المدون فى كتاب الأغانى لأبى الفرج الاصفهانى ، مما لايدع مجالا للشك فى خبث نفوسهم .

هانت الاعراض على هؤلاء المجان ، فاتخذوها مجالا للشعر وميدانا يتفكهون فيه بذكر مايغيظ أو يضحك ، ويؤيد ذلك ما يروى عن الجاحظ أنه قال عنهم إنهم « لا يكادون يفترقون ويهجو بعضهم بعضاً هزلا وعمداً وكلهم متهم فى دينه[٢] » ، كان يهجو بعضهم بعضاً لأتفه الأسباب ، أو حباً فى القذف ، أو رغبة فى الضحك ، كأن القذف وثلب الأعراض شىء مستملح عندهم يبعث على الرضا ، ويدخل فى النفس البهجة ، ويثير المرح ، ويحبون أن يُنقل ذلك عنهم ، ويؤثر عن طائفتهم ، وتتداوله الألسنة كأنهم يأتون شيئاً جميلا ، حكى عمر بن شبة عن أبى أيوب الذيالى أن بشارا وحماد عجرد قد اتفقا على رجل ينقل إلى كل منهما ما قاله أحدهما فى صاحبه من هجاء[٣] ، وإذا تبين لدينا أن ما كان بينهما من هجاء كان فاحشا ، تناول الأعراض وكل عزيز عند ذى خلق كريم ، عرفنا أن الأعراض عند هذين الشاعرين لم تك شيئاً يعتد به أو يحافظ عليه ، أوأنها مسألة تستحق أن يولياها إكباراً وتبجيلاً ، ولا عجب فى ذلك لأنهم تحرروا مما ألف الإنسان أن يأخذ نفسه به فى حياته ، وإليك صورة عفيفة مما كان يقوله أحدهم فى صاحبه ، يقصدون به اللهو ، قال بشار لراوية حماد عجرد ما هجانى به اليوم حماد ، فانشده[٤] .

---

(١) الأغانى جـ ١٨ ص ٤١

(٢) الأغانى جـ ١٦ ص ١٤٣

(٣) الأغانى جـ ١٣ ص ٧٢

(٤) الأغانى جـ ١٣ ص ٧٤ ، القلتبان فارسى معناه الديوث أو القواد (معجم جونسون) .

ألا من مبلغ عنى　　الذى والده برد

فقال بشار صدق ابن الفاعلة فيما يقول ، فقال :

إذا ما نسب النـا　　س فلا قبل ولا بعد

فقال كذب ابن الفاعلة ، وأين هذه العرصات من عقيل ؟ فما يقول ، فقال :

وأعمى قلطبـان ما　　على قاذفه حـد

فقال كذب ابن الفاعلة ، بل عليه ثمانون جلدة هيه ، فقال :

وأعمى يشـبه القرد　　إذا ما عمى القـرد

على هذا النحو كان يجرى الهجاء ولـكن فى فحش ، وقليلا ما كان يليق ذكره كما فى هذه القصة ، نرى بشاراً يستمع إلى هجائه و يعلق على كل بيت بخبثه المعروف ، كأن الذى يقال له ليس هجاء له ، لا يجد غضاضة أن يستمع إليه ، وفى أن يرد عليه ، وفى أن ينقل و يتندر به الناس عنه وعن صاحبه ، و يروون ما يقوله كل واحد منهما فى الآخر ، انقلبت لديهما الأوضاع ، فبدلا من أن يُظهرا للمجتمع ما فيهما من محاسن وصفات تقربهما إلى الناس ، يُطلعان النـاس على عوراتهما ، وهما يقصدان ذلك عن عمد ، لينتهكا ما تواضع عليه الناس من حرمات ، ساخرين بالأوضاع الاجتماعية ، عابثين مما أضفى عليه الإسلام قداسة ، يتهاجيان ولا يغضب أحدهما فى حقيقة الأمر من صاحبه ، إلا حين يراه قد استعلى عليه فى الهجاء ، وقال فيه ماعزّ عليه نظيره ، عنـد ذلك يثور لقدرته الشعرية لا غضباً لـكرامته ، كما نرى بشاراً يثور أشد الثورة حين يسمع من حماد قوله : ـ

وأعمى يشبه القرد　　إذا ما عمى القـرد

و يقول إنه يرانى فيصفنى ولا أراه فأصفه ، فالثورة لم تكن لجرح أصابه فى كرامته ، و إنما لقدرة فى صاحبه ليست فيه وعزت عليه ، فلا يستطيع لها علاجا ؛ كان المجان يتهاجون فإذا كان أحدهم يجرى مع صاحبه دون أن يسبقه فلا غضب

ولا نفور ، ولا يدور فى خلد أى منهما إلا أن يشتط ليشحذ قريحة أخيه ليلحق به ، وهذا بيّن من المساجلات التى كانت بينهم .

انتهى الهجاء إلى هذه الناحية التى سلكها الروافض ، لأن المجان كانوا أحد رجلين ، رجل سكر وعربد ونافس فى الملذات فخلق حوله جواً من الشحناء ، وتغريه الخمر فى أن يشتط فيعربد ساباً طاعناً فى صاحبه ، ولكن هذه الشحناء وهذا الشطط لا يلبثان أن يذهبا مع أمس الدابر ، حين يصحو المعربد ويفيق إلى نفسه ، ينسى فى يقظته أو يتناسى ما قد سلف منه وبدر ، ويقبل على صاحبه فى إخاء ومودة ، فتظل الصحبة تربط بين قلبه وبين إخوانه ، شاع هذا الصنيع من المجان ، حتى كان الناس يتفكهون بما بينهم من مشاحنات ، لا تتفق وما هم عليه من مودة وإخاء ؛ أما الآخر فقد جرى فى هذا المضمار ، لأن هذه القيود الخلقية التى أقامها الإسلام للمحافظة على الأعراض وإحصان المحصنات قد تحلل منها ، لأنه مال إلى عقيدة غيرها لا تقيده بهذه القيود التى يفرضها الإسلام ، وليس بعيداً أن يكون إسراف هؤلاء فى الطعن والهجاء ، وإلحاحهم فى قوله وإذاعته ، قد قصد به تحدى تعاليم الإسلام فى نهيه عن ذلك ، ونستطيع أن نلمح ذلك فى هجاء حماد عجرد وبشار وحماد بن الزبرقان وغيرهم ، وهذه الطائفة قد اتخذت الهجاء وسيلة لرغبات نفسية ، وجعلوا أنفسهم أدوات أو مطايا لبلوغ مايريدون ، ولما كان هجاء هؤلاء لم يقصد به الجد ظلت الصداقة بينهم لا يعتورها الهجر ولا القطيعة ، وإن غشيها بعض السحاب الذى لايلبث أن يتبدد .

كان الروافض يتهمون خصومهم بالأباطيل للنيل من كراماتهم ولزعزعة الثقة فيهم ، ويصفونهم بالأكاذيب ويختلقون عليهم ما يصورهم منافقين ، يظهرون غير ما يبطنون ، وسلك المجان نفس الطريق مع معاصريهم ، يختلقون الأكاذيب لمحاربة خصومهم ، أو لكبح جماحهم وكسر شوكتهم وقوتهم ، أو لتأليب الدولة أو الأفراد ذوى النفوذ والسلطان عليهم ، ويصورونهم فجرة منافقين يظهرون غير

ما يبطنون ، والويل لخصمهم إذا لم يكن شاعراً مثلهم ، يستطيع أن يرد كيدهم إلى قلوبهم ، وسهامهم إلى نحورهم ، فهو بين أمرين : إما أن يصمت ولا سبيل إلى غير ذلك ، لأنه لم يجد السبيل لرد عاديتهم ، وإما أن تدعوه الحيلة إلى أن يطرق الوسائل التى تجعلهم يكفون عنه ، ويبذل لهم من ماله ما يصرفهم عنه ، وقصة أبى حنيفة رحمه الله مع حماد عجرد مثال نضر به لمسلكهم مع خصومهم ، لتصور ما طبع عليه هؤلاء المجان من طبع لئيم ، وليتبين على أى نحو كانوا يختلقون الأمور ليصمتوا الخصم .

روى أن أبا حنيفة تعرض لحماد عجرد فى مجالس درسه ، محاولا أن يبين لتلاميذه وللناس ما هو عليه من فجور يخرج صاحبه عن دين الإسلام ، وما هو عليه من استهتار بتعاليم الدين الحنيف ينفيه عن الحنيفية ، ليكون مثالا لهم حتى لاتستغويهم آراء الإباحيين ، أو تفسدهم آراء جاحدة للاسلام فتصدهم عن السبيل ، وليكونوا بمنأى عن شرور المذاهب الجديدة الغالية ، وليتحصنوا حتى لا يقعوا فريسة فيتنكبوا الصراط المستقيم ، لما سمع حماد عجرد بصنيع أبى حنيفة تصدى له يكذب عليه ، ويختلق فى غير حياء ولا خجل ، كتب إليه شعراً فيه يقول :

فلطالما زكيتنى ... وأنا المقيم على المعاصى

أيام تأخذها وتعـ ... ـطى فى أباريق الرصاص [1]

أطلق حماد عجرد لسانه فى أبى حنيفة يريد أن ينال من كرامته ، وأن يحط من قدره وليزعزع الثقة فيه ، مسنداً إليه تهما كاذبة ، وهو لا يقنع بسوقها بل يؤيدها باختلاق ، ألا تراه يكذب عليه مدعياً أنه كان يأتى الفاحشة ، وأنه كان يرغب فيها مثله ، وأنهما كانا معاً يتسابقان فى هذا الميدان قبل أن يتفقه ويظهر الزهد ، وأن حياة الإثم كانت تربط بين قلبيهما ، فكانا على صفاء وفى إخاء حتى غيَّر

---

(١) الأغانى جـ ١٣ ص ٧٥ طبعة الساسى

وبدّل أبو حنيفة ، وأظهر شيئاً لا يتفق مع ماضيه حين كان يشرب ويأخذ به المجون كل مأخذ ، كل ذلك يصوره خيال حماد مجرد ، يدعى صحبة أبى حنيفة ليبهته فلا يستطيع جواباً ، وما كان يفعل الرافضة غير ذلك ؟ كانوا يكذبون ويختلقون الأدلة والحوادث ليؤيدوا باطلهم بالاختلاق ، لم يكد أبو حنيفة يسمع هذا الاختلاق المعزز بالدليل الكاذب حتى آثر جانب السلامة ، لا خوفاً ولا هلعاً ، وإنما خشية أن يتمادى هذا الماجن ؛ فيأخذ فى الكذب والأباطيل يؤيدها باختلاق الحوادث ، وأبو حنيفة لا يستطيع أن يرد كيد حماد ، لأنه ليس من طرازه ، ولا تطاوعه نفسه أن ينزل إلى الهوة التى تردى فيها حماد ، أمسك أبو حنيفة عن ذكر حماد إبقاء على كرامته ، وابتعاداً عن الشبهات .

كان من أميز صفات الرافضة رميهم خصومهم بالمروق من الدين وبالكفر ، ونرى هذا الاتهام يشيع على لسان المجان الشعراء حين يهجو بعضهم بعضاً ، يتهمون بالكفر أو باطراح الإسلام أو باتباع عقيدة غيره ، ويخيل إلىّ أن هذا اللون من الهجاء اصطنعه المجان فى أول أمره ، يقصدون به العبث ، أو اتخذوه لوناً من ألوان مجونهم يلهون به ، وذلك لأن هذا الهجاء يقوم على فكرتين ؛ أولاهما أن المهجو عابث ماجن يحب الفتك واقتحام المحرمات ولا يقوم بالفرائض الدينية التى يوجبها الإسلام ، والثانية أنه يفعل ذلك لأنه خارج على دين الإسلام أو أنه يميل إلى عقيدة أخرى غيره ، وإذا قدرنا أن هذا الهجاء يقوله ماجن لماجن كلاهما على نمط واحد فى الحياة ، وأنه بدأ فى زمن كانت فيه أمور الدولة مضطربة نتيجة لصراع البيتين الكبيرين بيت آل العباس وبيت بنى أمية فى سبيل العرش ، أولهما يجاهد فى سبيل الفوز به ، والآخر يدافع عنه ، وتركت أمور الدولة لا رقيب ولا حسيب على هؤلاء المجان ، يأخذ على أيديهم ويحاسبهم على أقوالهم ، حتى يمكن أن يقال إن هذا الهجاء قصد به الجد ، وأن العداوة أملتها نكاية فى الخصم ، لم يكن هناك جدوى من قوله إذا أريد به محاربة المهجو ، لأن الحاكم لا يفرغ

لمثل هذه الأمور ، والدنيا من حوله تقعقع بالسلاح ، والأرض تتزلزل تحت قدميه ، فإذا تبيّن لنا هذا بدا لنا هذا الهجاء أنه لون من ألوان الوصف ، صاغه المجون ، وأغرى به الهزل ، وقصد به السخرية ، و إليك دليلاً على ما يمكن حمله على الهزل هو قول حماد بن الزبرقان فى حماد الراوية(١) .

نعم الفتى لو كان يعرف ربه — ويقيم وقت صلاته حماد
هدلت مشافره الدنان فأنفه — مثل القدوم يسنه الحداد
وابيضَّ من شرب المدام فوجهه — ببياضه يوم الحساب سواد
لا يعجبنك بزه وبياضه — إن اليهود ترى لها أجلاد
حماد يا ضبعاً تجر جعارها — أخنى لها بالقريتين جراد

فهذا هجاء قيل إبان الاضطراب السياسى ، لأن حماد بن الزبرقان قائله توفى قبل أن تستقر الأمور ، فإذا أضفنا إلى هذا أن حماداً الراوية كان صنيعة بنى أمية ، وأنه كان يأمن جانبهم ، وأنهم كانوا يرعونه ويعطفون عليه ، ويتجاوزون عن أخطائه وهفواته(٢) ، فإذا أضفنا أيضاً إلى هذا ما نلاحظه فى الشعر ، أنه يصور حماداً تصويراً مضحكا ، تبيَّن ما يدنينا من إرادة الشاعر فى الهجاء ، أنه قصد به الهزل والسخرية ، وأنه كان هزلا وسخرية يحملان فى طياتهما الشر . وانتقل هذا الهجاء من العبث إلى الجد حين استقرت الأمور السياسية ، وقبض بنو العباس بيد من حديد على أزمة الأمور ، انتقل إلى طوره الجديد ، وأريد به النيل من الخصم ، وتسديد الرمية القاتلة ، وذلك حين جد المهدى والهادى فى تتبع الزنادقة ، وتطهير الأرض منهم ، فى هذا الجو يبدو أن حماد عجرد اتهم بشار بن برد يؤيد الساعين

---

(١) الأغانى جـ ٥ ص ١٦٢ الساسى ـ الجاحظ . الحيوان جـ ٤ ص ٤٤٥ طبعة هارون ، ابن قتيبة الأشربة ص ٤١ دمشق سنة ١٩٨٧

(٢) الأغانى جـ ٥ ص ١٦٠ و ١٦١ الساسى

بزندقة بشار ، قال (١) :

نهـــاره أخبث من ليله ويومه أخبث من أمسه
وليس بالمقلع عن غيـــه حتى يوارى فى ثرى رمسه

فهجاء حماد مجرد تبين عليه مسحة الجد ، وأنه قصد به مهاجمة بشار والنيل منه ، تشغله هذه الفكرة فلا يحيد عنها ، وهذا الهجاء مثال لما شاع حين استقرت الأمور لبنى العباس ، وأضحى البحث عن الزنادقة شغلهم الشاغل ، يرمى قائله منه النكاية بالخصم أو إبعاد الشبهة عنه إذا كان ماجناً ، وساعد على شيوع هذا اللون من الهجاء أن رجال الدوله أرهفوا الآذان لمثل هذه الاتهامات ، وأخذوا فى التحقيق فيها ، وعاقبوا الزنديق بالقتل أو بالتعذيب فى غياهب السجون ، ويلاحظ أن الشعراء أمعنوا فى الاتهام بالزندقة إمعاناً جعل الدولة ترتاب فى صحة أقوالهم فلا تأخذ بها ، ولعلهم أرادوا ذلك إدرا كا منهم بنفسية حا كميهم ، ليصرفوهم عن الأخذ بأقوالهم ، والنظر إليهم باعتبارهم شعراء فى كل واد يهيمون ، وأنهم كثيراً ما يهزلون .

بعد أن استقرت الأمور لبنى العباس وأقاموا بغداد لتشهد صنيعهم فى الحضارة الإسلامية ، أخذت هذه المدينة العباسية تتلألأ فتخلب الألباب ؛ وتزَّين فتجذب الأبصار ، ويهرع إليها أصحاب الثراء فتصير مقر المترفين وكعبة القاصدين ، سعى إليها مجان الكوفة الشعراء ، يلتمسون فيها المأوى بعد أن أصبح مصرهم جحيما عليهم أشعله ولاتهم ، الذين لا يغفرون لأحد ذنباً ، ويبطشون بكل خارج على الإسلام والدولة ، أخذ كل واحد منهم يتقرب من أحد سراة بغداد ، ليضعه تحت رعايته ، ويخلع عليه من حمايته وماله ، ما يجعل عيشه يسيراً ، وبذلك خلت الكوفة منهم أو كادت ، وانتقلت مع المجان هذه البسمة التى أشاعوها فى الشعر ، وإن كانت بسمة الشيطان ، وران على الشعر صورة عابسة ، وانقلب ذلك المرح

(١) الأغانى ج ١٣ ص ٧٤ الساسى .

الذى ملأ به المجان جو الكوفة جداً ، تلاشى ذلك من البيئة الأدبية ، وأصبح صدى ، يتضاءل شيئاً فشيئاً حتى انقلب جو المصر إلى عبوس ، ورجع الهجاء إلى طابعه القديم ، تلونه السياسة ويتلاءم مع الحياة الاجتماعية ، ولكنه على الرغم من ذلك لم يفقد مميزاته التى خلعها عليه المجان ، والتى اكتسبوها من الرافضة ؛ فبقى طعناً وسباً ونهشاً فى الأعراض فى صورة جادة بشعة ، وحمل لواءه دعبل الخزاعى ، ظل دعبل محافظاً على التراث ، فكان هجاؤه طعناً وكذبا ، وفيه كل ما اتصف به هجاء المجان من تعريض بالأعراض ، وإلصاق التهم بالأبرياء ، يقصد بذلك كله تشويه سمعة الحاكمين ، أو من يتصل بهم من كبار رجال الدولة ، عسى أن يدفع ذلك الأمة الإسلامية أن تلقى عن كاهلها حكم بنى العباس ، وتودعه عند بنى على كرم الله وجهه .

هاجم دعبل الخلفاء العباسيين والوزراء منذ أن جادت قريحته بالشعر ، من حكم المعتصم إلى عصر المتوكل ، لم يسلم منه أحد من هؤلاء الحاكمين ، هاجمهم هجوما عنيفاً فى أعراضهم ، وهجاهم هجاء قبيحاً ، يطعن فى رجولتهم فى قسوة وفى فحش ، على نحو ما كان يفعل أسلافه من المجان ، وكان يستغل الحوادث ليسب ويطعن طعنات نجلاء . ليرضى نفسه الثائرة وقلبه المتقد وصدره الذى يغلى بالحنق على العباسيين ورجالهم ، ومن استغلاله للمناسبات أن أحمد بن أبى دؤاد تزوّج امرأتين من عجل فى سنة واحدة ، وهى مناسبة لاتوجب طعناً ولا مؤاخذة ، ولكن دعبلاً رأى فرصة ليصب غضبه على ابن أبى دؤاد فقال (١) :ـ

غصبت عجلا على فرجين فى سنة ... أفسدتهم ثم ما أصلحت من نسبك
ولو خطبت إلى طوق وأسرته ... فزوّجوك لما زادوك فى نسبك

وفى هذه القصيدة يقول :ـ

ولو سكت ولم تخطب إلى عرب ... لما فشيت الذى تطوية من سببك

(١) الأغانى جـ ١٨ ص ٣٦ الساسى .

عد البيوت التى ترضى بخطبتها تجد فزارة والعكلى من عربك

ولعل هذا الذى قاله فى ابن أبى دؤاد خير ما أثر عنه فيه ، إذ أنه هاجمه فى أبيه وأمه على نحو ما كان يفعل المجان فى هجائهم ، وقال فى قصيدة يهجوه (١) :

إن هـذا الذى دؤاد أبوه وأياد قد أكثر الأبناء

ساحقت أمه ولاط أبوه ليت شعرى عنه فمن أين جاء

لا سفاح ولا نكاح ولا ما يوصل الأمهـات والآباء

وإذا رأى جماعة تقبض على زمام الأمور وتتوارث الحكم هاجمها جملة ، فمن ذلك هجاؤه للحسن بن سهل والحسن بن رجاء وأبيه قال (٢) : ـ

ألا فاشتروا منى ملوك المخـزّم أبع حسـناً وابنى رجاء بدرهم

وأعط رجاء فوق ذاك زيادة وأسمح بدينار بغـير تندم

فإن رد من عيب على جميعهم فليس يرد العيب يحيى بن أكثم

وهجا آل طاهر ولم يكن بينه وبينهم إلا خلاف فى الهوى السياسى ، وهو الذى برّر عنده الهجاء ، وهو الذى يتحكم فى عواطفه ، قال فيهم (٣) : ـ

وأبقى طاهـر فينـا ثلاثا عجائب تستخف لها الحلوم

ثلاثة أعبد لأب وأم تميز عن ثلاثتهم أروم

فبعض فى قريش منتماه ولا غـير ومجهول قديم

وبعض قد يهش لآل كسرى ويزعم أنه علج لئيم

فقد كسرت مناسبهم علينا وكلهم على حال زنـيم

على هـذا النحو كان يسب الخلفاء والوزراء وكبار رجال الدولة ، لا يخشى أحداً ، ولا يرهب سلطانا ، ولم يسلم منه أحد ، مزّق أعراضهم ، وحاول أن يسقط

---

(١) الأغانى جـ ١٨ ص ٤١

(٢) الأغانى جـ ١٨ ص ٤٦

(٣) الأغانى جـ ١٨ ص ٤٦

هيبتهم فى نظر الجمهور ، يقول هـذا الهجاء ويهرب فى الآفاق ، ويختفى عن الأنظار ، فلا تصل إليه يد تقبض عليه ، وتقدمه للعدالة لينال جزاء هجائه وقذفه وطعنه ، وفاخر بذلك فقال إنه حمل خشبته على كتفه خمسين عاماً فلم يجد من يصلبه عليها ، ووصفه صاحب الأغانى فقال : إنه هجّاء خبيث اللسان ، لم يسلم منه أحد من بنى العباس لا من وزرائهم ولا أولادهم ولا ذو نباهة أحسن إليه أو لم يحسن[1] .

لم يكن لأحد مكانة فى نفسه ، ولم يسلم من طعنه إلا من كان سليل آل البيت ، أو كان على عقيـدته السياسية ، وهى ـ فيما يبدو ـ العقيدة التى عرفت بالإمامية ، كما يتبين ذلك من قصيدته الرائعة المشهورة التى مطلعها :

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحى مقفر العرصات

والتى يقال إنه أهداها إلى على بن موسى الرضا ، ولقد دعته عقيدته الدينية والسياسية معاً أن يسرف فى الهجاء وفى الفحش ، ويتفوق على سابقيه المجـان تفوقا يشهد له بسلاطة اللسان ، وطول الباع فى هذا الميدان .

لم يكتف دعبل بالمعاصرين له يسلط عليهم لسانه ، و يسدد إليهم طعنانه ، بل تجاوز ذلك إلى اقتحام حرمات الموتى يهجوهم كما كان يهجو الأحياء ، تمكن الحقد فى نفسه ، وأخذته الخيلاء بسلاطة لسانه ، فلم يرع حرمة لحى أو ميت ، ونسى أنه حين يتحدى الأموات فإنما يتحدى من لا يجيب ، وغفل أنه حين يطعن فيمن طوته القبور إنما يطعن فيمن لا يحس ؛ ولـكنه دعبل الذى فاق أسلافه المجان فى الهجاء ، دفعته نفسه أن يتجاوز تقاليد الشعراء ، فى أن يكون الهجاء موجهاً إلى الأحياء ، فانتقل به إلى الأموات ، عادلا به عن طريقة الشعراء إلى مسلك الروافض فى سب الأحياء والأموات ، عدا على الـكميت وهو ميت فأخذ يهجوه ، و يطعن فيه طعناً أثار عجب أبى سعد المخزومى فقال[2] :

---

(١) الأغانى جـ ١٨ ص ٢٩ الساسى سنة ١٣٢٣ هـ

(٢) الأغانى جـ ١٨ ص ٣١

واعجبـاً ما سمعنا أو رأينا   هجـاء قاله حى لميت
وهـذا دعبل كلف معنى   بتسطير الأهاجى فى الكميت
ومايهجو الكميت وقدطواه الر   دى إلا ابن زانية بزيت

وخلاصة القول فى هذا الهجاء الكوفى الذى شهده القرنان الثانى والثالث الهجرى ، أنه كان أثراً من آثار البيئة التى ضمت بين ظهرانيها الروافض ، ومنهم السبابون الذين أخذوا طريقة السب والشتم ونهش الأعراض وسيلة لنقد خصومهم من المسلمين الأحياء والأموات ، وتأثر بهم المجان فسبوا خصومهم وطعنوا فى كرامتهم ونالوا من شرفهم ، على نحو تشمئز منه النفوس السليمة ، ولم يكن هناك مايثنيهم من أن يرهفوا أسماعهم إلى الروافض ، وإلى كل غال ومتطرف يأخذون منه مايروقهم ويصيغونه باللون الذى يحلو لهم ، فيأتى صورة مطابقة أو محورة أو جديدة ، ولـكنها تمت إلى الأصل بسبب متين ، لا يخدع الناقد ولا يضل الباحث ، ويلاحظ أن هؤلاء السبابين والمجان والذين داروا فى فلكهم ، خلفوا ثروة من ألفاظ السباب ، ظلت فى عصرهم وبعدهم تتداولها الألسن وتتناقلها الأفواه ، وتلقى فى بواطن الغضب والثورة النفسية من أفواه المهذبين كالخلفاء والقادة والسادة ومن إليهم ، وهذه الألفاظ تلقانا فى كتب الأدب ، ومن عجب أن هذه الألفاظ أخذت تعيش مع الزمن ، تلبس لباس البيئة متطورة على كرّ الأيام ، محتفظة بمعانيها ، وإذا تجاوزنا هذا إلى ما كان للمجان وغيرهم من نشاط ، فى اتهام بعضهم بعضاً بالخروج على الدين الإسلامى والرمى بالـكفر أو الزندقة ، لاحظنا أن هذا الصنيع شرهت إليه النفوس ، للنكاية بالأعداء والخصوم ، وأخذ يساير الأجيال حتى نراه يهدف إلى الطعن فى عقيدة الخصم أياً كانت ، لصرف الناس عنها ، أو لتصوير فسادها ، كما كان ذلك أيام محنة خلق القرآن ، وكان هذا الطعن وذلك الاتهام صادرين من التعصب ، الذى أخذ يعمى أصحابه زمن الفقيه المعروف أحمد بن حنبل إبان حركة الأمر بالمعروف

والنهى عن المنكر ، فرمى بهذه الشنعة كل مخالف لها أو معارض لاستمرارها وورث الحنابلة هذه العقيدة ، وصبوا جام غضبهم على المفسر المعروف والمؤرخ الجليل محمد بن جرير الطبرى .

فى عصر انصراف الشيعة إلى الهدوء فى الكوفة

الآن وقد طوينا صفحة من أثر المتطرفين فى بيئة الكوفة الأدبية ، كتب سطورها مجان الكوفة فى عصر امتاز بالاضطراب السياسى ، يدعون فيه إلى مذاهب الإباحيين الغلاة ، ويحضون الناس على أن يسقطوا من حسابهم مايسميه الدين الإسلامى « حراماً » ويعنوا بلذاتهم فحسب ، ويندفعون فى ذلك إلى المدى الذى رسمه الإسراف والغلو ، يعينهم انصراف الحكام والولاة إلى مايشغلهم عنهم ، من إخماد الثورات المسلحة والقضاء عليها ليستتب الأمن والنظام ؛ وتنقاد الأمور لبنى العباس ، يجرون فى هذه الحلبة حوالى ربع قرن من الزمان ، يكشفون عن صدورهم ، ويطلعون الناس على مايجول بخواطرهم ، وما يرين على قلوبهم ، وعلى ماطبعت البيئة فى نفوسهم ، فلا غرو إذا عبروا عن تأثرهم بالمذاهب الإباحية الغالية ، التى هوتها قلوبهم ، فصوروا إقبالهم على اللذة فى صدق وإيمان بها ، لا يخشون عقاباً فى الدنيا أو عذاباً فى الآخرة ، لذا جاء شعرهم وأدبهم مرآة مجلوة تعكس نفوسهم ، وتترجم عن قلوبهم ، بعد أن نظرنا إلى هذه الصفحة الخطيرة التى يرى فيها مؤرخ الآداب العربية ، أنها كانت ذات تأثير خطير لافى الكوفة وحدها ، بل فى الأمصار الأخرى مما سنكشف عن أمره فيما بعد ، ننتقل إلى مجال آخر وإلى صفحة تحتاج منا إمعاناً فى النظر ، ودقة فى الفهم ، وفطنة ودراسة عميقة ، حتى يصل البحث الى غايته ، وتتكشف لنا الأمور ؛ ولا يخدعنا مظهر خلاب يخفى ماانطوت عليه الصدور ، ذلك لأن هذا العصر هو عصر إخلاد الشيعة إلى الهدوء والنزعة إلى الانصراف المؤقت عن الثورات .

امتازت أيام المهدى والهادى بانصراف السلطان فى الكوفة ، انصرافاً يكاد يكون تاماً إلى هذه الطوائف الفاجرة الخارجة على الدين ، المعلنة لمذاهب تتحدى الإسلام ، الذى بفضله ارتقى العرب أريكة العرش ، أخذ السلطان يعمل بسيفه فى رقاب هؤلاء المسرفين من المتشيعين المتطرفين والغلاة ، خشية على سلطانه من أن ينتزعه هؤلاء الساعون إليه ، عن طريق إقامة عقائد لاتمت إلى الإسلام بصلة ، يتصيدون بها الأتباع ، و يتملقون بها غرائزهم وأهواءهم ، و يقيم لهم من يتصيدهم ، و ينشىء عاملاً خاصاً يسميه عامل الزنادقة ، جعلت مهمته القضاء عليهم ، والبحث عنهم أينما ثقفوا ، حتى تطهر البلاد منهم ، ولكن بنى العباس و إن كانوا قدعنوا عناية خاصة بإفناء الزنادقة ، كما عرفهم عصرهم ، فقد فشلوا فى القضاء على الزنادقة جميعاً ، ذلك لأنهم امتازوا بخبث ودهاء ضلل الباحثين عنهم وحير العقول ، ذلك لأن منهم من اختفى وجاب الآفاق ، لايعرف أمره ولا يعلن عن نفسه ، و إن وجد فرصة فى أن ينتقم من خصمه المسلم لم يتردد فى اقتناصها ، ومنهم من تلوّن مع الزمن يظهر غير مايبطن ، و بقى حيث هو ينجيه نفاقه ، ومظهره الكاذب ، و يزكيه لدى العامة ما أخذ نفسه به ، من بعده جهرة عما يريبهم ؛ أما طائفة المجان وهم الزنادقة الأدباء ، الذين رأوهم معاصروهم يهملون تعاليم دين الإسلام و يستجيبون للذاتهم ، فلم يروا بداً من أن يفكروا فى سبيل تجنبهم الخطر ، فانتقل منهم فريق إلى بغداد ، ليبتعدوا عن الكوفة أم البدع ومصر الزنادقة ، وظل منهم فريق فى الكوفة ، ولكنه رأى ألا نجاة من ماضيه وما فيه من خطر ، إلا أن يخلع ثوب المجانة والاستهتار ، ومما هو جدير بالذكر أن كلا الفريقين من المجان لبسا ثوباً فضفاضاً من النفاق ، ينطلقان به إلى هذا أو ذاك ، يصورهم لدى سادتهم أوفياء ، و إن كانوا فى قرارة أنفسهم لايعنيهم من هؤلاء السادة إلا أن يبسطوا عليهم حمايتهم ، و يجودوا عليهم بمالهم ، واتخذوا شعرهم مطية لهم ، ينتزعون به رضا هؤلاء السادة ، ليكسبوا هذه الحماية وذلك المال ، و يدل تاريخهم على أنهم نجحوا فى

ذلك نجاحاً باهراً ، حفظ عليهم نفوسهم ، وأدر عليهم الأموال .

أخلد الشيعة ـ وهم كثرة أهل الكوفة ـ الذين أقلقوا بنى أمية بثوراتهم وعنادهم إلى الهدوء ، فتمكن ولاة الكوفة أن ينفذوا السياسة التى رسمها خلفاء بنى العباس ، للقضاء على المتمردين على الدين ، أو على الذين تتطلب السياسة القضاء عليهم بحجة أنهم زنادقة ، انصرف ولاة الكوفة ينفذون هذه السياسة ، التى تظهر بنى العباس فى أعين الناس حراساً على الدين ، ونجحوا فى ذلك نجاحاً أعاد الأمور إلى نصابها ، ويؤيد هذا ما يذكره الخطيب البغدادى[١] ، من أن الرشيد أراد أن يعرف مدى تأثير السياسة العباسية فى النفوس ، فبعث إلى الكوفة إلى أبى بكر بن عياش المحدث الكوفى ، الذى يعد من ثقات الشيعة فى الحديث ومن أعلمهم بالسنن ، « فأحضره وخرج معه وكيع فلما قدم استأذن على الرشيد فأذن له فدخل قال ووكيع يقوده ـ وكان قد ضعف بصره ، فلما رآه الرشيد قال له ياأبا بكر ادن فلم يزل يدنيه فلما قرب منه قال وكيع تركته ووقفت حيث أسمع كلامه فقال له الرشيد يا أبا بكر قد أدركت أيام بنى أمية وأدركت أيامنا فأينا كان أخير ؟. قال وكيع فقلت اللهم ثبت الشيخ فقال يا أمير المؤمنين أولئك كانوا أنفع للناس وأنتم أقوم للصلاة» وعبارة أبى بكر بن عياش فى المقارنة بين بنى أمية و بنى العباس تشير إلى ما كان يفيده الناس من الغزو أيام بنى أمية ، و إلى جهد بنى العباس لمحاربة الزنادقة . كان من أثر السياسة التى انتهجها بنو العباس لاكتساب ثقة الجماهير ، بالقضاء على كل خارج على الدين أو على الدولة ، أن اختفت فى الكوفة تلك الصراحة التى جعلت الشاعر يلائم بين شعره ونفسه ، وأخذ الأدب يتلون ليرضى طبقة الحاكمين عن نفسه فى المصر ، وحالته هذه لم تكن لتختلف كثيراً عن حال الكوفيين ، الذين أسلموا قيادهم كرها لبنى العباس ، يخلصون لهم فى الظاهر وتبطن لهم قلوبهم أشد أنواع البغض والكراهية ، ولعله بغض وكراهية كانا

---

(١) تاريخ بغداد ج ١٤ ص ٣٧٥

يفوقان شعورهم نحو بنى أمية ، واشتدت هذه النزعة لإرضاء الحكام فى الكوفة حين وليها ولاة شداد غلاظ ، وانبث من حولهم العيون التى سلطها المهدى عليهم للكشف عن الخارجين على دين الإسلام ، لبس الأدب ثوب الخداع ، وانتقل من التعبير عن اللذة واقتحام الحرام إلى الدعوة إلى التقشف والزهد ، ولكنه تقشف وزهد لا يصوران نفساً آثرت الباقية على الفانية فتريد فضل الله ورضوانه ، و إنما ليصورا مذاهب اتخذت هذا اللون من الحياة ، لتخدع الناس عن حقيقة أمرها ، وما تبطن من بغض وكراهية للإسلام ، ورغبة فى تغيير هذا الدين و إقامة غيره ، من هذه الأديان التى توطنت فى أرض بابل كالمانوية وغيرها ، وكان يحمل لواء هذا الأدب الخداع أبو العتاهية .

ومن الخير قبل أن نمضى فى دراسة هذا الأدب الذى حفظته لنا الدهور عن أبى العتاهية ، أن نتحدث عن هذا الرجل لنكشف صفحته ، ولنكون على بينة من أمره ومن شعره ، وحتى لا يأخذنا فيه من الشك ما تسلط على بعض النقاد ، ففهم قوله على ظاهره دون أن يرده إلى موارده ومصادره، وهم معذورون فى ذلك ، لأن عصر هذا الشاعر لا يزال فى حاجة شديدة إلى الكشف عنه ، وعن هذه المذاهب التى كانت تفتك بعقول بعض الكوفيين ، ممن ألفوا الإسراف وهوبته طبائعهم .

٣ — أبو العتاهية و تأثره بالمذاهب المتطرفة

بين أيدينا شاعر رماه بعض معاصريه بالإلحاد ، نسلكه فى زمرة الذين أضلّهم الشيطان ، فتنكبوا طريق الهدى والرشاد ، لا نرى فيه الخير الذى رآه بعض دارسى الأدب العربى ، ذلك لأن تاريخ حياته يوحى أنه كان فى بدء أمره من هؤلاء الشبان الذين خلبت ألبابهم اللذة ، فراح يصطفى لنفسه منها ما يؤثره هواه ، روى أبو الشمقمق أنه رأى أبا العتاهية يحمل زاملة المخنثين[1] ، ويؤيد

(١) الأغانى ج ٣ ص ١٢٤ الساسى وزاملة كلمة فارسية وأنسب معنى لها هنا يحمل أوزار المخنثين

قول أبى الشمقمق ماروى عن بشار ، أنه كان يسمى أبا العتاهية مخنث أهل بغداد[١] ، وكانت صفته هذه تسلكه فى عقد المجان ، يؤيد ذلك ماوصفه به والبة بن الحباب فى قوله[٢] : ـ

كان فينا يكنى أبا إسحاق وبها الركب سار فى الآفاق
فتكنى معتوتها بعتاه يا لها كنية أتت باتفاق
خلق الله لحية لك لا تنفك معقودة بداء الحلاق

وما وصف أبو العتاهية به نفسه قبل تزهده فى قوله[٣] : ـ

بليت بنفس شر نفس رأيتها بجرح تمادى بى إذا ما نهيتها
فكم من قبيح كنت مقترفا به وكم من جنايات عظام جنيتها
وكم من شفيق باذل لى نصيحة ولكننى ضيعتها وأبيتها
دعانى إلى الدنيا دواع من الهوى فأرسلت دينى من يد وأتيتها

نراه يصرح أنه كان ذا نفس قد جرحت ، آذاها ماتمكن فيها من آراء ، وأنه إذا أراد لهذا الجرح أن يلتئم ، ولهذه النفس أن ترعوى، زجرها ونهاها عن هواها ، ولكن ذلك لم يكن ليثنى نفسه ، التى آثرت الضلالة ، أن تندفع فيها ، وتحضه على القبيح يقترفه ، وعلى جنايات خلقية عظام يرتكبها ، لا تجد فى اللذة حدوداً يوقف عندها ، أو عقبة دينية تحول بين اقترافها ، وما كان لشفيق أن ينبه إلى فداحة وهول ما يقترف ، وما كان لناصح أن يبذل حيلته وحججه و يبين خطورة الغواية والأثم ، و يكشف عن الهوة العميقة التى يتردى فيها الآثمون ، فأمام ذلك كله حجاب صفيق يجعل القلب يأبى النصح و يرفضه ، ولا يمكّن الهداية أن تصل إلى القلب ، كان اشفاقاً يقابل بالإنكار ، ونصحا لا يجدى ، ولا يخرج

(١) المصدر السابق جـ ٣ ص ١٥٦
(٢) المصدر السابق جـ ٣ ص ١٢٦
(٣) الديوان ص ٥٧ راجع أيضاً ٥٨

الشاعر عما هو سادر فيه من اغراق فى التماس الملذات ، تمكنت فى نفسه دواعى الهوى فرسمت له طريق الغواية ، فاسقط من حسابه الدين ، واتبع شيطانه يضله السبيل،أو يقوده إلى حيث الأثم والفجور ، ويحضه باقتراف الآثام ، دون أن يلحظ فى حياته خروجاً أو اعوجاجاً . وأخطر ما فى هذا الشعر الذى يصف أبو العتاهية به نفسه هو البيت الأخير ، لأنه لا يدع مجالا للشك فى تصوير أبى العتاهية على شاكلة المجان ، ويقدم نفسه لنا رجلا لايعبأ بدين الإسلام ولا يعنى بتعاليمه ، وأنّ همه كله كان فى اللذة ، ويجعلنا نتصور قول والبة بن الحباب فيه « كان فينا ... » أنه كان أحد زملائه المجـان ، الذين غلبتهم تعاليم الإباحيين الغلاة فى اللذة على أمرهم ، ويجعلنا ندرك سبب تسميته بعتاهية ، أنها كانت إشارة إلى طوله وإلى ما فيه من اضطراب ، جعله لا يستقر على حال ، تتنازعه عوامل دينية مختلفة تؤثر عليه ؛ والذين يدرسون ديوان شعره يلاحظون بوضوح هذا الاضطراب يبدو فى أفكاره ، ونراه يصف نفسه أيضاً فى شبابه ، مصوراً هذه اللذات التى لم يفصح عنها فى الشعر الذى تمثلنا به ، أنها كانت نفس الشهوات التى خلبت ألباب المجان من قبله ، قال[1] :ـ

طالما حلا معاشى وطابا طالمـا سحّبت خلفى الثيابا
طالما طاوعت جهلى ولعبى طالما ناهزت صحبى الشرابا
طالما كنت أحب التصابى فرمانى بسهمه وأصـابا

كانت حياة أبى العتاهية فى شبابه حياة هؤلاء المجان ، يميل معهم فى هواهم ، ويعتنق مثلهم مذهب اللذة ، ويسير بعض شعره على مثال شعرهم ، قال ابن النديم (الفهرست ص ١٦٠ طبعة أوروبا سـنة ١٨٧٢) « الصورة فى شعره (يعنى أبا العتاهية) مثل صورة بشار » ، ولـكنه حين رأى أن هذه الحياة تعرض صاحبهـا للشبهة والاتهام عند ولاة الـكوفة ، الذين كانوا يراقبون الـكوفيين

(١) الديوان ص ٥٧ وراجع أيضاً ص ٢٨

مراقبة شديدة وخاصة أيام المهدى والهادى ، خشى أن يعد من الإباحيين الخطابية أعداء الدولة ، فتتعرض حياته لألوان من العذاب أو الموت ، فانتقل منها إلى حياة التقشف والزهد ، ليخفى نفسه المريضة وحقيقة أمره ، ويؤيد هذا ما نقله ابن خلكان عن عبد الله بن المعتز من قوله[١] « أربعة من الشعراء سارت اسماؤهم بخلاف أفعالهم فأبو التعاهية سار شعره بالزهد وكان على الالحاد وأبو نواس سار شعره باللواط وكان أزنى من قرد وأبو حكيمة الكاتب سار شعره بالعنة وكان أهب من تيس ومحمد بن حازم سار شعره بالقناعة وكان أشره[٢] من كلب » وما وصفه به إبراهيم بن المهدى ، من أنه كان يظهر الزهادة ويبطن الزندقة ، وذلك فى قوله :—

إن المنيـــة أمهلتك عتـاهى والموت لا يسهو وقلبك ساهى
يا ويح ذى السن الضعيف أماله عن غيـه قبل الممات تناهى
وكلت بالدنيـا أتبكيها وتنـدبهـا وأنت عن القيامة لاهى
والعيش حلو والمنون مريرة والدار دار تفـاخر وتبـاهى
فاختر لنفسك دونها سبلا ولا تتحامقنَّ لها فإنك لاهى
لا يعجبنك أن يقـال مفوه حسن البلاغة أو عريض الجاه
اصلح جهولا من سريرتك التى تخلو بهـا وارهب مقـام الله
إنى رأيتك مظهرا لزهادة تحتاج منك لهـا إلى أشباه

نرى إبراهيم بن المهدى يخاطب أبا العتاهية ناصحاً مذكراً ، قائلا له إن المنية أبا التعاهية وإن امهلتك ولم تختطفك إلى عالمها ، فثق أن هذا امهال وليس اهمالا ، لأن الموت لايسهو عنك وإن كنت أنت ساهى القلب عنه ، لا تفكر فيما وراءه

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٢٥ بولاق
(٢) فى الأصل أحرص
(٣) راجع ديوان أبى العتاهية ص ١١

من حساب وعقاب على ما ارتكبت من إثم ، وما احتواه قلبك من ضلال ، وقبيح بك وأنت فى هذه السن المتقدمة ، التى جعلت منك شيخاً ضعيفاً معرضاً لقدوم الموت فى كل وقت ، ألا ترعوى عن غيك ، وما أنت فيه من ضلال ، جاعلا همك أن تندب الدنيا وتنعى عليها ، لتحظى من الناس رضى عنك ، وربك عليك ساخط ، لايعنيك ما بعد الموت من بعث وحساب وجزاء ، لأنك اسقطت ذلك كله من حسابك ، غرتك دنياك فنسيت أن الموت يورد إلى شقاء ، وخدعتك حياتك ، فلا يعنيك إلا أن توصف بالمقدرة الشعرية والبراعة فى فن القول ، وإلا أن تكون عريض الجاه ، ألا لاتخدعنك هذه المظاهر الدنيوية الجذابة ، فإنها زائلة عنك لا محالة ، ولا تغنيك من الله شيئاً ، وجدير بك أن تصلح من سريرتك ، وأن تعمل فيما بينك وبين نفسك على تطهيرها من الأدران التى أفسدتها ، فإن ذلك أقوم لك ، ويجعلك فى مكانة تدعوك أن تخشى الله ، وتحرص على رضاه ، هذه نصيحة أقدمها إليك ، لأنى أراك تظهر غير ماتبطن ، تظهر زهادة تتطلب منك أن تكون نفسك على طرازها ، عفة نقية صالحة . دعا إبراهيم بن المهدى أبا العتاهية أن يصلح من سريرته فيما بينه وبين نفسه ، ويدع هذا الالحاد الذى يكنه صدره ، ويرهب مقام الله ، فهو إليه راجع لا محالة ، ولا تخفى عليه خافية ، ويدعوه أن تكون زهادته صادقة ، وأن تكون زهادته فى النفس على نحو زهادته فى الحياة ، تبتغى فى سبيل الله ولمرضاته ، وقول إبراهيم بن المهدى فى أبى العتاهية له أهمية كبيرة ، لأنه كان معاصراً لأبى العتاهية ، ويعرف الكثير من أحوال عصره ، لصلته الوثيقة برجال الحكم ، ويضفى على قوله اطمئنان الناظر إليه ، أنه صدر من رجل لم يكن بينه وبين أبى العتاهية مايوجب الريبة فى صدقه ، ذلك لأنه لم يكن بين الرجلين تنافس ، ولم يكن هناك سبب يدعو إبراهيم بن المهدى ليتهم أبا العتاهية للنكاية به ، ويلاحظ أن إبراهيم بن المهدى يرد شعر أبى العتاهية فى الزهد إلى رغبة فى الشاعر ، أن يظهر ويبرز ويأتى بالعجب ،

فيوصف بالبلاغة والقدرة على القول الحسن ، ولكن هذا الذى يراه إبراهيم المهدى لا يصور حقيقة زهد أبى العتاهية ، كما سنتحدث عن ذلك فيما بعد ، حقاً كان زهد أبى العتاهية محبباً إلى الشعب ، إلى هؤلاء الذين يكدحون و يشقون فى سبيل لقمة يتبلغون بها ، يرون فيه ما يرضى حسهم وشعورهم ، فسار شعره فى الآفاق .

جرى أبو العتاهية فى حلبة اللذة حين لم يكن فى المصر رقيب ، يأخذ كل واحد بجريرته ، و يعاقب على الأفعال الشائنة ، التى تدل على أن مقترفها إنما فعلها خروجاً على الدين الإسلامى ، فلما استقرت الأمور على يد عيسى بن موسى قائد المنصور المظفر ووالى الكوفة لبنى العباس ، اتخذ أبو العتاهية ولاءه لعنزة ظلا يحميه، و يمكن أن نتصور مقدار رغبتهم فى حمايته مما روى عن مصعب بن دؤيل ، أنه قال (١) . « لم أر قط مندل بن على العنزى وأخاه حيان غضبا من شىء قط إلا يوماً واحداً دخل عليهما أبو العتاهية وهو مضمخ بالدماء فقالا له و يحك ما بالك فقال لهما من أنا ، فقالا له أنت أخونا وابن عمنا ومولانا فقال إن فلاناً الجزار قتلنى وضربنى وزعم أنى نبطى فإن كنت نبطياً هربت على وجهى و إلا فقوما فخذا لى بحقى فقام معه مندل بن على وما تعلق نعله غضباً قال له والله لو كان حقك على عيسى بن موسى لأخذته لك منه ومر معه حافياً حتى أخذ له بحقه » ، ولكن هذه الحماية التى بسطتها عنزة عليه ، فقدت دواعيها عند الشاعر ، لأنه وإن كان قد ذاق منها حلاوة المنعة من الاعتداء ، فقد دفعته نفسه ـ وهو الرجل الشره إلى المال ـ أن يبتغى هذه الحماية عند ذى ثراء ، فاحتال فى ذلك وتوسل حتى نال رضى يزيد بن منصور خال المهدى ، فبسط عليه ولاءه ، وكان الشاعر فرحا بهذا الولاء ، لأن فيه منعة من السلطان ومن الناس ، و يصور لنا ما ينقله صاحب الأغانى من أن ولاءه ليزيد بن منصور أكسبه عزاً ومنعة وحرية ومالا ما ذكره « وكان أبو العتاهية طول حياة يزيد بن منصور يدعى أنه مولى لليمن و ينتفى من عنزة

(١) الأغانى ج ٣ ص ١٢٣ الساسى سنة ١٣٢٣ هـ

فلما مات يزيد رجع إلى ولائه الأول (لعنزة) فحدثنى الفضل بن العباس قال قلت له ألم تكن تزعم أن ولاءك لليمن ؟ قال ذلك شيء احتجنا إليه فى ذلك الزمن وما فى واحد ممن انتميت إليه خير ولكن الحق أحق أن يتبع وكان قد ادعى ولاء اللخميين قال وكان يزيد بن منصور من أكرم الناس وأحفظهم لحرمة وارعاهم لعهد وكان باراً بأبى العتاهية ، كثيراً فضله عليه ، وكان أبو العتاهية منه فى منعة وحصن حصين مع كثرة ما يدفعه إليه ويمنعه منه من المكاره[١] » ، ويبدو أن يزيد بن منصور قد حفظ على الشاعر حياته ، وكان يرعاه حقاً، إذ روى أن المهدى حبس أبا العتاهية ، وذلك لأنه اشتبه فى أمره وحاله ، ولكن يزيد بن منصور خال المهدى لم يأل جهداً فى تخليصه من يد المهدى ، إذ ظل يكلمه فى شأن إطلاقه من السجن حتى أطلقه[٢] ، هذا الانتقال من ولاء إلى ولاء من عنزة إلى اللخميين إلى اليمن إلى عنزة كرة أخرى ، يصور لنا أن ولاء أبى العتاهية كان شيئاً يطلب لغرض ، فإذا ما انقضى لا يرى بأساً فى أن ينتقل إلى غيره ، وهذا ما نراه فى بشار وفى أبى نواس وفى غيرهما من هؤلاء الموالى ، الذين اتخذوا هذا الطريق الذى رسموه لأنفسهم ، لحفظ حياتهم أو لطلب المال أو للمنعة من خصم أو عدو .

قال أو يسترب فى دائرة المعارف[٣] الإسلامية يصف أبا العتاهية بأنه أول شاعر فيلسوف فى الأدب العربى ، يقف فريداً مستقلا بالناحية التى اختارها لنفسه ، ويقول إن معاصريه قد تمثلوه مفكراً حراً ، لأنه أنكر البعث للموتى ، ولأنه حاول أن يحل لغز الثانوية الخالد ، بزعمه أن الله خلق جوهرين متضادين مشتركين ، منهما خرج كل شيء بنظامه ، وإليهما ينحل كل شيء مرتداً إليهما بنفسه، وهذا الذى يراه أو يسترب فى أبى العتاهية يعتمد على ما قاله الصولى عنه «وكان مذهب أبى العتاهية القول بالتوحيد وأن الله خلق جوهرين متضادين لا من شيء

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ١٣٦ و ١٣٧

(٢) المصدر السابق ج ٣ ص ١٤٠ (٣) مادة أبو العتاهية

ثم إنه بنى العالم هذه البنية منهما حديث العين والصنعة لا محدث له إلا الله وكان يزعم أن الله سيرد كل شيء إلى الجوهرين المتضادين قبل أن تفنى الأعيان جميعاً وكان يذهب إلى أن المعارف واقعة بقدر الفكر والاستدلال والبحث طباعاً وكان يقول بالوعيد وبتحريم المكاسب ويتشيع بمذهب الزيدية البترية المبتدعة لا ينتقص أحداً ولا يرى مع ذلك الخروج على السلطان وكان مجبراً[١] » ، وقول الصولى يدل على أن أبا العتاهية تأثر بالمذاهب الفلسفية اليونانية ، التى عاشت فى جنديسابور ، والتى كانت تشع على المناطق التى كانت تحوطها ، كما تأثر بالمذاهب المسيحية ومذهب الزيدية البترية ، وهو أشد مذاهب الشيعة اعتدالا ، وأقربها إلى مذهب أهل السنة ، وإن كنا لا نستطيع أن نوافق أو يسترب فيما ذهب إليه من أن أبا العتاهية فيلسوف ، لأن شعره الذى بين أيدينا لا يدل على ذلك ، فليس عسيراً أن نجد ما يؤيد تأثره بهذه المذاهب اليونانية ومزجه لها بالثانوية التى اعتنقها بعض مواطنيه فى شعره ، فى قوله فى أرجوزة مشهورة .

لكل شيء معدن وجوهر وأوسط وأصغر وأكبر
من لك بالمحض وكل ممتزج وساوس فى الصدر منه تعتلج
وكل شيء لاحق بجوهره أصغره متصل بأكبره

وفى قوله : — مازالت الدنيا لنا دار أذى ممزوجة الصفو بألوان القذى
الخير والشر بها أزواج لذا نتاج ولذا نتاج

وفى قوله : — لتجدعن المنايا كل عرنين والخلق يفنى بتحريك وتسكين[٢]

(١) الأغانى جـ ٣ ص ١٢٤ السياسى سنة ١٣٢٣ هـ والبترية فرقة زيدية معتدلة وأهم زعمائها كثير النواء والحسن بن صالح بن حى وهذه الفرقة يفضلون علياً ويثبتون إمامة أبى بكر وعمر وينتقصون عثمان وطلحة والزبير — وغالب أتباع البترية من رجال الحديث الذى يرويه أهل الشيعة .

(٢) الديوان ص ٢٧٤ .

وهذا الشعر ظاهر الدلالة على تأثر أبى العتاهية بالمذاهب الثانوية ، وأن مايقوله أو ستترب . بأنه حاول أن يحل لغز الثانوية الخالد ، يبدو فى قول الشاعر بارتداد الأشياء إلى الجوهر ، وأن فناء هذه الأشياء فى الجوهر يكون بتحريكها وانتقالها إليه بعد أن تنحل ، وذلك بسكونها فيه ، ولا يخفى مافى هذا التصوير من تأثر بالفلسفة اليونانية ؛ أما تشيع أبى العتاهية بمذهب الزيدية البترية ، فلا أجد له مايشير إليه فى شعره الذى وصل إلينا ، وربما نسب إليه لأنه عاش طوال حياته يسالم الناس ، ولا يطعن فى أحد من الصحابة ، وآثر فى زهدياته ألا يتعرض لأحد بسوء ، أو ربما نظر إليه على أنه متأثر بهذا المذهب ، لأنه دعا إلى اجتناب الفواحش والأثم ، وهى نفس الدعوة التى كان يقوم بها الزيدية البترية ، معتمدين على حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم رواه مسلم فى صحيحه وابن حنبل فى مسنده ، وهو « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » ، ولكن الذى يجعلنا نبعد هذا الظن ، أن الزيدية البترية اتخذوا من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وسيلة سياسية للخروج على السلطان مع من كان يخرج عليه كما ينص على ذلك نقلة الفرق والنحل ، أما أبو العتاهية فدعا إلى اجتناب الفواحش والبعد عن الإثم متأثراً بالمذاهب المسيحية كما سنتحدث عن ذلك بالتفصيل فى موضع آخر ، وليس معنى إنكارنا تبعية أبى العتاهية للزيدية البترية أنه كان يجهل هذا المذهب ، وإنما نريد أن ننفى أنه كان عضواً عاملا فى هذه الجماعة ، التى تعد عقيدتها أقرب المذاهب المتشيعة جميعاً لعقيدة أهل السنة ، وليس عجباً أن يعرف أبو العتاهية هذا المذهب الزيدى لشهرته ، ولأنه كان يعتنقه جلة المحدثين الكوفيين وبعض الذين لبسوا الصوف فى أيامه ، والذى يجعلنا نميل إلى القول بأن أبا العتاهية عرف هذا المذهب الزيدى ، أن الرجل كان ميالا إلى معرفة مايدور فى عصره من أقوال ، ويظهر ذلك فى شعره

بوضوح ، وندع أبا الفرج الأصفهانى يملى علينا قوله « وقف أبو العتاهية على قبر صديقه على بن ثابت وأخذ يردد .

ألا من لى بأنسك ياأخيا ومن لى أن أبثك ما لديا
طوتك خطوب دهرك بعد نشر كذاك خطوبه نشراً وطيا
فلو نشرت قواك لى المنايا شكوت إليك ماصنعت إليا
بكيتك ياعلى بدمع عينى فما أغنى البكاء عليك شيا
وكانت فى حياتك لى عظات وأنت اليوم أوعظ منك حيا

قال علي بن الحسين مؤلف هذا الكتاب (الأغانى) هذه المعانى أخذها كلها من كلام الفلاسفة لما حضروا تابوت الاسكندر وقد أخرج ليدفن قال بعضهم كان الملك أمس أهيب منه اليوم وهو اليوم أوعظ منه أمس وقال آخر سكنت حركة الملك فى لذاته وقد حركنا اليوم فى سكونه جزعاً لفقده وهذان المعنيان هما اللذان ذكرهما أبو العتاهية فى هذه الأشعار[(١)] » ، وهذه الأقوال التى ينقلها أبو العتاهية عن الفلاسفة اليونان ، والتى كانت فى زاوية من زوايا عصره ، تدلنا على سعى الرجل للالمام بثقافات هذا العصر .

يلاحظ الناقد أن أبا العتاهية كان يصوغ شعره الذى يشير إلى فكرة غير إسلامية ، أو لايرضى عنها السلطان ، فى قالب لايثير الشك حتى لايؤاخذ عليها ، كما هو ظاهر من الشعر الذى سبق أن ذكرناه ، وكما نرى فى اشارته إلى عقيدة الروافض فى قوله : —

والذى يملك الأمور جميعاً ملك جل نوره المكنون[(٢)]

فى هذا البيت نراه يصف الإله بأنه ملك يملك الأمور جميعاً ، وأن له نوراً

---

(١) الأغانى جـ ٣ ص ١٤٢ الساسى سنة ١٣٢٣ هـ

(٢) الديوان ص ٢٦٢ .

مكنوناً فيه ، وهذه الفكرة تختلف عن تصوير القرآن ، بأن الله نور السموات والأرض ، فالنور فى القرآن لا يمثل ذات الإله نفسه ، وإنما يدل عليه ، وأما فى قول أبى العتاهية فالنور مكنون فيه أى فى ذاته ، وهى عقيدة الروافض المستمدة من عقيدة المانديين . وفى قصيدة أخرى يشير إلى عقيدة المانوية أو الديصانية على نحو يستغل فيه الشاعر مهارته حتى لاتبدو صفحته ، قال : ـ

استغفر الله من ذنبى ومن سرفى   إنى وإن كنت مستوراً لخطاء
لم تقتحم بى دواعى النفس معصية   إلا وبينى وبين النور ظلماء

يعترف فى هذا الشعر أنه حين كان يأتى الإثم ويرتكب المعصية ، كانت نفسه تدعوه إلى ذلك ، وكان يستجيب لهذا الهاتف النفسى ، الذى سيطر على مشاعره وإحساساته ، فكان فى ظلام حجبه عن النور وهو الحق أو الخير . وننظر فى استعماله الظلمة للشر والإثم واستعماله النور للخير فنفكر فى أى مورد استقى منه قوله ، أمن التعبير القرآنى يخرجكم من الظلمات إلى النور أو من المذهب المانوى أو الديصانى ؟ يبدو لى رغم مهارة الشاعر فى إخفاء نفسه ، أنه اتجه إلى المذهب المانوى أو الديصانى فصاغ قوله ، ذلك لأن المفهوم من استعماله للظلمة ، أنها كانت تمسكه من أن يرى النور ، فقادته نفسه إلى طريق يتضاد أو لايتفق وطريق الخير أو النور ، فسار فى الإثم والهوى والمعصية ، حتى ارتد وانتزعته عوامل الخير من هذا الظلام ، ونقلته إلى النور ، ومما يدل على أنه يبغى ذلك ، وأن مذهب الثانوية يسيطر عليه ، حين يتكلم عن المعصية والهدى أو الخير والشر قوله : ـ

لكل إنسان طبيعتان   خير وشر وهما ضدان[1]

وقوله هذا لايدع مجالا للشك فى أنه ينظر إلى الثانوية ، ويتحدث عن تعاليمها فى الخير والشر المتمثلان فى النور والظلام ، والناقد حين ينظر إلى حديث

(١) الأغانى جـ ٣ ص ١٣٩ الساسى سنة ١٣٢٣ هـ

أبى العتاهية عن النور أنه يشير إلى الحياة الطاهرة ، وإلى الظلمة أنها تشير إلى المعصية ، وإلى قوله بتضاد الخير والشر ، يدرك مابين شعره وما بين الذى جاءت به العقيدة الثانوية التى تقوم على فكرة التضاد الدائم والخالد بين الخير والشر أو النور والظلام[(١)] من صلة ؛ فى هذين المثالين اللذين سقناهما ، نرى أبا العتاهية يورد نظرية النور يصوغها ناظراً مرة إلى مذاهب الروافض أو الماندية ، ويوردها مرة أخرى مقابلة للظلمة ناظراً إلى المانوية أو الديصانية، وإذا أضفنا إلى هذاما سقناه من أدلة على أنه كان ماجناً فى شبابه ، وكان يقول الشعر فى اللذات على نحوما قال المجان ، وإلى أخذه من المذاهب الفلسفية ، التى روت أرض الإقليم آتية من جنديسابور ، رأينا إلى أى حد شحن شعره بمذاهب دينية ، لايتفق بعضها مع بعض ، وربما تعارض بعضها مع بعض ، وربما كان فيما ذكره صاحب الأغانى ، مايفسر لنا هذا الخليط العجيب « كان أبو العتاهية مذبذباً فى مذهبه يعتقد شيئاً فإذا سمع طاعناً عليه ترك اعتقاده إياه وأخذ غيره »[(٢)]

كان بعض المعاصرين لأبى العتاهية يعرفون فيه أنه يلبس ثوب النفاق ، ويضمر غير مايظهر ، فكان يتصدى له من يريد أن يخرجه إلى حقيقته ، التى طواها فى صدره ، فيحتال ليكشف عن ذات نفس الشاعر ، ومن ذلك مايروى أنه وقف عليه سائل من العيارين الظرفاء ، وجماعة من جيرانه حوله ، وأخذ يسأله وهو يقول له صنع الله لك وصنع ، حتى ضاق السائل به ذرعاً ، فقال له ألست القائل :

كل حى عند ميتته حظه من ماله الكفن

وظل يتحاوران ، يحاول السائل أن يخرجه بما أوتى من لباقة وظرف ، ليغلبه على أمره فيتصدق ، ولكن السائل حين وجد ألا جدوى ، وأن نفس الشاعر

(١) راجع مادة مانى فى دائرة معارف الأديان والأخلاق .

(٢) الأغانى جـ ٣ ص ١٢٤ الساسى سنة ١٣٢٣ هـ

مغلقة ، تركه السائل وانصرف ، فالتفت أبو العتاهية إلى من حوله ، محاولا تبرير مسلكه ، وقال « من أجل هذا وأمثاله حرمت الصدقة فقلنا له ومن حرمها ومتى حرمت ؟ فما رأينا أحداً ادعى أن الصدقة حرمت قبله ولا بعده[١] » ، والذين أنكروا على أبى العتاهية قوله ، لم يفطنوا إلى ماقصد إليه من أنه لايتصدق وأن الإلحاف فى السؤال منهى عنه ، وما كانت نفس أبى العتاهية لتسخو والشح يختم عليها بخاتم صفيق ، فانصرفت عن الصدقة انصرافاً ، جعلت يده مغلولة إلى عنقه ، ويؤيد هذا مايرويه أيضاً ثمامة بن أشرس من أن أبا العتاهية أنشده : —

إذا المرء لم يعتق من المال نفسه تملكه المال الذى هو مالكه
ألا إنما مالى الذى أنا منفق وليس لى المال الذى أنا تاركه
إذا كنت ذا مال فبادر به الذى يحق وإلا استهلكته مهالكه

قال ثمامة فقلت له « من أين قضيت بهذا ؟ فقال من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما لك من مالك ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت فقلت أتؤمن بأنه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه الحق ؟ قال نعم قلت فلم تحبس عندك سبعاً وعشرين بدرة فى دارك ولا تأكل منها ولا تشرب ولاتزكى ولا تقدمها ذخرا ليوم فقرك وفاقتك ؟ فقال يا أبا معن والله ما قلت لهو الحق ولكنى أخاف الفقر والحاجة إلى الناس فقلت وبم تزيد حال من افتقر على حالك وأنت دائم الحرص دائم الجمع شحيح على نفسك لاتشترى اللحم إلا من عيد إلى عيد فترك جواب كلامى كله ثم قال لى والله لقد اشتريت فى يوم عاشوراء لحماً وتوابله ومايتبعه بخمسة دراهم فلما قال لى هذا القول أضحكنى حتى أذهلنى عن جوابه ومعاتبته فأمسكت عنه وعلمت أنه ليس ممن شرح الله صدره

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ١٣٠

للإسلام[١] » . وحديث بخل أبي العتاهية وشحه معروف مشهور ، وتناقله الرواة وتنادر به المعاصرون ، كان المال عنده وفيراً ، ومع ذلك كان يمسكه عن نفسه وأهله ولا يتصدق منه ولا يزكى ، وكان ،وحاله هذه ،يدعو الناس إلى أن يتصدقوا ، وإلى أن يزكوا ، وإلى أن يهبوا من أموالهم للفقراء ، وصدور مثل هذه الدعوة من أبي العتاهية قرينة على أنه كان يقول أحياناً بما لايؤمن به ، وأنه يظهر غير مايبطن ، كما نظر إليه معاصروه ، وأن بعض شعره لا يصور حقيقة نفسه ، وعلى ذلك يجب أن نكون على حذر حين نفحص أمره ، حتى لايخدعنا عن حقيقته .

لبس أبو العتاهية ثوب الزهد ، وأخذ نفسه بالتقشف ، وطفق يبشر لهما ، وسنتعرض لذلك فيما بعد ، فخلق صنيعه هذا منافسة بينه و بين منصور بن عمار أحد القصاص ، وحاول منافس أبي العتاهية أن يظهر سقطاته ، التي ظهرت منه على رغمه ، والتي تظهره مبغضاً للإسلام ، ميالا إلى مذاهب المتطرفين ، روى رجاء بن سلمة قال « سمعت أبا العتاهية يقول : قرأت البارحة عم يتساءلون ، ثم قلت قصيدة أحسن منها ، قال وقد قيل : إن منصور بن عمار شنّع عليه بهذا »[٢] وحدث أبو عمر القرشي قال لما قص منصور بن عمار على الناس مجلس البعوضة ، قال أبو العتاهية إنما سرق منصور هذا الكلام من رجل كوفي ، فبلغ قوله منصوراً فقال : أبو العتاهية زنديق ، أماترونه لايذكر في شعره الجنة والنار ، وإنما يذكر الموت فقط ، فبلغ ذلك أبا العتاهية فقال فيه : ـ

يا واعظ الناس قد أصبحت متهماً إذعبت منهم أموراً أنت تأتيها[٣]

ولكن هذه المنافسة وهذه المساجلة التي كانت بين منصور بن عمار و بين

---

(١) المصدر السابق جـ ٣ ص ١٢٩ .

(٢) المصدر السابق جـ ٣ ص ١٣٧ و ص ١٣٨ .

(٣) المصدر السابق جـ ٣ ص ١٣٨ .

أبى العتاهية ، لم تؤثر فى حياة الشاعر ولم تكشفه للناس ، فظل على حاله ، ويظهر أن منصوراً هذا كفّ عنه ، وكف الشاعر عن القاص ، وفرغ كل منهما لفنه ولشأنه ، فخدع أبو العتاهية عوام الناس فلم يتبينوا حقيقة أمره ، وظل وجيها عند الناس ، مقبولا لدى السلطان ، الذى لايعنيه إلا الخروج السافر عليه .

نريد أن نجمل ما أسلفنا من قول فى أبى العتاهيه من أنه كان رجلا عاشر المجان ، وتأثر فى شبابه بمذهب اللذة ، الذى أتى به الإباحيون الغلاة من الخطابية والجناحية ، وأنه حين استقرت الأمور لبنى العباس فى الكوفة نافق وأخفى نفسه تحت لباس الصوف ، وأنه انتحى هذا النحو خضوعاً أو متأثراً بمذهب سنبين أمره فى الكلمة التالية ، وكان حذراً فى قوله ، حتى لايتعرض لسخط القائمين على الأمور فى دولة بنى العباس ، تلك الدولة التى شهرت سيفها على رقاب الزنادقة والخارجين على الإسلام ، هذا بالإضافة إلى معرفته لثقافات عصره ، ولكثير من العقائد التى عرفتهما أرض العراق ، والتى لاترضى عن الإسلام وأهله .

٤ — الزهد ومسلك أبى العتاهية

انتقل العرب إلى العراق غزاة فاتحين ، ومصروا الكوفة وأقاموا فيها مجتمعاً عربياً ، يفخر بما له من بلاء فى الغزو عظيم ، سادة تطأطىء لهم الرقاب ، لهم من الامتيازات ما جعلهم يزهون على السكان الأصليين ، واستظل بظلهم أو انطوى تحت حمايتهم أولئك الذين عاشروهم من أهل العراق ، واتخذوا الإسلام ديناً لهم وعرفوا « بالموالى » ، أولئك الذين دفعهم النظام الاجتماعى القائم على أساس القبيلة ، أن يستظلوا بحماية قبيلة أو أخرى بطريق الولاء ، لتستقيم لهم الحياة التى استحدثها الفتح وشعور العرب بقوتهم وسلطانهم ، ويأتى بعد الموالى « النبط » ، وهم الذين ظلوا على أديانهم ، ينعمون بحياتهم ماداموا يؤدون ماعليهم من خراج ؛ وعاش فى الكوفة بعض أهل الكتاب من النصارى أو اليهود ، وكان عددهم

قليلا مما جعل حيزهم غير واضح فى تكوين طبقات المجتمع ، وكان لكل طبقة من هذه الطبقات الثلاث منزلة فى المجتمع ، تكيف حياتهم وتميزهم عن الأخرى ، وأفسحت الحياة للكل فيها ، الطريق الذى قُدر لها أن تسير فيه وأن تنشط له ، ظل العرب سادة ، لهم فى الدولة مكانة مرموقة ، يشعر بها غيرهم من الطائفتين الأخريين ، وإن كان ذلك غير ملحوظ فى البيئة الدينية ، الضيقة الحدود ، القليلة العدد ، ذلك لأن تعاليم القرآن وسنة النبى صلى الله عليه وسلم كانت تتحكم فيها ، فلم تدع فى الكوفة مجالا لتفرقة بين فقيه عربى وآخر من الموالى ، إلا من حيث الفطنة والإحاطة بأمور الدين ؛ كان المجتمع فى الكوفة ذا ثلاث طبقات : العرب والموالى والنبط ، وكانت الثروة موزعة عليهم وفقاً لقوة كل طبقة من هذه الطبقات ، وكان نصيب العرب منها نصيب الأسد ، وعلى رغم مابين هذه الطوائف من فوارق ، فإن هذه الفوارق لم تكن مانعة الحياة الإقتصادية من أن تنمو وتزدهر فى الكوفة ، وتأخذ حظها فى الاتساع والانتشار ، وتخمت جيوب العرب تبعاً لذلك ، وظل الأمر على هذا الحال حتى بلوا بحكم الحجاج ، وصمم على القضاء على المعارضة والثورات ، وتنظيف المصر من العاملين المتربصين للقضاء على حكم بنى أمية ، واتخذ فى سبيل ذلك اجراءاته القاسية ، التى أحدثت للحياة الاقتصادية نكسة جعلتها تذبل شيئاً فشيئاً ، ولا تجد علاجاً يجتث الفساد من جذوره ، ففرغت الجيوب العامرة ، وفشا الفقر ، ونزل العرب من عليائهم إلى حضيض الفقر ومذلة الفاقة ، وتساووا مع غيرهم ، فطويت الفوارق الاقتصادية بين الكوفيين المعارضين لبنى أمية ، فأخذوا يتخيلون ثراءهم فى أمس الدابر ، ويشكون فاقتهم فى يومهم الحاضر ، حتى جاءت ثورة بنى العباس فانطلقوا يؤيدونها ، عسى أن يتغير حالهم ، حتى نجح العباسيون فى إقامة دولتهم ، فإذا رجال الدولة الجديدة أقسى قلوباً عليهم من رجال العهد البائد ، لاتعرف الرحمة إلى قلوبهم من سبيل ، وتغير بقيام هذه الدولة العباسية مجرى سير الثروة ، إذ أخذت طريقها إلى جيوب الخلفاء والوزراء

والأتباع والولاة وكبار رجال الدولة ، وأدرك رجال الصناعة فى الكوفة هذا التحول ، ورأوا أن حياتهم فى الكوفة قد تفسد عليهم أمرهم ، فأخذوا يهجرون المصر إلى حيث يجدون لصناعاتهم رواجاً ، وهذا قد زاد الحالة سوءً ، ولم ير الكوفيون بداً وقد أرهقتهم الثورات وكثرة الحروب وسوء الحالة الاقتصادية من أن يريحوا ويستريحوا فترة من الزمن ، وانطوى بغضهم فى أنفسهم ، ينشدون فى الزهد والتقشف مافاتهم من لذائذ الحياة وعز الثراء . ويصف أستاذنا الدكتور أحمد أمين سوء توزيع الثروة بقوله « لم تكن أموال الدولة موزعة توزيعاً متقارباً ولا كانت الفروق بين الطبقات فروقاً طفيفة إنما كان هناك هوات سحيقة بين الطبقات فكثير من مال الدولة ينفق على قصور الخلفاء والأمراء ورؤساء الأجناد وعمال الدولة وهم ينفقون منه جزافاً على المقربين من أدباء وعلماء ومغنين وجوار وأتباع وطبقة تجار ومن إليهم وهؤلاء فى درجة من الثروة دون الأولى وعامة الشعب يفشو فيه الفقر والبؤس[1] » . فى هذا الجو سرى شعر أبى العتاهية فى الزهد ، فوجد تربة خصبة أينع فيها وأثمر ، ووجد مادة يتخذها دعامة لشعره .

والذى يمعن النظر فى حركة الزهد والتقشف فى الكوفة والبصرة فى العصر العباسى الأول يرى : ـ

١ ـ أن سوء توزيع الثروة جعل الذين لايجدون سبيلا إلى الغنى ، والذين لا تطاوعهم نفوسهم التقرب من ذوى الجاه ، أن يلجأوا إلى القناعة يروضون أنفسهم عليها . وهذا الفريق الأخير من هذه الجماعة ـ فيما يبدو لى ـ كانوا فى البصرة أظهر منهم فى الكوفة ، وأظهر مثال لهذا الفريق فى البصرة ، بكر بن عبد الله المزنى وابن سيرين ورابعة القيسية ومن إليهم . ويروون أنه قيل لرابعة القيسية « لو كلمنا رجال عشيرتك فاشتروا لك خادماً تكفيك مؤونة بيتك ؟ فقالت والله إنى لأستحى أن أسأل الدنيا من يملك الدنيا فكيف أسأل من

(١) ضحى الإسلام ج ١ ص ١٢٧ .

لايملكها ؟ [١] » . أما فى الكوفة فكان منهم الفقيه المشهور سفيان الثورى والمحدث الكبير الأعمش معاصره .

٢ ـ أن الثروة قد فتحت لفريق من الناس طريق الشهوات و إشباع الرغبات ، و بدا لهم أن النفس إذا نالت ما طمحت إليه تفتحت أمامها شهوات وشهوات ، فآثروا دينهم على دنياهم ودعوا إلى الزهد فى الشهوات ، وهذا الفريق كان قليلاً فى الكوفة نذكر منهم ابن شبرمة ، الذى لم يحلل النبيذ ، وحمل عليه الكوفيون حملات شعواء ، وكان منهم فى البصرة الحسن البصرى وأصحابه ، وكان للحسن البصرى جهاد فى سبيل الحدّ من الشهوات سجله له التاريخ ، سنشير إليه فى موضعه .

٣ ـ أن الشعور بما للروح من سمو على الجسد قد دفع قوماً أن يلبسوا الصوف ، و يروضوا أنفسهم على شظف العيش ، ومن هؤلاء فى الكوفة ابن السماك ، وفى البصرة فرقد السبخى .

٤ ـ أن صنفاً من الناس كانوا زنادقة من الغلاة الخطابية أو من غيرهم [٢] ، أخفوا أنفسهم تحت مظهر الزهد ، يريدون أن يخدعوا العامة و يفسدوا عقيدتهم .

٥ ـ أن قوماً كانوا مسلمين فى الظاهر وفى أعماق قلوبهم يعتنقون أو يتأثرون بمذاهب أهل الكتاب أو غيرهم ، طابعهم فى حياتهم الزهد والتقشف ، و يدعون لهذا الزهد و يحببون الناس فى التقشف ، وهؤلاء هم الذين أشار إليهم الجاحظ ، وأشرنا إليهم فى آخر الفصل السابق ، ونُظِر إليهم كزنادقة يضاهون النصارى فى مسلكهم .

وهذان الفريقان الأخيران من الزهاد لم تغفل عنهم الدولة ، لأنها رأت فيهم خطراً على كيانها وعلى العقيدة الإسلامية ، و يورد لنا الطبرى وصية المهدى لابنه موسى الهادى ، للقضاء على هـذه الطائفة كما يلى « إن المهدى قال لموسى يوماً ـ

(١) الجاحظ البيان والتبيين ج ٣ ص٦٦ وراجع ص ٩٨ القاهرة سنة ١٣٣٢هـ

(٢) راجع ابن الأثير ج ٨ ص ٢١

وقد قدم إليه زنديق فاستتابه فأبى أن يتوب فضرب عنقه وأمر بصلبه ـ يابنىّ : إن صارلك هذا الأمر فتجرد لهذه العصابة ـ يعنى أصحاب مانى ـ فإنها فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد فى الدنيا والعمل للآخرة ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ومس الماء الطهور وترك قتل الهوام تحرجاً وتحوباً ثم تخرجها من هذه إلى عبادة اثنين أحدهما النور والآخر الظلمة ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات والاغتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق لتنقذهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور فارفع فيها الخشب وجرد فيها السيف وتقرب بأمرها إلى الله لاشريك له فإنى رأيت جدك العباس فى المنام قلدنى بسيفين وأمرنى بقتل أصحاب الاثنين قال فقال موسى بعد أن مضت من أيامه عشرة أشهر أما والله لئن عشت لأقتلن هذه الفرقة كلها حتى لا أترك منها عيناً تطرف[(١)] » .

والذى يمعن النظر فيما أورد على لسان المهدى يرى قوله لا يشير إلى المانوية وحدها ، وإنما إلى الطوائف التى ظهرت فى المجتمع أيام هذا الخليفة العباسى ، وعرفوا بالزنادقة ، وكانت المانوية أظهر الجميع فى هذا الميدان ، وربما كان هذا هو الذى جعلهم يتفردون بالإشارة . من هذه الطوائف يقدم التاريخ الغلاة الإباحيين ، الذين أباحوا نكاح الأخوات والبنات على نحو ماسبق أن بينّا ، ومنهم أيضاً هؤلاء الذين وصفهم الجاحظ بأنهم نصارى دخلوا الإسلام ، وأظهروا الزهد على طريقة الرهبنة ، وحرّموا ذبح الحيوان وأكل اللحوم ؛ وكان أظهر هذه الطوائف التى حاربتها الدولة المانوية ، التى من تعاليمها الإبقاء على النفوس وإن كانت هواما ، ذلك تفصيل للطوائف التى وردت على لسان المهدى بعنوان المانوية ؛ ولعل من الأسباب التى توهم أنهم فرقة واحدة ولا اختلاف بينهم ، أن هذه الطوائف جميعاً اختفت وراء الزهد والتقشف ، وظهروا فى المجتمع بلون واحد ، اتخذوه ستاراً يقيهم سيف السلطان وعقاب القانون ، وطريقاً يصلون به إلى قلوب العامة ، لكى يبذروا فى صدورهم بذرة عقائدهم ، دون أن يلفتوا النظر إلى حقيقة

---

(١) الطبرى سنة ١٧٠ ص ٥٨٨ ط . ليدن

أمرهم . استطاع هؤلاء الناس أن يظهروا فى الحياة الاجتماعية ، متخذين الزهد والتقشف وسيلة لسترهم حتى لاتبدو صفحتهم ، فينالوا من ألوان التعذيب والأذى والقتل ، ما أعدّه العباسيون لأمثالهم الذين يريدون هدم كيان الدولة .

إذا نظرنا إلى أبى العتاهية على ضوء مابدا لنا من بعض شعره أنه متأثر بالمانوية فى الخير والشر ، وما هو مشهور عن المانوية أنها تدعو إلى الزهادة فى الغذاء والاكتفاء بملبس واحد فى السنة ، وإلى مافرضته على الأتباع من ذم البخل والكذب والسرقة والزنا ، وإذا نظرنا أيضاً إلى تأثير الرهبنة المسيحية ، التى تعتز بها الحيرة القريبة من الكوفة ، رأينا أن دعوته إلى الزهد لا تخرج عن هذا الإطار ، وعلى أية حال فإن شعره فى الزهد يقوم على الأسس الآتية : ـ

١ ـ رفض الدنيا والزهد فيها .

٢ ـ إيثار المسكنة .

٣ ـ قمع الحرص على طلب الدنيا واحتقار السعى وراء الجاه والمنصب للمظالم التى يرتكبها الإنسان .

٤ ـ مواصلة الصوم والتصدق بما أمكن .

٥ ـ تحريم اقتناء شىء خلا قوت يوم واحد ولباس سنة واحدة .

٦ ـ الدعوة إلى اعتناق الزهد والإرشاد إلى صفاته .

يرى الناظر فى شعر أبى العتاهية فى الزهد ، أنه لايخرج فيه عن هذه الأغراض الستة التى ذكرناها ، ونحن إذ نجمل هنا ماسنفصله فيما بعد ، لايفوتنا أن نذكر أن بعض معاصرى أبى العتاهية كانوا يرتابون فى زهده ، ومنهم من رماه بالإلحاد ، وقالوا عنه إنه يظهر غير مايبطن

ولكى ندرك أن أبا العتاهية ارتدى زى الزهد كذباً وتضليلا ، وأن مثله فى ذلك مثل غيره من المتطرفين الذين أخفوا أنفسهم تحت هذا المظهر ، نشير إلى أن حمدويه صاحب الزنادقة ، الذى أقامته الدولة للبحث عنهم وكشف أمرهم ، قد

أراد أن يأخذ أبا العتاهية ففزع من ذلك وقعد حجاما ؛ قال بشر بن المعتمر يوماً لأبي العتاهية « بلغني أنك لما نسكت جلست تحجم اليتامى والفقراء للسبيل أكذلك كان ؟ قال نعم قال له فما أردت بذلك ؟ قال أردت أن أضع نفسى حسبما رفعتنى الدنيا وأضع منها ليسقط عنها الكبر وأكتسب بما فعلته الثواب وكنت أحجم اليتامى والفقراء خاصة فقال له بشر : دعنى من تذليلك نفسك بالحجامة فإنه ليس بحجة لك أن تؤدبها وتصلحها بما لعلك تفسد به أمر غيرك ؛ أحب أن تخبرنى هل كنت تعرف الوقت الذى كان يحتاج فيه من تحجمه إلى إخراج الدم ؟ قال لا ، قال هل كنت تعرف مقدار مايحتاج كل واحد منهم إلى ماتخرجه على قدر طبعه مما إذا زدت فيه أو نقصت عنه ضرّ المحجوم ؟ قال لا ، قال أراك إلا أردت أن تتعلم الحجامة على أقفاء اليتامى والمساكين(١) ، ولو أن بشر بن المعتمر عرف السبب الذى من أجله جلس أبو العتاهية للحجامة ، لكان تيار الحديث أخذ مجرى آخر ، وهو أنه خاف على نفسه من حمدويه ، فأراد أن يضلله فجلس للحجامة دون علم بها ، وهى صناعة لاينزل إليها إلا من آثر التقشف على مباهج الدنيا وعزها ، و بذلك تمّ لأبي العتاهية أن يحفظ نفسه و يبعد الشبهة عنه بتقشفه ؛ وما يروى عنه أنه كان ينشد شعره فى الزهد عند قثم بن جعفر بن سليمان ، وكان الجماز حاضراً ، فبعد أن انتهى قال له الجماز :ـ

ما أقبح التزهيد من واعظ   يزهد الناس ولا يزهد
لو كان فى تزهيده صادقا   أضحى وأمسى بيته المسجد
يخاف أن تنفد أرزاقه   والرزق عند الله لا ينفد
والرزق مقسوم على من ترى   يناله الأبيض والأسود

فالتفت أبو العتاهية فقال من هذا ؟ قالوا الجماز وهو ابن أخت سلم الخاسر

(١) الأغانى جـ ٣ ص ١٢٥ الساسى سنة ١٣٢٣ هـ

اقتص لخاله منك ، فأقبل عليه وقال يا ابن أخى : إنى لم أذهب حيث ظننت (مشيراً إلى هجائه سلم الخاسر) ولا ظن خالك ، ولا أردت أن أهتف به ، و إنما خاطبته كما يخاطب الرجل صديقه ، فالله يغفر لكما ثم قام[1] » ،وهذا الذى ذهب إليه الجماز فى وصف زهد أبى العتاهية ، هو نفس الذى رآه ابراهيم بن المهدى فيه ، ذهب الجماز فى وصفه أبا العتاهية إلى أنه يتخذ الزهد سبيلا للحصول على المال ، وأنه غير صادق فيما يدعيه من زهد ، وذلك لأنه لو كان يؤمن بهذا الزهد للزم المسجد يسعى إليه صباحاً ومساء وفى كل أوقات الصلاة ، ولـكنه لا يفعل ذلك ولا يبغى من هذا المسلك الذى يظهره إلا أن يحظى بالمال ؛ كان لتدليل الجماز على أن الزهد يقتضى من صاحبه العبادة ، ما جعل أبا العتاهية يحاول أن يحتال فى أن يرضى الجماز وفى أن يعتذر إليه و يبرر مسلكه ، و يفسره تفسيراً يريد به أن يحمل الجماز ألا يتعرض له ؛ ونحن إذا تجاوزنا عن أقوال معاصريه ، وذهبنا ننظر إلى شعره نجده يعترف اعترافاً صريحاً ، أنه غير مخلص فى زهده ، وأن الدنيا تستغويه ولا يستطيع لفتنتها دفعاً ، وذلك فى قوله :ـ

يظن الناس بى خيراً وإني لشر الناس إن لم تعف عنى
أجن بزهرة الدنيا جنوناً وأفنى العمر فيها بالتمنى
و بين يدى محتبس ثقيل كأني قد دعيت له كأنى
ولوأني صدقت الزهد فيها قلبت لأهلها ظهر المجن[2] .

وخلاصة القول أن أبا العتاهية ـ كما رأينا من تصوير معاصريه له وكما قال عن نفسه ـ لم يذهب إلى الزهد الإسلامى ، الذى كان يتصوره بعض معاصريه ، والذى يجعل من صاحبه رجل عبادة وتسبيح ، يؤثر ما فى الآخرة من جنة ، و يخاف من نار يتردى فيها الأشقى ، و إنما ذهب إلى الزهد متأثراً بالمذاهب

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ١٥٨

(٢) الديوان ص ٢٦٣

غير الإسلامية وليحقق به الحصول على المال فى دنياه ، التى كانت تحتل مفاتنها من نفسه ما كان يجعلها غلابة قاهرة ، ولما كان الفقر يفشو فى الكوفة نال شعره فى الزهد شيوعاً وذيوعاً ، واكتسب بين مواطنيه رفعة وعلواً ، وانتقل به إلى بغداد وإلى البصرة بضاعة يبتغى بها وجاهة فى الدنيا واحتراماً عند الناس .

الآن وقد تمثل لنا أبو العتاهية على حقيقته ، نريد أن ندرس شعره الذى ورد إلينا فى الزهد ، لنرى تأثره بالمذاهب المتطرفة ؛ ولقد سبق أن بينا القواعد التى أرسى عليها هذا الزهد ، وأولها رفض الدنيا والزهد فيها واحتقارها ، ونرى أبا العتاهية يصوّر ذلك فى قوله[1] :ـ

إنما الدنيا على ماجبلت جيفة نحن عليها نصطرع
التقى البر من ينبزها والمحامى دونها الغر الخدع
فسد الناس وصاروا إن رأوا صالحاً فى الدين قالوا مبتدع

فى هذه الأبيات يصور أبو العتاهية الدنيا أبشع صورة ، يصفها جيفة عليها الناس يتزاحمون ويتنافسون ، وهى أحق بالنبز والترك والرفض والفرار منها ، لاينبغى للناس أن يسعوا فيها أو يحاولوا الحصول على مطلب من مطالبها، أو تحقيق هدف من أهدافها ، والتقى الحق والبر النقى فى هذه الدنيا هو من يحتقرها ويزدريها ولا يقيم لها وزناً ، ويؤثر عليها المسكنة ويحجم عن أن يستجيب لها ، لأنه لايريدها ولا يحرص عليها ؛ ولا يدافع عن أهدافه وعن جهاده فيها إلا الغر المخدوع ، لأنه لايدرى أنها لاتستحق الجهد الذى بذله لها ، وهى لا توزن بنصبه فى تحقيق الغايات ؛ وكان أبو العتاهية فيما يبدو ـ يلح فى وصف الدنيا على هذه الصورة المنفرة ، فلا تروق بعض الناس ولا يصحبهم منه هذا التهويل ، ورأوا فى قوله خروجاً عن تعاليم القرآن فاتهموه بالبدع ، فنعى عليهم هذا الفهم ورأى

(١) الديوان ص ١٥٣

أن مايقوله هو المسلك السليم ، الذى يؤيده الدين ، وأن نظرهم إلى هذا الزهد أنه بدع دلالة على فساد عقولهم ، التى اختلط فيها القبيح والحسن فلا تستطيع التمييز بين الصالح والطالح ، ورأت فى زهده ووصفه هذا للدنيا بدعاً فلم تعره التفاتاً؛ والحق أن من رأى فى قوله البدع معذور ، لأن الذى لايعرف غير الإسلام ينكر هذا و يتساءل ، أى دين هذا الذى يدعو إلى المسكنة ورفض الدنيا والإصرار على الزهد فيها وترك نصيبه منها ؟ معذورون هؤلاء الذين رأوا فى قول أبي العتاهية بدعاً لوصفه الدنيا على هذه الصورة ، التى لايجدون لها نظيراً فى القرآن، لأنهم لم يتبينوا أنه حين كان يصف الدنيا على هذا النحو المنفر كان ينظر إليها بعين الرهبنة ، التى دعت إلى احتقار الدنيا ورفضها و إيثار المسكنة عليها .

هذه الصورة التى يوردها أبو العتاهية لوصف الدنيا هى بلا جدال غلو فى الزهد يودع فيه أفكاراً تشيع فى الرهبنة المسيحية ، كما تشيع فى بعض المذاهب غير الإسلامية المتأثرة بالنصرانية ، ذلك لأننا نراه يلح فى نبز الدنيا ورفضها واحتقارها وتشويه ما فيها من جمال . ولم تكن نظرة أبي العتاهية إلى الدنيا ــ كما يدل على ذلك شعره فيها ــ قاصرة على تصويرها هذه الصورة المنفرة وحدها ، لأنه ذهب فى رفضها مذهب اليأس منها ، فصور ماتواضعت عليه البشرية واستقر فى النفوس نحو حياتهم فى الدنيا ، على أنه عبث لا طائل منه ، وأجدر بالإنسان أن يتخلى عنه ، لأن مايبذله من جهد مصيره الضياع ، ومآل ما يعمر الخراب ، و يبدو ذلك فى قوله : ــ

لدوا للموت وابنوا للخراب   فكلكم يصير إلى تباب
لمن نبنى ونحن إلى تراب   نصير كما خلقنا من تراب [1]

فى هذا الشعر يتصور أبو العتاهية الدنيا أنها لاتستحق منا أن نترك فيها ذرية

(١) الديوان ص ٢٣ و ص ٢٤

من بعدنا ، لأن مصير هذه الذرية الموت ، وعلى أنها لاتستحق أن نقيم فيها بناء ، لأن أمره سينتهى إلى الخراب ، وعلى ذلك فأى جهد يبذل فى هذين الميدانين ضائع ، وعلى الإنسان أن يتدبر هذا الأمر ، و ينظر إلى هذا المصير ، الذى ينتهى إليه مايبذل ، فإذا كان الأمر على هذا النحو ، فلمن نبنى ؟ وأية غاية نهدف من تعمير الأرض ؟ إذا كان كل شيء مصيره ومصيرنا مثله إلى التراب الذى جئنا منه و إليه نعود ؟ ونفس هذا المعنى يسجله الشاعر فى قصيدة أخرى ، مما يدل على تمكنه من نفسه ، وذلك فى قوله : ـ

لعمرك ما الدنيا بدار بقاء ... كفاك بدار الموت دار فناء

ألا تراه ينظر إلى الدنيا فيصورها على أنها ليست بدار بقاء ، وأنها على هذا الوصف لاتستحق منا النظر إليها ، أو بذل أى جهد فيها ، لأنه يكفينا إذا أردنا أن نفعل شيئاً أن ننظر إلى الموت ، فتبدو لنا الحقيقة التى تدلنا على أن مصير كل شيء هو الفناء ؛ هذا التصوير للدنيا ووصف مصير مافيها من عمران و إنسان إلى الفناء يدلنا على أن أبا العتاهية لايستمد أفكاره من المذاهب المتأثرة بالمسيحية وحدها ، و إنما كان يضيف إليها مايعرف من ثقات أو مايعتور نفسه من نزعات .

ونحن إذا تجاوزنا عن وصفه العام للدنيا ، إلى حديثه واعظاً ومذكراً ومبيناً مافى الدنيا من مساوىء لاتعد محاسنها بجوارها شيئاً ، ليحض الناس على الزهد و يدعوهم إليه ، لأنه خير للحياة وأبقى ، نرى الشاعر أيضاً يعطى صورة قاتمة للدنيا، ولكن يمكن احتمالها ولا يجد الذوق فيها مثل الثورة التى تهيجه من شعره فى هذا اللون الذى سبق أن ذكرناه ، ونراه يتلاءم مع هدف من أهداف الرهبنة ، وهو قمع الحرص على طلب الدنيا ، واحتقار السعى وراء الجاه والمنصب ، باغياً من وراء ذلك إلى الدعوة إلى الزهد ، و إليك من ذلك قوله : ـ

مازالت الدنيا منغصة ... لم يخل صاحبها من البلوى
دار الفجائع والهموم ودار ... البؤس والأحزان والشكوى

بينا الفتى فيها بمنزلة   إذ صار تحت ترابها ملقى
تقفو مساويها محاسنها   لاشيء بين النعى والبشرى [١]

وقوله : ــ

نصبت لنا دون التفكر يادنيا   أماني يفنى العمر من قبل أن تفنى
متى تنقضى حاجات من ليس واصلا   إلى حاجة حتى تكون له أخرى
لكل امرىء فيما قضى الله خطة   من الأمر فيها يستوى العبد والمولى

يلقانا الشاعر هنا واصفاً للدنيا ، فى شكل يبعث على اليأس منها ، يراها مجال الشقاء والبلاء ، ومبعث الألم والشكوى والعناء ، تنتاب الإنسان فيها النوازل فلا يكاد يخلص من واحدة حتى تسلمه لأخرى ، يظل يعيش حياته على هذا النحو ، فى دار البؤس والأحزان ، يشكوها فلا يجد لنفسه منها خلاصاً ، هى دار لاتترك الغنى يهنأ بغناه ، تعطى باليمين وتأخذ بالشمال ، تقفو دائماً مساويها محاسنها ؛ والباحث ينظر إلى هذه الصورة لا يستطيع أن ينسى ، أنها قريبة الشبه بنظر المانذى إلى دنياه ، ذلك لأن المانذى يعتقد أن حياته على الأرض جحيم ، فهو دائماً ينظر إلى ساعة الخلاص منها [٢] . وربما كان تأثر أبى العتاهية بالعقيدة المانديه التى كان يعيش أصحابها بالقرب من الكوفة ، هو الذى دفعه إلى ذم الدنيا على هذا الوجه .

وإذا كانت الدنيا على هذه الصورة المنفرة البشعة ، فمن ذا الذى يسعى إليها ؟ أو ينظر إلى مفاتنها فتخدعه لتعبث به ؟ ويحذر الشاعر من ذلك فيقول : [٣]

فلا تعشق الدنيا أخى فإنما   يرى عاشق الدنيا بجهد بلاء
حلاوتها ممزوجة بمرارة   وراحتها ممزوجة بعناء

(١) الديوان ص ٥
(٢) راجع هامش ص١٧ و ص ١٨   (٣) الديوان ص ٢

هاهو ذا الشاعر يصر على تحذيره ، لأن الدنيا ذات مفاتن ، تغرى وتخدع الإنسان عن حقيقتها ، فينبغى عليه ألا ينسى أن عشقها موجب للعناء ، لأنه يسعى ويشقى ثم يسعى فى جد ومثابرة ، فإن وصل إلى هدفه فإنه سيلقى مايفسد عليه أمره ، ولن يحظى بالراحة إلا ممزوجة بالنصب ؛ والدنيا بصورتها هذه ، ينبغى أن يزدريها الإنسان ، والتقى البرمن ينبزها ولا ينخدع بمفاتنها ، كما كان يقول .

فإذا تجاوزنا هذه الصورة ، لنرى نظر أبى العتاهية إلى جهد الإنسان فى الدنيا ، نلقاه وكأنه رجل من المانوية أسلم نفسه للعبادة ، ورضى بنصيبه فيها وإن كان تافها ، انظر إلى قوله : [١] .

حاولت رزقك دون دينك ملحفاً … والرزق لولم تبغه لبغاكا
وجعلت عرضك للمطامع بذلة … وكفى بذلك فتنة وهلاكا
وأراك تلتمس الغنى لتناله … وإذا قنعت فقد بلغت مناكا
ولقد مضى أبواك عما خلفا … ولتمضين كما مضى أبواكا

فها هو ذا الشاعر يريد من الإنسان أن يقعد عن طلب الرّزق ، لأنه سيناله سواء سعى إليه أولم يسع ، يجب أن يقعد ويسعد بدينه ، لأن السعى وراء الأمانى ، تعرض الفرد للهوان ، وتدفعه أن يبذل من كرامته ما كان يحرص على صيانته ويريق من ماء وجهه ما كان ضنيناً به ، وحسب المرء من هذا أن يكون له هلاكا ، ولكرامته وإنسانيته عقاباً رادعاً ، وحسب الدنيا أن يكون هذا طابعها لنحتقرها ، فلا نسعى وراء ثروة قد يكون بعد الحظوة بها بلاء ، ويكفينا من الدنيا ماقسم لنا من الرزق ، وعلينا أن نتحلى بالقناعة والرضا ، إذ ماجدوى الثروة لأشخاصنا ، إنها لن تلازمنا بعد الممات ، شأننا شأن آبائنا من قبل . هذه الصورة تبدو من إيحاء المانوية ، لأنها تدعو الصفوة أن يقعنوا فى حياتهم ، ولايقوموا بأى

---

(١) الديوان ص ١٨٤ .

مجهود فى سبيل طلب الدنيا ، وأن يحيوا راضين بغذائهم اليومى ولباسهم المقدر لعامهم . وينبغى ألا نخلط بين هذه الصورة وبين القناعة التى يطلبها الإسلام أن يرضى الإنسان برزقه ، لأن الإسلام لا يدعو إلى القعود عن الرزق ، وكل مايعنيه فى هذا المجال أن يبرأ الإنسان من الحقد والحسد ، وألا يتطلع إلى مافى يد الغير ، لأنه نال حظه على قدر طاقته .

ونحن إذا ماانتهينا من بيان الدنيا فى نظر أبى العتاهية ننتقل إلى ميدان آخر ، هو قمع الحرص على طلب لذائذ الحياة ، واحتقار السعى وراء الجاه والمنصب ، وهنا نلقى الشاعر كدأبه مسرفاً فى التصوير ، يتلقى الوحى من ثقافات عصره ، لا تعنيه واحدة دون أخرى ، قال : [1] .

حبب الأكل والشراب إلينا   وبناء القصور والتجميع
وصنوف اللذات من كل لون   والفنا مقبل إلينا سريع

نراه يصور لناشره الإنسان فى جمع المال ، والسعى وراء ملذات الحياة مأكلا ومشرباً ، ورغبته فى بناء القصور وجلب الأثاث والرياش ، وإلحاحه جرياً وراء شهوات النفس ، يحققها لها مااستطاع إلى ذلك من سبيل ، ناسياً أنه لابد يوماً أن سيفقد هذا كله ، وأن سيلحقه الفناء ويحرم من هذا النعيم .

قلت : إنه يسرف فى التعبير ، ويتلقى من ثقافات عصره مايعنيه ، ذلك لأنه فى هذا الشعر ، ينعى على الناس جريهم وراء الشهوات مع أن الفناء سيلحقهم سريعاً ، وهذا المعنى غريب عن الإسلام ، لأن الإسلام حين ينادى بالقصد فى الشهوات والملذات ، لايدعو إلى ذلك إلا لخدمة المجتمع ، لا لأن الإنسان سيحرم منه بحكم الفناء الذى سيلحق كل شىء كما ترى المانوية ، أن كل شىء يرتد إلى الجوهر فانياً فيه ؛ ألح أبو العتاهية فى الهجوم على الفتنة بملذات الحياة ، لأنه فيما يبدو كان

(١) الديوان ص ١٥٢ .

ـ يحارب مازعمته المعمرية ، من أن الدنيا لا تفنى ، وأن مايصيب الناس من لذائذها هو الجنة ، وما يصيبهم فيها من شر هو النار ، وربما كان إسراف أبى العتاهية هو رد فعل لأنغام الخطابية وحضهم على الحظوة بمتع الحياة جميعاً ، ولـكنه على أية حال تجاوز الحد وخرج عن اعتقاد المسلمين . ومن حق الشاعر على الباحث ، ألا ينسى أن الرجل لم يهمل الثقافة الإسلامية فى دعوته ، لأنه كان يأخذ منها ماتلاءم مع لون دعوته ، ألا تراه يقول :

وما لك مما يأ كل الناس غير ما ... أ كلت من المال الحلال فأفنيتـا
وما لك إلا كل شىء جعلتـه ... أمامك لاشىء لغـيرك أبقيتـا
ومالك ممـا يلبس الناس غير ما ... كسوت و إلا مالبست فأبليتـا

فشعره هذا مأخوذ من حديث الرسول القائل « إنمـا لك من مالك ماأ كلت فأفنيت . أو لبست فأبليت . أو تصدقت فأمضيت » ، ألا ترى أن شعره يستغرق اللفظ والمعنى معاً ، ولولا ماأخذ نفسه به من إسراف لبرىء وخلص له المعنى إسلامياً صرفاً ، ولـكنه أضاف إليه مااتسق ولون دعوته ، فطلب إلى المرء أن يمضى دون أن يترك خلفه شيئاً ، كما ترى فى البيت الثانى ، وعلى أية حال فالشاعر هنا معتدل إذا قيس بغيره من شعره ، الذى تشيع فيه رهبانية ينكرها دين الإسلام .

قلت : إن أبا العتاهية لم يهمل الثقافة الإسلامية ، وأنه حين كان يسعى إليها يعتدل ، وهكذا كان أمره حين هاجم النزعة إلى اللهو والمجون ، بدا داعياً إلى الرشاد ، ناصحاً بالتنكب عن طريق الفساد ، يشتط أحياناً ولـكنه لا يخرج عن الإطار الذى ألفه المسلمون ، هاجم نزعة المجون ليحارب الإباحية التى نادت بها الخطابية . قال :

يامن تمجن مهـلا ... قد طال منك المجون
هونت عسف الليـالى ... هـونت مالا يهـون

ياليت شعرى إذا ما دفنت كيف تكون
أو قد تركت صريعاً وقد بكتك العيون
لقل عنك غناء دمع عليك هتون

ترى الشاعر فى هذا الشعر وأمثاله ، يهجم هجوماً عنيفاً على نزعة التحلل من القيود الخلقية ، واتخاذ المجون منهجاً فى الحياة ، فينادى المرء أن يتريث فيما هو ماض فيه ، وأن يقدّر تقلبات الزمن ، فهو إما صائر إلى القبر فيصير جيفة تشمئز منها النفس ، أو تجبهه نائبات الدهر فتصرعه ، فيسقط يتلوى من عنف صدماته ، يثير منظره الأسف والبكاء على ما آل إليه ، ولكن ذلك كله لا يجديه فتيلا ، ولن يرد إليه ماقد فقد ، أو ينتشله من وهدته ، فهذا التصوير وإن بدا شديداً ، إلا أنه لم يبعد عن الجو الإسلامى ، وهو قريب الشبه بوعظ الزهاد فى القرن الثالث الهجرى .

ننتقل بعد ذلك إلى ماقال الشاعر يسفه به السعى وراء الجاه والمنصب . وهنا نلاحظ أن ماورد من شعره فى هذه الناحية قليل جداً ، وتفسير ذلك إما أن يكون الشاعر مقلا ، لأنه كان يخشى سطوة رجال الدولة ، وإما أن يكون ماقاله فى هذا الميدان ، قد ضاع مع ماضاع من شعره ، ونحن إلى الاحتمال الأول أميل .
وعلى أية حال فمالدينا من شعره يصور نزعته وهدفه ، قال متخذاً من العلماء وسيلته :

علماؤنا منّا يرون عجائباً وهُمُ على مايبصرون سكوت
تفنيهم الدنيا بوشك زوالها فجميعهم بغرورها مبهوت
وبحسب مايسمو إلى الشهوات ما يكفيه من شهواته ويقوت (١)

نرى الشاعر يقول بأجلى بيان ، إن العلماء يعنى بهم الفقهاء ، وهم صفوة القوم ، قد طرفت أعينهم الدنيا ، فصمتوا على مالا ينبغى أن يسكتوا عنه ، يرون

(١) الديوان ص ٣٧ .

المآثم فى دنياهم ترتكب ، وستار الدين ينتهك ، وتعاليمه يغض الطرف عنها ، ولا يستفزهم هذا المنكر ليقولوا للمخطىء أخطأت ، وللآثم أثمت ، لأنهم إن فعلوا ذلك فقدوا مناصبهم ، التى تدر عليهم الأموال ، وتقود لهم الدنيا طائعة ، وتجلب لهم ظلالها الوارفة ، تبهتهم بما هم فيه من نعيم ، فيغفلون عما يدور حولهم ، تملك عليهم حسهم و بصرهم ، فتعمى أبصارهم عن واجبهم ، مع أن الدنيا توشك أن تسلمهم إلى دار الفناء ، فكان ينبغى لمن أراد الدنيا منهم ، أن يقنع بما يقى الجسد ، وأن يكتفى بما يقيم الأود .

ونلاحظ أن الشاعر وهو ينعى على الفقهاء وغيرهم مسلكهم ، يذكرهم بأن الفناء سيلحقهم ، وهذا يوحى أن تمثله للدعوة للزهد يتم على أساسين : أحدهما البعد عن مفاتن الحياة من مال أو لذة أو منصب ، والآخر أن الزهد ضرورة لأن الإنسان سيلحقه الفناء ، والأساس الأول نجده فى تعاليم دين الإسلام وفى غيره من الأديان السماوية ، أما الثانى فقد اختصت به المانوية كما هو معروف . وينبغى علينا هنا أن نشير إلى أن طلب أبى العتاهية إلى العلماء أن يزهدوا فى حياتهم أمر ألفته الحياة الإسلامية ، والكوفة بنوع خاص ، فقد أبى أبوحنيفة رحمه الله ولاية القضاء كما أبى معاصره سفيان الثورى ، واختفى حين أصر السلطان على وجوب توليته القضاء ، فالسعى وراء المنصب والجاه كان أمراً مبغضاً لدى كبار الفقهاء فى مطلع الدولة العباسية ، لذا يمكن أن يقال إن أبا العتاهية لم يبعد عن الجو الإسلامى ، وإن كانت هنالا مذاهب غير إسلامية تدعو إلى رفض المنصب والتطلع إلى الجاه .

فإذا تجاوزنا هذه الناحية ، وانتقلنا إلى دعوة أبى العتاهية إلى التصدق ، فإنه من التجنى أن ننسب هذه الدعوة إلى إيحاء مذهب غير إسلامى ، ذلك لأن الدين الإسلامى خص الصدقة والتصدق بوافر عنايته ، ولم يترك سبيلاً يحبب الناس فيها إلا طرقه ، وجعلها فى الزكاة واجبة الأداء ؛ حقاً إن بعض المذاهب غير الإسلامية جعلت الصدقة والدعوة إليها واجبة ، ولكنا إذا ظفرنا بداعية إلى البذل والتصدق

فى بيئة إسلاميـة ، نستطيع أن نردّ إليهـا ما يقول ، فلِمَ نبعده عن بيئته التى نشأ فيها ؟ وخاصة كما ذكر أن الإسلام إذا لم يكن أعلى شأناً فى الحض على الصدقة ، فإنه ليس أقل من غيره ، لذلك أرانى أذهب إلى أن جو أبى العتاهية فى هذا الميدان هو جو إسلامى ، و إن اتفقت دعوته مع غيرها من دعوات الأديان الأخرى . ومايعنينى فى هذه الناحية إلا أن أبرز ظاهرة يتميز بها الشاعر ، ألا وهى خيبة أمله من إستجابة الأثرياء لدعوته ، وأثر ذلك على نفسه ، ولـكن ينبغى قبل أن نذهب إلى ذلك ، أن نستمع إلى وصفه لهؤلاء الأغنياء ، [1] : ـ

عجبـاً لأرباب العقولْ والحرص فى طلب الفضول
سـلاب أكسية الأرا مل واليتامى والـكهول
والجـامعين المكثريـ ـن من الخيانة والغلول
والمؤثرين لدار رحـ ـلتهم على دار الحـلول
وضعوا عقولهم من الد نيا بمدرجة السـيول
وتتبعـوا جمع الحطا م وفارقوا سـنن العقول

نراه يتحدث عن أنانية الأثرياء وجشعهم وقسوتهم ، مصوراً قلوبهم التى لا تعرف الرحمة إليها سبيلاً ، يصفهم ساعين للحصول على المال من كل طريق ، لايثنيهم عن ذلك شىء ، يدفعهم الجشع إلى الأرامل فيسلبون أكسيتهم ، و إلى اليتامى فتمتد أيديهم إلى طعامهم ، و إلى الـكهول فيمتصون ما بقى من دمائهم ، لا يأبهون لمـا فيهم من ضعف ، حسبهم أن تصل أيديهم إلى الأموال من كل سبيل ، لا يعنيهم إن كان ذلك عن طريق الظلم أو الخيانة ، ضلوا طريق الهدى والرشاد ، وأخضعوا أنفسهم لأهواء الدنيـا . هؤلاءهم الأثرياء الذين تحدث إليهم الشاعر يطلب منهم البذل للفقراء ، وهى صورة ليست بعيدة عن الحق والصواب ، و إن كانت لا تخلو من تهويل . يعنينى أن أبرز أن خيبة أمل الشاعر فيهم أحنقته

(١) الديوان ص ٢٠٧ .

عليهم ، فصور يأسه منهم قائلاً[١] : ـ

لله أزمنة عهدت رجالها في النائبات و إنهم لكرام
أيام أعطية الأكف جزيلة أفلا يضيع لدى الزمان ذمام
فلعبرة أخرت للزمن الذى هلك الأرامل فيه والأيتام
زمن مكاسب أهله مذخورة دخلا فروع أصله الآثام
زمن تحامى المكرمات سراته حتى كأن المكرمات حرام
زمن هوت أعلامه وتقطعت قطعاً فليس لأهله أعلام

كان يريد الشاعر منهم أن يبذلوا فقصروا ، وأن يخرجوا من مالهم للفقراء فأحجموا ، وألا يتركوا شيئاً خلفهم فلم يستجيبوا ووضعوا أصابعهم فى آذانهم ، فأحنقه صنيعهم فهوى بسوطه ، فأوجع بضربات لاذعات ، إذ صورهم قوماً لا يعففون عن المال الحرام ، ولا تهزهم دعوة للبذل ، ولا تثيرهم إلى المكرمات نفس كريمة ، تؤثر مجد الحياة وعلو المنزلة ، نزلت بهم أنفسهم إلى الدرك الأسفل فخلت الحياة من أعلامها ، لأن الأنانية والجشع قد مزقها . يئس أبو العتاهية من الأغنياء ولم ير فيهم قلباً يلين لدعوته ، فاتجه إلى الرشيد يستعطفه قائلاً[٢] : ـ

من مبلغ عنى الإما م نصائحا متواليه
إنى أرى اسعار اسـ عار الرعية غاليه
وأرى المكاسب نزرة وأرى الضرورة فاشيه
وأرى هموم الدهر را ئحة تمر وغاديه
وأرى اليتامى والأرا مل فى البيوت الخاليه
من بين راج لم يزل يسمو إليك وراجيه
يشكون مجهدة بأصوا ت ضعاف عاليه

(١) ص الديوان ٢٤٤ .
(٢) الديوان ص ٣٠٤ .

يرجون رفدك كى يروا ... مما لقوه العافيه
من يرتجى للناس غيـ ... ـرك للعيون الباكيه
من مصبيات جوع ... تمسى وتصبح طاويه
من يرتجى لدفاع كر ... ب ملمة هى ماهيه
من للبطون الجائعا ... ت وللجسوم العاريه

ويختم هذه القصيدة قائلاً : ــ

ألقيت أخبارا إليـ ... ـك من الرعية شافيه

يعنينى من هذه الناحية ، أن الشاعر كان يطلب البذل والتصدق للفقراء ، يصف حالهم ويتعرض لذكر ما يقلق حياتهم ، لكى يستدر عطف الكرماء ، ويستفز شعور الرحماء ويهيج القلوب للبذل والعطاء ، فى صور شعرية تهتز لها النفوس والمشاعر ، لا يستطيع أن يغفلها مؤرخ الآداب ، لتصويرها المجتمع ولما فيها من جمال فنى .

كان من مستلزمات الزهد عند أبى العتاهية إيثار المسكنة ، وهذا اللون من الحياة يتفق وما ذهب إليه الشاعر من نبز الدنيا واحتقارها ، ويتلاءم مع قوم قست عليهم أوضاع الحياة ، فلا يستطيعون الخلاص منها ، فينشدون فى مثل هذا المسلك عزاء لأنفسهم ، ووصف أبى العتاهية للمجتمع الذى كان يعيش فيه ، يوحى بأن الدعوة إلى إيثار المسكنة تلقى أذنا صاغية . قال الشاعر يصور لنا دعوته فى هذه الناحية (١) : ــ

رغيف خبز يابس ... تأكله فى زاويه
وكوز ماء بارد ... تشربه من صافيه
وغرفة ضيقة ... نفسك فيها خاليه
أو مسجد بمعزل ... عن الورى فى ناحيه

---

(١) الديوان ص ٣٠٤ ، ٣٠٥ .

تدرس فيـه دفترا مستنـداً بسـاريه
معتـبراً بمن مضى من القرون الخاليـه
خير من السـاعات فى فىء القصـور العاليـه

نرى الشاعر يطلب من المرء أن يكتفى من الطعام بقطعة من الخبز يابسة ، ومن الشراب بقليل من الماء البارد ، ومن المسكن بغرفة ضيقة لا يشاركه فيها أحد ، كأنه راهب فى صومعته ، ويرى له إن عزّ المسكن أن يلجأ إلى المسجد ، فهناك يتخذ مكانه مستنداً إلى سارية ، وهو فى كلا الأمرين سعيد ، لأنه يقرأ ويتعظ بأحوال الغابرين ، وينظر لنفسه فإذا حياته أفضل من العيش فى القصور ، حيث الترف والنعيم واللذة . هذا المنهج من الحياة التى يدعو إليها أبو العتاهية يبدولى أنها من إيحاء الرهبنة المسيحية .

بقيت كلمة فى زهد أبى العتاهية ، وهى أننـا نلحظ فى بعض شعره مسحة الزرادشتية كما فى قوله [1] :

لا تمض رأيك فى هـوى إلا ورأيك فيه قصـد
من كان متبعـاً هـوا ه فإنه لهواه عبـد

نرى الشاعر يطلب من الإنسان قبل أن يتبع هذه الحياة أو تلك أن يحكم عقله ، وهو فى هذا ينظر إلى الزرادشتية ، التى تجعل السعيد من فكر فاختار طريق الصواب ، والشقي من عدل عن ذلك .

وقبل أن نختم هذا البحث ، نريد أن نلفت النظر إلى أن ناشر ديوان أبى العتاهية ، الذى سماه « الأنوار الزاهية ، فى ديوان أبى العتاهية » وهو أحد الآباء اليسوعيين ، ظن أن الشاعر كان متأثراً فى زهده بالمسيحية وحدها ، وتابعه على هذا الرأى كارل بروكلمان فى كتابه « تاريخ الشعوب الإسلامية » ويبدو

(١) الديوان ص ٨١

أن الذى دعا هذين المستشرقين إلى هذا القول ، مارأياه فى هذا الشعر من مسحة ظهرت لهما أنها من تأثير الدعوة إلى الرهبنة المسيحية ، ولكنهما لو تأملا هذا الزهد الذى قاله أبو العتاهية يريانه لم يدع الناس إليه ، على أنه وسيلة لتطهير النفس ، وابتغاء مرضاة الله كما تذهب النصرانية ، و إنما قصد به الزهد لذاته ، لأنه لون من الخيرية ، ومن هنا يتضح الفرق مابين زهد أبى العتاهية وما بين الرهبنةالمسيحية ، فالرهبنة المسيحية تدعو إلى التقشف لتطهير النفس وتعذيبها فى الدنيا لتسعد بالجنة فى الآخرة ، أما شاعرنا أبو العتاهية فإنه فى دعوته إلى الزهد لم يذكر ثواب الله عليه ، وأغفل ذلك إغفالا كان مثار ريبة القدماء ، حقاً إن بين الزهد العتاهى والرهبنة المسيحية تشابهاً كان نتيجة تأثر الشاعر بالمسيحية ، ولكن كلا منهما مستقل عن الآخر وله مميزاته ، ظن ناشر الديوان ، أن أبا العتاهية يستمد أفكاره فى الزهد من الرهبنة المسيحية وحدها ، ولم ينظر إلى تأثره بغيرها من المذاهب العراقية ، أو بالفلسفات التى عاشت فى أرض الأقليم ، فعلق على قوله :ـ

سأمنع قلبى أن يحن إليهم   وأحجب عنهم ناظرى وجفونى

بقوله : « ليس هذا القول بموافق لما علمه السيد المسيح فى إنجيله الشريف من الصفح عن المآثم ومحبة الأعداء ، ومجازاة الشر بالخير إلى غير ذلك من التعاليم الخلاصية التى تسمو بمن يستن بسنتها إلى أقصى درجات الكمال (١) ، والحق أن أبا العتاهية لم يكن يسترشد فى زهده بالنصرانية وحدها حتى يحاسبه الناشر على هذا القول ، و إنما كان شاعراً متأثراً بالبيئة التى كان يعيش فيها ، وهى بيئة ظهر فيها الروافض والغلاة والمتطرفون ، بمذاهب مستمدة من المانوية والديصانية والمرقونية والزرادشتية والمزدكية والماندية وغيرها من العقائد والمذاهب الفلسفية التى عاشت على أرض العراق أو فيما جاوره .

(١) الديوان ص ٢٥٥

التذكير بالموت فى شعر أبى العتاهية

نظر القدماء إلى أبى العتاهية فرأوه يذكر الموت ويلح فى ذكره ليعظ الناس ، ولا يتعرض لبعث ولا حساب ولا جنة ولا نار ، فحكموا عليه بالإلحاد أو بالزندقة ، وهم حين يرون هذا الرأى لا يفصلون وجهة نظرهم ، ويغلب الظن أنهم رموه بالكفر أو بالإلحاد ، لأنهم تأملوا الإسلام فوجدوه يذكر الموت ، ليتدبر الإنسان أمره فى حياته ، التى يحياها قبل أن يمضى إلى قبره فى انتظار للبعث والحساب ، والمصير لمن عمل صالحاً جنة عرضها السموات والأرض ، فيها ماتشتهى الأنفس ، وتلذ له الأعين ، وتحار فى جمالها العيون ، ولمن عمل طالحاً وأساء وركب رأسه ، واتبع شهواته ، نار تتلظى ، وقودها العاصون والحجارة ، يذوقون فيها ألوان العذاب الأليم ، قارنوا بعقولهم منهج الشاعر ومسلك الإسلام ، فدلهم شعورهم على أن إحجامه عن ذكر الجنة والنار أو البعث والحساب ، دليل على الإلحاد ، كما ذهب إبراهيم بن المهدى وغيره ، ولقد تصدينا لهذه الناحية بالبحث ، وانتهى بنا الأمر إلى أن أبا العتاهية كان متأثراً ببعض العقائد المتطرفة التى ظهرت فى الكوفة ، ونحن إذا نظرنا إلى هذا المقياس الذى اتخذه القدماء أساساً لنظرهم نحو أبى العتاهية ، نجدهم جعلوه ملحداً لأنه يذكر الموت ولا يذكر البعث والحساب والثواب والعقاب ، كما فى قوله :

لا تغفلن فإنما آجالكم نفس يعد
وحوادث الدنيا ترو ح عليكم طوراً وتغدو
والموت أبعد سنة مابعد بعد الموت بعد
إن الألى كنا نرى ماتوا ونحن نموت بعد (١)

رأوه فى هذا الشعر وأمثاله ، لا يبشر فيه ولا ينذر بما فى الحياة الأخرى من

---

(١) الديوان ص ٨١

تكريم لمن أطاع الدين ، ومن خسران لمن اتبع هواه ، وإن هذا الصمت عن عن البعث والحساب أخذوه دليلا على الزندقة أو الإلحاد ؛ ليس لنا أن نسلك هذا المنهج ؛ لما فيه من قصور ، وخاصة ونحن ندرس فى هذا الشعر آيات التطرف الكوفى الذى جاء به متطرفو الشيعة ، ليس يكفينا أن نرى جنوحاً عن منهج الإسلام وإنما الذى يعنينا أن نرى طبيعة هذا الجنوح والمصادر التى أوحت به ، وبذلك نتمكن من فهم الأسباب التى حدت بالقدماء ، أن يجعلوا أبا العتاهية ملحدا ، لأنه لم يصرح بالبعث والحساب إذا ماذكر الموت ، وليس يكفينا أيضاً أن نتخذ من إغفال أبى العتاهية ذكر البعث والحساب والجنة والنار دليلا ينهض وحده ضد الشاعر ، إذ يجب أن يعزز هذا الدليل بالقرائن التى تدل على أنّ الشاعر كانت تستهويه أضواء عقائد كانت تنكر البعث والحساب والجنة والنار ، وذهبت بأبى العتاهية مذهبها ، نقول إنه من القصور أن نتخذ أساس القدماء وحده دليلا يوزن به ميل الرجل إلى الإلحاد ، لعدم ذكره البعث والحساب ؛ لأنه يمكن أن يرد على قولهم بأن الشاعر كان يرى أن هذه مسألة لا تحتاج إلى إيضاح لدى المسلمين ، وأنه كان يعنيه دعوته الإصلاحية ، وقيامه داعية يسعى لخير البشرية ، علينا إذا أردنا أن نقيم الرأى على أساس سليم ، أن ننظر إلى شعر أبى العتاهية فنراه يؤمن بالموت إيماناً عميقاً ويبدو أنه كان يؤمن به على النحو الذى قال الصولى أنه كان يعتنقه ، وهو أن الأشياء خلقت من جوهرين ، وأن كل شىء لابد وأن ينتهى أمره ، بأن يرتد إلى جوهره ويفنى فيه ، واستدللنا على صحة ماذهب إليه الصولى بشعر لأبى العتاهية ، ومن هذا الشعر قوله :

لعمرك ماالدنيا بدار بقاء كفاك بدار الموت دار فناء

وهو مايدل على أن الإنسان فى نظر أبى العتاهية يفنى بانتهاء شخصه على الأرض ، ومعنى هذا أن الإنسان لا يبقى منه شىء بعد وفاته ، بل يفنى فى أحد الجوهرين ، وهذا المعنى نعثر عليه فى شعر الشاعر بين حين وحين ، كما فى قوله :

من حس لى أهل القبور ومن رأى ‏ ‏ من حسهم لى بين أطباق الثرى
من حس لى من كنت آلفه ويا ‏ ‏ لفنى فقد أنكرت بُعد الملتقى
من حسه لى أن يعالج غصة ‏ ‏ متشاغلا بعلاجها عمن دعا
من حسه لى فوق ظهر سريره ‏ ‏ يمشى به نفر إلى بيت البلى (١)

فإذا تبين لنا أن أبا العتاهية يقول بفناء الإنسان بعد الموت وينكر اللقاء بعده ، ولا يذكر بعثاً ولاحساباً ولاجنة ولا ناراً ، رجح لدينا أنه يذهب إلى هذه النظرية التى ذكرناها ، والتى قال الصولى عنه أنه كان يعتنقها ، ويجب علينا ألا نخلط بين هذه النظرية وبين ماجاء فى القرآن الكريم من أن الله خلقنا من الأرض أو من التراب ، وإليه أو إليها نعود مرة أخرى ، وذلك لأن هذه النظرية الفلسفية ـ وإن قالت بالموت لانتهاء عمر الإنسان ـ فإنها لا تعترف ببعث أو حساب ، وترى الإنسان يرتد بعد موته إلى أحد الجوهرين الأزليين ، أما ماجاء فى القرآن الكريم فهو ذهاب البدن وتحلله إلى العناصر التى تكوّنَ منها هذا البدن ، وهذه العناصر تمتزج بالأرض أو بالتراب الذى خلق منه الإنسان ؛ أما روحه فهى باقية لا يصيبها بلى أو فناء ، فالإعادة إلى الأرض فى القرآن الكريم لا تدل على فناء الإنسان ، وإنما تصور اختفاء شخصه من على الأرض حتى يوم البعث ، وهذا لا يتفق وما يقول به أبو العتاهية ، الذى يذهب إلى فناء الإنسان فناء كلياً ، كما هو واضح من قوله « كفاك بدار الموت دار فناء » ومن تحديه أو تساؤله فى الأبيات التى يبدؤها بقوله « من حس . . . » هذا الاختلاف بين منهج القرآن فى تصوير أمر الإنسان بعد الموت ، وبين منهج أبى العتاهية ، يجعلنا نرجح أنه كان يميل إلى هذه النظرية الفلسفية ، فى فناء الأجساد بعد الموت ، وارتدادها إلى أحد الجوهرين ، تلك النظرية التى قال الصولى إنه كان يعتنقها ؛ هذه

(١) الديوان ص ٧ .

النظرية التى كان يميل إليها أبو العتاهية جعلته يحس أن عليه واجباً ، وهو أن يرد على هذه الفرق الغالية ، التى تألفت فى مصره وخاصة البزيغية ، وهى فرقة خطابية كانت تزعم أن أتباع هذه العقيدة لا يموت منهم أحد ، وأنهم يرون أمواتهم بكرة وعشية ، أحس أن عليه واجباً أن يقرر صدق ظاهرة الموت ، مؤكداً أنه لابد لاحق بكل حى ، ذاهباً فى إثباته كل سبيل ، ويهاجم من أجل ذلك المنكرين لهذه الحقيقة هجوماً عنيفاً ، كما فى قوله :

نرجى خلود العيش جبناً وضلة ... ولم نر من آبائنا من مخلد
لنا فكرة فى أولينا وعبرة ... بها يقتدى ذو العقل منها ويهتدى
ولكننا نأتى العمى وعيوننا ... إليه روان هكذا عن تعمد
كأنا سفاها لم نصب بمصيبة ... ولم نر ميتاً جوف قبر ملحد (١)

أو يناقش فى هدوء ، مخاطبا العقل كما فى قوله :ـ

يا آمن الدهر على أهله ... لكل عيش مدة وانتها
بينا يرى الإنسان فى غبطة ... أصبح قد حل عليه البلى (٢)

أو يضرب على صحته الأمثال ، وهو ماتراه كثيراً فى شعر الزهد لأبى العتاهية كما فى قوله :ـ

لتنالن من ترون أراها ... مثل مانلن من ثمود وعاد
هن أفنين من مضى من نزار ... هن أفنين من مضى من إياد
هل تذكرت من خلامن بنى ساسا ... ن أرباب فارس والسواد
أين داود أين أين سليما ... ن المنيع الأعراض والأجناد
راكب الريح قاهر الجن والإنـ ... ـس بسلطانه مذل الأعادى

---

(١) الديوان ص ٨٣

(٢) الديوان ص ٤

أين نمرود وابنه أين قارو ن وهامان أين ذو الأوتاد(١)

ولا يغيبن عن البال أن أبا العتاهية حين يهاجم عقيدة متطرفة غالية،لايفعل ذلك حباً فى الإسلام ، وإنما استجابة لعقيدته التى سبق أن أشرنا إليها ، هـذا الحماس الذى نشعر به حين نقرأ الديوان ، مصوراً فيه أن الموت واقع وحقيقة ، يبدوأنه لم يكن يقصد منه الوعظ والاشاد فحسب ، وإنما كان للرد على هؤلاء الذين ينكرون حقيقة الموت من معاصريه ، ليثبت لهم فسادعقيدتهم وسقم رأيهم ؛ توسل أبو العتاهية فى إثبات الموت بالواقع الظاهر ، وبأحداث التاريخ ، وبكل ماراَه دالا على أن الموت حقيقة لاسبيل إلى إنكارها ، وشغله الحماس بهذه الفكرة فراح يلح فى إثباتها ، إلحاحاً تردد فى كثير من شعره الذى وصل إلينا ، مما يدل على أنه كان يلقى مشقة فى إقناع معارضيه بصحتها .

عنى أبو العتاهية عناية ملحوظة بإثبات حقيقة الموت ، لأنه كان يؤمن به ، ويخالف عقيدة البزيغية التى ذهبت إلى إنكاره بالنسبة إلى اتباعها ، ونراه وهو يسوق الحديث فى إثبات حقيقة الموت ، يعطى أدلة واضحة على فساد هذه العقيدة ، ويثبت ألا محل للزعم أن الموتى يراهم أحد أو يحس بهم إنسان كما فى قوله : ــ

أين الحماة الصابرون حمية يوم الهياج لحرب مختلف القنا
وذوو المنابر والعساكر والدسا كر والمحاضر والمدائن والقرى
وذوو المواكب والكتائب والنجائب والمراتب والمناصب فى العلى
أفناهم ملك الملوك فأصبحوا مامنهم أحد يحس ولا يرى(٢)

نراه يذكر لهم أبطال الحروب الغابرين ورجال الخطابة والإدارة والحكم

(١) الديوان ص ١٠٠
(٢) الديوان ص ٨

والحرب السابقين ، الذين ماتوا ولم يبق إلا ذكرهم ، ولا يستطيع أحد أن يزعم أنه يراهم أو يحس بهم ، ذهب الموت بهم وتلك سنته فى جميع الخلق ، لافرق بين ماض وحاضر ، فماذا دهى هؤلاء النـاس حتى يدعوا أنهم يرون موتاهم ويحسون بهم ؟ ألا يعظهم الماضى ليروا أنهم أخطأوا ؟ أو إلى الحاضر وكل يوم وأسرة الموتى تنقل إلى القبور ! لم يعد أحد من موتى القرون الغابرة ، ولم نر أحداً رآهم ، وفى هذا دليل مقنع على أن الموت حقيقة لاسبيل إلى إنكارها .

لانستطيع أن نترك هـذا البحث دون أن نشير إلى أن أبا العتاهية اتخذ من التذكير بالموت وسيلة لإصلاح البشر والمجتمع ، ولتأييد مذهبه والرد على من ينكره ، وهو فى وعظه هذا لاتبدو عليه هذه المسحة التى نعرفها عنه عندما يتحدث عن الزهد فى الحياة ، ذلك لأننا نلحظه عاقلا رزيناً يصدر عن تجربة ، وتجرى ألفاظه فى رفق وفى شكل مهذب ترضى عنه النفوس ، دعا الناس إلى أن يحسنوا من أخلاقهم ، وإلى أن يعيشوا فى دعة وفى بر وتعاطف ، ويتركوا ما انطوت عليه نفوسهم من حقد وشر ، لأن فى ذلك مفسدة لحياتهم ، ولأن حياة التعاطف والتراحم والصفح الكريم والسماحة فيها خير البشرية ، أنظر إلى قوله : —

أخىّ عندى من الأيام تجربة ... فيما أظن وعلم بارع شاف
لاتمش فى الناس إلا رحمة لهم ... ولا تعاملهم إلا بإنصـاف
واقطع قوى كل حقد أنت مضمره ... إن زل ذو ذلة أو إن هفا هاف
وارغب بنفسك عما لاصلاح له ... وأوسع الناس من بر والطاف [1]

فأنت تراه فى هذا الشعر يدعو إلى الرحمة بين الناس فى رفق ، لايجادل ولا يناقش ولا يضرب الأمثال ، وإنما يرسل أقواله على أنها نصائح تقررها التجربة ينبغى ألا يغفلها الإنسان فى حياته ، التى تحتاج إلى صفاء النفس وحسن الخلق

---

(١) الديوان ص ١٦٧

ونقاء السريرة ، هذه الدعوة إلى الخير يجب أن ننظر إليها ، واضعين نصب أعيننا أن أبا العتاهية حين دعا إلى مادعا إليه من خير ، لم يحاول أن يذكر بمافى العمل الصالح والخلق الكريم من ثواب يلقاه الإنسان من ربه ، وأنه حين نهى عن الشرور الإنسانية التى تتمثل فى القطيعة والحقد والظلم وما إلى ذلك لم يحاول أن يبين مافى اقترافها من عقاب أنذر به رب العالمين ، إذا وضعنا هذه الحقيقة أمامنا، ونحن ننظر إلى دعوته إلى الخير ونهيه عن الشر ، ونظرنا أيضاً إلى تأثره بالمذاهب التي سبق أن أشرنا إليها ، خيل إلينا أنه يدعو إلى الخير للخير فى ذاته ، وينهى عن الشر للشر فى ذاته ، وأنه متأثر فى ذلك بالمذاهب الفلسفية أو بدعاة المانوية .

الباب الثانى

البصرة ومذاهب الشيعة المتطرفين الكوفيين

الفصل الأول

تطور مجتمع البصرة

قبل أن ندرس مظاهر تأثر أهل البصرة بمذاهب الكوفيين من أهل الشيعة المتطرفين ، وجب أن نلقى نظرة على مجتمع البصرة حتى نرى استعدادهذا المجتمع لقبول أو رفض هذه المذاهب ، لنتمكن على ضوء هذه الدراسة أن نفهم أسباب الفشل أو النجاح الذى قدر لها وللداعين إليها .

مصرت البصرة فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وأهم القبائل التى استقرت فيها آنذاك هى تميم و بكر بن وائل [1] . استقر العرب فى البصرة التى أريد منها ـ كما أريد من الكوفة ـ أن تكون مقراً حربياً منه تنطلق الجيوش، وكان عليها أن ترعى هذه الأقاليم التى تمتد حول الخليج الفارسى ؛ ولم يكن البصريون فى أول أمرهم بالعدد الكبير ، إلا أن موقع المصر الجغرافى جعله قبلة العيون ومحطة الأنظار ، فهاجر إليه كثير من العرب من قبائل مختلفة ، وقفز عدد سكانه من ثلاثمائة نفس إلى مائتى ألف بعد زمن قليل ؛ وأضحى أهم القبائل فيها تميم وربيعة والأزد ، وكان لقرب أهل البصرة من بلاد لها حضارات قديمة ،

---

(١) ابن قتيبة عيون الأخبار ج ٢ ص ٢٩ طبعة دار الكتب

وخاصة قربهم من أهل فارس ماشحذ هممهم للاستفادة من هـذا القرب ومن موقع مصرهم ، فاتجهوا نحو التجارة ، وكان استعدادهم الفطرى لها من أسباب نجاحهم فى تملك ناصيتها ، فكانوا تجاراً أفذاذاً ، آثر بنو تميم تجارة البر ، وركب الأزد البحر ، وأخذوا جميعاً يساهمون مساهمة فعالة فى مد العالم الإسلامى بما يحتاج إليه من مظاهر الترف والنعيم ، وسطع نجم البصرة خفاقاً وهاجاً يتلألأ فى العالم الإسلامى ، و أ كبرها الناس وسموها قبة الإسلام [١] .

غلبت على أهل البصرة منذ فجر تاريخها مهنة التجارة ، وكيفت حياتهم طبقاً لمقتضياتها ، فأنشأوا الطرق التجارية ، وأقاموا علاقات حسنة مع الذين اتجروا معهم من البلاد الأجنبية ، فأ كسبهم هـذا تسامحاً جعلهم ينظرون إلى غيرهم من الأجناس الأخرى ، نظرة فيها كثير من التسامح ، هذا التطور فى أهل البصرة أغرى غير العرب ، وخاصة الذين كانوا من أهل فارس ، أن يتخذوا المصر موطناً لهم ، ولم يجدوا من أهله العرب ، مايحد من حريتهم أو يقيدهم بأى قيد ، سوى شرط العرب عليهم ألا يتدخلوا فيما بين العرب من منافسات قبلية ؛ انخرط هؤلاء القادمون فى سلك المجتمع على أنهم أعضاء فيه ، يعنيهم رقيه وثراؤه ، وكان أهم هؤلاء الوافدين من فارس قبيلتين ، إحداهما تعرف بالأساوره والأخرى بالسيابجه ، أولئك الذين جعلهم أهل البصرة قوامين على بيت المال [٢] . عاش الفارسى إلى جانب العربى فى البصرة يكلؤهم دين الإسلام ، ويرعاهم جميعاً روح اجتماعى يمتاز بالسماحة ، وظهرت أسماء مركبة من اللغتين الفارسية والعربية ، مثل عبادان ، وهى ثغر البصرة الوضاح ، وهزار دار وزيادان وحفصان وغير ذلك من أسماء القصور والترع والجهات تصور هذا المزيج الاجتماعى ، الذى احتوته البصرة ، وتطلع

---

(١) الثعالبى ثمار القلوب ص ١٢٨ القاهرة سنة ١٩٠٨

(٢) البلاذى — البلدان ص ٣٦٩ القاهرة سنة ١٩٣٢

هؤلاء الوافدون إلى الثراء فلم يجدوا عقبة تحول بينهم و بين مايؤملون ، ولمعت أسماء أثرياء من أصل فارسى ، عاشوا فى القصور يرفلون فى الدمقس والحرير ، و يسرد لنا البلاذرى أسماء بعضهم وهم عثمان بن مرة ، فيروز ، حصين ، التمار ، حمران . هذا التطور فى حياة عرب البصرة ، وهذه الروح الاجتماعية التى سيطرت على أهل المصر رفعت الاعتزاز بالثراء إلى المقام الأول فى الحياة الاجتماعية ، وحطّت من قدر الفخر بالنسب والقربى ، وهى الأوضاع التى ألفتها العرب ، إلى مقام دون الثراء [1] .

أحس البصريون أن حياتهم التجارية تفرض عليهم أن يعيش المصر فى أمن داخلى بعيداً عن التقلقل والاضطراب ، اللذين يفسدان أمر التجارة . وكان إحساسهم هذا يبدو واضحاً حين تتجمع فى الأفق نذر الشر ؛ يتقدم كبارهم للقبض على زمام الأمور بيد قوية ، و يعالجون الموقف بما يستحقه من حكمة وكياسة ، فلا تلبث هذه السحب التى تجمعت أن تتبدد و يستعيد المصر سيرته الأولى ، و يمدنا تاريخ البصرة بالدليل ، فنرى زياداً قد حوّل المنبر و بيوت الأموال والدواوين إلى الأزد ، ولم تحدث ثورة على صنيعه هذا ، ولم تجد تميم فيه مايستفزها لتعلن العصيان ، بل مضى الأمر فى سلام وسكينة ، ونرى الأمور تضطرب بعد موت يزيد بن معاوية ، و يضطر عبيد الله بن زياد أن يختفى و يلجأ إلى مسعود كبير ربيعة ، فيكشر الشر عن أنيابه ، و ينطلق الحزبان ربيعة وحلفاؤهم الأزد يتحفزون لقتال تميم ومن معهم ، فينهض الأحنف بن قيس زعيم تميم ، و يتقدم إلى الميدان ملوحاً بغصن الزيتون ، و يعالج الحالة بمهارة فائقة ، و يستطيع أن يهدىء من ثورة النفوس ، و ينجح فى أن تغمد السيوف ، و يلقى على خصمه درساً رائعاً فى خطاب له ، يذكر فيه « يامعشر الأزد وربيعة : أنتم إخواننا فى الدين ، وشركاؤنا فى الصهر ، وأشقاؤنا فى النسب ، وجيراننا فى الدار ، و يدنا على العدو ، والله لأزد البصرة أحب إلينا من تميم الكوفة ولأزد الكوفة أحب

(١) راجع العقد الفريد ج ٣ ص ٢٧٩ و ص ٢٨٠ بولاق

إلينا من تميم الشام ، فإن استشرف شنآنكم وأبى حسد صدوركم ، ففى أموالنا وسعة أحلامنا لنا ولكم سعة (١) » ؛ ونتأمل أهل البصرة إبان اضطراب الأمر بين السفيانيين والمروانيين فنجدهم لا يتركون بلدهم دون وال يدبر أمورهم ، ويشرف على الأمن والنظام فيه ، نراهم يجتمعون ويولون عليهم المعروف بببّة ، واسمه عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب القرشى . الذى يصفه الفرزدق بقوله :

تحمل أعباء الرعية ماجد قريع قريش بين حرب وحارث

وأقاموه لأنه رجل كان صالحاً ناسكا ، ولكنه لم يكد يجلس على كرسى الأمارة حتى أبت نفسه أن يجارى مطالب الإمارة ، فاعتزل ، فأقاموا مكانه عبيد الله بن عبيد الله بن معمر التيمى : الذى ظل يدبر أمور البصرة حتى أرسل إليها ابن الزبير الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة المخزومى (٢) ونتأملهم أيضاً بعد مقتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك وهرب عامله القاسم بن محمد ، الذى أقامه يوسف بن عمر نائباً عنه ، يصطلحون على إقامة المعروف بالقباع ، وهو الحارث ابن عبد الله بن أبى ربيعة مرة ثانية ؛ هذا الوضع الذى أقامه أهل البصرة لمصرهم جعلهم فى مقدمة العالم الإسلامى ثراء وحضارة ، وأخمد فيما بينهم العصبية القبلية التى أقامت الأحزاب وزعزعت الأمن فى غير البصرة من الأمصار .

كانت الرغبة فى المحافظة على الأمن فى البصرة فياضة غلابة ، جعلت أهل المصر يستقبلون طلحة والزبير دون مقاومة ، وجعلتهم يقبلون الأمر الواقع بعد غلبتهم فى واقعة الجمل ، ولا يركبون رؤوسهم فيثورون على مافرض عليهم من حكم عليّ رضى الله عنه ، سمعوا وأطاعوا لحكم عليّ رضى الله عنه ، على الرغم من كثرة قتلاهم فى حرب الجمل ، لا يضمرون له وثبة عليه ، ولا يتآمرون على قلب نظم

---

(١) الجاحظ البيان والتبيين ج ٢ ص ٦٨ القاهرة سنة ١٣٣٢ ﻫ

(٢) راجع أنساب الأشراف للبلاذرى القسم الثانى من الجزء الرابع ص ١٠٠ و١٢٣ طبع فلسطين سنة ١٩٣٨ والثعالبى لطائف المعارف ص ٢٧ سنة ١٨٦٧

الحكم ، استكانوا لحكمه ، لا يعنيهم إلا أن يكون الأمن مستتباً ، واستقبلوا مصعب بن الزبير فى فترة اضطربت فيها أمور الخلافة ، فوجدوا فيه الرجل الصلب الجلد ، فأعطوه الطاعة والولاء ، وقام هو بتدبير الأمور ، فكان جديراً بحسن الظن فيه . هذا وليس هناك أدل على رغبة أهل البصرة لاستتباب الأمن من موقفهم إزاء الخوارج ، فقد فزعوا إلى زعيم مصرهم الأحنف بن قيس كبير تميم يبثونه رغبتهم فى القضاء على الخوارج ، فلم تحل النزعة القبلية أن يشير عليهم برجل الموقف المهلب بن أبى صفرة كبير الأزد ، الذى قبل المهمة الشاقة التى ألقيت على عاتقه ، فظل هو وولده من بعده يتجردون لحرب الخوارج ويكيدون لهم حتى استطاعوا بشق النفس أن يتغلبوا على هذا الخطر الداهم ، الذى شقيت الدولة فى القضاء عليه ؛ ظلت البصرة تحتفظ بوحدتها السياسية طوال العصر الأموى تقريباً ، لا يصدها عن ذلك عارض عرض ، أو سفيه ركب رأسه ، ولم يكن للنزعة القبلية من سبيل تنفذ إليه لتفسد الأمور ، حتى إذا ماأشرف الحكم الأموى على نهايته تجلت هذه النزعة على لسان شعراء ، أرادوا بإثارتها أن يثيروا الغبار ، ويحيوا الأحقاد ، وهؤلاء الشعراء كانوا من الموالى الذين أضلهم الشيطان فسعوا سعيه ، ولكنهم باءوا بفشل ذريع ، وسنرى ذلك فيما بعد ، لأن المجتمع البصرى على الرغم مماساده من اضطراب ونزعات ، مالبث أن استرد نزعته التقليدية ، واستعادت الحياة سيرتها الأولى .

أملى الجنوح إلى السلام والميل إلى استتباب الأمن فى البصرة رغبة قوية فى الابتعاد عن الأمور السياسية التى رأوها تفسد مابين الكوفة ودمشق ، وتجعل الكوفة مركزاً للمعارضة ، وهدفاً للاضطهاد السياسى ، وموضعاً للرقابة الحكومية ، أرادوا بهذا البعد عن مشكلات الساعة التى اضطربت لها حياة المسلمين ، أن يخلصوا مصرهم من عسف رجال الدولة ، ويحرروا أنفسهم من الأوزار السياسية ، حتى لاتوضع العقبات فى سبيلهم وأمام تجارتهم ومطامعهم فى الحياة ، ونجحوا

فى ذلك حتى قيل « وأما البصرة فعثمانيــة تدين بالـكف وتقول كن عبد الله المقتول ولا تــكن عبد الله القاتل[١] ، يريدون كن المجنى عليك ولا تــكن الجانى ، وفى هذا دليل على رغبتهم فى السلام وعدم الاعتداء ، ويبدو أن هذا المعنى الذى رأيناه يتعارض مع قول الأصمعى « البصرة كلها عثمانية والـكوفة كلها علوية والشام كلها أموية والجزيرة خارجية والحجاز سنية . وإنما صارت البصرة عثمانية من يوم الجمل إذ قاموا مع عائشة وطلحة والزبير فقتلهم علي بن أبى طالب رضى الله عنه[٢] » ، ولـكنّ المدقق لايرى تعارضا بل تأييداً ، وذلك أن الاصمعى جعل البصرة عثمانية ، وجعل الشام أموية ، ولو كانا متحدين فى العقيدة السياسية ، لما كان هناك داع إلى إختلاف فى الوصف إذا كانا فى معسكر واحد ، ويؤيد هذا أنه يفسر قوله بأن البصرة أصبحت عثمانية بقوله بعد موقعة الجمل ، أى أنها لا تميل إلى علي رضى الله عنه ، ومن الاسراف أن يفسر عدم رضاها عن علىّ بالميل إلى أهل الشام ، ذلك لأن عدم الرضا عن علىّ ليس دليلا للميل إلى الخصم ، والتفسير السليم أنهم وقفوا موقفاً سلبياً ، وهو تفسير تدينهم بالـكف ، ولولا موقعة الجمل لـكان من الجائز أن يكون هواهم مع علىّ رضى الله عنه ، شأنهم فى ذلك شأن إخوانهم الـكوفيين ، وتاريخ البصرة يؤيد أنهم كانوا مسالمين ، يبغون الحياد فى هذا النزاع الذى نشب بين الـكوفة ودمشق ، وقامت المرجئة تصيغ هذه الرغبة فى منطق يستمد أسسه من تعاليم الدين ، فقالوا نحن لا نستطيع أن نحكم على هذا النزاع ولا أن نتبع أى فريق ، لأنا لانستطيع القول بأنّ قرآنا نزل يفصل فى النزاع حول عثمان وعلىّ رضى الله عنهما ، ونحن نعتقد أن كليهما عبد الله آمن بربه ، وأنه يلاقيه ويحاسبه على ما قدمت يداه[٣] ، رضى الأمويون

(١) ابن قتيبة عيون الأخبار ج ١ ص ٢٠٤ دار الـكتب

(٢) ابن عبد ربه العقد الفريد ج ٣ ص ٣٥٩ بولاق

(٣) فلهوزن — مملـكة الإسـلام هامش ص ٣١٧ ترجمة مارجريت جراهام ور — كلـكتا سنة ١٩٢٧

بمسلكهم ، وسخط الكوفيون لأنهم فى حاجة إلى أنصار ، وعلى أية حال استطاع البصريون بحيادهم أن يتجنبوا النزاع ، ويعنوا بأمورهم الداخلية ، ويعتبر ظهور المرجئة منذ تاريخ البصرة المبكر صدى لما يتجاوب من رغبة أهلها فى الحياد ، وحاجتهم إلى الدفاع عنه بمنطق الدين ، ليقوم على أساس مقبول .

أخذت حياة عرب البصرة تتطور نحو التحضر ، وصاحب ذلك تطور آخر لا يقل عنه خطراً ، ويعنينا فى بحثنا هذا عناية خاصة ، ألا وهو الأثر الذى تركه تدفق الثروة ، وما تبعه من ترف ونعيم ورغبة فى امتاع النفوس بالشهوات ، امتاعاً تمليه الغريزة ويحض عليه الترف ، ثم ميل إلى اللهو والعبث ، ظهر كل ذلك منذ فجر تاريخ البصرة ، وترامى إلى أذن الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأفزعه ، وندب أبا موسى الأشعرى قائلا له « إنى أريد أن أبعثك إلى بلد قد عشعش فيه الشيطان[1] » ، وأفزع زياداً حين جلس على كرسى الإمارة فيها ، فألقى عليهم خطاباً ينذرهم فيه ويهددهم ، ويذكر فيه عجبه منهم قائلا « كأنكم لم تقرأوا كتاب الله ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب » وواصفاً لهم بقوله « ليس منكم إلا من طرفت عينه الدنيا وسدت مسامعه الشهوات واختار الفانية على الباقية » وأقسم يميناً أشهد الله على نفسه ، لتبطلن هذه المخازى أو ليفعلن بهم وليفعلن إذا لم يكفوا عن الإثم ، ويقلعوا عن غيهم وضلالهم ، ونجح زياد نجاحاً باهراً فى وقف هذا التيار الآثم ، ولكنهم ما كادوا يحسون بعده أن يد الأمير عليهم رفيقة حتى عادوا إلى غيهم يعمهون ، شربوا الخمر وارتكبوا الإثم ، فكتب عمر ابن عبد العزيز رضى الله عنه إلى واليهم عدى بن أرطاة ، حين تتابعت عليه الأخبار وتتابع الناس فى الأشربة المسكرة على التأويل قائلا « أما بعد فإنه قد كان من أمر هذا الشراب أمر ساءت فيه رغبة الناس حتى بلغت بهم الدم الحلال

---

(١) البلاذرى فتوح البلدان ص ٣٤٠ القاهرة ١٩٣٢

والمال الحرام والفرج الحرام وهم يقولون شربنا شراباً لا بأس به وإن شراباً حمل الناس على هذا لبأس شديد وإثم عظيم وقد جعل الله عنه مندوحة وسعة من أشربة كثيرة . . . . »[١] ، وتعاون الحسن البصرى مع هذا الوالى على القضاء على هذا الإثم ، ولكنهما لم يستطيعا أن يجتثا الفساد من جذوره ، فمضى التيار فى مجراه ولكن فى رفق وريث ، على أن هذه الرغبة فى اللهو لم تكن عن قصد فى تحدى تعاليم دين الإسلام ، أو اتباعاً لمذهب من المذاهب الأباحية التى عاشت فى بلاد فارس ، وإنما كان شيئاً انحرفوا إليه لداعى الترف ، وخضوعاً لنداء الغريزة ، وعدوى من بنى مصرهم الذين كانوا من أصل فارسى ، لم يكن هذا اللهو والعبث البصرى يلتمس لعقيدة كالكوفيين ، ولذلك لم يطبعهم بهذا الطابع الثقيل الذى لون وجوه الكوفيين ، وإنما خلق جواً من المرح المحبب ، ودعاهم إلى الفكاهة ينقدون فى إطارها مالا يرضيهم ، أو يرون فيه خروجاً عن المألوف ، وهذا يتبين فيما أثر عنهم ، رأوا أبا موسى الأشعرى يتزوج ابنة رجل فقير اسمه الدمون ، ونظروا إلى الزواج أنه ينقلها من حياة البؤس والفاقة إلى بسطة العيش ، فقالوا « الرفاء والبنون وخبز وكمون فى بيت الدمون » ، وأراد زياد حين رأى المصلين يمسحون وجوههم بعد رفع رؤوسهم من السجود لإزالة التراب ، أن يغطى صحن المسجد بالحصى ، حتى لا يظن أن مسح الوجوه سنة من سنن الصلاة فى المسجد ، فأقام عليهم قيما يراقب وضع طبقة من الحجارة فوق التراب ، وتعسف هذا القيم وأراد منهم نوعاً خاصاً من الحجارة ، فسخروا منه وقالوا « حبذا الأمارة ولو على الحجارة » وضايق زياد شطارهم ، وأخذ على أيديهم ، فسموا قصره « قصر النواهق[٢] » . عرف البصريون بهذا اللون من الفكاهة ، ودعاهم ذلك

---

(١) ابن قتيبة الأشربة ص ٣٧ دمشق سنة ١٩٤٧

(٢) البلادرى فتوح البلدان ص ٣٤٨ وص ٢٧٦ وص ٣٤٣ وص ٣٥٠ القاهرة سنة ١٩٣٢

أن يلقبوا أمراءهم بلقب فكاهي ، فأطلقوا على عبد الله بن الحارث القرشي « ببه » لأن أمه فيما زعموا ـ كانت ترقصه بهذه الكلمة ، وجاءهم مصعب بن الزبير وكان يعلم فيهم هذه الخصلة ، وخشي أن يصير موضع الفكاهة ، فقال لهم في خطابه الذي بدأ به حكمه « قد لهجتم بتلقيب أمرائكم فلقبوني الجزار » ، ولم يكن يعني إلا التهديد ، لأنه ثنى بأنه عزم على قتل من يلقبه ، ولقبوا الحارث ابن عبد الله بن أبي ربيعة « القباع » لما نظر يوماً إلى مكيال من مكاييل البصرة وقال « إن مكيالكم هذا لقباع يعني أنه واسع [١] » .

كانت هذه الدعابة تصور روحاً حلوة ، وطابعها لاينبو عن الذوق ، وظلت محتفظة بهذا الطابع طوال العصر الأموي تقريباً ، حتى تغيرت في العصر العباسي بخاصة ، بتجاوزها الدائرة التي كانت تتوجه إليها وتعمل فيها .

كانت البصرة ملتقى التجارات والتجار ، ويفد إليها من الأجانب الكثيرون ، واستوطنها كثير من أجناس شتى ، منهم من جاءها مهاجراً من أرض فارس ، ومنهم من أُتي بهم أسرى حرب ، ومنهم من اشترى بالمال كزنوج أفريقية ، الذين عملوا في نقل السباخ ، ووضعوا في الضياع لتولي شئون الزراعة ، وكان أهم هذه الجاليات الأجنبية الجاليتان الفارسية والهندية ، أما الفارسية فكان أثرها في الأخلاق والعادات واضحاً وقوياً ، يدلنا على ذلك قول أبي عمرو ابن العلاء يخاطب الكوفيين « لكم حذلقة النبط وصلفهم ولنا دهاء فارس وأحلامهم [٢] » .

أما الجالية الهندية وهم جلب السند أو أسرى الحرب ، فقد استخدمهم

---

(١) الطبري سنة ٧٦ ص ٧١٧ طبع أوروبا ـ الثعالبي لطائف المعارف ص ٢٧ و٢٨ سنة ١٨٦٧

(٢) الجاحظ البيان والتبين ٢ ص ٥٣ سنة ١٣٣٢ هـ

البصريون رعاة على أموالهم ، وقواماً على أكيستهم ، وكانت المرأة السندية أحب النساء إلى البصرى ، ومن الخير أن نفرد لهذا الموضوع كلمة خاصة .

« التطور الفكرى والثقافى »

ليس من شأن هذا البحث أن يفصل الحديث عن التطور الفكرى والثقافى ، فهو موضوع طويل يتناول كثيراً من المسائل التى لاتعنينا فى بحثنا هذا ، ويكفينا فى هذا المجال عرض سريع ، أو تقديم صورة خاطفة تبين التيارات الأجنبية التى كانت تغذى المجتمع ، فينتقل من خطوة إلى أخرى .

يظن كثيرون أن نظرية التشيع كانت وحدها الوسيلة التى كانت فى حياة المسلمين ، والتى فتحت الباب على مصراعيه ، للتأثر بآراء وأفكار أجنبية ، و يرى البعض الآخر أن اختلاط العرب بغيرهم كان الأداة البى مزقت الحجاب وفتحت الآفاق أمام عقول المسلمين ، والحق إن كلا النظريتين صحيحة ، وذلك حين ننظر إلى أولاهما فى الـكوفة ، و إلى الثانية فى البصرة ، ويجب ألا يغيب عن بالنا ، أن لـكل مصر من الأمصار ظروفه التى كيفت حياته ، وأملت عليه النهج الذى سلـكه فى حياته ، فلا ينبغى التعميم ، ومن الإسراف أن ننكر واحدة ونقر أخرى ، دون أن تنهض الأدلة فتعزز وجهة النظر ، وهذا واجب بل لا مناص منه حين ننظر فى حياة المسلمين الأوائل .

كان اختلاط البصريين من العرب بغيرهم من الأجناس الأخرى ملحوظاً منذ فجر تاريخ البصرة بفضل التجارة ، وتحدث النقلة عن هجرة أقوام من أرض فارس إليها وخاصة الأساورة والسيابجه ، ويدل تاريخ المصر على أن من الفريق الأول لمعت أسماء رجال منهم فى سماء البصرة ، فى الحديث والقصص والتفسير كموسى بن سيار الأسوارى وغيره ، حكى عنه الجاحظ فقـال « إنه كان من

أعاجيب الدنيا ، كانت فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية وكان يجلس فى مجلسه المشهور به فيقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره فيقرأ الآية من كتاب الله و يفسرها للعرب بالعربية ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية فلا يدرى بأى لسان هو أبين »[١] ، ويظهر أن الفرس فى البصرة عُنوا بالناحية البيانية فى نشر ثقافتهم ، لأننا نرى الجاحظ يقول « وجملة القول أنا لانعرف الخطب إلا للعرب والفرس[٢] » ، على أن الباحث يجدهم يحملون لوناً آخر من الثقافة ، فقد قيل إن بشر بن مروان بن الحكم الذى كان والياً على الكوفة والبصرة ، قد شخص إلى البصرة لمرضه وشرب الأذريطوس[٣] ، وهو دواء حملوه معهم من بلادهم ،عرفوه من حكماء اليونان الذين أقاموا بين ظهرانيهم، وقيل إن عمر بن أبى ربيعة ذهب إلى البصرة لعلاج أسنانه[٤] ، هذا فى الطب أما فى الفنون ، فقد قيل إن جوانويه وكان مجوسياً فإنه كان يستقبل عنده المغنين من الفرس[٥] .

كانت شخصية الفارسيين ومن هم من أهل فارس واضحة فى الحياة الاجتماعية، وكانوا يحتفظون بلسانهم و إن عرفوا العربية ، يدلنا على ذلك ماقيل فى عبيد الله ابن زياد ، أن كان فى لسانه لكنة ، لأنه نشأ فى الأساورة مع أمه مرجانه ، وكان زياد تزوجها من شيرويه الأسوارى[٦] ، اندمج هؤلاء الناس فى المجتمع ،

---

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ١٩٦ القاهرة سنة ١٣٣٢ هـ
(٢) المصدر السابق ج ٣ ص ١٢
(٣) ابن قتيبة المعارف ص ١٨٠ طبعة أوربا سنة ١٨٥٠
(٤) الأغانى ج ١ ص ٨٩ طبعة الساسى سنة ١٣٢٣ هـ
(٥) الأغانى ج ٥ ص ٤ ط سنة ١٣٢٣
(٦) الجاحظ البيان والتبيين ج ٢ ص ١٠٩ ط ١٣٣٤ البلاذرى فتوح البلدان ص ٣٥٣ ط ١٩٣٢

ولكنهم احتفظوا بشخصيتهم الفارسية ، أسلم منهم الكثرة وشارك فى الحياة الفكرية الإسلامية ، وأخلص منهم من أخلص للاسلام ، وظل منهم من يعتز بقوميته الفارسية ، يخفى ذلك فى قرارة نفسه ، وهذا ماشجع بشاراً وعبد الله بن المقفع أن يظهرا تعصبهما ، ويتغنيا بما للفرس من ماض مجيد وثقافة ممتازة ، وسنتناول هذا الأمر بالبحث فيما بعد .

أما تأثير الهنود فى البصرة فيبدو واضحاً فى الناحية العقلية أكثر من غيرها ، وأنه بدأ فيما يبدو فى آخر القرن الأول أو فى القرن الثانى الهجرى ، وذلك لأن اتصال البصريين بأهل السند كان تاماً بعد فتح هذا الإقليم فى أواخر القرن الأول الهجرى ، وما لبث أن ظهرت آثار الفكر الهندى فى القرن الثانى فى البصرة ، يدلنا على ذلك ماروى عن بشار وأصحابه ، قال سعيد بن سلام « كان بالبصرة ستة من أصحاب الكلام عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء و بشار الأعمى وصالح بن عبد القدوس وعبد الكريم بن أبى العوجاء ورجل من الأزد قال أبو أحمد يعنى جرير بن حازم فكانوا يجتمعون فى منزل الأزدى ويختصمون عنده فأما عمرو وواصل فصارا إلى الاعتزال أما عبد الكريم وصالح فصححا التوبة أما بشار فبقى متحيراً مخلطاً وأما الأزدى فمال إلى قول السمنية وهو مذهب من مذاهب الهند و بقى ظاهره على ما كان عليه فكان عبد الكريم يفسد الأحداث فقال له عمرو ابن عبيد قد بلغنى أنك تخلو بالحدث من أحداثنا فتفسده وتدخله فى دينك فإن خرجت من مصرنا و إلا قمت فيك مقاماً آتى فيه على نفسك فلحق بالكوفة فدل عليه محمد بن سليمان فقتله وصلبه [1] » .

وهذا المجلس الذى كان يضم هؤلاء الستة ، كانت تناقش فيه العقائد،وواضح أن الأزدى كان ينصر السمنية ، وعبد الكريم الكوفى الموطن كان يعتنق أحد

---

(١) الأغانى جـ ٣ ص ٢٤و٢٥ ساسى سنة ١٣٢٣ هـ

المذاهب الكوفية المتطرفة ، و بشار ـ كما سنوضح ذلك فيما بعد ـ كان يعتنق مذاهب المتطرفين الكوفيين ، وكان عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء يدافعان عن الإسلام ، واقتحام أحد المذاهب الهندية فى هذا الوقت المبكر من القرن الثانى الهجرى ، يصور الاتصال الفكرى بين بعض البصريين و بين الهنود ، فإذا أضفنا إلى هذا مايقوله عبد القاهر البغدادى « وأما المعتزلة فإنهم وافقوا البراهمة (وهم يعترفون بوحدانية الله) فى دعاء الخواطر إلى النظر والاستدلال وفارقوهم فى أجازة بعث الرسل لغرض الدعوة (لأن البراهمة تنكر الرسل[1]) » ، استطعنا أن ندرك الصلة العقلية بين المعتزلة ومذاهب الهنود ، و إذا انتقلنا من هذا الاستنتاج إلى البحث عن الدليل ، وجدنا أبا نواس الذى قضى شبابه فى البصرة يقول : ـ

قل لزهير إذا حدا وشدا أقلل أو أكثر فأنت مهذار

سخنت من شدة البرودة حتى صرت عندى كأنك النار

لايعجب السامعون من صفتى كذلك الثلج بارد حار

ويعلق على هذا الشعر ابن قتيبة قائلا « وهذا الشعر يدل على نظره فى علم الطبائع لأن الهند تزعم أن الشىء إذا أفرط فى البرد عاد حاراً مؤذياً » و يعلق على قول أبى نواس أيضاً : ـ

تخيرت والنجوم وقف لم يتمكن بها المدار

أن الشاعر « يريد أن الخمر تخيرت حين خلق الله الفلك وأصحاب الحساب يذكرون أن الله تعالى حين خلق النجوم جعلها مجتمعة واقفة فى برج ثم سيرها من هناك وأنها لاتزال جارية حتى تجتمع فى ذلك البرج الذى ابتدأها منه و إذا عادت إليه قامت القيامة و بطل العالم والهند تقول أنه فى زمان نوح اجتمعت فى الحوت إلا يسيراً منها فهلك الخلق بالطوفان و بقى منهم بقدر مابقى منها خارجاً

(١) أصول الدين ص ٢٦ استانبول سنة ١٩٢٨

عن الحوت[١] » ، ويتضح من هذا كله أن علوم الهند و بعض معتقداتها كان لها نصيب فى عقول البصريين المثقفين ، تأثروا بها واستفادوا منها ، تلك الاستفادة التى جعلت البيرونى يقول « ومن الممكن أن يكون الخليل بن أحمد سمع أن للهند موازين فى الأشعار كما ظن به بعض الناس[٢] » ، لم يكن الهنود ذا أثر واضح فى الناحية العقلية فحسب و إنما كان لهم فى الطب قدم وأى قدم جعل العرب يشيدون بهم ، و بدأت هذه الشهرة فى البصرة حين استطاع أحدهم أن يفعل دواء عجيباً له فعل السحر فى البرء ، قال الثعالبى فى شرح أصفر سليم « كان سليم صيد لانيا فى البصرة وقد عجن دواء أصفر لكل ماشرب له فكان يشتق به كل مبرود ومحرور فصار مثلا فى البركة وحسن الموقع[٣] » ، وابن قتيبة يحدثنا عن سليم هذا فيقول « كان لعبيد الله بن أبى بكرة ثلاثة وكلاء يقال لهم سليم الناصح وسليم الغاش وسليم الساحر وهذا هو الذى عمل أصفر سليم[٤] » ومعنى هذا أن سليما هذا قد عاش فى البصرة فى أوائل القرن الثانى الهجرى ، ويجمل لنا الجاحظ و يعطينا قائمة بالعلوم الهندية التى فشت فيقول « وقد تعلمون مافى الهند من الحساب وعلم النجوم وأسرار الطب والخرط والنجر والتصاوير والصناعات الكثيرة العجيبة[٥] » ، من كل هذا يتبين أن أثر الهنود فى التوجيه الفكرى كان له شأن هام فى تاريخ التطور الفكرى والثقافى لأهل البصرة .

حارب الحسن البصرى رحمه الله هذين التيارين الآتيين من تأثير الفرس

---

(١) طبقات الشعراء ص ٥٠٦و٥٠٤ طبع أوروبا .

(٢) تحقيق ما للهند ص ٧٩ لندن سنة ١٨٨٧

(٣) ثمار القلوب ص ١١٩ ج ١ القاهرة سنة ١٩٠٨

(٤) المعارف ص ٢٩٩ جوتنجن سنة ١٨٥٠

(٥) رسالة فخر السودان ضمن مجموعة رسائل ص ٧٣ طبعة الساسى القاهرة سنة ١٣٢٤ هـ

والهنود ، وحذر مواطنيه منهما ، وظل يعمل جاهداً فى هذا السبيل ، حتى انتقل إلى جوار ربه ، أما تحذيره البصريين من عدوى الفارسيين فيتبين فى قوله : ما أكثر الراغبين عن سنة نبى الله وما أكثر الراغبين التاركين لها ثم إن علوجاً فساقاً أكلة ربا وغلول قد سفههم ربى عز وجل ومقتهم زعموا أن لابأس عليهم فيما أكلوا وشربوا وستروا البيوت وزخرفوها ويقولون من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ويذهبون بها إلى غير ماذهب الله تعالى بها إليه » ، ويتبين فى أقواله التى تدعو إلى التقشف والزهد تلك التى حملت المتصوفة أن يجعلوه رأسهم ، أنه كان يحاول جاهداً أن يثنى قومه عما هم فيه من ترف وميل إلى لذات الحياة ؛ أما صراعه لهذه الأفكار غير الإسلامية التى جاء بها الهنود وغيرهم فيظهر فى قوله « رحم الله امرأ عرف ثم صبر ثم أبصر فبصر فإن أقواماً عرفوا فانتزع الجزع أبصارهم فلاهم أدركوا ماطلبوا ولا هم رجعوا إلى ماتركوا . اتقوا هذه الأهواء المضلة البعيدة من الله التى جماعها الضلالة وميعادها النار لهم محنة من أصابها أضلته ومن أصابته قتلته[1] » ، وإشارته إلى الأهواء المضلة التى تنتهى بصاحبها إلى الضلال والنار وتحذيره الناس يرجح أن يكون قد قصد بها الآراء الهندية ، التى ذكرنا الدلائل على وجودها فى البصرة ، وعلى أنها جعلت الأزدى يميل إلى السمنية .

خرج الحسن البصرى من الدنيا إلى ملاقاة ربه ، وترك خلفه المعتزلة يحملون اللواء ، وموضع الحديث عن ذلك سيكون فيما بعد .

كانت الحياة فى البصرة تدعو إلى نشاط العقل وإلى نموه واتساع أفقه ، نشأت فرقة المرجئة ويصفها صاحب فجر الإسلام فيقول[2] « نشأت المرجئة لما

---

(١) أبو نعيم الأصبهانى حلية الأولياء جـ ٢ ص ١٥٣ وص ١٤٥ ط القاهرة سنة ١٩٣٢

(٢) فجر الإسلام ص ٣٣٤ القاهرة سنة ١٩٢٨

رأت الخوارج يكفرون علياً وعثمان والقائلين بالتحكيم ، ورأت الشيعة يكفرون أبا بكر وعمر وعثمان ومن ناصرهم[1] وكلاهما يكفر الأمويين ويلعنهم والأمويون يقاتلونهم ، ويرون أنهم مبطلون . وكل طائفة تدعى أنها على الحق وأنها وحدها على الحق ، وأن من عداها كافر وفى ضلال مبين ، فظهرت المرجئة تسالم الجميع ، ولا تكفر طائفة منهم وتقول : إن الفرق الثلاث . الخوارج والشيعة والأمويين . مؤمنون وبعضهم مخطىء وبعضهم مصيب ، ولسنا نستطيع أن نعين المصيب ، فلنترك أمرهم جميعاً إلى الله . ومن هؤلاء بنو أمية ، فهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فليسوا إذن كفاراً ولا مشركين بل مسلمين نرجىء أمرهم إلى الله الذى يعرف سرائر الناس ويحاسبهم عليها ، وينتج من هذا أن موقفهم إزاء حكم الأمويين موقف تأييد ، ولكنه تأييد سلبى لا إيجابى » .

تطور هذا المذهب فى البصرة ، وانتقل من تأييد لنزعة البصريين الراغبين فى الوقوف على الحياد فى النزاع القائم بين الأحزاب الإسلامية ، إلى ما تقتضيه طبيعة العقل النامى من نزعة نحو تكييف أو تلوين المذهب لطبيعة هذا العقل ، فأخذ المرجئون يبحثون فى جو الفكرة المستقر بحثاً نظرياً ، أعنى دون أن يحيدوا عن الصراط المرسوم وهو الكتاب والسنة ، وفى ذلك يقول أستاذنا أحمد أمين : « إن الإرجاء تطور . وأصبح بعد يبحث فى أمور لاهوتية ، وكانت نتيجة بحثهم تتفق ورأيهم السياسى ، فأهم ما بحثوا فيه : تحديد الإيمان والكفر ، والمؤمن والكافر .... وكانت النتيجة الطبيعية أن يعرض على بساط البحث : ما الكفر وما الإيمان ؟ فرأى كثير من المرجئة أن الإيمان هو المعرفة بالله ورسوله .... فمن آمن بالله ورسله وترك الفرائض وارتكب شيئاً من الكبائر ، كان مؤمناً عند

(١) لم تكن الشيعة فى أول أمرهم يكفرون أحداً وإنما كانوا يسخطون على خصومهم كما سبق أن أبنا

المرجئة . . . . بل غلا بعض المرجئة (وهذا كان فى العصر العباسى) أكثر من ذلك فقالوا : إن الإيمان الاعتقاد بالقلب ، وإن أعلن الكفر بلسانه وعبد الأوثان أو لزم اليهودية والنصرانية فى دار الإسلام وعبد الصليب وأعلن التثليث فى دار الإسلام ، ومات على ذلك فهو مؤمن كامل الإيمان عند الله عز وجل ، ولى لله عز وجل من أهل الجنة »[١] .

كان إلى جوار المرجئين طائفة المحدثين ، وهم جميعاً إذا بحثوا فى مسألة لم ينظروا إلا إلى الكتاب والسنة ، وأسقطوا البحث النظرى من حسابهم ، ومع ذلك فقد كانوا يتميزون بخصلة تفردهم لنا عن غيرهم ، وتلك هى نظرتهم إلى القدر وإذا اعتبرنا الحسن البصرى[٢] مثالا لهم قدَّمنا الشهرستانى يحدثنا فيقول « فما كان الحسن ممن يخالف السلف فى أن القدر خيره وشره من الله تعالى ، فإن هذه الكلمة كالمجمع عليها عندهم[٣] » ، ويقوى ذلك لدينا ما يقوله الجاحظ من أن الجبرية ظهرت فى العراق أيام زياد بن أبيه[٤] .

نستطيع من هذا الإيجاز أن نقول إن المثقين فى البصرة كانوا طائفتين : إحداهما محافظة وهم أهل الحديث ، والأخرى تميل إلى الحرية فى التفكير وهم الذين وضعوا اللبنة الأولى فى بناء تحرير العقل فى البصرة ، ولكن يجب ألا يغيب عن البال ، أن كلا من الطائفتين تقيد بالكتاب والسنة تقيداً تاماً ، وأن ما نعنيه من الحرية العقلية إنما هو المحاولة لبحث مسائل بحثاً نظرياً فى دائرة الكتاب

---

(١) فجر الإسلام ص ٣٣٥و٣٣٦

(٢) ولد الحسن البصرى بالمدينة وظل بها حتى هاجر إلى البصرة بعد صفين بسنة ومات بالبصرة سنة ١١٠ هـ وهو ابن تسع وثمانين سنة (البلاذرى فتوح البلدان ص ٣٣٩)

(٣) الملل والنحل ص ٣٢ لندن

(٤) ثلاث رسائل ـ ذم أخلاق الكتاب ص ٤١ ط القاهرة سنة ١٩٢٦ .

والسنة ، أخذ هذا البصيص من الحرية العقلية يتطور مع الزمن محاولا أن يستكمل أداته ، حتى بدا فى الربع الأخير من القرن الأول الهجرى على لسان القدرية وفى نظريتهم المعروفة بحرية الإرادة ، تلك النظرية التى تعتبر بحق المفتاح الذى فتح الباب على مصراعيه أمام الأبحاث النظرية ، ظهرت طائفة القدرية وشاركوا فى حياة البصرة حزباً يكاد يكون مستقلا ، وانضموا إلى يزيد ابن الوليد فى خروجه على السلطان ، وكانوا فى أغلب الأحيان لا يميلون إلى بنى أمية ، وكانت حركتهم الفكرية ممهدة لظهور المعتزلة فى القرن الثانى الهجرى ، وهذا ما دعا مكدونالد أن يصف المعتزلة بأنهم ورثة القدرية ، كان ظهور القدرية تطوراً ملحوظاً أثار عليهم الشاميين ، وروى فى ذلك أن عبد الملك بن مروان كتب إلى الحسن البصرى يستفسر عن هذه النظرية ويندد بها ، وأن الحسن أجابه مؤيداً لها ومدافعاً عنها[1] ، وسواء أصحت نسبة هذين الخطابين أم لم تصح فهما يصوران لنا أمرين مهمين :

---

(١) نشر هذين الخطابين فون هـ . ر يترفى مجلة Der Islam فى المجلد الثانى والعشرين الجزء الاول ـ برلين يونيه سنة ١٩٣٣ . وكتب جوليان أوبرمان بحثا يعتمد على هذين الخطابين فى مجلة American Oriental Society - Political Theology in Early Islam, vol. 55., PP. 138 - 162

لم يحاول فيه الباحث أن يدرس صحة نسبة الخطابين إلى صاحبيهما ويبدو لى أن هذا الخطاب ـ وهو بيان صادق لنظرية القدرية ـ منحول على الحسن البصرى ويعترينا الشك فى نسبته إليه شكا قويا للأسباب الأتية : ـ

١ ـ لم يشر المعاصرون للحسن البصرى إلى أنه قد كتب إلى عبد الملك بن مروان يؤيد نظرية القدر ، وكتاب كهذا يصدر منه لا يعقل أن يغفل أمره أو يشتهر فلا يعرفه إلا المتأخرون ، والشهرستانى حين يشير إلى هذا الخطاب يظهر شكه فى نسبته إلى الحسن قائلا « ورأينا رسالة نسبت إلى الحسن البصرى كتبها إلى عبد الملك بن مروان وقد سأله عن القول بالقدر والجبر فأجابه عما يوافق مذهب القدرية واستدل فيها بآيات من الكتاب ودلائل من العقل ولعلها لواصل بن =

١ ـ أحدهما : أن تطوراً عقلياً حدث فى البصرة عُدَّ خروجا على المألوف ، وأن هذا التطور يتمثل فى القدرية القائلين بحرية الإرادة .

٢ ـ أما ثانيهما : فإن هذا التطور لم يحدث نزاعاً أو معارضة جدية فى البصرة وأن أهلها كانوا مستعدين لهذا التطور من الناحية العقلية فلم يثر سخطهم كما أثار الشاميين .

.

= عطاء فما كان الحسن ممن يخالف السلف فى أن القدر خيره وشره من الله تعالى فإن هذه الكلمة كالمجمع عليها عندهم (الملل والنحل ص ٣٢ طبعة لندن) .

٢ ـ فى أسلوب الخطاب استعمال لكلمة المشيئة على نحو اصطلاحى لم يعرف إلا بعد زمن الحسن كما يتضح من العبارة الآتية « لم نكن لنشاء الخير إلا أن يشاء لنا فمن مشيئته لنا قبل أن نشاء أن دلنا عليه » .

٣ ـ لغة الخطاب ليست هى اللغة التى عرفت عن الحسن البصرى والتى يذكر ابن سعد فى طبقاته (ج ٧ ص ١٢١ ليدن) أنها تشبه لغة رؤبة والتى نراها فى كلمات الزهد والنصح التى وصلت إلينا

الباب الثاني

الفصل الثاني

المذاهب الكوفية المتطرفة والمعتزلة

كان الاتصال بين الكوفة والبصرة مباحاً لا عائق يقف فى سبيله ولا قيود تحد منه ، وكان الكوفيون والبصريون كثيراً ما يتزاملون فى ميادين الغزو ، وكانت التجارة حافزا لأهل المصرين فى أن يوجدوا الوسائل لتوثيق الصلة بينهما فأقاموا طريقا بريا يربط بين البلدين ، وأخذت قوافل الأبل تحمل البضائع تتصل رحلاتها بين البصرة والكوفة ، ولم يقنع أهل المصرين بهذا الطريق البرى وحده كوسيلة تربط بينهما ، فاتخذوا من الفرات طريقا مائيا تسير فيه المراكب والزواريق ، وكانت النهضة التجارية والصناعية فى البلدين تتطلب منهما أن تنشط حركة الأخذ والعطاء بينهما ، فلم يقصروا فى ذلك ، وكانت البصرة وهى تطل بضاحيتها عبادان على الخليج الفارسى – منفذ الكوفة إلى البحر ، لذلك كله غدت البصرة بلدا يرتاده الكوفيون فى أى وقت يشاءون ؛ هذه الصلة بين الكوفة والبصرة أتاحت لوالبة بن الحباب أن يذهب إلى البصرة ، ويرى أبا نواس فيها ويحمله معه إلى الكوفة ، كما أتاحت لعبد الكريم بن أبى العوجاء وأمثاله وأصدقاء بشار أن يترددوا على البصرة بين حين وآخر ، ولئن كانت هذه الأسباب وحدها كافية لأن تحملنا على النظر فى بيئات البصرة الأدبية لنرى أثر التطرف الكوفى فيها : إلا أننا لا نغفل عن أمر هام ، لا يخفى ما له من شأن لا يستهان به فى حياة أهل البصرة ، ألا وهو انتقال بعض الكوفيين المتطرفين إلى البصرة ،

ليقفوا إلى جوار ابراهيم بن عبد الله بن الحسن ، الذى ظهر فى البصرة يدعو لأخيه محمد النفس الذكية ، ذهبوا إلى البصرة يفرضون سلطانهم عليها ، ويحمون الدعوة التى يقوم بها إبراهيم ، واستطاعوا بمعاونة بعض قبائل البصرة أن يتحدوا المنصور الذى كانت تشغله الثورات ، وأن تنزل البصرة على حكمهم عاما أو بعض عام ، استقر أمرهم فى هذه الفترة وكان بشار بن برد كبير شعراء البصرة يسير فى الركاب وهجا المنصور بقصيدة طويلة مطلعها :

أبا جعفر ما طول عيش بدائم ولا سالم عما قليل بسالم

تلك القصيدة التى أظهر أنه قالها هجاء فى أبى مسلم الخراسانى بعد قتل إبراهيم ابن عبد الله بن الحسن ، وغيّر فيها وحذف منها لتبدو أنها قيلت فى أبى مسلم ؛ هذه الآيات الدالة على ما كان بين الكوفيين والبصريين من صلات من شأنها أن تنقل إلى البصرة مذاهب الكوفيين المتطرفيين أو بعضها ، فتفتن من أهلها الذين فى قلوبهم مرض ، تجعلنا نقدم على دراستنا لهيئات البصرة الأدبية ، ونحن فى أمن الشك لنرى الطلاء الذى زخرفت به ، والقوالب التى صبت فيها ، وعلينا أن نحرص فى أن نسير إلى هدفنا فى حذر شديد ، حتى لانخلط بين ماهو من تأثير المذاهب الكوفية المتطرفة و بين ماهو من إيحاء غيرها ، من هذه التيارات التى كانت تتجاذب بعض البصريين ، تلك التيارات التى أشرنا إلى بعضها فى الفصل السابق ، حتى نكون على بيّنة من أمرنا ، ولا تزل بنا القدم ، فنرد إلى المذاهب الكوفية المتطرفة ما ليس لها .

نبدأ الحديث عن المعتزلة فى البصرة ، ولا جدال فى أنهم كانوا يؤلفون بيئة أدبية لها خصائصها ، ومن كبارهم من كان يضرب به المثل فى البلاغة والقدرة على البيان ، ناهيك بواصل بن عطاء الذى مكنته قدرته أن يتجنب « الراء » ، وقد كان نطقه بها عيبا فيه ، والذى مدحه بشار بن برد وعدّه أخطب من خالد بن صفوان وشبيب بن شيبة والفضل بن عيسى الرقاشى القاص المشهور ، وهم خطباء البصرة

المشهود لهم بالمكانة السامية فى درجات البلاغة والفصاحة والخطابة ، زد على ذلك أنه كان من بين اتباع المعتزلة شعراء نصبوا أنفسهم للدفاع عن هذا المذهب ، منهم صفوان الأنصارى ، الذى تعد قصيدته التى أوردها لنا الجاحظ فى البيان والتبيين وثيقة تاريخية ذات أهمية خطيرة ، ولعل أهم مااستحدثت المعتزلة فى تاريخ الأدب العربى ، هذا النوع الذى تطلبه عصرهم وهو الجدل والمناظرات .

رأى بعض القدماء أن المعتزلة يدينون بتطورهم العقلى للرافضة ، يذهبون فى ذلك إلى أن واصل بن عطاء أخذ مذهبه عن أبى هاشم عبد الله عن أبيه محمد ابن على رضى الله عنهما[١] ، ويؤيد هـذا النص الذى نشره الأستاذ ا . ج آربرى ، وقد عثر عليه فى مجموعة مخطوطة ، وهذا النص جزء سقط من المقالة الخامسة من كتاب الفهرست المطبوع لابن النديم ، وقد ورد فى هذا النص مايأتى : « قرأت بخط أبى عبد الله بن عبدوس قال أبو الحسن أحمد بن يحيى بن على بن يحيى المنجم أخبرنى أبى وأخبرنى عمى أحمد وعمى هارون قالوا حدثنا أبو يعلى زرقان واسمه محمد بن شداد صاحب أبى الهذيل قال حدثنا أبو الهذيل العلاف محمد بن الهذيل قال أخذت هـذا الذى أنا عليه من العدل والتوحيد عن عثمان الطويل وكان معلم أبى الهذيل . قال أبو الهذيل وأخبرنى عثمان أنه أخذه عن واصل بن عطاء وأن واصلاً أخذه عن أبى هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية وأن عبد الله أخذه من أبيه محمد بن الحنفية وأن محمداً أخبره أنه أخذه عن أبيه على عليه السلام وأن أباه أخذه عن رسول الله صلى الله عليـه وسلم وأن رسول الله أخبره أن جبريل نزل به عن الله جل وتعالى[٢] » ، وذهب آخرون إلى أن زيد بن على إمام الزيدية قد تلمذ لواصل بن عطاء ، وأخذ عنه الأصول ولذلك صارت الزيدية

(١) البغدادى ــ أصول الدين ص ٣٠٧ استانبول سنة ١٩٢٨ الشهرستانى . الملل والنحل ص ٣٤ لندن

(٢) Islamic Research Association Miscellary, vol. I, I.R.A. Series No. 12, 1948, P. 31.

معتزلة [١] ، وكلا هذين القولين يوحى بأن المعتزلة اتصلوا اتصالاً مباشراً بأهل الشيعة ، وأخذوا منهم مذهبهم فى العدل والتوحيد ، وندع عبد القاهر البغدادى يرد على هـذا الزعم بقوله : « وزعموا أن واصل بن عطاء الغزّال أخذ مذهبه من محمد وعبد الله ابنى على رضى الله عنه وهذا من بهتهم ، ومن العجائب أن يكون ابنا على قد علّما واصلاً رد شهادة على وطلحة والشك فى عدالة على [٢] » . والشهرستانى يقول « ويقال أخذ واصل عن أبى هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية ويقال أخذه عن الحسن بن أبى الحسن البصرى [٣] » ، فهو بذلك لايقطع بقول ولا يرجح أحدهما عن الآخر ، فلندعه إلى غيره من كتاب الفرق ، فنرى كثرتهم تجعل واصلاً تلميذاً للحسن البصرى ، و بعضهم يجعل ظهور الفرقة بعـد موت الحسن البصرى ، وجلوس قتادة مكانه ، فاعتزل عمرو بن عبيد ومن ذلك كان الاسم ، مهما تكن العلة التى كانت سبباً لإطلاق كلمة المعتزلة ، فأ كثر الرواة على أنهم كانوا ذوى اتصال مباشر بأهل الحديث فى البصرة ، يضاف إلى هـذا ما اشتهر عن واصل قوله « لو شهد على وطلحة عندى على باقة بقل لم أحكم بشهادتهما » وماأجمع عليهواصل وعمرو بن عبيد من جواز أن يكون على رضى الله عنه وأصحابه من الفسقة [٤] كل ذلك يجعلنا أميل إلى قول عبد القاهر البغدادى واستبعاد أخذ واصل مذهبه من الشيعة ، سواء أ كانوا متطرفين أم معتدلين ، وليس بعيداً أن يكون بعض الـكوفيين تتلمذوا لواصل أو لأحد من المعتزلة ، لما يحكى أن أتباع ضرار بن عمرو الـكوفى ـ وكان فى بدء أمره تلميذاً لواصل بن

---

(١) الشهرستانى ، الملل والنحل ص ١٧ و ص ١٨ لندن

(٢) أصول الدين ص ٣٠٧ استانبول سنة ١٩٢٨ .

(٣) الملل والنحل ص ٣٤ لندن .

(٤) البغدادى : أصول الدين ص ٣٣٥ مختصر الفرق بين الفرق ص ٩٩ القاهرة سنة ١٩٢٤ .

عطاء ـ كانوا معتزلة ، وافقوا ضراراً فى مخالفته واصلا فى خلق الأعمال و إنكار عذاب القبر ، وزعمه أن الإمامة لغير القرشيين أولى منها بالقرشية [١] . من الممكن أن يكون واصل أو صاحبه عمرو بن عبيد عرف شيئاً أو أشياء من الرافضة ، ولكن من المستبعد أن تكون هذه المعلومات أساساً لعقيدته ، لأن إحداهما لا تتفق مع الأخرى ، وأميل إلى القول بأن واصلا وصاحبه عمرا قد استفادا كثيراً من هذه الاجتماعات ، التى كانت تعقد فى البصرة وتتداول فيها المذاهب الدينية المختلفة من شيعية وهندية وغيرها ، وأنهما استفادا من مذاهب البراهمة على وجه خاص ، وهذا مالاحظه عبد القاهر البغدادى فى مقارنته بين مذهب المعتزلة و بين مذهب البراهمة ، وسبق أن ذكرناه ، و يقوّى هذا الظن أن واصلا رد على هذه المذاهب ودحضها ، وهو لا يستطيع أن يفعل ذلك دون معرفته لها .

بنى المعتزلة مذهبهم على أصول خمسة تفردهم عن غيرهم من الطوائف ، وجعلوا العقل حكما فى أقوالهم ، ولم يهملوا الكتاب والسنة ، و إنما جعلوهما وسيلة تمدهم بالدليل .

وهذه الأصول الخمسة هى : ـ

١ ـ القول بالتوحيد .

٢ ـ القول بالعدل .

٣ ـ القول بالوعد والوعيد .

٤ ـ القول بالمنزلة بين المنزلتين .

٥ ـ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

---

(١) الفخر الرازى : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص ٦٩ .

المعتزلة والمذاهب الكوفية المتطرفة

ولا يعنينا فى بحثنا هذا سوى قولهم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ذلك المذهب العام الذى اتخذته الزيدية وسيلة للخروج على السلطان ، واعتمدته الرافضة للانضمام إلى الثائرين على رجال الدولة .

المدقق يرى أن زيد بن علىّ قام فى الكوفة قبل ظهور واصل بن عطاء بمذهبه فى البصرة الذى خالف به القدرية ، وأن الروافض وضح أمرهم أيام زيد ابن علىّ ، وهذا يجعلنا ننظر فيما إذا كان واصل والمعتزلة اتجهوا فى قولهم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر نهج الزيدية أو الرافضة ، وذلك لأننا لانستطيع أن نجزم إن كان الأصل الخامس للمعتزلة وهو « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » ظهر مع زيد مبكراً أم بعد ظهور زيد ، وإن كانت هناك رواية تجعل زيداً تلميذاً لواصل ، فذلك لاينفى أن واصلا أخذ من زيد بعد ظهوره ، ومن الخير أن ندرس ما أراد كل منهم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وبذلك يتبين لنا الأمر . سبق أن بيّنّا أن نظر الزيدية والرافضة إلى هذا الأصل العام ، كان لجعله وسيلة للخروج على السلطان ، وتكأة لنقده وإثارة الناس عليه ، فهو عندهم فكرة ثورية أو فكرة تحض على الثورة لغاية سياسية ، ونحن نلاحظ أنه لم يكن كذلك عند المعتزلة ، ذلك لأنا لا نجد فى تاريخهم فى البصرة فى أواخر حكم بنى أمية وطوال العصر العباسى الأول ، مايدل على أنه اتخذ مطية لأغراض سياسية فى هذا العصر على نحو ما كانت الزيدية والرافضة تستخدمه لأغراضهما السياسية فى الكوفة وفى غيرها ، وهذا عمرو بن عبيد يدعى إلى الثورة على السلطان فلا يجيب ، ويسأله المنصور قائلا : « لقد بلغنى أن محمد بن عبد الله بن الحسن كتب إليك كتاباً قال (عمرو) قد جاءنى كتاب يشبه أن يكون كتابه قال بم أجبته ؟ قال (عمرو) أو ليس قد عرفت رأيى فى السيف أيام كنت تختلف إلينا ؟ إنى

لا أراه[١] » ولم يعرف عن واصل أيضاً أنه دعا إلى ثورة ، وتاريخ المعتزلة فى أول أمرهم يدل على أنهم كانوا مؤيدين للدولة العباسية ، وكان عمرو بن عبيد صديقاً لأبى جعفر المنصور ، ويقول الشهرستانى عنه أنه « والى المنصور وقال بإمامته ومدحه المنصور يوماً فقال : نثرت الحب للناس فلقطوا غير عمرو[٢] » ومن هذا ندرك أن المعتزلة لم يكونوا يعوِّلون على السيف فى دعوتهم ، وهذا يقودنا إلى القول بأن دعوتهم إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لم تكن تعتمد على القوة ، كما هو شأنها عند الروافض والزيدية .

كان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مبدءاً مقرراً عند أهل الحديث فى البصرة قبل ظهور المعتزلة ، يريدون بالعمل به إصلاح المجتمع ، معتمدين فى ذلك على قول الله تعالى فى محكم التنزيل « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » ، وتاريخ الحسن البصرى يشهد بأنه قضى شطراً طويلا من حياته يدعو البصريين إلى حياة الكرامة والشرف والدين ، ويبصرهم بمغبة الغواية والفساد ، ويرشدهم إلى تعاليم الإسلام ، ويبين لهم أن المذاهب غير الإسلامية مضلة تفسد صاحبها ، وتجعله وقوداً للنار فى الدار الآخر ، وروى لنا صاحب حلية الأولياء كثيراً من كلماته فى هذين الأمرين ، أمر البعد عن الشهوات والملذات ، وأمر تجنب الأهواء والآراء غير الإسلامية ؛ وإذا نظرنا إلى تاريخ المعتزله فى أول أمرهم لا نجدهم يهدفون إلا إلى هاتين الغايتين ، نرى واصلا يرد على الدهريين والبراهمة والثانوية وغيرهم ، ونراه هو وعمرو بن عبيد يقفان لبشار بن برد حتى اضطراه إلى الهرب من البصرة ، ولا يستطيع العودة إليها إلا بعد موت واصل ، ونرى عمرو بن عبيد يقف فى سبيل عبد الكريم بن

---

(١) الخطيب البغدادى . تاريخ بغداد ج ١٢ ص ١٦٩ .

(٢) الشهرستانى الملل والنحل ص ١٧ لندن .

أبى العوجاء ، ويثير عليه السلطان حتى يهرب إلى الكوفة ، ويُدل عليه ويقتل ويصلب ، ولقد أشاد بجهدهما صفوان الأنصارى فى قوله[١] :ـ

تلقب بالغزّال واحد عصره فمن لليتامى والقبيل المكاثر
ومن لحرورى وآخر رافض وآخر مرجى وآخر حائر
وأمر بمعروف وإنكار منكر وتحصين دين الله من كل كافر

ظل هذا شأنهم حتى عصر أبى الهذيل العلاف ، بل إلى عصر الجاحظ فى البصرة ، ويبدو أنه فى عصر أبى الهذيل كانت تستغل الرغبة فى الجدل والمناظرات فينزل إلى الميدان قوم يتقنون هذا اللون من الحديث ، ليفسدوا عقائد المسلمين ، قال أبو الهذيل العلاف « . . . . فبلغنى أن رجلا يهودياً قدم البصرة وقد قطع عامة متكلميهم فقلت لعمى امض بى إلى هذا اليهودى أكلمه فقال لى يابنى هذا اليهودى قد غلب جماعة متكلمى أهل البصرة فمن أخذك أن تكلم من لا طاقة لك بكلامه ؟ فقلت له لابد من أن تمضى بى إليه وما عليك منى غلبنى أو غلبته ؟ فأخذ بيدى ودخلنا على اليهودى فوجدته يقرر الناس الذين يكلمونه بنبوة موسى ثم يجحدهم نبوة نبينا فيقول نحن على ما اتفقنا عليه من صحة نبوة موسى إلى أن نتفق على غيره فنقر به ، قال فدخلت عليه فقلت له أسألك أو تسألنى ؟ فقال لى يابنى أو ماترى ما أفعله بمشايخك ؟ فقلت له دع عنك هـذا واختر إما أن تسألنى أو أسألك ؟ قال بل أسألك قال خبرنى أليس موسى نبياً من أنبياء الله ؟ قد صحت نبوته وثبت دليله تقر بهذا أو تجحده فتخالف صاحبك ؟ فقلت له إن الذى سألتنى عنه من أمر موسى عندى على أمرين أحدهما أنى أقر بنبوة موسى الذى أخبر بصحة نبوة نبينا وأمر باتباعه و بشر به و بنبوته فإن كان عن هذا تسألنى فأنا مقر بنبوته و إن كان موسى الذى تسألنى عنه لايقر بنبوة نبينا صلى الله عليه وسلم ولم يأمر باتباعه ولا بشر به فلست أعرفه ولا أقر بنبوته بل هو عندى شيطان يحرق

(١) الجاحظ البيان والتبيين جـ ١ ص ١٥ القاهرة سنة ١٣٣٢ هـ

فتحير لما ورد عليه مما قلته له وقال لى فما تقول فى التوراة ؟ قلت أمر التوراة أيضاً على وجهين إن كانت التوراة التى أنزلت على موسى النبى الذى أقر بنبوة نبى محمد فهى التوراة الحق و إن كانت أنزلت على الذى تدعيه فهى باطل غير حق وأنا غير مصدق بها فقال أحتاج إلى أن أقول لك شيئاً بينى و بينك فظننت أنه يقول شيئاً من الخير فتقدمت إليه فسارنى فقال أمك كذا وكذا وأم من علمك لا يكنى وقدر أنى أثب به فيقول وثبوا بى وشغبوا على فأقبلت على من كان بالمجلس فقلت أعزكم الله أليس قد وقفتم على مسألة إياى وعلى جوابى إياه قالوا لى نعم فقلت أليس عليه واجب أن يرد على جوابى قالوا نعم قلت لهم فإنه لما سارنى شتمنى بالشتم الذى يوجب الحد وشتم من علمنى و إنما قدر أن أثب به فيدعى أنا واثبناه وشغبنا عليه وقد عرفتكم شأنه بعد انقطاعه فأخذته الأيدى بالنعال فخرج هارباً من البصرة وقد كان له بها دين كثير فتركه وخرج هارباً لما لحقه من الانقطاع[١] » ، ونحن إذا رأينا أن المعتزلة فى البصرة يسيرون على هدى أهل الحديث فيها فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، بأن يكون لإصلاح المجتمع وحمايته من الضلال الدينى تبين لنا أنه أمر ورثوه وعملوا به على نحو ما كان قبلهم.

نستطيع أن نختم هذه الكلمة بالقول أن المعتزلة لم يتأثروا بنظر الشيعة المتطرفين فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لأنهم كانوا يتخذون هـذا المبدأ وسيلة للإصلاح الاجتماعى ، لا مطية لأغراض سياسية كما كان يتخذه متطرفو الشيعة . اتفق المعتزلة والشيعة المتطرفون فى اعتبار الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قاعدة من قواعد نشاطهم ، ولـكن هذه القاعدة كانت لخير المجتمع ودفع الشر عنه بوسائل الجدل عنـد المعتزلة ، لا يريدون من ورائها منفعة لأنفسهم ، بينما كانت عند المتطرفين المتشيعين قاعدة تستخدم لأغراض شخصية وسياسية للوصول إلى الحكم ، وعلى ذلك يجب أن نميز بين المعتزلة والمتشيعين فى استخدام هذه القاعدة ، ذلك

(١) الخطيب البغدادى . تاريخ بغداد ج ٣ ص ٣٦٧ و ص ٣٦٨ .

التميز الذى يتضح من اتجاه كل منهما ، أما تأثر المعتزلة ببعض المذاهب الشيعية فواضح ، نستطيع أن نلحظه فى يسر فى نظرهم إلى صفات الله ، إذا قارناه بالاتجاه الذى شقّه لنفسه الجعد بن درهم ، الذى قتله خالد القسرى فى الكوفة[1] .

٢ — السيد الحميرى وتأثره بمذاهب الكوفة المتطرفة (الرافضة)

يبدو مذهب الرافضة فى وضوح فى البصرة على يد السيد الحميرى ، وهو اسماعيل بن محمد وينتهى نسبه إلى ابن مفرغ الحميرى ، ويكنى أبا هاشم ، وأمه امرأة من الازد من بنى الحدان ، وجده يزيد بن ربيعة ، الذى هجا زياداً و بنيه ونفاهم عن آل حرب ، وحبسه عبيد الله بن زياد ثم أطلقه معاوية[2] ، ويقال إن أبويه كانا أباضيين ، وكان منزلها فى منطقة بنى ضبّة ، وكان السيد يقول طالما سب أمير المؤمنين فى هذه المنطقة ، وروى عن السيد أن أبويه لما علما بمذهبه همّا بقتله ، فأتى عقبة بن سلم والى البصرة لأبى جعفر المنصور فأخبره بما عزم عليه والداه ، فأجاره و بوأه منزلا وهبه له ، حتى ماتا فورثهما .

كان السيد شاعراً فحلا ناضجاً ، وكان لشعره طلاوة وأيد ، رأى الأصمعى جزء منه مع التوزى « فقال لمن هذا ؟ وكنت سترته عنه لعلمى بما عنده فيه فأقسم علىّ أن أخبره فأخبرته ، فقال أنشدنى قصيدة منه فأنشدته قصيدة ثم أخرى وهو يتزيدنى ثم قال قبحه الله ما أسلكه لطريق الفحول لولا مذهبه ولولا مافى شعره ماقدمت عليه أحداً من طبقته[3] » ، وكان كثير الشعر ، قال الموصلى حدثنى عمى قال جمعت للسيد فى بنى هاشم ألفين وثلاثمائة قصيدة فخلت أن قد استوعبت شعره حتى جلس إلىّ يوماً رجل ذو أطمار رثّة فسمعنى أنشد شيئاً من شعره

---

(١) راجع ص ٣٠ من هذا البحث

(٢) الأغانى جـ ٧ ص ٢ الساسى

(٣) الأغانى جـ ٧ ص ٣ الساسى

فأنشدني له ثلاث قصائد لم تكن عندي ، فقلت في نفسي لو كان هذا يعلم ماعندي كله ثم أنشدني بعده ماليس عندي لكان عجيباً فكيف وهو لايعلم ! و إنما أنشد ماحضره وعرفت حينئذ أن شعره ليس مما يدرك ولا يمكن جمعه[1] » ، ولكن هذا الشعر على كثرته مات وهجره الناس ، لما كان فيه من إفراط في سب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما كان فيه من قذف وطعن عليهم ، لذلك تحومى هذا النوع وهو غالب شعره ، ولم يكن له ذكر في البصرة لاشمئزاز الناس منه ، قال عمر بن شبة « أتيت أبا عبيدة معمر بن المثنى يوماً وعنده رجل من بني هاشم يقرأ عليه كتاباً فلما رآني أطبقه فقال له أبو عبيدة إن أبا زيد ليس ممن يحتشم منه فاقرأ فأخذ الكتاب وجعل يقرأ فإذا هو شعر السيد فجعل أبو عبيدة يعجب منه و يستحسنه . قال أبو زيد وكان أبو عبيدة يرويه[2] » ، كان لدى أناس ولكنهم كانوا يخفونه ولا يستطيعون إظهاره في بيئة سنية كالبصرة ، لما فيه من سب السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين .

سئل السيد عن التشيع من أين وقع له ؟ قال غاصت عليّ الرحمة غوصا ، و يمكن تفسير قوله بأنه تعلم مذهبه ، ولم يكن يتوقع أن يعلم هذا حيث هو في البصرة ، وأنه تعلمه سراً ، ورأى فيه الداعون إلى هذا المذهب الشيعي إمكان ضمه إلى اتباعه ، فلقنوه إياه ، وكانت في بيئة البصرة خلايا تبشر بتعاليم الشيعة المتطرفين في خفاء وفي دائرة محدودة ، بعيدة عن العيون المتطلعة ، وكان ثمار هذا النشاط الخفي أفراداً قليلين ، لم يكونوا بالكثرة حتى يؤلفوا حزباً ، أو يقيموا معارضة ، ومن هؤلاء كان السيد الحميري ، وكان كثيراً ماينشد شعره خارج البصرة ، وقليل ما أذاعه بين ظهراني مواطنيه ، وكان على مثال كثير عزة سلفه الذى ناصر مذهب الرافضة ، يمدح الخلفاء و يتملقهم و يأخذ جوائزهم ، و إذا خلا

(١) المصدر السابق جـ ٧ ص ٥
(٢) المصدر السابق جـ ٧ ص ٩ الساسى

إلى نفسه و إلى إخوانه أفاض شعره ما يكنّ من حب لآل البيت ، و بغض للسلف الصالح وطعن عليهم ، واختلط على الرواة فنسب بعضهم ماقال كثير عزة إلى السيد الحميرى ، ولكن الناقد لايخفى عليه ذلك ، و إليك من ذلك مثالا قصيدة كثير ، التي يبيّن فيها مذهبه ، والتي نسبت خطأ إلى السيد الحميرى [1] :ـ

ألا إن الأئمة من قريش ولاة الحق أربعة سواء
على والثلاثة من بنيه هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبرّ وسبط غيبته كربلاء
وسبط لايذوق الموت حتى يقود الخيل يقدمها اللواء
تغيب لايرى فيهم زمانا برضوى عنده عسل وماء

ويقول أيضا :

برئت إلى الأله من ابن أروى ومن دين الخوارج أجمعينا
ومن عمر برئت ومن عتيق غداة دعى أمير المؤمنينا
وما ذاق ابن خولة طعم موت ولا وارت له أرض فطاما

ويقول أيضاً :

لقد أمسى بمجرى شعب رضوى تراجعه الملائكة الكلاما
وأن له لرزقا من إمام وأشربة يعل بها الطعاما [2]

كان كثير والسيد كلاهما على مذهب واحد ، عاصره كثير حين كان هذا المذهب يدعو إلى البراءة من أبى بكر وعمر وعثمان رضوان الله عليهم أجمعين ومن الخوارج ، كما هو واضح من هذه القصيدة التي ذكرناها ، وأخذه السيد حين تطور

---

(١) البغدادى ـ الفرق بين الفرق ص ٢٨ و ٢٩ و ٣٠ القاهرة سنة ١٩١٠

(٢) راجع الأغانى ج ٧ ص ٩ الساسى ـ الأسباط الثلاثة هم الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية الذى هو فى شعب رضوى ولا يذوق الموت وهو الأمام المنتظر يأتى يقود الخيل .

فصار من تعاليمه سب السلف رضى الله عنهم ، وهذا ما نلاحظه فى شعر السيد فإنه لا يكاد يذكر هؤلاء السلف حتى يأخذ فى طريق السب على نحو ما تفعل الرافضة ، وهذا التطور فى المذهب جاء نتيجة لسير التطرف إلى منتهاه فى الكوفة فى القرن الثانى الهجرى ، ومن الأمثلة على مابين الشاعرين من تفاوت فى الأسلوب ، قول السيد الحميرى يذكر نفس المعانى التى سجلها كثير قال :

ياشعب رضوى ما لمن بك لايرى حتى متى تخفى وأنت قريب
يا ابن الوصى ويا سمىّ محمد وكنيه نفسى عليك تذوب
لو غاب عنا عمر نوح أيقنت منا النفوس بأنه سيئوب

وقوله : ـ

ألا قل للوصى فدتك نفسى أطلت بذلك الجبل المقاما
أضر بمعشر والوك منا وسموك الخليفة والإماما
وعادوا فيك أهل الأرض طراً مقامك عندهم ستين عاماً

ضاع معظم شعر السيد ولم يبق منه إلا قليل من القصائد ، وهى قصائد قيلت فى آل البيت وعلو ذكرهم وكبير مقامهم ، وقال القصائد الطوال فى على رضوان الله عليه ، وفى رثاء الحسين وفى غير ذلك من الأحداث المشهورة عند الشيعة أما مايدل على مذهبه فتكاد المصادر التى بين أيدينا لاتعيننا على التدليل عليه ، إلا بروايات اندثر مايؤيدها من شعر ، ومن المعروف أن الرافضة جميعاً تعتقد فى الرجعة والمهدى المنتظر الذى هو ابن الحنفية محمد بن على رحمهما الله ، ومن حسن الحظ أن الدليل من شعره على يقينه فى محمد بن الحنفية موجود يتبين فى قوله : ـ

يا ابن الوصى ويا سمى محمد وكنيه نفسى عليك تذوب
لوغاب عنا عمر نوح أيقنت منا النفوس بأنه سيؤب

وهذا الشعر قاطع فى أن إمامه محمد بن الحنفية وأن معتقده فيه على نحو ما كانت الرافضة ترى ، من أنه سيعود فيملأ الدنيا عدلا ونوراً كما ملئت ظلماً

وظلاماً ، وثانى الأساسين فى عقيدة الرافضة هو قولها أو عقيدتها فى الرجعة ، ولا نستطيع أن نجد فى شعره الذى وصل إلينا مثالا ، وإنما نجد الرواية تمدنا بالدليل على أنه كان يعتقد فى الرجعة ، فقد قيل إن رجلا جاء إلى السيد فقال « بلغنى أنك تقول بالرجعة فقال صدق الذى أخبرك وهذا دينى قال أفتعطينى ديناراً بمائة دينار إلى الرجعة ؟ قال السيد نعم وأكثر من ذلك إن وثقت لى بأنك ترجع إنساناً قال وأى شىء أرجع ؟ قال أخشى أن ترجع كلباً أو خنزيراً فيذهب مالى فأفحمه[1] » ، وهذا القول من السيد لم يكن هزلاً ، وإنما هو جد ، لأن الرافضة تعتقد أن أرواح الشريرين والكفار تعود إلى هذه الدنيا فتلبس أجساداً وضيعة ، تعذب فيها حتى إذا ما تطهرت عادت إلى بدن الإنسان مرة أخرى .

كانت الرافضة جميعاً ـ بعد أن اتخذت عقيدتهم شكلها النهائى ـ تسب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لاتستثنى منهم إلا الذين آزروا علياً رضوان الله عليه ، وتصب جام غضبها عليهم وعلى أزواج رسول الله وخاصة عائشة أم المؤمنين رضوان الله عليها ، وكانوا فى ذلك يختلفون ، فمنهم من كان يقذف ويشتم أقذع الشتم ، ومنهم من كان دون ذلك ، يطعن وينال منهم ، ومن هؤلاء فيما يبدو كان السيد الحميرى ، ولقد حفظ لنا الجاحظ بيتين من شعره يصوران هذا المذهب ، قال السيد يهجو عائشة رضوان الله عليها : ـ

جاءت مع الأشقين فى هودج تزجى إلى البصرة أجنادها
كأنها فى فعلها هرة تريد أن تأكل أولادها[2]

نراه فى هذا الشعر لايفحش فحش غيره ، ولا يتقول الكذب كما فعل غيره من الرافضة ، ويصدر الوصف بأداة التشبيه « كأن » ، وهذا يوحى أنه لم تزل

---

(١) الأغانى جـ ٧ ص ٧ و ٨ طبعة الساسى .

(٢) الحيوان جـ ١ ص ١٩٧ طبعة هارون .

بقية من جلالة زوج الرسول فى نفس هذا الشاعر ، الذى يدعوه مذهبه إلى التمرد على هـذا التكريم ، الذى يضفيه المسلمون على السلف الصالح وأزواج نبيهم الـكريم .

بقيت كلمة وهى محاولته النيل من خصومه فى المذهب والعقيدة ، متأثراً فى فى ذلك بشعراء الكوفة المجان ليوقعهم فى الحرج ، ويثير عليهم السلطان بالطعن فيهم ، فعل ذلك وخاصة مع أبناء الخلفاء الأول أبى بكر وعمر وعثمان وأبناء الأمويين ، حكى ابن عائشة قال « لما استقام الأمر لبنى العباس قام السيد إلى أبى العباس السفاح حين نزل عن المنبر فقال (1) : ـ

دونـكموها يابنى هاشم فجددوا من عهدها الدراسا
دونـكموها لاعلا كعب من كان عليكم ملـكها نافساً
دونـكموها فالبسوا تاجها لاتعدموا منكم له لابسـاً

وهو فى هذا الشعر يحرض على بنى أمية ، فى وقت كان بنو العباس متهوسين فى القضاء على بنى أمية ، يقصد أن يزيدهم اشتعالا وتأججاً ، ويبدو حقده واضحاً على سلالة الشيخين الجليلين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، حين جلس المهدى وهو ولى عهد يعطى الصلات ، رآه السيد يبدأ ببنى هاشم فرضى ولـكنه ثنى بسائر قريش ، فلم يطق صبراً على ذلك ، ودعاه حقده على أبناء الشيخين أن يكتب الشعر محرضاً عليهم ، وأن يقدمه إلى الربيع « رقعة مختومة وقال إن فيها نصيحة للأمير فأوصلها إليه فإذا فيها (2) : ـ

قل لابن عباس سمى محمد لاتعطين بنى عدى درهما
احرم بنى تيم بن مرة إنهم شر البرية آخراً ومقدما

---

(1) الأغانى جـ ٧ ص ٦ ، ص ٧ الساسى .

(2) المصدر السابق جـ ٧ ص ٨ .

وفيها يحرضه ويحنقه عليهم بقوله :

منعوا تراث محمد أعمامه وابنيه وابنته عديلة مريما
وتآمروا من غير أن يستخلفوا وكفى بما فعلوا هنالك مأثما
لم يشكروا لمحمد انعامه أفيشكرون لغيره إن أنعما ؟

نرى السيد يثير فى نفس ولى العهد قضية ، وهى أن أبا بكر ومن بعده عمر غصبا الخلافة وحرما العباس منها ، وإن هذا يعد إثما ليس بعده إثم ، وهذا الإثم الذى ارتكباه يبعدهما من أن يكونا موضع رحمة ، ولقد بلغ بهما التنكر أن جحدا ما أنعم عليهما به رسول الله ولم يشكرا ، أو يعتقد أو يرجى بعد هذا من أبنائهما — والفرع تابع للأصل — أن يشكروا لك ويحمدوا فعلك ؟ ذلك طرازه فى الهجاء أو التحريض على الخصم فى العقيدة أو الطعن ، قصد به الاشتفاء لإرضاء عاطفة دينية .

قال بعض القدماء إن السيد الحميرى قد عدل عن مذهبه فى عقيدة الرافضة إلى اعتناقه إمامة جعفر الصادق ، ومعنى هذا أنه انتقل إما إلى مذهب الغلاة الذين ضمّنوا عقائدهم الإباحية وتأليه جعفر على أى صورة من الصور ، أو إلى مذهب الإمامية[1] الذين يعتبرون جعفر الصادق الإمام السادس ، أما انتقاله إلى مذهب الغلاة فلا تؤيده الرواية ، وفضلا عن ذلك يدحضه شعره ، فى قوله مسفهاً أحد مذاهبهم[2] : —

قوم غلوا فى على لاأبا لهم وأجشموا أنفسا فى حبه تعبا
قالوا هو ابن الإله جل خالقنا من أن يكون له ابن أو يكون أبا

أما تحوله إلى الإمامية فيستدلون على ذلك بشعر ذهب بقيته ، ولنترك أباداود

(١) لم يكن هذا الاسم قد عرف فى ذلك الوقت وإنما ذكرناه للتوضيح ولأنهم عرفوا بهذا الاسم فيما بعد .

(٢) العقد الفريد ج ١ ص ٢٦٧ بولاق .

سليمان بن سفيان المعروف بالخزق راوية السيد الحميرى يدفع ذلك بقوله « مامضى والله إلا على مذهب الكيسانية (يعنى الروافض) وهذه القصائد التى يقولها الناس مثل تجعفرت باسم الله والله أكبر .

وقوله : ـ

تجعفرت باسم الله فيمن تجعفرا

وقوله : ـ

أيا راكبًا نحو المدينة جسرة عذافرة تهوى بها كل سبسب
إذا ماهداك الله لاقيت جعفرا فقل يا أمين الله وابن المهذب

هى لغلام للسيد يقال له قاسم الخياط ، قالها ونحلها للسيد ، وجازت على كثير من الناس ممن لم يعرف خبرها بمحل قاسم منه وخدمته إياه[1] » ، ويحدثنا مسعود بن بشر فيقول « إن جماعة تذاكروا أمر السيد وأنه رجع عن مذهبه فى ابن الحنفية وقال بإمامة جعفر بن محمد فقال ابن الساحر راويته والله مارجع عن ذلك ولا القصائد الجعفريات إلا منحولة له ، قيلت بعده وآخر عهدى به قبل موته بثلاث وقد سمع رجلا يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لعلى عليه السلام أنه سيولد بعدى ولد وقد نحلته اسمى وكنيتى فقال فى ذلك وهى آخر قصيدة له : ـ

ألم يبلغك والأنباء تنمى مقال محمد فيما يؤدى
إلى ذى علمه الهادى على وخولة خادم فى البيت تردى
ألم تر أن خولة سوف تأتى بوارى الزند صافى الخيم نجد[2]
يفوز بكنيتى واسمى لأنى نحلتهما والمهدى بعدى
يغيب عنهم حتى يقولوا تضمنه بطيبة بطن لحد

---

(١) الأغانى ج ٧ ص ٣ الساسى .

(٢) تردى = تلعب ــ صافى الخيم = نقى الطبيعة والسجية .

إلى أن يقول بعد وصف طويل لبقاء ابن الحنفية فى شعب رضوى منادياً إياه بالعودة ليملأ الدنيا عدلا لأنها قد ملئت ظلماً وجوراً : ـ

فأدرك دولة لك لست فيها بجبار فتوصف بالتعدى

على قوم بغوا فيكم علينا لتعدى منكم ياخير معد[1]

وخلاصة القول ذهب السيد الحميرى مذهب الروافض و بشر به ، وظهرت آثاره التى تتمثل فى القول بالرجعة ، وظهور المهدى المنتظر وهو محمد بن خولة الحنفية ، وسب السلف الصالح من أصحاب رسول الله وأزواجه فى شعره ، ولكن هذا الشعر لم يكن له صدى فى البصرة ، لأنها كانت آنئذ بيئة سنية تبغض هذا اللون من العقائد ، فلم يتأثر به البصريون وأبغضوه وذهب شعره هذا الذى مثّل مذهبه فى السب والشتم والرجعة ، و بقى منه شعر قليل جداً يصور عقيدته تصويراً عاماً .

٣ — ابن المقفع ومذاهب الكوفيين المتطرفين

نشأ ابن المقفع فى البصرة زراد شتى العقيدة ، وظل محتفظاً بدينه المجوسى هذا ، على الرغم من أنه كتب للامراء واندمج فى الحياة الإسلامية حتى ألفها وألفته ، ظل على دينه لايراع ولا يستهويه دين الإسلام ، حتى جاءت الدولة العباسية ووضعت فى برنامجها تعهد الزنادقة والمحافظة على العقيدة الإسلامية ، ونشطت فى ذلك نشاطاً حمدها الناس عليه ، وسجله أبو بكر بن عياش المحدث المشهور لدى هارون الرشيد ، حين سأله « أدركت أيام بنى أمية وأدركت أيامنا فأينا كان أخير ؟ قال وكيع المحدث الذى رافق الشيخ أبا بكر « اللهم ثبت الشيخ » فقال « يا أمير المؤمنين أولئك كانوا أنفع للناس وأنتم أقوم للصلاة[2] » ، يشير

---

(١) الأغانى جـ ٧ ص ٤ الساسى — لتعدى أى لتنصر ومنكم صفة لمحذوف تقديره لتنصر شيعة هم منكم

(٢) الخطيب البغدادى — تاريخ بغداد جـ ١٤ ص ٣٧٥ .

إلى فتوح بنى أمية ، وإلى الغزو وإلى الغنائم ، ويصور جد بنى العباس فى الحفاظ على الدين الإسلامى . اتصل ابن المقفع بعيسى بن على عم المنصور ، وبدا له أن يسلم وأسلم ، ويحكون فى ذلك أن عيسى أراد منه أن يسلم على مشهد من القواد ووجوه الناس ، وفى عشية يوم أن استقر الأمر على أن يسلم ابن المقفع فى اليوم التالى ، جلس على مائدة عيسى وزمزم على عادة المجوس ، فقال له عيسى : أتزمزم وأنت على عزم الإسلام ؟ فقال أكره أن أبيت على غير دين ، وهذه الرواية إن صحت ـ تدل على لباقة وبراعة فائقة فى التخلص من الحرج الذى أراد سائله أن يوقعه فيه ، ليعرف طويته ، وتدل على أن ابن المقفع كان يتمسك بدينه المجوسى ، إلى الوقت الذى أريد منه فيه أن يترك دينه المجوسى إلى دين غيره ، هو دين السادة وأصحاب السلطان ؛ أسلم ابن المقفع وتسمى عبد الله ، وعرفه تاريخ الحياة الإسلامية بهذا الاسم الجديد ، وأهمل اسمه « روزبه » الفارسى القديم ، وامتاز بين عارفيه ومعاصريه بكرم وسماحة ، دفعتا واصفيه أن يتغنوا بسجاياه ، قال عنه الجاحظ : إنه كان جواداً فارساً جميلاً ، وأورد الجهشيارى « أنه كان سرياً سخياً ، يطعم الطعام ، ويتسع على كل من احتاج إليه ، وكان قد أفاد من الكتابة لداود بن عمر مالاً ، فكان يجرى على جماعة من وجوه أهل البصرة والكوفة ما بين الخمسمائة إلى الألفين فى كل شهر [1] » .

عاش ابن المقفع فى البصرة ، فى مجتمع من أركانه جالية ترجع بدمائها إلى الفرس ، ومنهم من كان ينزع إلى فارسيته ، ويتبين ذلك فى احتفاظهم بتقاليدهم الفارسية فى الترف ، ذلك الاحتفاظ الذى نعاه عليهم الحسن البصرى ، رضوان الله عليه ، وفى تمسكهم بلغتهم فى داخل بيوتهم ، فظلوا عجماً لا يستطيعون فهم القرآن الكريم إلا إذا فسر لهم بالفارسية ، ويؤيد هذا أن موسى بن سيار الأسوارى كان إذا جلس مجلسه لتفسير القرآن ، فسر للعرب بالعربية ، وللذين

(١) الوزراء والكتاب ص ١١٧ القاهرة ١٩٣٨ .

من دماء فارسية بالفارسية ؛ فى هذه البيئة ظهر ابن المقفع ، وكان رجلاً نشيطاً عميق الثقافة الفارسية ، ضليعاً فى اللغة العربية ، حتى عُدَّ واحداً من بلغائها ، ورأى من قومه ما رأى ، فشمر عن ساعد الجد ، يترجم إلى العربية من آثار العقل الفارسى أروعه ، ومن النظم الفارسية أبرزها على الشهادة بالتفوق ، ونظرة سطحية إلى فهرست ابن النديم ، وما ذكره من كتب ابن المقفع ، وما أورده غيره من المؤرخين ، يدلنا على المجهود الهائل الذى بذله فى نقل التراث الفارسى ، ويبدو لى أنه لم يقم بهذا المجهود خدمة للثقافة العربية ، بل لغرض دفين فى نفسه ، وهو تذكير هؤلاء الموالى من الفرس الذين يجيدون العربية ويأخذون بأسبابها ، بأن لهم ماضياً مجيداً ، أو تراثاً رائعاً ، وأنَّ هذا التراث يفخر بالمقارنة بالثقافة العربية ، تلك الثقافة التى أغفلت أشياء من لطائف الأمور ، فيها مواضع لغوامض الفطن [١] ، ويثير فى نفوسنا هذا ، أننا نلاحظ أن نشاط ابن المقفع إلى الترجمة عاصره أو أعقبه خروج بشار يفخر بفارسيته ، ويفضل الفرس على العرب ، ولقد كانت هذه الترجمات التى قام بها ابن المقفع من العوامل التى أثارت هذه النزعة ، التى تمكنت فى البصرة فى القرن الثالث الهجرى ، وهى نزعة الشعوبية ، تلك النزعة التى حاربها الجاحظ محاربة شديدة ، محاولا أن يوقف تيارها العنيف ، ويظهر أن ابن المقفع كان يطمع فى بعث للنعرة الفارسية تذيل العرب وترفع رأس الفرس — منذ بادىء الأمر ، إلا أن كتاباته لم تجد لها صدى فى معاصريه ، إلا فى دائرة ضيقة ، أثارت من كان مستعداً لقبولها كبشار ، فتبرم ابن المقفع وأبدى سخطه على هذا البرود أو الفتور الذى قوبل به ، فقال :

منت على قومى فأبدوا عداوة   فقلت لهم : كفء العداوة والشكر

وهو بيت من أبياته القليلة التى حفظها الرواة لنا ، ولو أنه عاش ليرى ثمرة

---

(١) ابن المقفع — راجع الأدب الكبير ص ١ وص ٢ وص ٣ — نشر زكى باشا سنة ١٩١٢ .

ما زرع لأبدى ابتهاجه ، ولكن حيل بينه و بين الحياة ، ليشاهد فى أواخر القرن الثانى وأوائل الثالث الهجرى الأفاعى وقد أخرجت رؤوسها ، وأخذت تطعن العرب وتذكر مثالبها وتشوه تاريخها فى هذه الحركة التى عرفت بالشعوبية .

كان ابن المقفع مجوسيا أيام الدولة الأموية ، ولم يمنعه دينه أن يعقد صداقات وأن ينتقل من البصرة إلى الكوفة ويقيم صداقة بينه و بين مجانها ، فألفهم وألفوه وأنفق معهم الأيام والليالى فى لهو ومجون ، فى بيت ابن رامين وفى غيره من البيوت التى أعدت للإثم والفجور والغناء ، صادق هؤلاء المجان الكوفيين ور بط اللهو بين قلوبهم فأصبحوا بسببه أخوة وصحبة ، يحرص كل واحد منهم أن يرضى صاحبه ، وأن يفيض الذى لديه المال على من خلا جيبه ، و يبدو فى هذه الفترة التى كان فيها ابن المقفع يتردد على الكوفة ، أنه رأى بعينه الغلاة الأباحيين واستمع إلى مذاهبهم فدفعه ذلك أن يترجم كتاب مزدك ، الذى يبشر فيه بمذاهبه الأباحية ونظامه الاجتماعى القائم على عدم التملك ، وساعده على أن يبرز هذا الكتاب للمجتمع أن كانت الحالة السياسية مضطربة ، والخصمان القويان بنو العباس و بنو أمية يقتتلان فى سبيل الظفر بالعرش ، ولا حسيب ولا رقيب يضبط أمور الأمصار و يراقب مثل هذه النزعات التى تفتك بالمجتمع وتهد كيانه ، كان ابن المقفع يزور الكوفة و يشاهد مافيها من حركات ثورية ، دعا إليها رجال بنشرهم معتقدات تناقض تعاليم الإسلام ، وكان صديقا وفيا لهؤلاء المجان ، الذين تأثروا بمذاهب الغلاة الأباحيين ، وجروا فى الطريق الذى رسموه لهم ، ولكنه كان إذا عاد إلى البصرة لبس ثوب الوقار ، ورجع إلى عقله فيترجم الكتب أو يؤلفها ، ولم يؤثر عنه أنه كان يمجن فى البصرة ، وهذا يوحى أنه كان يستخدم نشاطه فيهـا فى التأليف والكتابة ، ويظهر أنه حين أسلم لم يعد يفكر فى زيارة الكوفة ، لأنها كانت موضع رقابة خاصة من الدولة ، فانصرف إلى عمل يبين فيه تفكيره ، إلى الاصلاحات الإدارية التى اقترحها فى رسائله ، كما فى رسالة الصحابة التى

كتبها لأبى جعفر المنصور ، ويبدو أنه أحس الميل عند بعض المثقفين فى البصرة للون الثقافة الهندية فترجم كليلة ودمنة ، وفى المصر جالية من جلب الهند أشاعت فى جوه استعداداً لتقبل مثل هذا الكتاب .

عاش ابن المقفع معظم حياته يتصل بالأمراء ويؤلف أو يترجم من الكتب ماأراد ، ولم يجد من الدولة الأموية تهديدا لحياته لهذا النشاط العقلى ، عاشر المجان الكوفيين وألف وترجم من الكتب الدينية مالا يقره الإسلام ، وما فيه نقض للأسس التى قام عليها ، ومع ذلك فلم نعثر فى تاريخ حياته ـ إبان الدولة الأموية ـ أى دليل يحد من هذا النشاط ، أو يمنعه من رفقة المجان والملاحدة والزنادقة ، ذلك لأنه كان مجوسيا فلا تثريب عليه ولا لوم ، ويظهر أنه استغل هذه الحرية فانضم إلى الحركة التى كان يقوم بها زنادقة الكوفة ، فساهم بترجمته كتاب مزدك ثم انتهى به الأمر بعد ذلك أن عارض القرآن ، الذى يقدسه المسلمون ويضعونه فوق الشبهات ، ومعارضته للقرآن الكريم هى موضع بحثنا فى هذه الكلمة ، نرجئها حتى ننظر إلى ما يقول صاحب ضحى الإسلام عن حياة ابن المقفع ، قال : « أنه لم يقض من حياته فى العصر العباسى إلا نحو عشر سنوات ، أما بقية حياته فقد قضاها فى العصر الأموى ، وشهد اضطهاد العرب للموالى ، وشاركهم فى محنتهم وبؤسهم أيام الأمويين ، ولم يكن مسلماً يلطف دينه من كرهه للعرب ، كما كان شأن المتدينين ، فلا بد أن يكون قد أفعم بكره العرب ، وشاهد الدعوة العباسية واشتراك الفرس فيها ، وتمنى كما تمنوا أن يرفع عنهم نير الأمويين ، وسر كما سروا باستيلاء العباسيين[1] » .

واضح أن الأستاذ الكبير لم يشر إلى اضطهاد وقع على ابن المقفع ، وإنما أشار إلى اضطهاد حدث للموالى ، ولست أدرى أى اضطهاد هذا الذى يتابع فيه الأستاذ الكبير طائفة من المستشرقين ، أرادوا أن يشوهوا تاريخنا وأن يقلبوا الحقائق ؟

---

(١) أحمد أمين ـ ضحى الإسلام ـ ج ١ ص ١٩٦ .

أما فى البصرة مقر ابن المقفع فلم يكن هناك اضطهاد فى تاريخها يمكن أن نصم حكم الأمويين بأنه كان نكبة على المصر أو على الموالى ، أما فى الكوفة فالأمر على العكس من البصرة كانت الشيعة تتحفز للثورة ، ولا تستطيع الدولة أن تقف مكتوفة اليدين أمام الثورات والعاملين على تقويض دعائم سلطانها ، وكان الموالى يشاركون مشاركة قوية مع أهل الشيعة ، بل كانوا عدتهم فى النضال ، فنفاهم الحجاج وطهر منهم المصر ، أو يعتبر هذا اضطهادا ؟ أم ينظر إليه على أنه بتر لعضو مريض يجوز أن ينجع فيه العلاج ؟ أما تصرفه مع الفقهاء فليس غريبا ، لأن الحجاج رجل سياسة و إدارة ، وهؤلاء رجال دين ومثل عليا ، ولا توجد حكومة على الأرض تطبق مايريدون ، وفضلا عن ذلك فأنهم شاركوا الثوار ، وساروا فى صفوفهم يقاتلون فى حركة ابن الأشعث ، وهى حركة سياسية بلا جدال ترمى إلى قلب نظام الحكم ، فاستحقوا أن يعاملوا معاملة الثوار . وهل تعتبر محاولة القضاء على أصحاب المذاهب الغالية ـ وهم من الموالى ـ تلك الحركة التى كانت تهدف إلى قلب النظم السياسية والدينية والاجتماعية ـ اضطهادا ؟ وهل تستطيع حكومة على الأرض أن تغض الطرف على ثورة الخناقين و إشاعة الارهاب والرعب؟ أو تتجاهل تنظيمات ودعوة أبى الخطاب الأسدى؟ اللهم إن بنى أمية قاموا بواجبهم كحكام ، واعتقد أن دولتهم كانت خيراً على الناس والمسلمين والإسلام من دولة بنى العباس ، كانوا عرباً حقا فآثروا العرب ، واعتزوا بهم لأنهم عصب الدولة ، وكانت تنظر إليهم على أنهم مسئولون أن ينشروا دين الإسلام ، ومن العدالة أن تتكافأ الواجبات مع الحقوق ، وذلك ما كان ، وهو ماجرى عليه كل الأمم التى تميل إلى الغزو والانتشار فى الأرض[1] .

---

(١) أنصف فلهوزن الحجاج فى كتاب « مملكة العرب » فى ص ٢٥٥ ، ص ٢٥٦ طبعة كلكتا سنة ١٩٢٧ وأرجع كثيراً من الروايات التى جعلت الحجاج ميالا إلى سفك الدماء إلى اختلاق اعدائه وسفه اعتماد فون كريمر وفان فلوتن على هذه الروايات .

استقر ابن المقفع فى البصرة حين قامت الدولة العباسية ، وأسلم على يد موسى ابن على عم المنصور ، يريد أن يتخذ منه حاميا له ، وليختفى وراء إسلامه حتى لا ينكشف أمره ، ولكن شاءت ظروف البصرة أن تضطرب ، وذلك عندما توجس الأزد ومعهم حلفاؤهم من ربيعة الشر من بنى العباس ، لأنهم كانوا من سيوف بنى أمية المسلولة ، وظنوا أن قيام دولة تعادى بنى أمية يعرضهم لنفس المصير الذى تعرض له بنو أمية ، فأخذوا يفكرون فى أنفسهم وفى مصيرهم ، ونظروا إلى سند يحتمون به فظفروا به فى محمد بن عبد الله المعروف بالنفس الزكية ، وهو رجل من بيت عليّ كرم الله وجهه ، فاتصلوا به سراً ، وهو رجل آزره بعض الغلاة و بعض الروافض من أهل الكوفة ، فظهر بينهم إبراهيم أخو النفس الزكية يحكمها لحساب أخيه[1] ؛ فى هذه الفترة التى كانت فيها البصرة مضطربة ، ولم يكن عليها حاكم قوى يدبر الأمور تدبير الخبير البصير ، كان ابن المقفع وأمثاله يجدون من الحرية مايجعلهم يقولون مايريدون ، خاصة وكان من بين أنصار محمد النفس الزكية قوم من الغلاة يدينون بمذاهب تتعارض مع الإسلام وتتحداه ، و يبدو أنه فى هذه الفترة كشف ابن المقفع القناع وتحدى القرآن الكريم ، قال الباقلانى يصف هذا التحدى « وقد ادعى قوم أن ابن المقفع عارض القرآن و إنما فزعوا إلى الدرة اليتيمة ، وهما كتابان أحدهما يتضمن حكما منقولة توجد عند حكماء كل أمة مذكورة بالفضل فليس فيها شىء بديع من لفظ ولا معنى والآخر فى شىء من الديانات وقد تهوس فيه مما لايخفى على متأمل . وكتابه الذى بيناه فى الحكم

---

(١) راجع مروج الذهب للمسعودى ج ٦ ص ١٩٠ و١٩١ طبعه باريس . بعد انقضاء هذه السحابة شعر الأزد أنهم مخطئون فى حسابهم وآزروا بنى العباس ، وعادت الحياة إلى مجاريها فى البصرة ورجع المجتمع إلى سيرته الأولى (راجع البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ٢٠٧ و ج ٢ ص١٤٩ ط ١٣٣٢ هـ والبخلاء ج ١ ص ١٦٠ طبعة دار الكتب) .

منسوخ من كتاب بزرجمهر فى الحكمة فأى صنع له فى ذلك ؟ وأى فضيلة حازها فيما جاء به (١) ؟ » و يتضح من قول الباقلانى أمران :

١ ـ أن الدرة اليتيمة كتابان يحملان هذا الاسم ، أحدهما حكم منقولة عن حكماء الفرس ، ور بما كان بعضها وصلت إلى الفرس أخذا عن اليونان ، والآخر كتاب تعرض للديانات وما تقوله ، وأن ما أورده فى هذا الكتاب فيه اسراف من كاتبه سماه الباقلانى تهوسا ، وظاهر من وصفه له أنه قرأه ، ولم يجد فيه مايدل على أنه يعارض القرآن فى نظمه وأسلوبه .

٢ ـ هذا الكتاب « الدرة اليتيمة » الذى تعرض للديانات مكتوب بأسلوب لا يشاكل نظم القرآن ، وأنه لون بيانى يختلف عما نسب لمسيلمة الكذاب ومن إليه .

وهنا يجب أن نتنبه إلى حقيقة مهمة ، وهى أن الباقلانى كان يعنى بالأسلوب القرآنى وتفرده البيانى فى السمو والاعجاز ، فلم ينظر إلى المعانى أكانت تناقض كتاب الله أم لا ؟ و يبدو أن فى قوله « والآخر فى شىء من الديانات وقد تهوس فيه مما لايخفى على متأمل » ما يشير إلى أنه تعرض أو نقض الأصول التى قامت عليها الديانات ومنها الإسلام ، ولكن إذا علمنا أن ابن المقفع كان فارسياً متعصباً لجنسه ، وأنه موتور من العرب لأنهم أدالوا دولة الفرس ، رجح لدينا أن كتابه يقصد به تحدى الإسلام ، وأنه لم يكن يعنى غيره ، وإذا عرفنا أيضاً أن الحقائق التى يعتمد عليها القرآن هى حقائق طبيعية ، تستند على الكون ومظاهره ، ووضح لدينا أن ابن المقفع يحاول فى الدرة اليتيمة ، أن يبين عجز القرآن أو قصوره فى بيان الحقائق عن المظاهر الكونية ، استطعنا أن نقول إنه يعنى القرآن الكريم ، لأن الأسلوب الذى كتب به ابن المقفع يوحى بذلك ، و إليك مثالا مما نقله ابن قتيبة

(١) إعجاز القرآن للباقلانى على هامش الاتقان للسيوطى ج ١ ص ٤٩ و ٥٠ القاهرة سنة ١٣١٨ هـ

عن اليتيمة هذه « ومن ذلك الليل الذى جعله الله سكنا ولباسا وقد يستوحش له أخو القفر وينازع فيه ذو البلية والريبة وتعدو فيه السباع وتنساب فيه الهوام ويغتنمه أهل السّرق والسلة ولا يزرى صغير ضرره بكبير نفعه ولا يلحق به ذمّا ولا يضع عن الناس الحق فى الشكر لله على ما منّ به عليهم منه ؛ ومثل النهار الذى جعله الله ضياء ونشورا وقد يكون على الناس أذى الحر فى قيظهم وتصبحهم فيه الحروب والغارات ويكون فيه النصب والشخوص وكثير مما يشكوه الناس ويستريحون فيه إلى الليل وسكونه(١) » ألا تراه يذكر وصف الليل والنهار كما يصفهما القرآن الكريم ؟ ثم يعقب عل الوصف بما فى الليل من مساوىء تخيف الإنسان وتفزعه ، وما فى النهار من أذى و بلاء يطبق عليه ، فيتمنى ظلمات الليل تخفيه عن هول النهار ، ثم يتبع ذلك بأنهما مع ذلك منّة من الله يستحق عليهما الشكر ، وهو نوع من النقد اللاذع أداه إليه حقده على القرآن ، وساقه إليه ميل إلى الطعن فيه ، حفزه إليه أن رأى القرآن يتخذ من هاتين الآيتين وهما الليل والنهار عبرة وآية ، فراح يتصدى لهدف كتاب الله فيصور مافيهما من عيب ، تصويراً لايخلو من طابع السخرية بما اعتبره القرآن موجبا للمدح أو الشكر ، وهذه العبارة التى ذكرناها من كلام ابن المقفع فى الليل والنهار نقلا عن ابن قتيبة ، إنما هى جزء من حديث عن بعض المظاهر الكونية ، ساقه على النحو الذى تحدث فيه عن الليل والنهار ، يذكر مافيها من خير على الإنسان ، هو من فضل الله عليه كما يتحدث عنها القرآن ، ثم يأخذ فى تبيان مافيهامن شر مهول تقشعر له الأبدان، هذه العبارات التى نقلها ابن قتيبة عن الدرة اليتيمة تعطينا فكرة عن أسلوب ابن المقفع فى معارضته القرآن الكريم ، أنها لم تكن محاولة بيانية على مثال

---

(١) عيون الأخبار ج ١ ص ٤ طبعة دار الكتب راجع النص كله فى ص ٣ و ٤ و ٥ وهو طويل يجرى على هذا النمط ـ والسلة هى السرقة وقيل السرقة الخفية يقال فى بنى فلان سلة إذا كانوا يسرقون (راجع سلل فى لسان العرب)

القرآن فى نظمه وأسلوبه ، وإنما كانت نقداً له ، قصد به الطعن فى كتاب الله طعناً نراه واضحاً فى هذه الفقر المنسوبة إليه ، والتى حفظها لنا كتاب الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع .

نشر الأستاذ ميخائيل جويدى سنة ١٩٢٧ كتاباً عنوانه « الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع عليه لعنة الله آمين — للقاسم بن إبراهيم عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم » وأثار هذا الكتاب أبحاثاً قيمة تعليقاً على رأى الأستاذ جويدى ، الذى ذهب فيه إلى صحة نسبة الكتاب إلى صاحبه ، وإلى صحة نسبة الفقر موضع تعليق المؤلف إلى ابن المقفع ، فى هذا الكتاب (ص ٨) يحدد المعلق وهو القاسم بن إبراهيم المتوفى سنة ٢٤٦هـ أنه يرد على كتاب لابن المقفع ، قال عنه « فوضع كتاباً أعجمى البيان حكم فيه لنفسه بكل زور وبهتان ، فقال من عيب المرسلين وافترى الكذب على رب العالمين ، فرأينا من الحق أن نضع نقضه بعد أن وضعنا من قول (مانى) بعضه » ، وهو فى رده على ابن المقفع يورد الفقرات التى يود أن ينقضها أو يعلق عليها ، ولقد شك أستاذنا الكبير أحمد أمين فى نسبة أصل الفقر لابن المقفع ، مبيناً رأيه على الوجه الآتى :(١)

١) قال عن الناحية الفنية : فأسلوب الكتاب غير الأسلوب المعروف لابن المقفع ، والذى تتبينه من الأدبين ورسالة الصحابة وكليلة ودمنة ، ففى كل هذه الكتب لا يعمد إلى السجع إلا ماجاء عفواً ، أما فى هذا الكتاب فيتعمد السجع أحياناً تعمداً ، كقوله : « لأن كون شىء لا من شىء لا يقوم فى الوهم له مثال ، ومالا يقوم له فى الوهم مثال فمحال (ص ٤٤) » ويستدل الأستاذ بهذه العبارة على أنها نوع من التعبير الفلسفى الذى لم يعرف إلا بعد زمن ابن المقفع ،

٢) وقال يستهزىء هذا المؤلف بالتعبير بأن لله يدين ، وبالاستواء على العرش

---

(١) ضحى الإسلام جـ ١ ص ٢٢٥ و ص ٢٢٦ .

و بأنه قاب قوسين أو أدنى ، و يحمل هذه التعبيرات على ظاهرها ، ونحن نعلم أن ابن المقفع كان ضليعاً فى اللغة العربية حتى قال الأصمعى « قرأت آداب ابن المقفع فلم أر فيه لحناً إلا قوله : « العلم أكثر من أن يحاط بالكل منه فاحفظوا البعض (المزهر ٢ / ٨٦) وألف ابن المقفع فى الكلام ـ كما حكى الجاحظ ـ وتعرض للمعتزلة ، فمن البعيد جداً أن يفهم ابن المقفع من اليد والوجه والاستواء على العرش المعانى الحقيقية ،

٣) وقال : إذا نحن استثنينا أول الرسالة وهو قوله « باسم النور الرحمن الرحيم » وجدنا الرسالة كلها ليست تأييداً لمذهب مانى ، ولا لمذهب زرادشت أو مزدك ، و إنما هى دعوة إلى الإلحاد المطلق ، فهو يهزأ بعلاقة الله بالإنسان وكيف انقلب عليه خلقه ، وهم عمل يديه ، وكيف قتل أعداؤه أنبياءه ورسله ، وكيف أمرض خلقه وعذبهم بماعرض من الأسقام لهم ، وكيف يأمرك بالإيمان بمالاتعرف والتصديق بما لا تعقل ، وكيف صارت الغلبة للشيطان ، فتبعه الناس إلا أقلهم ... الخ ، وهى كما ترى ليست مطاعن فى الإسلام وحده ، و إنما هى طعن فى كل دين ومنها الديانة الثانوية ، ونحن نعلم من تاريخ ابن المقفع أنه كان يتمسك بدينه ، وأنه لما اعتزم الإسلام أبى أن يبيت على غير دين ، وسواء أكان إسلامه حقاً أم ظاهراً فقط ، فليس من طبيعة الحرص على دين ما ، أن يهاجم الأديان كلها بهذه الثقة ،

٤) وقال إنا لم نجد فيما بين أيدينا من الكتب ، وخاصة التى ألفت فى العصور الأولى كالمسعودى وفهرست ابن النديم من نسب لابن المقفع كتاباً كهذا وهو حرى بأن ينص عليه ، لأنه يهيج شعور المسلمين ، ويحملهم على الرد عليه ودفع مطاعنه .

رد على المأخذين الأول والثانى الدكتور عبد اللطيف حمزة ، وأورد كثيراً من النصوص التى تدل دلالة واضحة على أن أسلوب العبارات المنسوبة لابن المقفع

لم يقصد فيها السجع قصداً ، وانتهى إلى نتيجة هى قوله « أنه من تلك العبارات التى جمعتها من الكتاب رأيت أنه لم يكن مسجوعاً ، ورأيت أن السجع الذى ورد فيه جاء عفواً ، بل رأيت هذه العبارات مقسمة تقسيما منطقياً ، كالذى نعرفه من أسلوب ابن المقفع ورأيت فى هذا الأسلوب ميلا إلى التهكم كالذى نعلمه من أخلاق الرجل ، وهذا الميل إلى التهكم هو الذى أفسر به سخرية المؤلف من أن (لله يدين ، وأنه يستوى على العرش وأنه قاب قوسين أو أدنى) فعندى أن الرجل حمل هذه التعبيرات على ظاهرها مبالغة منه فى الاستخفاف والتهكم ، لا جهلا منه باللغة العربية يؤدى به إلى أن يفهم من اليد والوجه والاستواء على العرش المعانى الحقيقية الظاهرة »(١) .

ولقد وفق الدكتور عبد اللطيف حمزه فى أن يثبت عدم تعمد السجع ، واستطاع فوق ذلك أن يتبين المذهب الفنى لابن المقفع فى أسلوبه ، وتمكن بذلك أن يرجح نسبة الفقرات التى علق عليها القاسم بن إبراهيم إلى ابن المقفع ، وهو نفس الأساس الذى نعتمد عليه فى ترجيح نسبتها إلى ابن المقفع ، تلك الفقر التى جعلها صاحب الرد موضع تعليقه ، وذلك لأن عدة المباحث فى هذه النصوص ، ونسبة الكتب إلى أصحابها ، إذا اندثرت أصولها وضاعت مروياتها و بقيت منها فقرات ، أن يستأنس فى ترجيح هذه النسبة بالمذهب الفنى للكاتب ؛ وأسلوب ابن المقفع معروف لدينا من كتبه ، نستطيع أن نراه فى وضوح فى هذه العبارات التى جاءت فى كتاب الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع ، و يمكن أن يضاف إلى هذا أنه لا يطعن فى صحة نسبة الكتاب لابن المقفع ، ما بدا على فقر قليلة جداً منه من مسحة فلسفية لسببين . الأول : أن ابن المقفع عاش فى بيئة البصرة فى زمن كان المثقفون فيها يعنون بما يؤدى إليه العقل عناية فائقة . والسبب الثانى :

---

(١) عبد اللطيف حمزة ابن المقفع ص ١٣٩ القاهرة سنة ١٩٣٧ .

أن الثقافة الفارسية التى كان ابن المقفع واسع الاطلاع عليها كانت تعرف الفلسفة اليونانية ، و إذا استأنسنا بما يقول القفطى : (أخبار الحكماء ص ١٤٨ و ١٤٩ القاهرة سنة ١٣٢٦ هـ) من أن ابن المقفع هو أول من اعتنى فى الملة الإسلامية بترجمة الكتب المنطقية إلى العربية ، تبين لنا أن مثل عقل ابن المقفع لا يستكثر عليه بعد ذلك أن تبدو مسحة فلسفية على بعض فقرات فى كتبه .

وهنا مسألة يجب على الباحث أن يضعها موضع الاعتبار ، ألا وهى السرية التى تحوط كتاباً كهذا فى بيئة سنية كالبصرة ، وهى سرية كانت مألوفة فى مثل هذه البيئات التى تعمل ضد الإسلام ، نعرفها عند الكوفيين المتطرفين ، والغلاة الذين رآهم ابن المقفع فى زياراته للكوفة ، ورآهم كيف يتآمرون على الإسلام فى خفاء ، و يبدو لى أن هذا الكتاب كانت تتداوله الأيدى فى احتياط شديد ، وفى أيدى طائفة تحرص على إخفاء أمرها ، ذلك قياس أجده معقولا ، و إن عزت علىَّ النصوص لاثباته ، فالقرائن توحى به . هذا و إن المقفع لا يكتب كتابه هذا إلا لأبناء جنسه ، ولمن يتوسم فيه إمكان استدراجه إلى مذهبه ، وهؤلاء عدد محدود لا يجيدون اللغة العربية الفصحى ، ومنهم من احتاج أن يفسر له القرآن بالفارسية ، فإذا وجه الكاتب الألفاظ العربية وهى اليد والاستواء على العرش والوجه وما إلى ذلك إلى معانيها المتبادرة الظاهرة ، لم يكن أنى فى نظرهم إلا المعنى المفهوم المألوف ، الذى يستخدمونه فى حياتهم ، ولعله استغل مقدار فهم أبناء جنسه للغة العربية فنحا هذا النحو ، ليقيم الأسباب لسخريته وتهكمه وطعنه .

أما القول بأن هذا الكتاب المنسوب لابن المقفع هو دعوة للالحاد المطلق ، وليس هو طعناً فى دين بعينه ، ولا هو بمعارضة للقرآن وحده ، لأنه نقد لجميع الأديان فقول سليم ، فيما إذا نظرنا إلى هذا الطعن والنقد والسخرية أنها جميعاً موجهة إلى الأسس الدينية التى اصطلحت عليها الأديان جميعاً ، ولكن المشكلة الحقيقية فى هذا الكتاب ليست فى هذا الوجه ، الذى رآه صاحب ضحى الإسلام ،

والذى لا شك فى سلامته ، و إنما فى اعتماد ابن المقفع على ماجاء فى القرآن الكريم وحده ، و بالصورة التى وردت فى التنزيل ، ليكون موضع سخريته ونقده ومعارضته ، وهذا هو الذى جعل القدماء يسخطون عليه ، و يرون فيه تحدياً لكتاب الله .

ولنضرب لذلك مثالاً قول ابن المقفع : « انقلب عليه خلقه الذين (زعم) هم عمل يديه ، ودعا كلمته ونفخة روحه ، فعادوه وسبوه وآسفوه ، وأنشأ تعالى يقاتل بعضهم فى الأرض ويحترس من بعضهم فى السماء بمقاذفة النجوم ، و يبعث لمقاتلتهم ملائكته وجنوده[1] » . يلاحظ أنه يبدأ القضية بقول تجده فى جميع الأديان وفى القرآن ، وهو قوله : « انقلب عليه خلقه . . . وآسفوه » ؛ ثم يردف قائلا : « وأنشأ تعالى يقاتل بعضهم فى الأرض » ، وهو يشير إلى قول الله تعالى « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ رميت ، ولكن الله رمى ، وليبلى المؤمنين منه بلاء حسناً إن الله سميع عليم[2] » . وقوله : « ويحترس من بعضهم فى السماء » يشير إلى قول الله تعالى : « وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهبا ، و إنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً[3] » ، وانظر إلى تعليقه على رصد النجوم للجن ، وهو ما يقطع فى أنه يقصد القرآن ليس غير فى نقده « إن ما يرى من هذا (يقصد النجوم) لم يزل وأنه ليس بحادث كان بعد أن لم يكن[4] » . أما قوله : « ويبعث لمقاتلتهم ملائكته وجنوده » ، و إشارته إلى هذا المعنى مرة أخرى فى قوله : « وأنزل ملائكته فإذا غلبوا عدواً قال : أنا غلبته أو غلب له ولى ، قال : أنا ابتليته » ، فهو يشير إلى كتاب الله فى قوله : « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم

(١) كتاب الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع ص ١٧ .

(٢) آية ١٦ ـ الأنفال .

(٣) سورة الجن آية ٨ و ٩ .

(٤) كتاب الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع ص ٩٨ .

تشكرون » ، وقوله سبحانه وتعالى : « وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم » ، وقوله جل وعلا : « ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ماتحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين[١] » ، ومثال آخر أورده بنصه لأنه يصور الحالة العقلية فى البصرة ، ونقده لمذهب كان متسلطاً قبل ظهور المعتزلة ، و يعتنقه أهل الحديث ، وهو « مذهب القدر » ، قال : « إنه أصم خلقه (من حيث ظن) أو أعماهم (كما توهم) أو جبرهم على عصيانه ، أو حال بين أحد و بين إيمانه ، أو أنه أمرضهم أو عذب بغير ذنب بعضهم[٢] » ، وهذه الفقرة تشير إلى قول الله تعالى : « ومنهم من يستمع إليك ، وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقراً و إن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين[٣] » و إلى قوله تعالى : « وما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير[٤] » ، أما قوله : « جبرهم على عصيانه » فيشير إلى قول الله تعالى : « والله خلقكم وما تعملون » ، و إلى مذهب القدر والجبر الذى ظهر فى البصرة قبل أن يحتل المعتزلة المكانة الأولى فى الحياة الاجتماعية ، ومؤدى هذا المذهب : أن الإنسان مجبور على فعل الخير مجبور على فعل الشر ، وليست له إرادة حرة ، وهو المذهب الذى خالفه المعتزلة ، ونادوا بحرية الإرادة . أظننى فى غير حاجة بعد هذه الأدلة إلى القول بأن ابن المقفع لم يعارض القرآن الكريم على النحو الذى روى

---

(١) آل عمران آية ١٢٢ و ١٢٥ و ١٥١ .
(٢) كتاب الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع ص ٢٣ .
(٣) سورة الأنعام آية ٢٤ .
(٤) سورة الحديد آية ٢١ .

عن مسيلمة الكذاب وأمثاله ، و إنما هو طراز جديد فى معارضة القرآن ، يتعرض لبعض ما جاء فى كتاب الله من ألفاظ أو تعبيرات ، يصرفها المؤلف على وجوه تمكنه من أن يسخر بما تدل عليه من معان ظاهرة ، وهذا الذى تقول به لا ننفرد به ، و إنما ذهب إلى نحوه جويدى ومن شاركه هذا الرأى ، و يجدر بنا أن نشير إلى غبرائيلى الذى خالف هذا الرأى ، لأنه لم ير فى كتاب ابن المقفع ذلك الأسلوب المسجوع الذى روى عن مسيلمة الكذاب ، والذى عارض به القرآن الكريم ، واستقر فى الأذهان على أنه النحو الذى به يعارض القرآن ، ولذا قال غبرائيلى : إن كتاب ابن المقفع ليس معارضة للقرآن(١) ، والذى خدع غبرائيلى عن هذا الكتاب وحقيقته ، أنه نظر إلى الأسلوب فقط ، فلم يجده مسجوعاً على نحو الفهم المستقر فى الأذهان على أنه وحده المعروف فى معارضة القرآن ، فقال : إنه ليس يعارض القرآن الكريم .

الآن ننتقل إلى نقطة أخرى ، و إن لم تكن لها أهمية مثل ما قد سبق ، فإنها جديرة بالتنويه ، ألا وهى عدم ذكر ابن النديم فى فهرسته والمسعودى لهذا الكتاب المنسوب لابن المقفع ، من الإنصاف ألا يذهب بنا الشك إلى أعماقه السحيقة فنضل الطريق ، وعلينا أن ننظر إلى نسبة هذا الكتاب من ناحية لا تزمت فيها ، ما دامت وسائلنا النقدية توحى إلينا بترجيح نسبة أسلوب الكتاب إلى ابن المقفع ، هذه النظرة تهدينا إلى أنه لا يطعن فى نسبة هذا الكتاب لمؤلفه ابن المقفع ، لمجرد أن المسعودى أو ابن النديم لم يذكراه ؛ ذلك لأن رسالة الصحابة التى لم يشك فى نسبتها لابن المقفع صاحب ضحى الإسلام لم يذكرها لا المسعودى ولا ابن النديم ، وذلك لسبب معروف ، وهو أن القدماء لم يحاولوا من جانبهم استقصاء كتب المؤلفين ونسبتها إلى أصحابها ، و إذا قيست الأمور

---

(١) ذكر الدكتور عبد اللطيف حمزة آراء المستشرقين فى كتابه ابن المقفع من ص١٤١ إلى ص ١٤٦ ، وهذا يعفينا عن تكرارها والاكتفاء بالإشارة إليها .

على نظائرها بدا لنا ممكناً بل مرجحاً أن يكون ابن النديم والمسعودى سها عليهما أن يذكرا هذا الكتاب ، أو أنهما لم يعرفاه ، هذا إذا سلمنا جدلاً أن فهرست ابن النديم وصل إلينا كاملاً كما كتبه صاحبه ، وأن كتب المسعودى وصلت إلينا جميعاً ، مع أننا نعرف أن كثيراً من كتب المسعودى مفقودة ، وأنه اكتشفت بعض نصوص ساقطة من الفهرست لابن النديم .

كانت زيارات ابن المقفع للكوفة فى زمن كانت حركة الغلاة والمتطرفين على أشدها ، ويظهر أن هذه الحركة التى تناولت القرآن وكل الأسس الإسلامية تقريباً ، هى التى أوحت لابن المقفع أن يكتب كتابه « الدرة اليتيمة » يعارض به القرآن الكريم ، ذلك لأنه رأى منهم من يعارضه ، ومن يخرج مدلولات ألفاظه عما وضعت له ، إلى وجهة أخرى تتفق وأغراضهم ، ورأى منهم من يقول أن لألفاظ القرآن ظاهراً و باطناً إلى آخر ما تقولوا به على كتاب الله ، كتب ابن المقفع كتابه وحفظه الزمن ، لأنه كان أقدر منهم ثقافة ، و إحاطة باللغة العربية ، وجاء كتابه سهماً مسموماً مصو باً نحو آيات الكتاب البينات ، ولكن سهمه ارتد إلى نحره ، لأن البيئة نفسها لم تكن لتسمح لمثل هذا الكتاب أن تكون له سوق ، وظهرت زندقة ابن المقفع فقتله أبو جعفر المنصور ، ليطفىء الشعلة التى أوقدها ، ذلك لأن المنصور حاول جهده أن يترك الدولة وراءه سليمة البنيان ، فقتل فى سبيلها أبا مسلم الخراسانى ، وعمه عبد الله بن على ومحمداً النفس الزكية لخطرهم السياسى ، وقتل أبا الخطاب الأسدى فى الكوفة لخطره على العقيدة الإسلامية ، ولا أدل على خطر ابن المقفع على العقل الإسلامى من قول المهدى الخليفة العباسى « ما وجدت كتاب زندقة إلا وأصله ابن المقفع[1] » ، وهذه الرواية بعينها ترد أيضاً على لسان السيد المرتضى حين يقول فى أماليه : «قال جعفر بن سليمان روى عن المهدى أنه قال : ما وجدت كتاب زندقة قط ، إلا أصله

(١) ابن خلكان وفيات الأعيان ج١ ص ١٨٧ بولاق فى ترجمة الحسين الحلاج .

ابن المقفع[1] » ؛ ويؤكد لنا أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى خطر ابن المقفع فى قوله : « وبودى أن كنت أتمكن من ترجمة كتاب بنج تنتر وهو المعروف عندنا بكتاب كليلة ودمنة ، فإنه تردد بين الفارسية والهندية ثم العربية والفارسية على ألسنة قوم لايؤمن تغييرهم إياه كعبد الله بن المقفع فى زيادته باب برزويه فيه قاصداً تشكيك ضعاف العقائد فى الدين وكسرهم للدعوة إلى مذهب المانوية وإذا كان متهما فيما زاد لم يخل عن مثله فيما نقل[2] » ويذهب واصفو ابن المقفع إلى أنه لم يكن مسلما يؤمن بالإسلام ، وإنما كان يظهره ويخفى عقيدته المجوسية ، ويؤيدون قولهم بما نقل عن ابن شبة أنه قال « حدثنى من سمع ابن المقفع وقد مرّ على بيت نار بعد أن أسلم فلمحه وتمثل :—

يابيت عاتكة الذى أتعزل حذر العدا وبه الفؤاد موكل
إنى لأمنحك الصدود وإننى قسما إليك مع الصدود لأميل

وخلاصة القول كان ابن المقفع من أخطر الشخصيات التى ظهرت فى القرن الثانى ، حارب الإسلام وهو على مجوسيته ، ونقل الكتب وحاول أن يجعل فيها ما يزلزل العقيدة الإسلامية ، ولكنه عاش فى بيئة سنية لاتميل إلى الخلاف والشقاق ، فنأت عنه ، وكان هذا دأب الناس فيها ، ويروى لنا الجاحظ قصة لها دلالة خاصة فى هذا الأمر ، قال إن « عبد النور » وهو كاتب إبراهيم بن عبد الله ابن الحسن كان مستخفيا فى البصرة بعد قتل سيده ، وكان يذهب إلى المسجد يستمع إلى الأشعار ولايعرفه أحد ، ولا يحاول أحد أن يكشف عن أمره ، وفى يوم تقدم إليه شاب يسأله أن يبين عن شخصه ، حتى لايقولوا مايؤذيه ، فاعترضه شيخ وقال له « محنة كمحنة الخوارج وتنقير كتنقير العيابين ولم لاتدع مايريبك إلى مالايريبك

(١) عبد القادر بن عمر البغدادى خزانة الأدب جـ ٣ ص ٤٥٩

(٢) تحقيق ما للهند من مقوله ص ٧٦ لندن سنة ١٨٨٧

فتسكت إلا عما توقن بأنه يسره »[1] ، هذه هى البيئة التى يرجع إليها سبب فشل ابن المقفع فى حركته ضد القرآن والإسلام فى عصره .

٤ — بشار بن برد ومذاهب الكوفيين المتطرفين

لاحظ الأستاذ الكبير أحمد أمين فى ضحى الإسلام أنه تظهر على شعر بشار ابن برد مسحة مزدكية . وهذه الملاحظة هى موضع الحديث فى هذا البحث ، ولكن قبل أن نأخذ فى هذه الدراسة ، نود أن نقول كلمة عن تاريخ هذا الرجل ، الذى عرف بتعصبه الشديد على العرب ، لنرى إن كان هناك اضطهاد حوّل مجرى حياته إلى هذا النحو ، الذى أراد به الثأر من الإسلام والعرب ، الذين قدموا بهذا الدين إلى أرض العراق . ولد بشار من أب من سبى المهلب بن أبى صفرة ، وكان من حظ أبيه أن يكون فى فىء « خيرة القشيرية » امرأة المهلب ، فأرسلته إلى ضيعتها بالبصرة المعروفة « بخيرتان » مع عبيد لها و إماء ، ليقوم معهم بشئونها الزراعية ، لم يبق طويلا فى ملك خيرة القشيرية إذ أهدته إلى صديقة لها من بنى عقيل بعد أن زوجته ؛ ولد بشار عند العقيلية ، ويظهر أن العقيلية منّت على الأب والابن بالعتق ، وظل ولاؤهما لبنى عقيل ، وعمل الأب صانع جرار ، وهو ما عيّر به حماد عجرد بشارا بوصفه لأبيه بأنه طيان ، ونشأ بشار وترعرع فى ظل ولائه ، وكبر وأقام بيتا له بين بنى عقيل وسدوس ؛ أما أم بشار فكانت هى أيضا من الموالى ، ويبدو أنها لم تحظ بحياة هدوء واستقرار ، لأنها تزوجت ثلاثة ، أحدها ولاؤه لعقيل والآخر ولاؤه لبنى حنيفة والثالث ولاؤه لسدوس ، وأنجبت من هذا الزواج كله ثلاثة غلمان ، واحد أعمى والآخر أعرج والثالث قصير اليدين والأعمى هو بشار بن برد العقيلى ، وصفه الأصمعىّ فقال « كان بشار ضخماً عظيم الخلق والوجه مجدوراً طويلاً جاحظ العينين قد تغشاهما لحم أحمر فكان أقبح الناس عمى وأفظع منظرا » عاش بشار فى طفولته وشبابه لايجد من مواليه عنتا

(١) البخلاء جـ ١ ص ١٦٠ دار الكتب .

ولا غلظة عليه ، ولا شيئاً يثير سخطه عليهم ، ولم يحس منهم إلا الكرم ، فتأثر بذلك تأثرا لازمه فى شعره ، وهو فى ثورته على العرب يسبهم و يسدد إليهم الطعنات ، ويفتخر بجنسه الفارسى ، انظر إلى قوله : ـ

نمت فى الكرام بنى عامر فروعى وأصلى قريش العجم

ألا تراه يصف مواليه بالكرم ولا يسخط عليهم ، ولا يطيل لسانه فيهم ، كما فعل مع غيرهم ، و يبدو فوق ذلك أنه كان محظوظاً لدى مواليه ، يغدقون عليه بما يرضيه ، و يجعله يطمع فى زى يتفرد به عن الناس جميعا ، ذلك لأنه كان يأمر خياطه أن يخيط ثيابه على نحو إذا أراد أن ينزع قميصه أو جبته أطلق الأزرار ، فتسقط الثياب على الأرض ، وتقول الرواية إنه لم ينزع قميصه قط من جهة رأسه ، كما كان يفعل غيره[1] . تاريخ حياة بشار فى صغره وشبابه لايدل على شىء يثير نفسه أو يسخطها على العرب ، فيبغض جنسهم ودينهم ، لذلك كان مابدا منه فى ثورته على العرب وزهادته فى دينهم إنما هو نتيجة عوامل أخرى .

نشأ بشار فى بنى عقيل فأخذ عنهم فصاحتهم وكان يفخر بسلامة لسانه ويقول من أين يأتينى الخطأ ؟ ولدت ههنا ونشأت فى حجور ثمانين شيخا من فصحاء بنى عقيل ، ما فيهم أحد يعرف كلمة الخطأ ، و إن دخلت على نسائهم فنساؤهم أفصح منهم ، وأيفعت فأبديت إلى أن أدركت فمن أين يأتينى الخطأ ؟ ويحدثنا إبان بن عبد الحميد اللاحق عن دأب بشار فى تلقى اللغة من مواردها الطبيعية فيقول « نزل فى ظاهر البصرة قوم من أعراب قيس عيلان وكان فيهم بيان وفصاحة فكان بشار يأتيهم و ينشدهم أشعاره التى يمدح بها قيسا فيجلونه لذلك و يعظمونه وكانت نساؤهم يجلسن معه و يتحدثن إليه و ينشدهن أشعاره فى الغزل و كن يعجبن به وكنت كثيراً ما آتى ذلك الموضع فأسمع منه ومنهم »[2]

(١) راجع الجاحظ ـ الحيوان جـ ٧ ص ٣٣ طبعة هارون . البيان والتبيين جـ١ ص ١٨ جـ ٣ ص ٦١ ط سنة ١٣٣٢ هـ . الأغانى جـ ٣ ص ٢٠ و ٢٢ طبعة الساسى

(٢) الأغانى جـ ٣ ص ٢٦ و ص ٥١ الساسى

هذه الثقافة اللغوية وهذه المخالطة للفصحاء أكسبت بشارا الذوق اللغوى والفنى فى اختيار الألفاظ والأخيلة ، فكان آية من الآيات ، وكان فيه استعداد فطرى لقول الشعر ، فنطق به منذ صغره وسنه عشر سنوات ، ومرن لسانه على انشاد الشعر فصار علما من أعلام الفن القولى ، قال الأصمعى وأبو عبيدة ، إن بشارا قال الشعر وسنه عشر سنين وما بلغ الحلم حتى كان يخشى معرة لسانه بالبصرة ، جادت قريحته بشعر كثير أبرزه فى آلاف القصائد ، ولكن هذا الشعر الكثير ذهب ولم يبق منه إلا قليل ، أو نزر يسير لايصور التطورات الفنية ولا الخطوات العقلية التى انعكست فى شعره الضائع ، ولكن فى بحثنا هذا نجد الوسيلة التى تمكننا من فهم ما بدا على شعر بشار من آيات وانعكاسات مذهبية ، ولكن هذه الأداة تكون سليمة لا يعتورها نقص أو غموض فيما لو أتيح لنا شعره كله .

لم يكن بشار شاعرا وحسب و إنما كان إلى جوار ذلك خطيباً وصاحب منثور ومزدوح ، وله رسائل معروفة فيما يقول الجاحظ [(١)] ، ولكن مع الأسف الشديد ذهبت خطبه واندثرت رسائله ، وكنّا فى بحثنا هذا فى أشدالحاجة إليها ، لأنها كانت تضىء أمامنا السبيل ، ونهتك ظلمات تراكم بعضها فوق بعض ، و إذا عرفنا أن هذا العصر الذى عاش فيه بشار ، امتاز بالكتابة فى المسائل الدينية وإثارة مشكلات دينية بعضها اختص بالقرآن والإسلام ، و بعضها الآخر كان يمس الأديان جميعا كالنبوة وغيرها ، زاد أسفنا على فقد هذه الرسائل ، التى كان يرجى أن تكشف بعض نواحى الحياة الاجتماعية والفكرية ، وخاصة وأن بشارا كما تقول الرواية لم يهتد إلى دين يعتنقه بعد أن انتهت مجالس الجدل والبحث والمناقشات الدينيه فى منزل الأزدى البصرى ، حين كان يجتمع مع عبد الكريم ابن أبى العوجاء وصالح بن عبد القدوس وواصل بن عطاء وعمرو بن عبيد وهذا الأزدى الذى اعتنق مذهب « السّمنية » .

---

(١) البيان والتبيين جـ ١ ص ٢٩ القاهرة سنة ١٣٣٢ هـ .

بقيت مسألة لا تخفى أهميتها فى هذا البحث ، وهى متى غلب الشيطان بشارا ، فذهب مذاهبه التى سجلتها الرواية ، وأفصح عن بعضها شعره الذى وصل إلينا ؟ لا نجد فى الرواية أو فى الشعر ما ينص صراحة على زمن هذا التحول الخطير فى حياة بشار ، والذى كان له أعمق الأثر فى تاريخ البصرة ، ولكن دراسة حياة بشار تهدينا إلى ما نبتغى ؛ أول ما نلقى بشاراً شاعراً يملأ شعره الآذان عند عمر ابن هبيرة ، الذى تولى العراق سنة ١٠٣ ھ ، يمدحه بقصيدة جميلة يسلك فيها بشار مسالك الشعراء السالفين ومناهجهم ، وهذه القصيدة مطلعها :

يخاف المنايا إن ترحلت صاحبى　　كأن المنايا فى المقام تناسبه

ويقال إنه نال عليها أول جائزة سنية رفعت من ذكره ، وجعلته فى مصاف الشعراء ذوى المستوى الرفيع ، ومن هذا يتبين أنه فى سنة ١٠٣ ھ ؛ كان بشار شاعراً له مكانته بين الشعراء ، يمدح الأمراء وكبار رجال الأمة والدولة ويأخذ جوائزهم ، ويظهر أن تألق نجم بشار مهد له السبيل أن يتعرف بواصل بن عطاء ، وتتوثق الصداقة توثقاً قوياً ، جعلت بشاراً كثير المديح لواصل فى شعره ، وجعلته يفضله على أقرانه الخطباء ، وهم خالد بن صفوان ، وشبيب بن شيبة ، والفضل ابن عيسى ، حين ألقوا خطبهم أمام عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والى العراق سنة ١٢٦ ھ ، ويقول فى تفضيله أبا حذيفة واصلاً مادحاً له :

أبا حذيفة قد أوتيت معجبة　　من خطبة بدهت من غير تقدير

وإن قولاً يروق الخالدين معاً　　لمسكت مخرس من كل تحبير[1]

ومن هذا المدح لواصل بن عطاء فى خطابته عند عبد الله بن عمر بن عبد العزيز يتبين أن صداقة الرجلين ظلت قائمة حتى سنة ١٢٦ ھ ، وتجمع الرواية على أن العداوة نشبت بين واصل وبين بشار حين دان الشاعر بالرجعة وكفر الأمة ، ومعنى هذا أن هذه العداوة كانت إما فى سنة ١٢٦ ھ أو بعدها وأظنها

---

(١) الجاحظ ـ البيان والتبيين جـ ١ ص ١٣ و ص ١٤ القاهرة سنة ١٣٣٢ ھ .

فى سنة ١٢٧ هـ ، حين اختـار كل منهما طريقه الدينى ، بعد هذه الاجتماعات التى كانت تعقد فى بيت الأزدى البصرى(١) ، ذلك لأن الرواية تقول : إن بشـاراً ترك هذه الاجتماعات و بقى مخلطاً محيراً ؛ أى أنه لم يستقر على دين ، ثم تقول رواية : إنه استقر على دين وأن هذا الدين تكفير الأمة والاعتقاد فى الرجعة ، وهذا يؤدى إلى القول إن بشاراً اعتنق عقيدة الروافض ، ونحن إذا أردنا أن ننظر إلى خطوات بشار هذه على ضوء التاريخ ، أمكننا أن نرى فيه رجلاً لم يقنع بدين بعد خروجه من هذه المجالس السرية التى كانت تعقد فى بيت الأزدى ، حتى إذا ما رأى عبد الله بن معاوية يقيم حكماً فى الرى فى سنة ١٢٧ هـ يعتمد على مذاهب المتشيعين المتطرفين مال إلى مذاهبهم ، واكتشف واصل ابن عطاء هذا الميل فوقف يناصبه العداء ، ويحرّض عليه ، وخشى بشار على نفسه فهرب من البصرة ، ولم يعد إليها إلا بعد موت واصل سنـة ١٣١ هـ ،

---

(١) يتبين من هـذا البحث فى العلاقة التى كانت بين واصل بن عطاء وبين بشار بن برد من صداقة ثم عداوة بسبب إختلافهما فى العقيدة أن هذا الاختلاف كان بعد مدح بشار لواصل على خطبته أمام عبد الله بن عمر بن عبد العزيز فى سنة ١٢٦ هـ أو بعدها بقليل و لمـا كان هذا الاختلاف جاء عقب انتهاء اجتماعات هؤلاء الصحابة الذين كان من بينهم بشار وواصل فى منزل الأزرى البصرى أمكن الترجيح بأن اتجاه واصل إلى الاعتزال كان فى سنة ١٢٦ هـ أو بعدها بقليل وهذا يجعلنا لا نقيم وزنا كبيراً للرواية التى تجعل الاعتزال ينشأ باعتزال واصل مجلس الحسن البصرى رحمه الله ومما يعزز أن ظهور المعتزلة تأخر إلى ما بعد وفاة الحسن البصرى ما يذكره ابن النديم أن أبا بكر بن الأخشيد قال عن ظهور الاعتزال «والمشهور عند علمائنا أن ذلك اسم حدث بعد الحسن قال : والسبب فيه أن عمرو بن عبيـد لمـا مات الحسن وجلس قتادة مجلسه فاعتزله عمرو ونفر معه فسماهم قتادة المعتزلة واتصل ذلك بعمرو فأظهر تقبله والرضا به وقال لأصحابه إن الاعتزال وصف مدحه الله فى كتابه » . من الجزء الساقط من فهرست ابن النديم .

Islamic Research Association Miscellany, Vol, I, I. R. A. Series. No. 12,1948

ولما استطاع إبراهيم بن عبد الله بن الحسن ، الذى أيده الروافض أن يتغلب على البصرة وأن تخضع لسلطانه ، شايع بشار الروافض فى عقيدتهم ، ولما انتهى الأمر بقتل إبراهيم وعودة سلطان العباسيين على البصرة ، تحول نشاط بشار إلى الغزل وفى ميدانه ظاهر مذهب الإباحيين الكوفيين .

بشار ومذهب الرافضة

يظهر أن بشاراً انتهى من حيرته التى أعقبت جلوسه مع صحبه فى منزل الأزدى ، وأيد مذهب الكاملية من مذاهب الرافضة ، الذين قالوا بكفر جميع الصحابة بتركهم بيعة على كرم الله وجهه ، وكفر على نفسه بترك حقه لأبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم ، لأن الرواية تنص صراحة على أنه دان بالرجعة ، وكفر الناس جميعاً بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكلاً من هاتين العقيدتين أساس لمذهب الكاملية ، ويؤيد ميله لهذا المذهب ما يروى أنه حين زعم أن جميع المسلمين كفروا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم قيل له : وعلى أيضاً ؟ فأنشد :

وما شر الثلاثة أم عمرو   بصاحبك الذى لا تصحبينا[١]

ومما لا يدع مجالاً للشك ، ما ورد على لسان صفوان الأنصارى يرد به على بشار قال :

فيا ابن حليف الطين واللؤم والعمى   وأبعد خلق الله من طرق الرشد
أتهجو أبا بكر وتخلع بعده   علياً وتعزو كل ذاك إلى برد
كأنك غضبان على الدين كله   وطالب ذحل لا يبيت على حقد
رجعت إلى الأمصار من بعد واصل   وكنت شريداً فى التهائم والنجد[٢]

---

(١) الجاحظ — البيان والتبيين جـ ١ ص ١٠ ط — سنة ١٣٣٢ هـ — والأغانى جـ ٣ ص ٥٩ الساسى — البغدادى . الفرق بين الفرق ص ٣٩ .

(٢) الجاحظ البيان والتبيين جـ ١ ص ١٧ ط سنة ١٣٣٢ هـ .

وفى هذا الشعر يبين صفوان الأنصارى ، الذى انتصر للمعتزلة وخاصم بشاراً وهاجمه فى قصيدة طويلة ، يبين لنا فيها مذاهبه ، وحقد بشار على الإسلام والمسلمين ، يبين أن بشاراً طعن فى أبى بكر رضوان الله عليه وكفره ، وكان صفوان مؤدباً لبقاً فى استعماله كلمة الهجاء بدلاً من التكفير ، أو لعل وزن الشعر دعاه إلى ذلك ، ويقول : إن بشاراً خلع علياً ، أى أنه لم يقره على الصلاحية للإمامة ، لأنه لم يطالب بحقه وتركه لأبى بكر وعمر وعثمان ، وهذا عين مذهب الكاملية .

رأينا أن مذهب الروافض فى البصرة كان يدعى إليه فى دائرة محدودة ، كما أبنا ذلك فى بحثنا عن السيد الحميرى ، وها هو ذا بشار يتأثر بمذهب من مذاهب الرافضة ، ويختار أشدها اسرافاً ، لأنها جميعاً ما عدا الكاملية لا تنقد علياً كرم الله وجهه ، ولا أصحابه الذين آزروه ، ولا أبناءه ، اختار بشار هذا المذهب ، وكانت له صلات بأصحاب هذا المذهب فى الكوفة ، كانوا يجلسون إليه ويستمعون إلى شعره[1] ، اختار بشار هذا المذهب لأنه فيما يبدو صادف هوى فى فؤاده ، ومكّنه من أن يجد وسيلة يثب عليها ، ليفضل دين المجوس على دين الإسلام بعد أن كفر أهله ، ذلك لأن الرواية التى تقول : إن بشاراً دان بالرجعة ، وكفر الأمة الإسلامية ، تقول أيضاً إنه صوّب رأى إبليس فى تقديم النار التى هى مقدسة عند المجوس على الطين وتؤيد ذلك بشعره فى قوله :

الأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار[2]

ولقد كان لإعلانه تفضيل النار على الطين دوىّ تجرد له الشعراء بالرد على

(١) الأغانى ج ٣ ص ٦٢ و ص ٦٣ الساسى .

(٢) الجاحظ : البيان والتبيين ج ١ ص١٦ وص١٧ ط سنة ١٣٣٢هـ والأغانى ج ٣ ص ٢٤ الساسى — البغدادى الفرق بين الفرق ص ٣٩ ط ١٩١٠

بشار، رد عليه معاصره صفوان الأنصارى ، يبين مافى الأرض من فضائل ومزايا لا غنى للبشر عنها ، وأنها خير من النار إلى آخر ماقال ، ورد عليه سليمان الأعمى أخو مسلم بن الوليد الأنصارى بعد موت بشار ، مؤيداً رأى صفوان الأنصارى فى مزايا الأرض ومسفها رأى بشار [١] .

تأثر بشار بمذاهب الكوفيين المتطرفين فى الهجاء

قيل لبشار إنك لكثير الهجاء ، فقال : إنى وجدت الهجاء المؤلم آخذ بضبع الشاعر من المديح الرائع ، ومن أراد من الشعراء أن يكرم فى دهر اللئام على المديح فليستعد للفقر ، وإلا فليبالغ فى الهجاء ليخاف فيعطى [٢] ، تلك كانت حجة بشار فى تناوله الأعراض والذم والطعن فى المهجوين ، ولكن الناقد يلاحظ أنه كان على مثال الهجائين الكوفيين ، الذين تأثروا بمذاهب الغلاة والروافض ، ولئن كان بشار تعلل بهذا الهجاء للوصول إلى المال فلقد كان قاسياً فاحشاً ، لأن هجاءه يصدر عن نفس خبيثة ، تجسم فيها الشر ، وران عليها الإثم ، روى الأصمعى « أن بشاراً كان من أشد الناس تبرماً بالناس وكان يقول الحمد لله الذى ذهب ببصرى . فقيل له ولما يا أبا معاذ ؟ قال لئلا أرى ما أبغض [٣] » ويظهر أن كان لعاهته مدخل فى بغضه لمن يرونه ولا يراهم ، وذلك يبدو فيما قيل له « لو خيرك الله أن تكون شيئاً من الحيوان أى شىء كنت تتمنى أن تكون ؟ قال عقاب ، قيل ولم تمنيت ذلك ؟ قال لأنها تبيت حيث لا ينالها سبع ذو أربع وتحيد عنها سباع الطير [٤] » ، مهما يكن من أمر فقد كان بشار لاذعاً عنيفا فى هجائه ،

---

(١) الجاحظ البيان والتبيين جـ ١ ص ١٨ القاهرة سنة ١٣٣٢ هـ

(٢) الأغانى جـ ٣ ص ٥١ الساسى

(٣) المصدر السابق جـ ٣ ص ٢٢

(٤) الجاحظ ، الحيوان جـ ٧ ص ٣٧ طبعة هارون

ونزل إلى الميدان الذى لعب فيه الكوفيون المجان بالهجاء ، وفاقهم لما امتاز به من قوة فى الشعر ، ومعرفة بمسالكه ، وقدرة على اللغة .

كان بشار صديقا لحماد عجرد ، ثم اتصل بينهما الهجاء كما ذكرنا ذلك فى الشعراء المجان بالكوفة ، ثار بينهما الهجاء على نحو يصور أنهما كانا يعبثان بهذا اللون من الشعر تارة ، ويجدان فيه تارة أخرى ، ولا نريد أن نكرر ما سبق أن قلناه ، ولكن نحب أن نشير إلى تفوق بشار على صاحبه ، قال على بن المهدى « أجمع العلماء بالبصرة أنه ليس فى هجاء حماد عجرد شىء جيد إلا أربعين بيتاً معدودة ولبشار فيه من الهجاء أكثر من ألف بيت وكل واحد منهما هو الذى هتك صاحبه بالزندقة وأظهرها عليه وكانا يجتمعان عليها فسقط حماد عجرد وتهتك بفضل بلاغة بشار وجودة معانيه وبقى بشار على حاله لم يسقط ، عرف مذهبه فى الزندقة فقتل به[1] » ، اتهم كل من بشار وحماد عجرد صاحبه بالزندقة ، ولكن كان بشار مضللا يحب أن يظهر للناس أنه لايعرف هذه الزندقة التى تشيع فى عصره وأنه يفهمها كما يعرفها الناس ، امعاناً فى إيهام الناس ببعده عنها ، فمن ذلك مارواه ابن أبى عيينة ، قال : « حدثنا حماد عجرد لما أنشد قول بشار فيه

يا ابن نهبى رأسى علىّ ثقيل واحتمال الرأسين أمر جليل
فادع غيرى إلى عبادة ربّيـ ـنِ فإنى بواحد مشغول

والله ما أبالى بهذا من قوله وإنما يغيظنى منه تجاهله بالزندقة ويوهم الناس أن الزنادقة تعبد رأساً ليظن الجهال (عدم معرفته بها) لأن هذا قول تقوله العامة لا حقيقة له وهو والله أعلم بالزندقة من مانى[2] » ، كان الرمى بالزندقة من أخص صفات بشار حين يهجو خصما يمكن أن يطعنه بهذا السهم المسموم ، وحين يهجو

---

(١) الأغانى جـ ١٣ ص ٨٢ الساسى

(٢) المصدر السابق جـ ١٣ ص ٧٣

أمثاله من الزنادقة على نحو ما كان يفعل المجان فى الكوفة ، كان عبد الكريم ابن أبى العوجاء صديقا لبشار ولكن هذه الصداقة لم تمنعه أن يصف صاحبه بالزندقة ، والخروج عن الإسلام ، قال يهجو ابن أبى العوجاء :

قل لعبد الكريم يا ابن أبى العو ... جاء بعت الإسلام بالكفر موقا
لا تصلى ولا تصوم فإن صم ... ت فبعض النهار صوماً رقيقا
لا تبالى إذا أصبت من الخمـ ... ـر عتيقا ألا تكون عتيقا
ليت شعرى غداة حليت فى الجيـ ... ـد حنيفا حليت أم زنديقا(١)

على هذا النحو كان يجرى هجاء بشار حين يطعن الخصم بالزندقة ، يبرىء نفسه ويتهم غيره ، ويوهم الناس أنه مخلص للاسلام ، وهو فى هذه الناحية يخالف المجان الكوفيين ، الذين كانوا لا يعيرون مثل هذا الاتجاه التفاتا ، ذلك لأنهم يعيشون فى هذه البيئة التى أنبتت هذه المذاهب المتطرفة ، أما بشار فقد كان يعيش فى مجتمع سنى ، تحترم فيه قواعد الإسلام وشعائره ، فالتزم ألا يثير المظنة به فى هجائه .

أما الطعن فى الأعراض فكان يحلو لبشار أن يجعل العرب موضعاً له ، ولقد سلّط عليهم لسانه إلى درجة تستفز كل نفس ، ويأباها كل ذوق ، ونستطيع أن نضرب لذلك مثالاً بقصة الزيدى معه ، قال محمد بن سلام « وقف رجل من بنى زيد شريف لا أحب أن أسميه على بشار ، فقال له يا بشار قد أفسدت علينا موالينا تدعوهم إلى الانتفاء منا وترغبهم فى الرجوع إلى أصولهم وترك الولاء وأنت غير زاكى الفرع ولا معروف الأصل . فقال له بشار والله لأصلى أكرم من الذهب ولفرعى أزكى من عمل الأبرار وما فى الأرض كلب يود أن نسبك له بنسبة ولو شئت أن أجعل جواب كلامك كلاما لفعلت ولكن موعدك غداً بالمربد .

---

(١) المصدر السابق جـ ٣ ص ٢٥

فرجع الرجل إلى منزله وهو يتوهم أن بشاراً يحضر معه المربد ليفاخره . فخرج من الغد يريد المربد فإذا رجل ينشد :

شهدت على الزيدى أن نساءه ضـياع إلى أير العقيلى تزفر

فسأل عمن قال هذا البيت فقيل له هذا لبشار فيك . فرجع إلى منزله من فوره ولم يدخل المربد حتى مات(١) » ، وهذه القصيدة التى مطلعها هذا البيت والتى قيلت فى الزيدى أنشدت ليونس وهى :ـ

بلوت بنى زيد فما فى كبارهم حلوم ولا فى الأصغرين مطهر
فابلغ بنى زيد وقل لسراتهم وإن لم يكن فيهم سراة توقر
لأمكم الويلات إن قصائدى صواعق منها منجد ومغوّر
وجدتهم لايتقون دنيـــة ولا يؤثرون الخير والخير يؤثر
يلفون أولاد الزنا فى عدادهم فعدتهم من عدة الناس أكثر
إذا مارأوا من دأبه مثل دأبهم أطافوا به والغى للغى أحور
لو فارقوا من فيهم من دعارة لما عرفتهم أمهم حين تنظر
لقـد فخروا بالملحقين عشية فقلت افخروا إن كان فى اللؤم مفخر
يريدون مسعاتى ودون لقائها قناديل أبواب السماوات تزهر
فقل فى بنى زيد كما قال معرب قوارير حجام غدا تتكسر(٣)

فقال يونس للذى أنشده حسبك حسبك ، من هيّج هذا الشيطان عليهم ؟ قيل فلان ، فقال رب سفيه قوم قد كسب لقومه شراً عظيما »(٢) ترى بشاراً يدور حول الطعن عليهم إذ وصف كبارهم بالطيش وصغارهم بأنهم نجس ويهددهم بالويل

(١) الأغانى جـ ٣ ص ٥٠ الساسى
(٢) المصدر السابق جـ ٣ ص ٥٣
(٣) المصدر السابق جـ ٣ ص ٥٠ الساسى .

والثبور لأمهاتهم ، وينزل عليهم جميعاً اللعنات ، وذلك لأنهم قوم يتصفون بكل دنية وخسيسة ، ولا يعرفون الخير ، وأن عددهم الكثير إنما كان نتيجة ضمهم لأولاد الزنا واعتبارهم أبناءهم ، وأنهم لايميلون إلا لمن على شا كلتهم ، ممن صغرت نفسه وهانت عليه كرامته ، وأنهم لو نفوا من سلك فى عدادهم من أولاد الزنا ، لكانوا من القلة إلى حد أن تنكرهم أمهاتهم ولا يعرفنهم لأنهن ألفن رؤيتهم مع هؤلاء الطارئين ، وهن لا يعرفن الأصيل من الدخيل ، والجميع عندهن لايفترقون ، و بنو زيد يفخرون بهؤلاء الملحقين وهو أمر يصور مافيهم من لؤم وضعة ، ويلاحظ أن بشاراً لا يتهم الأمهات بالفجور إنما يرميهن بحب أولاد الفجور ، ولهذه الإشارة مغزاها ودلالتها إذا ماقوبلت بالبيت الذى افتتح به القصيدة ، والذى رواه محمد بن سلام ، و إذا لم يكن ماقاله بشار فى بنى زيد طعناً وقذفاً ، فماذا يسمى ؟ اللهم إن الشاعر حاول بالتلميح دون التصريح ، وإن كان القذف فى مطلع القصيدة واضحاً لا يحتاج إلى دليل .

احتال بشار للتشهير بنساء العرب ، وتسلق على علة النسيب ، ليصل إلى ذلك وانتحى به نحواً عجباً ، إذ هو فى حقيقته هجاء يطعن به كرامات الرجال ، وإن رام به رضا النساء ، ومن طبعهن حب المديح لهن ووصفهن بآيات الجمال ، أراد هذا الخبيث أن يرضى نفسه المتعطشة للطعن والتجريح ، بأن يستغل ضعف النساء ورغبتهن فى النسيب ليطعن الرجال ، هذا الذى نراه يتبين من قول محمد بن سلام « قال يونس النحوى العجب من الأزد يدعون هذا العبد ينسب بنسائهم ويهجو رجالهم ويقول (فى قصيدة مطلعها) :

ألا ياصنم الأزد الذى يدعونه ربا

ألا يبعثون إليه من يفتق بطنه [(1)] ؟ » ويؤسفنا أن هذه القصيدة لم تصلنا ،

---

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٥٣ .

وإنما الرواية توحي بكثير مما ذكرنا بعضه، ولقد سبق أن ذكرنا أن ضياع شعر بشار لم يمكّنا أن نذهب بالبحث إلى غايته، ونضطر اضطراراً إلى أن نتخيل من إيحاء شعره ما كان عليه الأمر.

بقيت كلمة فى هذا الهجاء الذى قاله بشار فى معاصريه، وهى خاصة بخصومته لواصل بن عطاء الغزال، هجا بشار واصلا وسخر منه، وأضحك الناس عليه، مستغلا صفاته الجسمية فقال فيه:

مالى أشايع غزّالاً له عنق   كنقنق الدّو إن ولى وإن مثلا
عنق الزرافة مابالى وبالكم   تكفرون رجالاً كفروا رجلا

ترى بشاراً يربط بين عقيدة واصل وبين صفاته الجسمية، كأنّ بينهما علاقة، قال إنه لا يريد أن يتبع مثل هذا الرجل، الذى من صفاته أن له عنقاً غريباً، وأن هذا العنق كعنق الزرافة، وكيف يجلس إلى رجل مثل واصل، وهو كظليم الفلاة إن أقبل أو أدبر، يقصد بهذا كله أنه رجل يثير منظره الضحك، ولا يستطيع الإنسان أن يتمالك نفسه إذا رآه، وأن مثله لا يجوز أن يتصدر أو يكون له مذهب يعتنق أو يؤخذ عنه، هذا الهجاء جعل صفوان الأنصارى فى رده على بشار الذى يبيّن فيه مذاهب بشار وتعلقه بعقائد الكوفيين المتطرفين، يحاول أن يدفع عن واصل هذه السخرية التى أثارها بشار من طول عنق واصل بن عطاء، بوصفه لواصل بأنه رجل يستحق آيات التكريم والتبجيل، وبأنه رجل مهاب، استطاع أن يخاصم بشاراً ويضطره إلى الهرب من البصرة، هائماً على وجهه بين التهائم والنجد، هذا اللون من هجاء بشار لواصل نراه عند المجان الكوفيين، وهو يسير على هديهم فيه، ولكنه يقصر عنهم، لأن الكوفيين برعوا وتفننوا فيه، أما بشار فليس شيئاً إذا قيس بهم فى هذا الميدان، ذلك لأن بشاراً كان ذا طبع عنيف، نراه جاداً فى حياته كلها، يستعد لملاقاة خصمه، ويرسم الخطة التى يهاجمه بها، ويسير على فكرة قد استقرت فى نفسه بعد

اقتناع ، أما الكوفيون فكانت الحياة لديهم لهوا ولعباً وعبثاً ومجونا ، وتوحى لهم هذه البيئة بما تستحدث فى جو الطرب واللهو ، بما لم يتح لبشار ، هجا بشار واصلا واتهمه مترسماً فى ذلك خطى الكوفيين المجان ـ بالزندقة ، إذ وصف واصلا بأنه ديصانى (١) ، نرى ذلك فى دفع صفوان الأنصارى هذه التهمة عنه ، قال صفوان يخاطب بشارا :

أتجعل عمرًا والنطاسى واصلا كأتباع ديصان وهم قمش المد

على أن اتهام بشار لواصل بالزندقة لم يكن له ما كان يبتغيه بشار من إسقاط واصل و إثارة المجتمع عليه ، ذلك لأن واصلا لم يكن موضع ريبة معاصريه من بنى مضره ، على العكس من بشار الذى كانوا يتهمونه و يبغضونه ، و يلاحظ الناقد أن اتهام بشار لواصل بالزندقة كان سلماً يرتقى عليه للتشهير بمذهب المعتزلة واصفاً إياه بمجانبة الدين ، ولم يخف على صفوان ما كان يهدف إليه بشار من ذلك فقال :

وتحكى لدى الأقوام شنعة رأيه لتصرف أهواء النفوس إلى الرد

كان بشار ماكراً خبيثاً حاول أن أن ينقد مذهب المعتزلة ، ليصور مافيه من إسراف ومآخذ لا يرضى عنها الدين الإسلامى ، لا ليخدم الدين أو ليغضب له ، بل ليهيج النفوس على المعتزلة و يشغل الناس بالرد على واصل ومذهبه ، للدفاع

---

(١) الديصانية هم أصحاب ديصان وعقيدتهم تتلخص فى أنهم أثبتوا أصلين نوراً وظلاماً والنور يفعل الخير قصداً واختياراً والظلام يفعل الشر طبعاً واضطراراً ، وقال بعضهم : إن النور خالط الظلمة باختيار منه ليصلحها ، فلما حصل فيها ورام الخروج منها امتنع عليه ذلك ، وأصحاب ديصان كانوا قديماً بنواحى البطائح ـ وهى منطقة تقع شمال البصرة ، مابين دجلة والفرات ـ وبالصين وبخراسان أمم منهم متفرقون ، (راجع الفهرست لابن النديم ص ٣٣٨ و ص ٣٣٩ طبعة أوربا والملل والنحل للشهرستانى) .

عن دينهم الذى صوّره لهم بشار أن واصلا يفسده بمذهبه ، هذا الدور الذى لعبه بشار لم ينجح فيه ، لسببين . الأول : أن المعتزلة كانوا لا يعادون الدولة العباسية ومنهم من كان صديقاً شخصياً للخليفة أبى جعفر المنصور ، فمكّنهم موقفهم هذا أن يتجنبوا ريبة أولى الأمر فيهم ، وثانياً : كانوا يدفعون عن الإسلام ضد الثانوية والمذاهب الأخرى المتطرفة ، فلم يصدق الناس أن الذين يفعلون ذلك يحاربون الإسلام ويفسدونه على زعم بشار .

وخلاصة القول ، ظهر بشار فى هجائه هذا على النحو الذى بدا فى شعر الكوفيين الذين أخذوا بأسباب المذاهب المتطرفة ، سار فى الطريق الذى رسموه فى الهجاء ، وتأثر بمناهجهم فيه تأثرًا برز فى شعره واضحاً ، ولئن كان قد اختلف عنهم اختلافاً يسيراً أملته عليه البيئة التى كان يعيش فيها ، فذلك أمر لا يخدع الباحث من أن يرى حقيقته ، أنه فى زمرتهم .

بشار ومذاهب الغلاة الكوفيين

خاصمت المعتزلة وعلى رأسهم واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد بشارا لعقيدته ، التى كانت عقيدة الكاملية من الروافض ، وكانت الخصومة عنيفة لم يكتف فيها المعتزلة بالجدال ورد الباطل ، بل ذهب واصل إلى تحريض أهل البصرة ، ودعاهم صراحة إلى أن يجدوا الوسيلة لقتل بشار ، قائلا لهم « أما لهذا الأعمى المكنى بأبى معاذ من يقتله ، أما والله لولا الغيلة خلق من أخلاق الغالية (الغلاة) لبعثت إليه من يبعج بطنه على مضجعه ، ثم لا يتولى ذلك إلا عقيلى أو سدوسى[1] »

وخطا زميل واصل عمرو بن عبيد خطوة عملية أخرى فى سبيل محاربة بشار ، فأوعز إلى رجال الدولة وكان مقرباً للعباسيين بقتله . وما كاد بشار يشعر بالمؤامرة حتى هرب واختفى ، وظل مختفياً حتى مات واصل ، ثم عاد إلى البصرة ،

(١) الكامل للمبرد ج ٣ ص ١١٢ ط سنة ١٣٣٩ الأغانى ج ٣ ص ٢٤ الساسى .

ويظهر أنه فى هذا الغياب عن البصرة تأثر بمذاهب الغلاة الذين دعوا إلى الأباحية ذلك لأننا نلاحظ أن بشاراً كان قبل هربه من البصرة يعتنق مذهب الروافض، يدين بالرجعة ويكفر المسلمين مما جعل واصلا وزميله عمراً يخاصمانه ويضطرانه إلى الهرب، ثم نتأمله بعد عودته إلى البصرة بعد موت واصل فنجده يسلك مسلكا جديداً، نراه لايدعو إلى مذاهب الرافضة كما كان يفعل قبل هربه، وإنما يدعو إلى اللذة وإباحتها، وهذا مانادى به الغلاة الأباحيون، ويبدو أن بشاراً لم يعتنق مذهباً بعينه من مذاهب الغلاة التى كانت تستمد إباحيتها من المزدكية الفارسية، ذلك لأن صفوان الأنصارى لم يحدد لنا، أو لعله لم يعرف المذهب الغالى الذى اتجه إليه بشار، لأنا نراه يشير إليها جميعاً تقريباً دون تفرقة، على أنها عقيدة بشار قال: —

وتفخر بالميلاء[1] والعلج عاصم ونضحك من جيد الرئيس أبى جعد

ويقول أيضاً: —

أتجعل ليلى الناعطية نحلة وكل عريق فى التناسخ والرد

عليك بدعد والصدوف وفرتنى وحاضنتى كسف وزاملتى هند

ألا تراه يصف بشاراً بأنه يفخر بزعامة الميلاء، وهى امرأة كوفية معاصرة لبشار، ولها رياسة عند الغلاة، وكانت حاضنة الكسف أبى منصور العجلى، الذى اتخذ من الخنق وسيلة لحمل المجتمع على الخضوع لمذاهب الغلاة، ويحدثنا فى قصيدته عن اتجاه بشار نحو الغلو، فيصوره رجلا يتخذ نحلة ليلى الناعطية مذهباً، وليلى هذه هى امرأة كوفية كانت تعيش زمن محمد بن الحنفية، كانت هى وهند المزنية بعد انتهاء أمر المختار بن أبى عبيد تستقبلان سراً كل غال من الشيعة، وفى بيتهما كانت مذاهب الغلو[2] تعلم، ويضيف صفوان إلى ذلك أن بشاراً

(١) فى الأصل الميلاد وهو خطأ من النساخ

(٢) الطبرى سنة ٦٧ ص ٧٣١ طبعة أوروبا

كان يدفعه الميل إلى الغلو والاسراف أن يأتم بكل شخص يؤمن إيمانا عميقا بتناسخ الأرواح وانتقالها من جسم إلى جسم ، ويهتدى بكل داعية يقول بعودة الأرواح ، ونرى صفوان يشير على بشار بعد ذلك أن يخرج من هذا التكلف الذى أخذ نفسه به ، وينضم إلى غلاة الكوفة جهرة ، ويرحل إلى هذا المصر حيث يجد حميدة والميلاء وصاحباتهما ، اللاتى يسعدهن أن يكون بينهن يرعينه ، كما رعين أمثاله أبا منصور العجلى والمغيرة بن سعيد وغيرهما ، لأن البصرة ليست مقراً لمثله ، ومذاهبه لاتجد لها أذناً صاغية ، وأن مثله لايجوز له أن يتصدى لرجلين كريمين كواصل بن عطاء وعمرو بن عبيد اللذين يدفعان عن الدين مايراد به من افساد ، ونحن إذ نقرأ قول صفوان نراه يرمى بشاراً بالميل إلى كل مذهب شيعى متطرف ، يصوره يذهب مع الرافضة فى قولهم بالتناسخ وعودة الأرواح ، ويصفه مفتوناً بالغلاة ، دون أن يحدد المذهب الغالى الذى كان يميل إليه ، وأما إشارة صفوان فى قوله :

عليك بدعد والصدوف وفرتنى   وحاضنتى كسف وزاملتى هند

فلا تدل على مذهب غال بعينه ، وإنما تصور بشاراً يميل إلى الأباحية التى تقول بها مذاهب هؤلاء النسوة ، اللاتى يعتنقن مذاهب غلاة الكوفة الأباحيين ، التى دعتهن أن يبذلن من أنفسهن لأصحاب الشهوات مايشتهون . هذا الميل إلى غلاة الكوفة الذى ينسبه صفوان لبشار يبدو فى غزل بشار ، وفى دعوته لشباب البصرة أن يعنوا بلذاتهم دون حساب لأى اعتبار آخر .

اتخذ بشار الغزل مطية لدعوته إلى إباحة اللذة ، وذلك بتحريض الشباب ألا يعبأ بتقاليد أو أوضاع دينية فى سبيل الفوز باللذة ، وكان يصور هذه الدعوة فى ألفاظ حلوة معسولة ، تصور خلجات نفوس الشباب ، وتثير خيالهم ، ويكون من إيحائها مايدفعهم إلى أن يرتكبوا مايهدف إليه الشاعر ، وإليك مثالا من ذلك تخيل حبيباً ومحبوبة كل منهما يتمنى لقاء الآخر ، والرجل أقوى عاطفة وأشد

طلباً ، ولذلك فهو يطلب من حبيبته أن تستجيب لداعى الهوى والقلب ، ويلح فى ذلك إلحاحاً تراه فى قوله : —

لو كنت تلقين مانلقى قسمت لنا ... يوماً نعيش به منكم ونبتهج

لاخير فى العيش إن كنا كذا أبدا ... لا نلتقى وسبيل الملتقى نهج

فالمحبوب وقد برّحه الهوى يقترح على معشوقته ، إن كانت تحبه حقاً ، أن تستجيب لندائه ، فتخصص له يوماً للقاء ، يسعدان فيه ويرضيان عاطفة متأججة ، ويرويان ظمأ بلغ بصاحبه الجهد ، ولا يكتفى المحبوب بالاقتراح بتخصيص اليوم ، ولا يقنع بالفترة الخاطفة فيريد اللقاء المدبر الدائم ، ذلك لأنه لا خير فى الحياة إذا ظل أحدهما بعيداً عن الآخر ، والفرقة تحول بين لقائهما ، وأى طعم للعيش إذا لم يرو الحب شجرته باللقاء ، ذلك الذى إذا ما أريد خلقت له الأعذار ، ومهدت له الوسائل ، وكل من العاشقين يملك الكثير منها ، بعد هذه الديباجة أو قل التمهيد الذى يلين قلوب الشباب ، يتقدم بشار بسهمه يقذفه باسم الحب قائلا :—

قالوا حرام تلاقينا فقلت لهم ... مافى التلاقى ولا فى قبلة حرج[1]

من راقب الناس لم يظفر بحاجته ... وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

انظر إلى بشار كيف يحرض الشباب قائلا : لايغرنّكِ أيتها المحبوبة أن يقال إن التلاقى حرام ، إنه لاينبغى فى شريعة الله أن يلقى الأجنبى الأجنبية ، وألا تبذل المرأة لحبيبها من ذات نفسها مقدار مايبذل ، فأنا أقول لهؤلاء الذين يلوكون هذه الأقوال كيف ذا ؟ وأى حرام فى اللقاء ، بل أى حرج فى أن تتلاقى الشفاه ، أو يسجل العشيق على وجنتى عشيقته قبلة تصور قلبه ، وتطفىء ناراً متأججة فى نفسه ؟ أليس الحب يحلل كلاً من اللقاء والقبل ، ويحض الحبيب أن يسعى لحبيبه ، ويحفز المعشوقة ألا ترى حرجا فى أن تسعد عشيقها ؟ ليس فى اللقاء أو فى القبل حرج ، وما الأمر إلا خشية الناس ، وإذا قدر الحبيبان ذلك عاش كلاهما معذباً

(١) الأغانى جـ ٣ ص ٤٨ الساسى

محروما ، ولكن إذا أسقطا من حسابهما هذا التقدير كانت السعادة والفوز ، والفوز دائما مقدر للجرىء الشجاع ، ينال به مايتمنى و يشتهى من طيبات الحياة . و يلاحظ أنّ بشاراً بعد أن هيَّج شعور المحبو بين حرض على التلاقي وعلى القبل ، ورأى فيهما الحل وعدم الحرج ، مادام الحب يبسط جناحيه و يرفرف بهما على المحبو بين ، والخطورة فى هذا لا فى تحريضه الشباب فى اللقاء ولا فى جنى القبل فحسب ، ولكن فى تحليله هذا الأمر ، تحليلا لا يقره الشرع الحنيف ولا ترضى به الأوضاع الاجتماعية ، وها نحن أولاء نظفر ببشار يحلل فى سبيل اللذة مالا يحلله الدين ، وهو مسلك نهجه غلاة الكوفة الأباحيون ، صاغه بشار صياغة تتلاءم مع أحلام الشباب وتثير خيالهم .

أما التحريض على السعى للوصول إلى اللذة ، وهو أحد الأسس التى انبنى عليها الغلو فى الدعوة إلى الأباحية ، فنجده عند بشار واضحاً ، و يذهب فيه مذهباً عجبا ، لايحرض الرجال على النساء اللاتى يستطاع الوصول إليهن وحسب ، بل يحضهم أن يقتحموا خدور المخبآت ، و يدفعهم دفعا ألا تقف فى وجههم عقبة فى ذلك ، و إليك مثالاً فى ذلك قوله :

لا يؤيسنك من مخبأة قول تغلظه وإن جرحا
عسر النساء إلى مياسرة والصعب يمكن بعد ماجمحا(١)

ألا تراه يحرض طالب الشهوة عند النساء المخبآت ألاّ يصده صاد ، وألاّ ييأس من رفض ، وألاّ يعبأ بقول غليظ ، وألاّ يعنى بشتم وجرح للكرامة ، وألاّ يخشى تهديداً أو وعيدا ، وأن يبقى مصراً على لذته ، طالباً لها عندهن ، زاعماً له أن هذا الاصرار وهذه الصفاقة التى يصطنعها فى سبيل لذته ، سينتهيان به إلى أن يرى المخبأة وقد لانت بعد عنف ، وهدأت بعد ثورة ، فيحظى منها بما يريد ، وتلك نهاية لابد منها ، لأن ذلك من سجية النساء ، يتمنعن و يتغاضبن و يصررن على

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٥٢

الرفض ، ولـكن المثابرة على الطلب تلين هذا العسر ، ومثلهن فى ذلك مثل كل صعب يبتغى ، مهما اشتد غوره ، أمكن بالمثابرة أن ينال .

أما العنصر الثالث فى دعوة بشار إلى الأباحية ، بعد تحليل مانهى عنه الدين وتحريض طالب الشهوة أن يسعى إليها حتى ينالهـا ، فهو عدم التقيد بالتقاليد الاجتماعية ، وهو أمر هام لدى كل ذى دعوة من طراز دعوة بشار ، لأن من الناس من يخضع لنداء الغريزة ، ويستجيب لهاتف الهوى ، لايعنيه دين يصده عن ملذاته ، ولا يثنيه عن ذلك إلا أوضاع وتقاليد اجتماعيه ، قيدت حرية الأفراد ، وهذا الطراز من النـاس يحسبون ألف حساب للعيون المتطلعة ، أو الألسنة التى تنتظر سقطات الغير ، وكانت بيئة البصرة كما يظهر ، تملى هذا اللون من سلوك الأفراد ، ولقد حاول بشار بما أوتى من قدرة شعرية ، وخيال خصب أن يحطم هذا القيد الاجتماعى ، و يبدو أنه نجح فى ذلك نجاحا ملحوظا ، سنتناول أمره فيما بعد . حاول بشار فى سبيل تحطيم القيود الاجتماعية التى تحول بين الإنسان ولذته ، أن يجعلها موضع البحث والجدل ، وأن يسخر منها وأن يبرز أن فرضها على العشاق تعنت ، يجب أن يقلع عنه الناس ، لأنهم يتدخلون فيما لايعنيهم ، وصوّر هذا كله على شكل يؤثر به على الشباب ، و يلائم هوى الأغرار و يقنع ضعاف الأحلام ، ويوحى أن تصرّف الناس وتدخلهم بين العاشق والمعشوق خطأ ، ليس من شأنهم أن يفعلوه ؛ وضع ذلك كله فى قصيدة مشهورة ، رواها أبو عبيدة و إليك مايقول :—

قد لامنى فى خليلتى عمـر   واللوم فى غير كنهه ضجر
قال أفق قلت لا فقـال بلى   قد شاع فى الناس منكما الخبر
قلت وإذ شاع ما اعتـذارك ممـ   ـا ليس لى فيه عنـدهم عذر
ماذا عليهم ومالهـم خرسـوا   لو أنهـم فى عيـوبهم نظروا

أعشق وحدى و يؤخذون به   كالترك تغزو فتؤخذ الخزر
ياعجباً للخلاف ياعجبا   بفى الذى لام فى الهوى الحجر (١)

ها هوذا بشار يتخيل أن له صاحباً سماه عمر ، وأنه يلومه فى حبه ووصاله لمحبوبته ، و يؤنبه على ذلك أشد التأنيب ، وهو لايلقى أذناً صاغية لا لومه ولا لتأنيبه ، لأن لومه وتأنيبه لايجدان إلا قلباً نافراً عاصياً ، ولكن صاحبه يخشى مغبة ماهو فيه ، فينذره و ينبهه إلى سوء العاقبة ، و يقول له أفق مما أنت سادر فيه ، واستيقظ من غفلة لاتدرى ماتنتهى إليه ، ولكنه لايخشى ولايتعظ، و يثور و يرفض نصح صاحبه ، ولكن صاحبه يصر على أن يرعوى ، و ينظر إلى ماقد شاع من أحاديث عنه وعن محبوبته ، وعن هذه الصلة التى تجمع بينهما ، إلى هنا يضع بشار المشكلة ، ثم يأخذ فى حلها ، و إيراد الأدلة على أنهم يتدخلون فيما لايعنيهم، و يأخذون فيما لا شأن لهم به ، وهو بذلك ينقل المسألة من وضعها الاجتماعى إلى وضع آخر ، هو الدخول فى الحرية الشخصية ، قال شارحاً وجهة نظره لصاحبه ، الذى يلوم على شيوع الأحاديث عنه وعن محبوبته ، أن يفسر له تدخل الناس فى أمر ليس بينه و بينهم علاقة أو صلة، يحتجون بها أو يؤاخذون عليها ، أو لا ترى أيها الصاحب أننى وشأنى ! وما يعنيهم من أمرى ؟ أليس الأجدر بهم أن يفتشوا عن عيوبهم بدلا من تعقب عيوب الغير ؟ ! ولم لايتحدثون عن عيوبهم و يتحدثون عن عيوب الناس ؟ هل أخرستهم عيوبهم وأعمتهم ! أنا الذى أعشق أو هذا عيب فيهم ؟ ياله من مسلك عجيب ! ويأبى بشار حين يصل إلى هذا الحد ، إلا أن يسخر و يهزأ و يضرب المثل الذى يصور التجنى ، يصور مسلك الناس فى تحدثهم عن السقطة الخلقية التى وقع فيها ، بأنه كالترك تغزو بلداً فيهب ذلك البلد لينتقم من الخزر بدلا من الترك ، و يتعجب من ذلك غاية التعجب ، و يراه تصرفا غريباً يدل على شذوذ ، ومسلك يخالف ماينبغى أن يكون . مثل هذا

(١) الأغانى جـ ٣ ص ٤٠ وص ٤١ الساسى

الحجاج وهذه المناقشة تخدع الشبان والنساء ، وخاصة أولئك الذين يسيطر عليهم الحب أو تجمح بهم الغريزة فيفكرون بهواهم ، وينقادون لتضليل هذا الشيطان كما سماه يونس النحوى .

يتفرد بشار فى ميدان الحض على الإباحيـة بوصفه لما يكون بين العشيق والمعشوقة فى خلوتهما ، يرويه فى أسلوب جذاب يستوحى فيه أحاديث العشاق ، الذين يسعون للذتهم ، ويتخذون الغزل أداة ووسيلة لإرواء شهوة تكمن فى نفوسهم ، ويقبلون على العشيقة ولا يعنون إلا بما تحقق من رغباتهم ، وإليك فى ذلك قوله :ـ

حسبى وحسب الذى كلفت به　　منى ومنه الحـديث والنظر
أو قبـلة فى خلال ذاك ، وما　　بأس إذا لم تحـل لى الأزر
أو عضـة فى ذراعها ولهـا　　فوق ذراعى من عضها أثر
أو لمسة دون مرطها بيـدى　　والبـاب قد حال دونه الستر
والساق براقة مخلخلهـا　　أو مص ريق وقد علا البهر (١)
واسترخت الـكف للعراك وقا　　لت إيه عنى والدمع منحدر
انهض فـا أنت كالذى زعموا　　أنت وربى مغـازل أشر

فأنت تراه يتدرج فى قوله من الحديث والنظر ، إلى القبلة تدرجاً يثير خيال صغار الأحلام ، وخاصة المراهقين من الشبان ، وشعره واضح وأهدافه لا تخفى وتحريضه غير غامض، ووصف مايجرى بين الرجل والمرأة هو حديث عن الشهوة واللذة ، التى تبتغى عند هذه المرأة .

أعد بشار لإذاعة شعره هذا مجلسين للنساء يسمعهن منه مايشاء أن يذيعه ، كان أحدهما فى الصباح وسماه البردان ، والآخر فى المساء وسماه الرقيق (٢) ،

(١) تتابع النفس ثم انقطاعه من الأعياء
(٢) الأغانى ج ٣ ص ٣٤ و ٦٥ و٩٣ و ج ٦ ص ٤٥ الساسى

قال صالح بن عطية : « كان النساء المتظرفات يدخلن إلى بشار فى كل جمعة يومين فيجتمعن عنده ويسمعن من شعره[١] » ، أتاح لبشار هذان المجلسان أن ينشر شعره فى الغزل ، وأن ينشر جواً فى البصرة عن اللذة والغزل ، جعل الشباب يتقبله ويتغنى به ، نقل أبو الفرج من كتاب هارون بن على بن يحيى أن نجم بن النطاح قال : « عهدى بالبصرة وليس فيها غزل ولا غزلة ألا يروى شعر بشار ولا نائحة ولا مغنية إلا تتكسب به ولا ذو شرف إلا وهو يهابه ويخاف معرة لسانه[٢] » ، خاق هذا الشعر فى الغزل جواً فى البصرة صوّر البلد مباءة للإثم أو موضعاً فيه تلتمس اللذة ، وربما كان هـذا هو الذى جعل المنصور ، حين استقر رأيه على ترشيح ولده محمد المهدى للخلافة من بعده ، أن يرسل محمد بن أبى العباس ، الذى كان ولى العهد حينئـذ ، إلى البصرة يرافقه طائفة من مجان الكوفة ، حتى يستدرجوه ليروى شهوته من الملذات ، التى أتيحت فى البصرة ، روى الطبرى « وجه أبو جعفر مع محمد بن أبى العباس بالزنادقة والمجان فكان فيهم حماد عجرد فأقاموا معه فى البصرة يظهر منهم المجون ، وإنمـا أراد بذلك أن يبغضه للناس[٣] » ، أراد المنصور أن يكون فى وجود محمد بن أبى العباس السفاح بالبصرة وسيلة للتشهير به ، ليتمكن من إقامة ولده ولياً للعهد ، وقد نجح فى ذلك ، أشاع بشار غزله الداعر ونجح فى إثارة الشهوة الكامنة فى نفوس البصريين ، تلك النزعة التى حاربها زياد وقاومها عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، حتى بلغ الأمر أن ظهر فى المجتمع طائفة المخنثين ، وهم طائفة لاتعرف للحياء معنى ، ولا تقيم للحشمة ولا للوقار وزنا[٤] .

---

(١) المصدر السابق جـ ٣ ص ٤٩

(٢) الأغانى جـ ٣ ص ٢٦ الساسى

(٣) الطبرى سنة ١٥٨ ص ٤٢٢ طبعة أوروبا

(٤) الأغانى جـ ٤ ص ١٦٩ الساسى

كان بشار نفسه ينهج هذه الحياة التى كان يدعو إليها شباب البصرة ، شأنه فى ذلك شأن الإباحيين ، كان يشرب الخمر و يأتى الفاحشة و يغوى النساء اغواء كان يوقعهن فى حبائله ، ولقد أخذ ذلك عليه صفوان الأنصارى فقال منددا به : ـ

تواثب أقواراً وأنت مشوّه وأقرب خلق الله من شبه القرد

وكان بشار كثيراً مايمجن مجونا لايحتاط فيه ، كما كان يفعل مجان الكوفة ، والأحاديث التى تروى عنه فى هذا الأمر طابعها الفحش ، وتصور الاستهتار ، وللقارىء أن يرجع للأغانى ليرى ذلك كله [1] .

بشر بشار بمذهب الأباحية على نحو يصوّر الصلة الوثيقة بينه و بين مذاهب الكوفيين الأباحيين ، ولقد كان مشغوفا بهذا المذهب ، ور بما كانت الصلة الوثيقة بين هذا المذهب والمزدكية الفارسية هى التى أثارت حماسه ، وجعلته يستجمع له قواه الفنية فيأتى فى غزله الذى كان فتنة الأغرار من معاصريه بالعجب ، ولا جدال فى أنه ظفر بنجاح لم بظفر به داعية أدهى منه وأقوى ثقافة وهو عبد الله بن المقفع ، الذى ترجم كتاب مزدك ، ولم يكن لكتابه من الأثر ما أراد من ترجمته ، ومن الميسور أن نعرف العلة فى ذلك ، وهى أن بشاراً كان أقدر على فهم معاصريه من ابن المقفع ، فقدم مذهب اللذة على أنه أمر تهتف به الطبيعة البشرية ، أما ابن المقفع فقدم العقيدة الفارسية عارية الوجه ، فنفر منها المجتمع ، ولقد استفز هذا النجاح بشاراً فصوره فى شعره قائلا : ـ

قد عشت بين الريحان والراح والـ ـمزهر فى ظل مجلس حسن
وقد ملأت البلاد ما بين فغـ ـفور إلى القيروان فاليمن
شعراً تصلى له العواتق والـ ـثيب صلاة الغواة للوثن [2]

أثار بشار هذا النجاح الرائع الذى لقيه شعره ، وتملكه الفخر أن يكون على

---

(١) الأغانى ج ٣ ص ٤١ ومابعدها الساسى
(٢) المصدر السابق ج ٣ ص ٦٣

الألسنة تنقله من مكان إلى مكان ، فراح يصور هذا النجاح وذلك الفوز الذى حظى به بأنه ملأ البلاد كلها من الصين إلى القيروان إلى اليمن ، يعنى أن شعره سار فى الأقطار الإسلامية كلها ، و يحتفل به احتفالاً جعله يقول عنه إنه شعر ملأ قلوب الحسان فلهجن به وأنزلنه فى قلوبهن مكاناً سميًا ، فملك نفوسهن ومشاعرهن لا فرق فى ذلك بين ثيب و بكر ، أو بين مزوجة وعانس ، وأنه نزل فى نفوسهن مكانة التقديس والتكريم فاتجهن نحوه فى رضى به ، يلهجن بمدحه و يتغنين به فى حماس ، فى مثل حماس الكافر حين يصلى إلى وثنه .

هال عقلاء البصرة ورجالها المحافظين مسلك بشار وجده فى هذا الشعر الذى يحرض به الشباب ، أن يعنوا بلذاتهم و يحطموا القيود التى تحول بينهم و بين شهواتهم ، فتصدى له « رجال الحديث » ينصحونه و يؤنبونه ، ولكنه كان يلقاهم بأذن صماء وقلب آثر الغواية ، ونفس تجردت للافساد فلا يعى مايقولون ولا ينتهى عما ينهون ، وكان من هؤلاء البصريين الذين أفزعهم بشار بنزعته الأباحية ، مالك بن دينار ، حدث جعفر بن محمد النوفلى — وكان يروى شعر بشار ابن برد — قال « جئت بشاراً ذات يوم فحدثنى قال ماشعرت منذ أيام إلا بقارع يقرع بابى مع الصبح فقلت ياجارية انظرى من هذا ؟ فرجعت إلىّ وقالت هذا مالك بن دينار ، فقلت ماهو من أشكالى ولا أضرابى ثم قلت ائذنى له ، فدخل فقال يا أبا معاذ أتشتم أعراض الناس وتشبب بنسائهم فلم يكن عندى إلا أن دفعت عن نفسى وقلت لا أعود فخرج عنى وقلت فى أثره :

غـــدا مالك بملاماته ... علىّ وما بات من باليه
تناول خوداً هضيم الحشى ... من الحور مخطوطة عاليه
فقلت دع اللوم فى حبها ... فقبلك أعييت عذاليه[1]

لم يجد النصح فى بشار لإصراره على الخطة التى رسمها لنفسه ، وهى الدعوة

---

(٣) المصدر السابق ج ٣ ص ٣٥ الساسى .

إلى اللذة مما اضطرهم إلى أن يلجأوا إلى الخليفة المهدى ، يصفون له غزله بأنه يفسد الشباب ، و يصورونه زنديقا يستحق العقاب ، فتدخل المهدى فى الأمر ونهى بشاراً عن قول الغزل ، ولم يمنعه المديح الرائع الذى كان ينظمه فيه من أن ينسيه واجبه نحو المجتمع ، نظر المهدى فى الشكوى من بشار ، وتحقق من صحتها فأصدر أمره إليه أن ينصرف عن هذا الغزل ، رأى بشار أن أمر الخليفة لابد من إطاعته ، وهو أمر يفسد عليه خطته ، فحاول أن يتظاهر بالانصياع لأمر الخليفة ، على نحو يريد به أن يخدع الخليفة ويحقق أمله فى الاستجابة لمذهبه ، حاول أن يصل إلى هذا الأمر ، وذلك بأن يقول إن الخليفة أمرنى ألا أقول كذا وكذا ، وأنه يلومنى على التشبيب بهذه المحبوبة التى من شأنها ومن جمالها كذا وكذا ، ومن مثال ذلك الشعر الذى يتلعب به بشار قوله :

إن الخليفة قد أبى ... وإذا أبى شيئاً أبيته
ومخضب رخص البنا ... ن بكى علىّ وما بكيته
يامنظـراً حسـناً رأيـ ... ـت بوجه جارية فديته
بعثت إلىّ تسومنى ... ثوب الشباب وقد طويته
وأنا المطل على العدا ... وإذا غلا الحمد اشتريته
وأميل فى أنس النديـ ... ـم من الحياء وما اشتهيته
ويشـوقنى بيت الحبيـ ... ـب إذا غدوت وأين بيته
حال الخليفـة دونه ... فصبرت عنه وما قليته

ويروى أن الجاحظ قال « إن المهدى نهى بشاراً عن الغزل وأن يقول شيئاً من النسيب فقال هذه الأبيات ، وكان الخليل بن أحمد ينشدها ويستحسنها ويعجب بها[1] » ، ظل بشار يستجيب لرغبته فى قول الغزل المثير للشباب ، يتغنى فيه باللذة ثم يضيف إلى ذلك أن هذا ماحرمه عليه الخليفة ، وأنه منصرف

(١) المصدر السابق جـ ٣ ص ٥٣

عنه ، لأنه مطيع له وسميع ، ولـكن هذا الخداع لم يجز على الخليفة ، وتيقن بشار ألا سبيل إلى المخادعة ، فاضطر كارهاً أن يخفى أمره . وفى هذه الفترة التى صدع فيها بشار لنهى المهدى ، واضطر راغماً أن يعدل عن النسيب جهرة ، صور خيبة أمله فى شعر رمزى ، وشأنه فى ذلك شأن غيره من الشعراء الذين تحول بينهم و بين آمالهم حوائل ، فيدفعهم خيالهم أن يقولوا شعراً رمزياً ، لايعنون به أحداً ، و إنما يصور نفوسهم وخيبة أملهم ، قال قدامة بن نوح : « كان بشار يحشو شعره إذا أعوزته القافية والمعنى بالأشياء التى لا حقيقة لها ، فمن ذلك أنه أنشد يوماً شعراً له فقال : ـ

غننى للغريض يا ابن قنان

فقيل له من ابن قنان هذا ؟ لسنا نعرفه من مغنى البصرة ، قال وما عليكم منه ؟ ألكم قبله دين فتطالبونه به ؟ أو ثار تريدون أن تدركوه ؟ أو كفلت لكم به فإذا غاب طالبتمونى بإحضاره ؟ قالوا ليس بيننا و بينه شيء من هذا ، و إنما أردنا أن نعرفه ، فقال هو رجل يغنى لى ، ولا يخرج من بيتى فقالوا له إلى متى ؟ قال من يوم ولد و إلى يوم يموت (١) » .

حاربت الدولة بشاراً لغزله ، لأنه كان يحمل فى طياته الإثم والتحريض على الأباحية ، ناشراً ذلك المذهب الذى حاربته الدولة فى الـكوفة ، بقتل كبار الرجال الداعين إليه ، و يجمل لنا أبو عبيدة الدور الذى لعبه بشار ، والوسائل الذى اتخذت ضد غزله الفاجر ذى الأثر الفتاك ، قيل « سئل أبو عبيدة عن السبب الذى من أجله نهى المهدى بشاراً عن ذكر النساء قال كان أول ذلك استهتار نساء البصرة وشبانها بشعره حتى قال سوّار بن عبد الله الأكبر ومالك بن دينار ماشيء أدعى لأهل هذه المدينة إلى الفسق من أشعار هذا الأعمى وما زالا يعظانه . وكان واصل ابن عطاء يقول إن من أخدع حبائل الشيطان وأغواها لـكلمات هـذا الأعمى

---

(١) المصدر السابق جـ ٣ ص ٣١ و ٣٢ .

الملحد فلما كثر ذلك وانتهى خبره من وجوه كثيرة إلى المهدى وأنشد المهدى مامدحه به نهاه عن ذكر النساء وقول التشبيب وكان المهدى من أشد الناس غيرة قال فقلت له ما أحسب شعر هذا أبلغ فى هذه المعانى من شعر كثير وجميل وعروة ابن حزام وقيس بن ذريح وتلك الطبقة ؟ فقال ليس كل من يسمع تلك الأشعار يعرف المراد منهـا و بشار يقارب النساء حتى لايخفى عليهن مايقول وما يريد ، وأى حرة حصان تسمع قول بشار فلا يؤثر فى قلبها فكيف بالمرأة الغزلة والفتاة التى لا هم لها إلا الرجال ثم أنشد قوله : ـ (ثم أنشد قصيدته التى مطلعها)

قد لامنى فى خليلتى عمر واللوم فى غير كنهه ضجر

ثم قال له بمثل هذا الشعر تميل القلوب و يلين الصعب[1] » ، ولقد سبق أن بيّنا مافى هذه القصيدة التى اتخذها أبو عبيدة مثالا للتدليل على خطر بشار على المجتمع ، وخطر غزله الذى كان يوعز إلى الشباب نساء ورجالا أن يعنوا بلذاتهم ، وذكرنا مافيها من تحريض للشباب أن يقدم على اللذة دون خشية أو حذر ، وسخريته من الأوضاع الاجتماعية التى تحد من حرية الرجال فى ميدان الشهوات، مظهراً نقد الناس لطلاب اللذة أنه تدخل فيما لايعنيهم ، وأنه أولى بهم أن تشغلهم عيوبهم عن عيوب غيرهم ، ورأيناه فى هذه القصيدة يصف مابين الرجل والمرأة ، إذا تمت لهما الخلوة ، وصفاً تتحدث فيه الشهوة والغريزة الجنسية ، استطاع بشار أن يثير غرائز شباب البصرة بغزله ، وأن يقودهم به إلى وهاد اللذات ، وبذلك تحقق حلم الغلاة الأباحيين فى إقامة اللذة دعامة من دعائم الحيـاة الإنسانية فى المجتمع الاسلامى ، ضاق عقلاء البصرة ذرعاً ببشار ، وخشيت الدولة أن يكون من وراء نشاطه مايفسد المجتمع والدين الإسلامى ، فأمر المهدى بضربه ضرب التلف ، فضربه صاحب الزنادقة ضرباً أفضى إلى موته ، ثم ألقى فى البطيحة .

---

(١) المصدر السابق جـ٣ ص ٤٠ و ٤١

قيل ولما مات بشار ونعى إلى أهل البصرة ، تباشر عامتهم وهنأ بعضهم بعضا ، وحمدوا الله وتصدقوا ، لما كانوا منوا به من لسانه .

وختام القول إن بشاراً الذى عده القدماء أحد زعماء الشعر العربى ، كان إلى جانب ذلك شعلة من الذكاء والنشاط ، يملى الرسائل ويشترك فى الجدل الدينى ، ويخاصم المعتزلة وينزل إلى ميدان هذه الحملة التى قامت بها الشعوبية ضد العرب فيسدد طعنات قاسيات ، كما نرى ذلك فى شعره ، ولقد ذهبت به جرأته أن فضل جنســه الفارسى فى مجتمع أقامه العرب ، تفضيلا كان يسخر فى أثنائه بالعرب والأعراب وحياة التقشف والحرمان المألوف فى صحرائهم ، ولعب على مسرح البصرة دوراً خطيراً ، إذ حاول أن يتصدى للمعتزلة يفسد عليهم أمرهم ، وذلك برميهم بالزندقة والديصانية ، ويبغى من وراء ذلك تأليب المجتمع عليهم ، وإثباط همتهم فى الدفاع عن الإسلام ، ومجابهة أعدائه الذين أتوا بعقائد تفسده وتحاربه ، فلما فشل فى ذلك اتجه إلى السياسة وانضم إلى ابراهيم بن عبد الله بن الحسن ، وأيد مذهب الروافض ، فلما لم يتحقق حلمه وانقضى أمر ابراهيم ، ارتد على عقبيه ، ينشد وسيلة يفسد بها الشباب ، ووجدها فى الغزل ، فاتخذه مطية للدعوة إلى اللذة ، وإلى التحلل من قيود المجتمع ، التى تقف عقبة كأداء تحد من حرية الفرد فى حلبة اللذات ، وفى هذه المرة نجح نجاحاً باهراً ، وأقام خلفه مدرسة تشيد بذكره ، وتروى شعره وتأخذ بتعاليمه .

الباب الثانى

الفصل الثالث

تلاميذ بشار ومدرسته وأثر التطرف الكوفى فيها

حورب غزل بشار بن برد وقووم بمختلف الوسائل ، ولكن بيئة البصرة كانت لا تبغضه ولا تدفعه ، رغم الانذار بسوء ما ينطوى عليه هذا اللون من الشعر الغزلى ، يحفز أهلها إلى ذلك ترف وميل إلى تذوق اللذة ، تلك التى كانت أمنية تجول فى نفوس الشباب والمترفين ، فما كادت أنغام اللذة يدوى رنينها ويتردد صوتها الجذاب ، حتى سحرت المفتونين ، وانحطم القيد الذى كانوا يأخذون أنفسهم به ، وتهيأ جو جذب شعراء البصرة أن يستقوا من ذلك المنهل ، الذى أتاحه لهم كبيرهم بشار ، يصورون لمجتمع البصرة متع الحياة الحسية فيجدون فى القوم آذاناً مرهفة ونفوساً راغبة ، انطلقوا فى أجواء اللذة يصفون وردها سعادة ، والحظوة بها نعيما ، وولاة البصرة وسراتها ـ بعد موت بشار ـ يشهدون ذلك ولا ينكرون ، ويسمعون ولا يكرهون ، ذلك لأنهم أخذوا بأسباب الترف ، وتحولوا إلى التمتع بالنعيم الحسى ، يهيئون لأنفسهم من ألوان اللذة ما به يقنعون ، ويملأون قصورهم بالجوارى والغلمان من أجناس شتى ، يحققون لهم مايبتغون .

ترك بشار بعده تراثا يتحدى الذين حاربوه ، يجدّون فى مقاومته ولا يجدون إلى دفعه سبيلاً ، نجح بشار آخر الأمر وإن تآزر « رجال الحديث » والمعتزلة على محاربته ، استطاعوا أن يقهروه ويوردوه موارد الحتف ، ولكنه تفوق عليهم بما خلف من غزل شاع وذاع ، وبشعراء البصرة الذين ساروا فى ركابه ، أو جروا فى الطريق التى فتحها أمامهم ، استطاع هذا الغزل أن يعبّر عن أغراض بشار ،

وأن يدعو إلى اللذة على نحو ما كان يريد ، واستمع له الشباب فى فتنة به ، وكان من ذلك تمهيد للطريق لمن جاءوا من بعده ، ليكملوا مابدأ أو ما أخذ نفسه به ، وليتغنوا بجمال اللذة ويسبحوا بما فيها من متع حسية ، داعين الناس إلى أن يسارعوا إليها ليتذوقوا ألوان طعومها ؛ وكان من نتيجة هذا التمهيد أيضاً الذى قام به بشار ، أن لم يجد خلفاؤه ما وجد أستاذهم من مقاومة تستعين بسلطان الدولة ، ذلك لأن « رجال الحديث » كان قد ضعف أمرهم ، وكانت الدولة قد ابتعدت عن المعتزلة ، فلم يصادقوهم ولم يصادقوها ، أو على أدق تعبير انقطعت الصلة التى نشأت بين المعتزلة والعباسيين إبان قيام دولتهم ، فلم يرهبهم شعراء البصرة ، وانطلقوا فى سبيلهم لايقيمون كبير وزن لمقاومة المعتزلة . كانت هذه المدرسة التى أنشأها بشار فى البصرة تتألف من أبى نواس وحسين الضحاك المعروف بالخليع وسلم الخاسر وابن مناذر و إبان بن عبد الحميد والفضل الرقاشى وغيرهم ممن لم يحفظ لنا التاريخ أسماءهم .

عاش أبو نواس والحسين الضحاك بضع سنوات بعد بشار فى البصرة قبل أن يهاجرا إلى بغداد ، حيث كان نشاطهما الحقيقى ، والذى سنتناول أمره فى موضعه ، تغنى كلاهما بالخمر واللذة مع النساء والغلمان ، حديثاً فتاناً ، وكان أبو نواس أقدر خلف لبشار شاعرية وتصويراً ، شارك فى الدعوة إلى اللذة بشعر كان فريداً فى طرازه ، لما امتاز من حلاوة وطلاوة ، وكان الحسين الضحاك لايقل عنه فى هذا الميدان ، الذى اتخذه أبو نواس موضعاً لشعره ، وهو الخمر والمجون واللذة مع الغلمان والنساء ، وليس لنا أن نطيل الحديث عنهما فى هذا الموضع ، وحسبنا أن نشير إليهما لهذه الفترة التى قضياها فى البصرة قبل الرحلة إلى بغداد ، وأن نشير إلى أنهما استطاعا بما أوتيا من مهارة شعرية أن يخرجا المفتونين باللذة عن حيائهم ، فيتحدثون عن الخمر والغلمان وعن أدوات اللذة .

على الرغم من الفترة القصيرة التى تابع فيها الشاعران أبو نواس والحسين

الضحاك نشاطهما فى البصرة للدعوة إلى التحرر من القيود التى تحول بين الناس و بين اللذة ؛ فقد حالفهما النجاح ، و بلغا ما كانا يريدان ، واستوى الطريق أمام غيرهما من الشعراء ، واستجاب المفتونون بحياة اللذة ، التى وصفت لهم بأن جمالها لايعد له جمال ، وذاع شرب الخمر فى البصرة إلى حد أن قيل أنهم كانوا « لايبيتون إلا عليه فإذا عوتبوا على شربه (المسكر) مع الاعتماد أنه خمر قالوا لأن نشربه ونحن نعلم أنه ذنب نستغفر الله منه أحب إلينا من أن نشربه مستحلين له غير مستغفرين منه[١] » وقارن وكيع القاضى بين الكوفى والبصرى فى شرب النبيذ فقال « إذا رأيت البصرى يشرب فاتهمه و إذا رأيت الكوفى يشرب فلا تتهمه قلت وكيف ؟ قال الكوفى يشرب تدينا والبصرى يتركه تدينا[٢] » ، وشهد رجل عند سوّار القاضى فرد شهادته لشربه النبيذ فقال : ـ

أما النبيـذ فأنى غير تاركه ولا شهادة لى ما عاش سوار[٣]

كل ذلك يجعلنا نميل إلى القول بأن أهل البصرة المفتونين باللذة و بالخمر آثروا لذتهم وفتنتهم بالخمر ، التى دعوا إليها فاستجابوا ، ويبدو لى أن هذه الاستجابة الصريحة من البصريين كانت نتيجة للحض على شرب الخمر . حقاً إن البصريين كانوا من قبل يتعاطون المسكر ولكن فى خفاء ، ولقد ندد بمسلكهم عمر ابن عبد العزيز رحمه الله ، ولكنهم فى هذه الفترة التى دعا إلى الخمر فيها شعراء المجون ، خرجوا عن تقليدهم وصرحوا بشربها ، وان اعتذروا بشتى المعاذير . فإذا تجاوزنا الخمر ومضينا ننظر إلى أمر الميل إلى الغلمان ، بدت لنا هذه اللذة الشاذة أنها أخذت تشيع أيضاً فى البصرة ، على أثر دعوة شعرائها المجان إليها ، ولم يكن هذا واضحاً فى تاريخها قبل قيام هؤلاء الشعراء وجدهم فى الحديث عنها ،

(١) ابن قتيبة الأشربة ص ٧٣ ط سنة ١٩٤٧

(٢) الخطيب البغدادى تاريخ بغداد ج ٦ ص ٢٣٧

(٣) ابن قتيبة الأشربة ص ٨٥ ط سنة ١٩٤٧

والباحث حين ينظر إلى هذا النجاح الذى لقيته هذه الدعوة ، يجب ألا يغفل أن نجاحها لا يرجع إلى مهارة الشعراء وحدها فى الحض عليها ، و إنما كان إلى جانب ذلك اعتبارات أخرى ضمنت لها الفوز والظفر ، منها ميل البصريين إلى الترف ، واختلاطهم بأجناس شتى ، واحتواء المجتمع على عدد كبير ممن يذهبون بدمائهم إلى الفرس ، وقد كانت هذه اللذة معروفة فى فارس من قبل ؛ نجحت الدعوة إلى اللذة مع الغلمان وأخذ بعض البصريين يتحدثون عنها فى غير حياء ولا خجل ، ذهب أبو البصير المنجم إلى قثم بن جعفر بن سليمان العباسى أمير البصرة ، فرأى غلاما مليحا صغير السن فقال له « ما حبسك يا حلقى فلما أكثر عليه بكى وقال أدعو الله على من جعلنى حلقيا[1] » ، مضت هذه اللذة التى دعا إليها خلفاء بشار ، تغزو قلوب المهيئين لها ، حتى شاع أمرها فى المصر ، كما شاع أمر الخمر ، ودفعت عشاقها أن يطلبوها ما وجدوا السبيل إليهـا ، وأغوت بعضهم إغواء دفعهم فى سبيل ماشرهت إليه نفوسهم ، أن تخطفوا الغلمان من الطرقات ، تحدث فى ذلك أبو عباية السليطى فقال « قد فسد الناس قلت وكيف ؟ قال ترى بساتين هزار مرد هذه ما كان يمر بها غلام إلا بخفير قلت هذا صلاح قال لا بل فساد[2] » ، تملـكت اللذات نفوس المترفين والشباب ، وذهبت بهم اللذة مذاهبها ومضت بهم حتى بلغ استهتار البصريين وعدم رعايتهم فى سبيل لذاتهم أى تقليد أو دين ، مايرويه قدامة بن جعفر قال « ولى الرشيد عيسى بن جعفر بن سليمان ابن علي بن العباس عمان فخرج إليها بأهل البصرة فجعلوا يفجرون بالنساء و يسلبوهن و يظهرون المعازف فى طريقهم فبلغ ذلك أهل عمان وجلهم شراة فحاربوه ومنعوه من دخولها ثم قدروا فقتلوه وصلبوه وامتنعوا على السلطان فلم يعطوه طاعة وولوا أمرهم رجلاً منهم[3] » .

---

(١) الجاحظ الحيوان جـ ٦ ص ٤٨٩ طبعة هارون

(٢) الجاحظ البيان والتبيين جـ ٣ ص ١٨٩ ط ١٣٣٢

(٣) الخراج ورقة ١٢٨

سبق أن بينا أن الدعوة إلى اللذة التى قام بها بشار بن برد كانت من ايحاء تعاليم غلاة الكوفة ، فإذا وضعنا هذا أمام أعيننا ونظرنا إلى أثر بشار كبير شعراء البصرة فى الجو الأدبى فيها ، وصلته الوثيقة ببعض شعرائها من تلاميذه ، الذين خلفهم وراءه ، وأضفنا إلى ذلك ما كان بين البصرة والكوفة من صلات قوية ، وما كان من قيام بعض مجان الكوفة المعروفين بميولهم إلى المذاهب المتطرفة بزيارة البصرة بين حين وآخر ، نخص بالذكر منهم والبة بن الحباب ، الذى أغرى أبا نواس بمرافقته ، وعبد الكريم بن أبى العوجاء الذى اتهمته البصرة بأنه كان يفسد أحداثها ، وشددت النكير عليه فهرب واختفى فى الكوفة ودُلّ عليه محمد بن سليمان والى الكوفة (من سنة ١٤٧ إلى سنة ١٥٥ ﻫ) فقتله ، وحماد عجرد الذى كان من كبار الداعين إلى المذاهب المتطرفة ، ورأينا بعض القائمين على الدعوة إلى اللذة مثل سلم الخاسر وأبى نواس يترددون على الكوفة ، ويتصلون بمجانها الإباحيين يعلنون فيها مذاهبهم ، ويجدون فى نشرها ، أى فى أواخر حكم بنى أمية إلى استقرار الأمر لبنى العباس ، وقدرنا ما يحيق بهم من تأثر بما كانوا يشاهدون ويسمعون من المتطرفين الكوفيين ، وروايتهم هذا كله لأصدقائهم من شعراء البصرة ، أمكننا من كل ذلك أن نميل إلى القول أن دعوة شعراء البصرة وخلفاء بشار إلى اللذة كانت من وحى تعاليم الكوفيين المتطرفين ، تلك التعاليم الكوفية التى جعلتهم يسيرون على نمط مجان الكوفة ، ويذهبون مذاهبهم ، وحملتهم على الدعوة إلى اللذة مع الغلمان ، تلك الدعوة التى لا يذكرها تاريخ البصرة إلا منذ ظهورهم .

سلم الخاسر

إذا تركنا هذين الشاعرين أبا نواس والخليع الحسين الضحاك اللذين سنتحدث عنهما فى بغداد ، وتناولنا أمر سلم الخاسر ، فنجده أحد تلاميذ بشار المقربين إليه ، وصفوه فقالوا هوسلم بن عمرو مولى بنى تيم بن مرة ، شاعر بصرى متصرف فى فنون الشعر ، وكان راوية لبشار وتلميذه ، وعنه أخذ ومن بحره اغترف وعلى مذهبه ونمطه قال الشعر ، سمى الخاسر فيما يقول الجماز ابن أخته لأنه « كان نسك مدة يسيرة ثم رجع إلى أقبح ما كان عليه و باع مصحفاً له ورثه عن أبيه وكان لجده قبله واشترى بثمنه طنبورا فشاع خبره وافتضح فكان يقال له ويلك هل فعل أحد ما فعلت فقال لم أجد شيئاً أتوسل به إلى إبليس هو أقر لعينه من هذا[(١)] » ، أما غير الجماز فيحدثنا عن حياته فيقول « وكان على طريقة غير مرضية من المجون والتظاهر بالخلاعة والفسوق ثم تقرأ ومكث مدة يسيرة على حال جميلة فرقت حاله فاغتم لذلك ورجع إلى شر ما كان عليه و باع مصحفا كان له واشترى بثمنه دفترا فيه شعر فشاع خبره فى الناس[(٢)] » ، والذين يصفون حياة سلم أنها كانت كلها مجونا ولهوا ، إنما يسرفون إسرافاً لا تصوره حياة هذا الشاعر ، ذلك لأنه لم يفرغ للعبث والمجون وحدهما ، و إنما دعته ثقافته التى اغترف منها أن يشتغل بالكيمياء[(٣)] ، وهذا يوحى أننا أمام رجل ذى عقل و بصيرة ، آثر حياة اللهو والمجون على حياة الورع والنسك ، وأنه يعرف الطريق التى يسلكها ، ولقد احتاط سلم لنفسه ولحياته ، فانقطع إلى البرامكة يمدحهم ويفيضون عليه من كرمهم ما ضمن له حياته التى أرادها ، وآثر من بينهم الفضل بن يحيى ، حتى قال أبو العتاهية حسدا .

إنما الفضل لسلم وحده   ليس فيه لسوى سلم درك

(١) الأغانى ج ١٩ ص ٧٣ و ٧٤
(٢) الخطيب البغدادى - بغداد ج ٩ ص ١٣٦
(٣) الأغانى ج ٢١ ص ٧٨ طبعة الساسى

ومات سلم ولا يزال البرامكة فى عنفوان مجدهم وذلك سنة ١٧٦ هـ .

كان سلم الخاسر مشغوفاً بأستاذه بشار ، يأخذ عنه وينشر تعاليمه ، ويسير فى ركابه ويهتدى بهديه ، حتى سموه غلام بشار ، وكان يسلك حياة المجون واللهو التى دعا إليها أستاذه بشار ، وذهب به إيثاره لهذه الحياة أن باع المصحف ، لا ليقتات به وإنما ليشبع غاية فى نفسه ، ولم يعبأ بما فى بيعه هذا المصحف من دلالة على استهتاره ، وإيثاره اللهو على كتاب الله ، وربما كان فى قول الرواة أنه مدح العلويين ما يشير إلى أنه اتصل بالمتشيعين وعرف مذاهبهم من قرب وآثرها ، ولقد قيل إن المهدى بلغه أنه مدح العلويين فتوعده وهمّ به ، فقال سلم قصيدة يستعطفه ، فعفا عنه ، وهذه القصيدة مطلعها : —

إنى أتتنى على المهدى معتبة تكاد من خوفها الأحشاء تضطرب

اسمع فداك بنو حواء كلهم وقد يحور برأس الكاذب الكذب

ما لدينا من شعر سلم قليل جداً ، لا يمثل حياة الرجل ولا يعيننا على تصوير مذهبه تصويراً كاملاً ، وما وصل إلينا يدل على أنه دعا إلى اللذة كما دعا إليها أستاذه ، وأنه كان يجد فى شعر أستاذه بشار ما يروقه ، فيأخذه ويذيبه ويقربه إلى الأفهام ، ولكن أستاذه كان حريصاً على أن ينسب إليه ما كان يبتكره فى باب الدعوة إلى اللذة ، وكان يحرص على ألا يسبقه أحد فى قيادة الناس إلى هذا المذهب ، فغضب عليه غضباً شديداً ، يرويه أحمد بن صالح وكان أحد الأدباء قال : « غضب بشار على سلم الخاسر وكان من تلامذته ورواته فاستشفع عليه بجماعة من إخوانه فجاءوه فى أمره فقال لهم كل حاجة لكم مقضية إلا سلما قالوا ما جئناك إلا فى سلم ولا بد من أن ترضى عنه لنا فقال أين هو الخبيث ؟ قالوا ها هوذا فقام إليه سلم فقبل رأسه ومثل بين يديه وقال أبا معاذ خريجك وأديبك فقال يا سلم من الذى يقول : —

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

قال أنت يا أبا معاذ جعلنى الله فداءك قال فمن الذى يقول : ـ

من راقب الناس مات غمّا وفاز باللذة الجسور

قال خريجك يقول ذلك يعنى نفسه ، قال أو تأخذ معانى التى عنيت بها وتعبت فى استنباطها فتكسوها ألفاظاً أخف من ألفاظى حتى يروى ما تقول ويذهب شعرى لا أرضى عنك أبداً فما زال يتضرع إليه ويشفع له القوم حتى رضى عنه[1] » ، كان الغضب على سلم نتيجة ما شعر به بشار من منافسة فى الدعوة إلى اللذة ، وتحريض الناس عليها ، ولكن المذهب وقد جمعهما وسلم وقد تعلّمه من بشار أعادهما إلى سابق ما كانا عليه من مودة وأخاء .

حياة سلم الخاسر توحى بأنه كان يرى رأى استاذه بشار ، ولكن مالدينا من شعره قليل لايدل على نشاط سلم ، ويظهر أن شعره ضاع كما ضاع شعر أستاذه ، وما بقى منه يشير إلى أنه كان ميالا إلى مذهب اللذة ، داعيا إليه ، ويوحى بأنه كان يأتم بالكوفيين المتطرفين من المجان ، يطعن فى الأعراض ، وإذا هجا أقذع كما كان يقذع الكوفيون المجان ، هجا والبة بن الحباب فقال فيه : ـ

يا والب بن الحباب يا حلقى لست من أهل الزناء فانطلق

ويبدو أنه لم يكن أقل تأثيراً من بشار وزملائه المجان فى قلوب الناس ، كما يوحى بذلك بيته الذى أخذه من بشار فعدّله وهذبه وألقاه قوياً يملأ نفوس المفتونين ، وإذا كان سلم أخذ عن بشار الدعوة إلى الأباحية فقد كان يفهم الغرض من هذه الدعوة ، فتقرب إلى أفهام العامة ، ولو أتيح لنا شعره لرأينا الدور الذى لعبه فى هذا المضمار وحظه منه .

---

(١) الأغانى جـ ٣ ص ٤٨ وجـ ٢١ ص ٧٤ الساسى

ابن مناذر

وهذا رجل من مدرسة اللذة التى أنشأها بشار فى البصرة ، عرف بابن مناذر انتهت حياته فى آخر العصر الذى نتحدث عنه ، وهو العصر العباسى الأول ، وابن مناذر رجل فريد فى بابه ، كان إماما فى اللغة وكلام العرب ، وكان أول أمره ناسكا ملازماً للمسجد كثير النوافل ، جميل الأمر ، إلى أن فتن برجل عرف بالورع والتقوى هو عبد المجيد بن عبد الوهاب الثقفى ، فتهتك بعد ستره ، وفتك بعد نسكه ، وعظته المعتزلة فلم يتعظ ، وأوعدته بالمكروه فلم يعبأ ولم يزدجر ، ومنعوه من دخول المسجد فنابذهم وطعن عليهم وهجاهم ، وكان يأخذ المداد بالليل فيطرحه فى مطاهرهم ، فإذا توضأوا اسودت وجوههم وثيابهم[(١)] .

هذا الرجل الذى عرف بابن مناذر هو ـ كما يروى على بن سليمان الأخفش عن محمد بن يزيد النحوى ـ مولى صبير بن يربوع وكان يسمى محمدا و يتحدث عنه الجاحظ فيقول إنه « محمد بن مناذر مولى سليمان القهرمان وكان سليمان مولى عبيد الله ابن أبى بكرة (أحد أثرياء البصرة) مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أبو بكرة عبدا لثقيف ثم ادعى عبيد الله بن أبى بكرة أنه ثقفى وادعى سليمان القهرمان أنه تميمى وادعى ابن مناذر أنه صليبة من بنى صبير بن يربوع ، فابن مناذر مولى مولى مولى وهو دعى مولى دعى وهذا ما لا يجتمع فى غيره قط ممن عرفنا و بلغنا خبره[(٢)] » ويلاحظ أنه فى عصر الجاحظ كان كثير من الموالى يدّعون أنهم عرب خلص ، وربما كانت هذه الملاحظة تؤيد الجاحظ فى تعريفه بابن مناذر ، وتدل على أنه لم يتحامل عليه ، أدرك ابن مناذر المهدى ومدحه ومات أيام المأمون .

انضم ابن مناذر إلى المدرسة التى أنشأها بشار وصادق أبا نواس وتعلم مذاهبها ،

---

(١) الأغانى جـ ١٧ ص ٩ و ١٠ الساسى

(٢) المصدر السابق جـ ١٧ ص ٩

وسار فى نفس الطريق الذى رسمها مجان البصرة ومجان الـكوفة من قبلهم ، تهتك كما تهتكوا ، وشتم الأعراض ، وأظهر البذاء وقذف المحصنات ، ووجبت عليه حدود ، فهرب إلى مكة و بقى بها حتى مات ، ولسنا ندرى إن كان مذهبه هذا الذى كان طابع المجان فى الـكوفة قد أخذه من مجان البصرة أو تعلمه على وافد كوفى إلى بلده ، لأن شعره ضاع ولم يبق منه شىء يرجح شيئاً .

يروى قوم من القدماء أن ابن مناذر كان دهريا ، وربمـا كانوا فى قولهم مصيبين ، ذلك لأن ابن عائشة حين أُنشد له قصيدته التى يرثى فيها عبد المجيد ابن عبد الوهاب الثقفى ، الذى كان يتعشقه ، قال حين وصل المنشد إلى هذا البيت :

وأرانا كالزرع يحصدنا الدهـ ـر فمن بين قائم وحصيد

« اجعله يحصدنا الله فليس هذا من كلام المسلمين [١] » ، وليس غريبا وقد خرج ابن مناذر من حياة الصلاح والورع إلى ميادين الخلاعة واللهو والمجون أن ينطلق فى الأجواء ، متحررا من القيود التى كانت تمسكه من قبل وهو فى نسكه فيتأثر بمذهب الدهريين ، وليس لدينا شاهد يدل على ما إذا كان هذا المذهب عرفه من الدهريين ، الذين كانوا فى البصرة والذين وقف لهم المعتزلة يردون عن مذهبهم ، يسفهونه و يبينون بطلانه ، أو كان نتيجة معرفته لمذاهب الـكوفيين المتطرفين ، و يغلب على الظن أنه كان نتيجة تأثره بمذهب المعمرية ، وهى إحدى الفرق الخطابية التى نشأت فى الـكوفة ، وهم من الغلاة الذين أباحوا كل ملذات الحياة ، لايعرفون فيها تحريما ، ولا يعترفون بجنة أو نار أو بعث أو حساب ، و يعزز هذا الظن ما اشتهر عن ابن مناذر أنه تهتك وشتم الأعراض وقذف المحصنات ، وهو مسلك يشير إلى أنه كان يقتدى بالـكوفيين المتطرفين ، هذا ونقل مذهب المعمرية إلى البصرة كان ميسوراً ، لما كان بين أهل المصرين الـكوفة والبصرة من اتصال ، كانت التجارة تدعمه وتدفع إليه .

(١) المصدر السابق جـ ١٧ ص ٢٥

لانستطيع أن نذهب إلى أبعد من هذا الحد ، لأن شعر ابن مناذر وهو ماينبغى أن يكون عماد البحث ليس بين أيدينا ، وتكفينا هذه اللمحة الدالة ، التى توحى بها الرواية ، والتى بنيت على ما اشتهر به ابن مناذر فى حياته ، وهى تشير إلى أنه تأثر بمن لايعرفون للمرأة إحصانا ، ولا للأعراض كرامة واحتراماً ، و يسلك سبيلهم و يسير فى أجوائهم غير مقصر ولا متخاذل .

الآن وقد فرغنا من دراسة تأثر البيئات الأدبية فى البصرة بمذاهب الكوفيين المتطرفين ، ننتقل إلى مصر آخر وهو بغداد وسنرى الحياة وقد تطورت وأخذت بألوان الحضارة العباسية ، كيف تقابل هذه المذاهب المتطرفة التى ظهرت فى الكوفة ، والتى تحدثنا عنها فى الفصل الثانى من الباب الأول ، ودور الشعراء فى هذا المجال ، وسيكون حديثنا مقصوراً على الزعماء ، الذين شقوا الطريق لهذه المذاهب ، لأن غيرهم من الشعراء إنما ساروا فى الطريق التى رسموها ، لايخرجون عنها ولا يزيدون .

الباب الثالث

آيات التطرف الـكوفى فى المحيط البغدادى

الفصل الأول

الدعوة إلى اللهو وإلى اللذة

بغـــــداد



قبل أن ندرس آيات التطرف الـكوفى فى بغداد ، يجدر بنا أن نلقى نظرة سريعة إلى تطور هذا المصر العظيم ، الذى أسسه خلفاء بنى العباس ليكون قاعدة للملك ، ومقرا لرأس الدولة ، وموضعا تصدر منه الأحكام ، وترسم فيه السياسة ، التى على هديها يسير الحـكام فى الأقاليم الإسلامية ، التى خضعت لحـكومة العباسيين ، أنشأ المنصور هذه المدينة العظيمة ، وحصنها تحصينا يجعلها بمنأى عن أهداف الطامعين فى ثل عرشه فى أيامه ، وجاب لها من الأنصار والاتباع ، واختط لهم فيها من الخطط ، ماجعلهم يقرون عينا بسكناها ، وحببهم فيها بأن خلع عليهم من الألقاب ما جعلهم يشعرون بقربهم للسلطان ، ويلمسون رضاه عنهم ، سمى طائفة منهم الشيعة أى شيعة بنى العباس ، ولقب بعضا الأنصار ، ليلقى فى روعهم أنه يتيمن بهم ، كما سمى آخرين الصحابة ، مصوراً لهم أنه يعتز بهم (١) ، وأغرى

(١) راجع الخطيب البغدادى تاريخ بغداد ج ١٠ ص ١٥ و ج ٨ ص ٤٨٩ وج ٩ ص ٢٢٣ و ٢٣٨ ج ٦ ص ٣١٦ و ج ٩ ص ٢٤٠ ، ٣٤٨ و ج ١ ص ٨٨ وراجع Le Strange, Baghdad, p. 28.

وعلينا ألا نخلط بين هؤلاء الاتباع لبنى العباس وبين غيرهم من الذين عرفوا بهذه الألقاب من قبل ولهم كيان مستقل .

الأبناء أن يتخذوها مقراً ، وبذلك أوجد بنو العباس حولهم جواً يفيض بالولاء لهم ، ثم أطلقوا بغداد للراغبين فى سكناها ، فهاجر إليها ـ كما يقول اليعقوبى ـ من أصناف الناس من أهل الأمصار والكور ، وانتقل إليها من جميع البلدان القاصية والدانية ، وآثرها الكثيرون على أوطانهم ، لما امتازت به من أمن وطيب موقع وعذوبة ماء ، وازدانت بغداد بالأثرياء وبشباب بنى العباس وبرجال الحكومة وبالقواد ، وهؤلاء أقاموا فيها القصور التى حوت من أنواع الترف والنعيم ما جعلها قبلة الشعراء ، الذين ينتجعون الأغنياء ، طلباً للرزق ، أو رغبة فى صحبتهم ، وهاجر إلى المدينة أيضاً رجال الصناعة والتجارة ، حين رأوا أن مكاسبهم فيها ستكون وفيرة ، وفى وصفهم يقول اليعقوبى « وباعتدال الهواء وطيب الثرى وعذوبة الماء حسنت أخلاق أهلها (يعنى بغداد) ونضرت وجوههم وانفتقت أذهانهم حتى فضلوا الناس فى العلم والفهم والأدب والنظر والتمييز والتجارات والصناعات والمكاسب والحذق بكل مناظرة وإحكام كل مهنة وإتقان كل صناعة[١] » ، وعلى الرغم من اختلاف الأماكن التى هاجر منها الذين قطنوا بغداد ، فقد تألف منهم مجتمع أخذ ينشط فى الحياة الاقتصادية والصناعية والفكرية ، وصار لهم طابع خاص ، وعرفوا بالظرف والميل إلى السلام والولاء لبنى العباس .

أخذت بغداد تجذب إليها رجال الفكر والصناعة والتجارة والأدب حتى صارت مركز الثقافة والحضارة الإسلامية ، وعنى بها الخلفاء والوزراء حتى علا شأنها وذاع صيتها ، وضرب بها المثل ، وسميت قبة الإسلام ، وكان لهجرة الأثرياء إليها وعظم الحضارة التى قامت فيها ماجعلها مركزاً دولياً للتجارة ، تتدفق إليها من الأقاليم المختلفة الخاضعة لحكم بنى العباس ، وظل أمرها فى سمو وارتفاع حتى كانت أيام هارون الرشيد قبلة التجارة من أربعة أركان المعمورة[٢] . كان لانتقال الثورة إلى

(١) تاريخ اليعقوبى ص ٢٣٥ ليدن سنة ١٨٩١

(٢) Levy, A Baghdad Chronicle, P. 45

بغداد انتقالا يكاد يجعلها فريدة عصرها ، أن جاشت فى صدور الأغنياء رغبة فى الترف ، وتذوق أنواع اللذة ، فامتلأت القصور بالجوارى الحسان والغلمان المختارين ، وأنواع الأثاث والرياش ، وازينت القصور بالحدائق و بكل مايدخل البهجة فى النفس ، أو يبعث فيها السرور ، ودعاهم الترف أن يتفننوا فى ملابسهم وتطريزها لنسائهم أو لجواريهم ، بما يخلب الألباب ، وأن يقيموا لأنفسهم فى بيوتهم أنظمة للمأكل والمشرب تتفق وماهم عليه من ترف ورغبة فى الملذات ، وشجعت هذه الرغبة النخاسين ، فجلبوا إلى بغداد أنواعاً من الرقيق من أجناس كان يميل إليهن أهل بغداد المترفون ، و بذلك جمعت بغداد فى عصر الرشيد كل ألوان الترف التى استحدثها الفكر فى ذلك الوقت ، وأضحت بصورتها هذه تثير خيال شعراء العصر ، وتجذبهم إليها ، وصارت حلتها البراقة هذه تلعب بعقول الكتاب قديماً وحديثاً .

انتقال مجان الكوفة إلى بغداد

أسس المنصور بغداد واتخذها قصبة مملكته ، ووجد فيها مجان الكوفة ملجأ يقيهم من عسف واليهم وجبروته وعينه الساهرة ، فانتقلوا إليها يبتغون الإقامة فيها ، ولكنهم لم يجدوا فيها ماأملوا ، إذ كان المنصور لايقل رعاية وسهراً من ولاته ، فاضطر كثرتهم أن يهجروها فرارا من المنصور وطلباً للرزق ، قال ابراهيم الموصلى عن محمد بن الفضل « خرج جماعة من الشعراء فى أيام المنصور عن بغداد فى طلب المعاش منهم يحيى بن زياد إلى محمد بن أبى العباس وكنت فى صحابته مضى إلى البصرة وخرج حماد عجرد إليها معه وعاد حماد الرواية إلى الكوفة وأقام مطيع بن إياس ببغداد[1] » ، ولما انتهت أيام المنصور وخلفه ابنه محمد المهدى ، وكان يتغافل عما لم يكن يتغافل عنه أبوه ، رجع المجان إلى بغداد ، قال على بن الجعد « قدم علينا فى أيام المهدى هؤلاء القوم حماد عجرد ومطيع بن إياس

---

(١) الأغانى ج ١٢ ص ٨٧ طبعة الساسى

الكنانى ويحيى بن زياد فنزلوا بالقرب منا فكانوا لايطاقون خبثاً ومجانة[1] » ، واستظل كل واحد من هؤلاء الشعراء المجان برعاية أحد أبناء البيت العباسى ، وكانت الحياة فى بغداد آخذة مجراها نحو الترف والنعيم المادى ، فاتفقت رغبة الماجن مع تطلع سيده إلى اللذة ، فأخذا يضربان فى آفاقها ماشاء الهوى أن يتيح لهما ذلك فى قصر ذلك السيد ، وظل الأمر على هذا النحو حتى علا نجم أبى نواس فى سماء بغداد ، واستطاع أن يجعل له مركزاً ملحوظاً فى الحيـاة الاجتماعية ، فالتف حوله الصحبة من المجان ، فانتقلوا جماعات وأفراداً إلى البساتين ، وإلى ضواحى بغداد ، يلتمسون فيها لذتهم ، يشربون ويمجنون ، ويتحدثون مصورين أحاسيسهم فى اللذة ، وبلغت جرأتهم منتهاها أيام الأمين .

لايشير تاريخ بغداد إلى أن أحداً من المجان دعا إلى اللذة وإلى اللهو جهراً قبل أن يظهر أبو نواس على مسرح بغداد ، إذ كان الواحد منهم يقنع بأن يخدم أميراً أو كبيراً من رجال الدولة الأثرياء ، ليعتز بصلته به ، ولينال منه العطايا مايحقق مطامحه فى اللذة واللهو ، وكان كثيراً مايحظى من سيده بالمشاركة فى شرب الخمر ، والتحدث عن الملذات ، واشتهر أمرهم هذا ، حتى خشى الخلفاء على أبنائهم من أن يتصلوا بهم ، فيعلّموهم مالا ينبغى لأبناء الخلفاء أن يعرف عنهم ، حاول المهدى وغيره أن يحجب أبناءه عن هؤلاء المفسدين ، ولـكنهم فشلوا فى ذلك ، لأن أبناءهم كانوا يرغبون فى هذه الصحبة ، ويريدون ما كانوا يمنعون عنه ، ولجأ بعض هؤلاء الخلفاء وخاصة المنصور والمهدى إلى إنذار هؤلاء الشعراء المجان بالويل والثبور ، إذا لم يقطعوا صلتهم بأبنائهم أو يكفوا عن ارتياد مجالسهم ، ولـكن هذا النذير لم يجد ، لأن الترف كان يملأ نفوس هؤلاء الأمراء الشبان ، ويدعوهم فى إغراء أن يصموا آذانهم عن النصح ، استجابوا لرغباتهم ولهواهم رغم حيطة

---

(٢) ابن خلـكان ج ١ ص ٢٩٠ (حماد عجرد) بولاق .

آبائهم ، واتصلوا بهؤلاء المجان خفية حين لم يكن بد من ذلك ، وجهرا حين رأوا سعة صدر من آبائهم أو تغافلا عما يأتون ، كان هؤلاء الشبان الأمراء ومعهم الأثرياء مقودين إلى الترف ، الذى كان له تأثير فعال فى نفوسهم ، يهوى بهم إلى اللذة و إلى منازلها ، ذلك لأنهم فى بغداد يعيشون فى أمن وفى دعة ، تتدفق الثروات إلى خزائنهم ، وفى جو براق أحدثته الأسرة التى ألقى إليها بمقاليد الحكم ، تلك الأسرة التى تذهب بدمائها إلى أصل فارسى عريق ، ألا وهى أسرة البرامكة ، التى اتجهت تحيي أبهة الملك الفارسى ، يخلب أنظار أفرادها ما كان عليه ملوك فارس من قبل ، اتجه البرامكة بشعورهم إلى الترف و إلى الإغراق فيه ، يريدون بذلك أن يظهروا ماللسلطان من عظمة وتعظيم وفخامة و إكبار ، وأظهروا أنفسهم للناس متسامحين كرماء لاتثنيهم عقيدة مخالفة من أن يقربوا صاحبها ، أو يفسحوا له موضعاً فى مجلسهم ، فهرع إليهم الشعراء يتغنون بخصالهم ، و بما يدين الزمان لهم ، وكان من بينهم شعراء عرفوا بالزندقة كأبان بن عبد الحميد ، والتقت فى مجالسهم وجوه متباينة ، و بذلك رسموا سياسة لم تكن مألوفة من قبل ، هى سياسة الدولة التى تتعالى عن الخلافات المذهبية ، يؤيد هذا مايذكره المسعودى عن مجلس يحيى بن خالد البرمكى فيقول عنه : « وكان له مجلس يجتمع فيه كثير من أهل البحث والنظر من متكلمى الإسلام وغيرهم من أهل الآراء والنحل » ، ويعد لنا فى مجلس من هذه المجالس اثنى عشر رجلاً بين شيعى وغال ورافضى وخارجى ومتكلم وفقيه[1] ؛ كان هذا الجو الذى أحدثه البرامكة موحياً إلى غيرهم أن يفسحوا فى مجالسهم للمخالفين فى المذهب أو العقيدة ، فعاش بعض أصحاب هذه المذاهب فى ود مع أهل بغداد ، نرى ذلك واضحاً فى الكرخ وهو سوق بغداد المشهور ، وفى هذه الصداقة التى كانت بين محمد بن راشد الخناق و بين إبراهيم المهدى وغيره من كبار رجال بغداد ، اقتحمت المذاهب فى حذر مجالس

---

(١) المسعودى مروج الذهب ج ٦ ص ٣٦٨ - ٣٧٦ طبعة باريس .

الخاصة ، وكان الترف يريد منهم أن يستجيبوا لشهوات نفوسهم ، فأسلموا أنفسهم فى رفق إليه و إلى موحياته ، فى هذا الجو انتقل أبو نواس إلى بغداد يلتمس مكاناً له ، طرق باب البرامكة ، وأراد منهم أن يكون سيد الشعراء ، فأبوا عليه ما أراد ، فاتجه إلى باب الرشيد فأغلق دونه ، فخرج من بغداد إلى مصر ثم عاد إليها ، وأخذ يتلمس الوصول إلى السلطان بالحجاب والخدم يتملقهم ، حتى نجح واستظل بظل الفضل بن الربيع وابنه عباس من بعده ، و بذلك تم له ما كان يريد ، من أن يجد له مكاناً مرموقاً يتحدث فيسمع الناس منه ، وكان لحلاوة شعره و براعة فنه فعل السحر فى القلوب ، و بذلك مهد لدعوته التى سنتحدث عنها بالتفصيل أن يسمعها الناس .

تأثر أبى نواس بحياته فى الكوفة

قبل أن نتحدث عن دعوة أبى نواس إلى اللذة واللهو ، يجب علينا أن ننظر إلى صلته بالكوفة أولاً ، فنراه يحمل إلى هذا المصر وهو لا يزال صبياً ، ذهب إلى الكوفة مع والبة بن الحباب الأسدى ، الذى كان من مجان الكوفة ، والذى يصفه أهل عصره بالزندقة ، عاشر هؤلاء المجان الذين كانوا يصادقون أستاذه ، ومنهم من كان يعتنق مذهب اللذة عقيدةً كما سبق أن بينا ، ظل أبو نواس مع والبة فى الكوفة فى زمن كانت الدعوة الخطابية إلى الإباحية تلعب على مسرح المصر دوراً خطيراً ، شاهد رجال الدعوة وأنصارها ، وعاشر المجان ، وعاصر دعوة الخطابية إلى الإباحية ، وسمع عن الجناحية تدعو إلى اللذة دون قيد أو شرط ، فى هذا الجو المسمّم تربى الصبى أبو نواس ، وظل بالكوفة إلى أن كبر وعاد إلى البصرة ، وتقول الرواية : « إنه لما رجع أبو نواس من الكوفة إلى البصرة وفارق والبة ، قيل له : أرغبت عن والبة ومللت الكوفة ؟ فقال : هى أجدى وأطيب من أن تمل ، ووالبة ممن لا يرغب عنه ، ولكنى نزعت إلى الأوطان ،

واشتقت إلى الإخوان[١] » ، كان لهذه الفترة التى قضاها أبو نواس فى الكوفة أثر كبير فى نفسه ، جعلته يزورها بين حين وحين قبل أن يرحل إلى بغداد[٢] ، وكان لها من الأثر فى نفسه ما نراه ينعكس فى شعره ، كما فى قوله يذم البصرة :

ما ذاك إلا أننى رجل لا أستخف صداقة البصرى
ذهبت بنا كوفان مذهبها وعدمت من ظرفائها صبرى[٣]

ويبدو أن تأثر أبى نواس بما رأى وبما شاهد فى الكوفة ، كان عميقاً أثره على عقيدته ، قال ابن منظور : « ومن خلال أبى نواس المأثورة أنه كان يميل مع أهل البيت سراً لا يجسر على المجاهرة به ، وقد قيل له فى إعراضه عن مدحهم لقد ذكرت كل معنى فى شعرك ، وهذا على بن موسى الرضا فى عصرك لم تقل فيه شيئاً ، فقال : والله ما تركت ذلك إلا إعظاماً له ، وليس قدر مثلى أن يقول فى مثله ، وأنشد :

أنا لا أستطيع مدح إمام كان جبريل خادماً لأبيه[٤]

ويقول ابن منظور تعليقاً على هذا الشعر وغيره : « ما الحاصل لأبى نواس على هذا المجون المملوء بالتهكم بالربوبية نعوذ بالله من خذلانه ، ونستغفر الله رب العالمين[٥] » ، وابن منظور معذور فى أن يرى فى قول أبى نواس تهكماً بالذات العلية جل وعلا ، لأن أبا نواس حين قال هذا الشعر إنما كان ينظر إلى قول الغلاة ، أن جعفراً الصادق إله ، وجبريل على هذا الوضع خادم له ، ولم يكن يمجن حين قال هذا الشعر ، وإنما كان جاداً كل الجد ، يصور تأثره بالمذاهب المتطرفة الكوفية ،

---

(١) ابن منظور ــ أخبار أبى نواس جـ ١ ص ٤٨ القاهرة ١٩٣٤ .
(٢) الخطيب البغدادى ــ تاريخ بغداد جـ ٥ ص ٣٧٥ .
(٣) الديوان ص ١٦٧ طبعة مصر سنة ١٨٩٨ .
(٤) أخبار أبى نواس جـ ١ ص ٢١٦ القاهرة ١٩٢٤ .
(٥) المصدر السابق ص ٢٢٦ .

ألا تراه يتحرج من أن يصف الإمام أو أن يمدحه ؟! ذلك لأن الإمام عنده فوق هذا كله ، يتفرد بما لا يتفرد به أحد ، ولا طاقة له بوصفه ، لأنه فى نظره لا شبيه له ولا مثيل ، هو إله وكفى بذلك الوصف تعريفاً ، وحسبه أن يكون كذلك ، فلا حاجة إلى مدح وجد فى تفضيله ، ونحن إذا عرفنا أن أبا نواس قضى شطراً من حياته مع والبة بن الحباب ، زمن أن قامت الخطابية فى الكوفة تعرّف الإمام بأنه إله ، وضح لدينا المصدر الذى تأثر به أبو نواس ، وهو عقيدة الخطابية ، ونحن إذا ذهبنا ننظر إلى أى مذهب من مذاهب الخطابية كان أقوى تأثيراً فى نفس أبى نواس ، بدا لنا مذهب المعمرية فى المقدمة وذلك لسببين :

أولا : أنكر أبو نواس ـ كما أنكرت المعمرية ـ البعث والحساب ، ويمدنا ابن قتيبة بالدليل من شعره فيذكر أن أبا نواس قال :

تعلل بالمنى إذ أنت حى ... وبعد الموت من لبن وخمر
حيـاة ثم موت ثم بعث ... حديث خرافة يا أم عمرو[(١)]

فها هو ذا أبو نواس ينكر البعث والحساب والجنة والنار ، ويرى من الغفلة أن يعلل الإنسان نفسه بما بعد الموت من جنة فيها ما تشتهيه الأنفس ؛ ويحدثنا فى ذلك أيضاً الحسن بن المنذر فيقول : إن أبا نواس كان يشرب النبيذ عند عبيد ابن المنذر يوماً ، وذهب بعد أن بات ليلته مع صحبة إلى حانة خمار قد كان يعرفه ، ومعه غلام أفسده على والديه وغيّبه عنهما زماناً ، ثم أخذوا فى الحديث وهم يشربون ـ قال الحسن بن المنذر : « ونحن فى أطيب موضع فذكرنا بما نحن فيه من الطيب والنعيم ، نعيم الجنة وطيبها والمعاصى ما يحول عنه منها وهو (أى أبو نواس) ساكت ، (ثم) قال :

يا ناظراً فى الدين ما الأمر ... لا قـدر صح ولا خبر[(٢)]

(١) الأشربة ص ٤٣ دمشق سنة ١٩٤٧ .

(٢) ابن منظور ـ أخبار أبى نواس جـ ١ ص ٢٢٨ القاهرة ١٩٣٤ .

ماصح عندى من جميع الذى يذ كر إلا الموت والقبر

فهاهو ذا أبو نواس يلتمس الدليل الحسى على مابعد الموت من جنة أو نار ، فلا يجده ، وكل مالديه هى أخبار وتبليغ يذهب به الشك فيها إلى رفضها ، وكل ماصح لديه هو الموت ، لأنه يرى ذلك ولا يستطيع دحضه ، وإيمان أبى نواس بالموت مع إنكاره البعث والحساب والجنة والنار يفصح عن أنه ينظر إلى قول المعمرية ، الذين ذهبوا إلى أن الجنة ليست شيئاً إلا مايصيب الإنسان فى حياته من الخير والنعمة والعافية واللذة ، وأن النار ليست إلا مايصيب الناس خلاف ذلك مما يسوءهم ولا يرضيهم ، واعترفوا بالموت حقيقة واقعة .

ثانياً — إذا نظرنا إلى أبى نواس وهو يتحدث عن اللذة نجده لا يبعد عما كانت تدعو إليه العمرية ، ذلك لأن المعمرية قالت بتحليل الخمر وإباحة المحرمات واللذات مع النساء والرجال ، لأنها جميعاً أشياء تلذنا وتميل إليها نفوسنا ، وخلقها الله لنا فلا تحريم فيها ، ودعا أبو نواس إلى الخمر ، وإلى التمتع بالنساء والغلمان واقتناص اللذات ، ذاهباً إلى أن نفوسنا تهواها فلا ينبغى أن تفوتنا ، والتحريم لا يحول بيننا وبينها ، لأن الله غفور رحيم ، ولأنها مع تحريمها طلبتنا ولذتنا ، وتحويره لمذهب المعمرية فى اللذة كان ضرورياً ليلائم البيئة التى كان يعيش فيها ، وظروف الحياة والناس . وفى هذا البحث نريد أن نتحدث عن مذهب أبى نواس فى اللذة وموقفه كداعية له .

دعوة أبي نواس إلى اللذة

ا — دفاعه عن اللذة

استوى أبو نواس شاعراً فى البصرة ، فى زمن كانت الدولة العباسية جادة فى طلب الزنادقة والمتزندقين ، الذين كانوا فى سبيل أغراضهم السياسية يعملون على إغراء الناس للانضمام إليهم ، باستحداث مذاهب ترضيهم ، وكان من بين هؤلاء الزنادقة من أباح الشهوات والملذات ، وحض عليها ، ولقيت دعوتهم هوى فى نفوس الراغبين فى اللذة ، فعاشوا بين أحضانها يمجنون و يتحدثون عن مفاتن اللذات وجمالها ، وعاش أبو نواس بينهم صبياً فتشبعت نفسه بهذه الأنغام ، وملكت اللذة عليه حسه وشعوره ، وانطوت نفسه تحت مفاتنها ، فتحدث عن إحساسه بها وهو شاعر حديثاً قوياً ، امتاز بالفتنة لما فيه من براعة فى التصوير ، وحلاوة فى التعبير ، وعذوبة فى الألفاظ ؛ صوّر شعوره وحبه للخمر وما فيها من جمال يحسه ، تصويرا كان مدعاة للفتنة ومبعث إعجاب معاصريه ، ذلك الإعجاب الذى تخيل لوالبة بن الحباب ، فرآه ورواه فى قوله : « رأيت فيما يرى النائم كأن إبليس أتانى فقال : ترى غلامك الحسن بن هانئ ؟ قلت ماشأنه ؟ قال : إن له لشأناً ، فو الله لأغوينّ به أمة محمد ، ثم لا أرضى حتى ألقى محبته فى قلوب المرائين من أمته ، وقلوب العاشقين لحلاوة شعره »(١) كان شعر أبى نواس مبعث فتنة كما كان شعر بشار بن برد مثيراً للشباب ، ولاحظ الجاحظ ما بينهما من شبه فى هذه الناحية فقال : « وأما بشار وأبو نواس فمعناهما واحد ، والعدة اثنان (٢) » ؛ لم يسلك أبو نواس سبيل مجان الكوفة فى أول أمره ، لأن الدولة لم تكن تسمح

---

(١) ابن منظور — أخبار أبى نواس ج ١ ص ٩ القاهرة سنة ١٩٢٤ ؟

(٢) رواية جامع الديوان حمزة بن الحسن الأصفهانى ص ١٣ منشورة فى مقدمة الديوان مصر سنة ١٨٩٨ .

بالدعوة جهراً إلى اللذة ، وذهب فى الطريق الذى شقه بشار ، يتحدث عن اللذة ومفاتنها دون أن يدعو أحداً إلى أن يحظى منها بمثل ماهو يحظى ، يتحدث وكأنه شاب غلبته الفتنة على أمره فسبح فى لجات اللذة ، تسلمه موجة إلى أختها فيصف مايحس به فى روعة وفى براعة ، كانت مثار الإعجاب لفنه وقوته الشعرية ، وكان هو لا يبغى من وراء براعة التصوير إلا التأثير والحض على اللذة .

قبل أن ينصب أبو نواس نفسه داعياً للذة إرضاء لعقيدته فيها ، وجد ألا بد من تمهيد الطريق لنفسه ، وذلك مطلب لم يكن يسيراً ، لأن نظرية المعتزلة تقف عقبة كبرى ؛ إذ أن المعتزلة وعلى رأسهم النظام أذاعوا أن مرتكب الكبيرة مخلد فى النار ، وهذه فكرة أرادوا بها محاربة الإثم والفحشاء ، ومحو ما لدعاة اللذة من أثر فى نفوس الناس ، أو صدهم عن الاستماع لتزويقهم ملذات الحياة ، وكان سلطان المعتزلة فى البصرة لا يزال قوياً ودعوتهم تلقى آذاناً صاغية ، فخشى أبو نواس أن ينصرف الناس عن حديثه عن اللذة وعن أقواله ، وكان رجلاً قد نال من الثقافة الدينية مايؤهله أن يتصدى للمعتزلة ، فانبرى لكبيرهم النظام يسفه هذا الرأى ، الذى دعوا إليه ، ويرد عليهم رداً بارعاً يستطيع أن يقف أمام نفوذهم القوى ، لم يشأ فى هذا الرد أن يبيح اللذات اعتماداً على رغبة الطبائع البشرية فيها ، كما ذهب غلاة الكوفة ، ولم يحاول أن يقيمه على حرية الفرد فى تصرفاته الشخصية ، كما قال بشار ، وإنما اتجه إلى المعتزلة ناقداً لرأيهم ، يبين مافيه من قصور إذا قيس بتعاليم الإسلام ؛ نقد رأى المعتزلة مستدلاً على فساده ، بأنهم لم ينظروا إلى المسألة من كافة وجوهها ، وأنهم لو نظروا إليها على هذا الأساس لرأوا أن كتاب الله يقول : إن عفو الله يشمل كل ذنب ومنها الكبائر ، وأن الله يغفر كل إثم خلا الشرك به تعالى ، وأن إغفالهم لهذا الجانب الذى نص عليه كتاب الله فيه انصراف عنه وعدم تقدير لهذا الجانب من تعاليم الدين ، يصور ذلك أبو نواس فى قوله :

قل لمن يدعى فى العلم فلسفة   حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء
لا تحظر العفو إن كنت امرءاً حرجاً   فإن حظركه فى الدين أزراء

كان هذا الرد القوى على المعتزلة كفيلا أن يزيل العقبة ، التى أقامها المعتزلة فمضى أبو نواس فى سبيله ، يتحدث عن الخمر واللذات ، ولكنه كان حريصاً على ألا يقول صراحة أن هذه اللذات ، التى نص كتاب الله عن النهى عنها ، مباحة أو محللة ، كما ذهب غلاة الشيعة ، مضى مع مجان البصرة وشعرائها تلاميذ بشار ، يصور ما فى الخمر من فتنة ، وما يشعر من أنها تمنحه سروراً وسعادة ولذة وطرباً ، لا يحظى بها جميعاً إلا من عرف الخمر ، وأحس دبيبها فى بدنه وسلطانها على نفسه ، وعرف أن اللوم على شربها إنما هو تذكير بها ، يغرى النفس على التمتع بما تهيئه لشاربها من لذة ، هى دواء لداء النفس المتطلعة إلى لذات الحياة ، وذلك كما يبدو فى قوله : —

دع عنك لومى فإن اللوم اغراء   وداونى بالتى كانت هى الداء
صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها   لو مسها حجر مسته سراء

خلبت هذه الفكرة — فكرة عفو الله عن مرتكب الكبائر — لب أبى نواس ، واستفزه النجاح الذى ظفر به ، حين قدمها حجة لمرتكب الأثم ، ردا على المعتزلة ، فراح يتخذها مطية ، ليعلن أنه سيظل طوال حياته شارباً للخمر كما فى قوله : —

وثقت بعفو الله عن كل مسلم   فلست عن الصهباء ما عشت مقصراً[1]

والناقد حين ينظر إلى هذا البيت يراه ينحرف بفكرته لاباحة شرب الخمر ، ويرى الباحث نفسه يقاد إلى أن يقارن بين قوله وبين قول الخطابية أن من عرف الأمام فليفعل ما شاء ، ألا ترى أبا نواس يذهب إلى أنه وثق بعفو الله عن المسلمين ، وأنه لذلك سيشرب الخمر طول حياته ، ولن يقصر فى ذلك ، وهو

(١) الديوان ص ٢٨٥ طبعة مصر سنة ١٨٩٨ .

طراز من التفكير مصبوب على مثال قول الخطابية ، حين حللت ما حللت ، مادام الانسان قد عرف الامام ، ذلك لأن أبانواس والخطابية كلاهما يمهد السبيل للشهوات بأساس ينبنى عليه التمتع بالملذات ، أما الخطابية فتجعل هذا الأساس معرفة الامام ، وأما أبو نواس فيجعل له نظيراً وهو الثقة بعفو الله عن مرتكب الكبائر ، وكلاهما ينتهى من ذلك إلى إباحة شهوات النفس ، ويدلنا على أن أبا نواس لم يهدف إلى غرض دينى من قوله ، أنه لم يتخذ من ثقته بالعفو طريقا لحياة الصلاح والتقوى ، كما هو المفهوم من تعاليم الإسلام ، وإنما ليكون ذلك مطيته إلى الخمر ، التى تشره إليها نفسه ، التى لا يصدها نصح ، ولا يرجى منها توبة ، كما يعلن هو عنها فى قوله : —

أعاذل اقصدى عن بعض لومى فراجى توبتى عندى يخيب[1]

خطا أبو نواس بهذه الفكرة ، فكرة عفو الله عن مرتكب الكبائر ، خطوة أخرى ، حين رأى نفسه داعية إلى الملذات إلى شرب الخمر ، وأنه فى أمن حين يدعو إلى ذلك لتغير الظروف السياسية ، أو لانتهاء هذه الظروف التى دعت إلى الضرب على أيدى الداعين إلى اللذات ، خطا بهذه الفكرة حين قدمها للناس سبيلاً لاقتناص اللذات ، وحضهم على شرب الخمر ، لكيلا يروا حرجاً إذا ما شربوها ، وهذا ما يبدو فى قوله :

غاد المدام وإن كانت محرمة فللكبائر عند الله غفران[2]

كان أبو نواس يتخذ هذه الفكرة ذريعة لنفسه ، ثم بدا له أن يقرب اللذات إلى نفوس الناس ، وأن يزيل ما فيها من حرج نحوها ، فتوسل بهذه الفكرة ، ومن هنا نستطيع أن نفهم ما ورد على لسان والبة بن الحباب من أن الشيطان يتخذ أبا نواس ليغوى به المسلمين ، ويفسدهم ويغلبهم بشعره وبراعته على أنفسهم .

---

(١) المصدر السابق ص ٢٤٥

(٢) الديوان ص ٣٤٣ طبعة ١٨٩٨

دعا أبو نواس إلى شرب الخمر ، وحض على ارتكاب الكبائر ، ودافع فى قوة عن مرتكبيها ، ذلك لأنها وإن كانت محرمة ، ففى عفو الله ملتمس لطلاب اللذات يبغونه ، ودعوته هذه ودفاعه عن الإثم اعتمد فيه على ما نص عليه كتاب الله فى قوله « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم » ، وقوله عز شأنه : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك » ، وهاتان الآيتان صريحتان فى أن الله تعالى يغفر عن المذنب إذا أساء ، ولكن أبا نواس حين اعتمد على عفو الله لم يذهب به إلى ما أراد القرآن الكريم ، من تشجيع على التوبة وانتهاج لحياة التقوى والصلاح ، وإنما انتحى به إلى ناحية لا يقرها الدين ، ولا يرتضيها كتاب الله ، وذلك لأنه أراد بعفو الله أن يكون ذريعة يتشجع بها طالب اللذة ليبتغيها بلا حرج ، وليقدم عليها غير هياب من هذا التحريم ، الذى نص عليه كتاب الله حين نهى عن الخمر ، وأمر بالابتعاد عن المنكر والفحشاء ، وهذا النهج الذى سلكه أبو نواس يصوره لنا يستوحى أساليب الكوفيين المتطرفين ، وخاصة الغلاة منهم ، أولئك الذين أباحوا اللذات وحللوها ، يصوره لنا على هذا الوجه ، لأنه يسير فى نفس الطريق الذى أحدثه غلاة الكوفة من الخطابية ، الذين انحرفوا بمدلولات ألفاظ القرآن عما وضعت له ، ليحللوا اللذات جميعاً ، وليبيحوا متع الحياة التى تشتهيها النفوس ؛ ألا ترى أبا نواس يأخذ عفو الله وينحرف به إلى غير غايته فى القرآن الكريم ؟ ليجعله لا يحول بين اللذة وصاحبها وليكون سبيلا للتمتع بالملذات ؟ أليس فى هذا الاتجاه مايصور أنه يستلهم طرق غلاة الشيعة ، الذين انحرفوا بالمدلولات القرآنية وأخرجوها عما وضعت له لأباحة اللذات ؟ تبدو لى الصلة فى المنهج بين أبى نواس والغلاة واضحة ، ولكن رب سائل يقول ألا يجوز أن يكون أبو نواس تطرف كما تطرفت المعتزلة ؟ لما لا يكون على مثال المعتزلة ؟ هم نظروا إلى الكبيرة فقالوا بتخليد صاحبها فى النار ونسوا جانب

عفو الله عن المذنب ، وهو نظر إلى عفو الله فأخذ به ونسى عقاب الله لمرتكبى الآثام ؟ حقا إلى دعوى المعتزلة ألجأت أبا نواس ، وهو رجل ذو ثقافة دينية ، أن يلتمس من الدين رداً عليهم ، فرأى آيات من القرآن الكريم تشير إلى عفو الله عن المذنب فرد عليهم به ، وعارض المعتزلة وأسرف كما أسرفوا ، ولكن الناقد يلاحظ أن أبا نواس أباح اللذات على أساس عفو الله ، واعتبار هذا العفو سبيلا للتمتع باللذات ، وهنا موضع الشبه بينه و بين غلاة الكوفة .

ب — تحريضه على اللذات

رحل أبو نواس إلى بغداد ، و بانتقاله إليها علا نجمه وسطع ، بعد أن استطاع أن يمكن لنفسه فيها ، باتصاله بالفضل بن الربيع وزير الرشيد ، و يمكن أن تدرك قدم هذه الصلة من قوله حين حبس أيام الأمين ، فذكر الفضل به فى قصيدة فيها يقول : —

ولا تجحدوا بى ود عشرين حجة ولا تفسدوا ما كان منكم من الفضل

أقام أبو نواس فى بغداد ، واتخذ من الفضل بن الربيع ظلا يحميه ، و يمنحه ما يجعله فى بحبوحة العيش ، فاتصل بأمثاله من المجان ، وجعل له مجلسين : أحدهما فى الكوخ بدرب القراطيسى والآخر بعسكر المهدى فى الوراقين[1] ، وفى هذين المجلسين كان يقول شعره ، داعياً إلى اللذات محبباً فيها ، واصفاً لها بما يجعلها فتنة النفوس ؛ وفى هذه المجالس الخاصة التى سن سنتها بشار بن برد ، كان أبو نواس يتحدث إلى مستمعيه ، و إلى المجان ، حديث الشهوة و إغرائها ، يصف ما فى الجمال الحسى من اغراء تندفع إليه النفوس ، رغبة فى الرى منه .

أقدم أبو نواس على الدعوة إلى ملذات الحياة ، وما فيها من جمال حسى فتان يهىء لدعوته وسائل نجاحها ، وذلك بأن حذر سامعيه ألا يصرفهم عن اللذة هذه

---

(١) ابن منظور — أخبار أبى نواس ج ١ ص ١٣٩ القاهرة سنة ١٩٢٤

الآراء التى تصور مافى اللذة من إثم ، أو تدعو إلى زهد فيها ، كما فى قوله :

لا يصرفنك عن قصف واصباء مجموع رأى ولا تشتيت آراء[1]

فى هذا الشعر نرى أبا نواس يدعو طالب اللذة ألا يحجم عن اللهو والخمر واللذة ، لأن الناس أجمعوا رأيهم على مافى ذلك من إثم ، وتنكب عن الطريق السوى ، ودعاه ألا ينصرف عن لذته ، لأن رأيا من الآراء ذهب فى وصف لذات الإنسان أنها مفسدة له ، وناداه هذا الرأى أن يتجنب اللذة ، وأن يسلك طريق الزهادة فيها ، ثم انتهى أبو نواس من ذلك إلى الحض فى صراحة أن يحظى الإنسان بما يريد من لذة ، ودعا طلابها أن يقتحموا ساحتها دون خشية أو تردد ، أو حساب للوم أو عذل ، ناداهم بذلك فى قوله :

بادر صبوحك وانعم أيهــا الرجل واعص الذين بجهل فى الهوى عذلوا
واخلع عذارك وأضحك كل ذى طرب واعدل بنفسك فيهم أينما عدلوا
نال السرور وخفض العيش فى دعة وفاز بالطيبات المـاجن الهزل

وحرضهم على أن يتمتعوا باللذات دون حيطة أو حذر أو اخفاء لما يأتون فى قوله :

لا تصحبن اللذات مكتتما واغد إليها كخالع الرسن[3]

دعا أبو نواس فى هذا الشعر طالب اللذة ألا يكتم مايأتى من إثم ، وماشرهت إليه نفسه ، وطالبه أن يقتحم الميدان غير هياب ولا وجل ، وأن ينطلق إلى اللذة فى اندفاع لايصده عنها صاد ، و بذلك لا يستطيع أن يقف فى سبيله شىء ، ثم علّل له أن أقدامه على الشهوات لا بد منه ، لأن العيش بدون ذلك لا جدوى فيه ، انظر إلى قوله مخاطبا طالب اللذة : ـ

---

(١) الديوان ص ٢٣٧ طبعة مصر سنة ١٨٩٨

(٢) المصدر السابق ص ٣١٩

(٣) الديوان ص ٣٥٣ طبعة مصر سنة ١٨٩٨

لا خير فى العيش إذا لم تكن صريع غزلان وكاسات[١]

نرى أبا نواس فى هذا الشعر يصور الحياة لطلاب اللذات ألا خير فيها ، ولا فائدة ترجى منها ، إذا لم تكن حياة الإنسان قائمة على السعى وراء فتنة الغانيات وجمال الأجساد ، الذى يجد فى طلبه كلما وجد إلى ذلك سبيلا ، يهيجه الأمل بالظفر به ، ويطلب المزيد منه ، كلما ذاق حلاوته ، وهو بهذا يظل أبداً صريع فتنة الغزلان ، وتتم له إحدى مفاتن الحياة ، التى يكملها بأن يكون عبد الكأس ، تسعده الخمر ، وتنسيه مشاق الحياة ، وتشحذ همته إلى الملذات ، كان أبو نواس يدعو إلى اللذة و إلى شرب الخمر ، التى كانت فى نظره لايعدلها شىء ، ولقد تفنن فى وصفها ومهر فى إظهار ما تبعثه فى النفس من جمال ولذة ، وأسرف فى ذلك حتى أفردها بالتعيين على أنها لذة الحياة ، وأن لاخير فى العيش بدونها كما فى قوله :

مالذة العيش إلا شرب صافية فى بيت خمارة أو ظل بستان[٢]

والذى يتأمل دعوة أبى نواس هذه إلى اللذة والتمتع بها ، يراها تقوم على تحريض الناس أن ينالوا من اللذة ماطمحت إليه نفوسهم ، دون نظر إلى من يصدهم عما يبتغون ، لأنه لاخير فى الحياة إذا لم يكن الإنسان صريع فتنة الكأس وجمال الغانيات ، نتأمل هذه الدعوة فنرى تحريضه على الاثم لايقوم على تحليل ما حرّم الله ، على نحو ماذهب الكوفيون المتطرفون الغلاة ، و إنما على أساس أن مايرجى من الحياة هو اللذة ، وهو تفكير لايتصل بالإسلام بصلة ، و إنما يمت بصلة وثيقة بتلك الفلسفة التى ألهمت المعمرية من فرق الخطابية ، أن تقول إن الله ما خلق هذه الأشياء التى تهوى إليها نفوسنا وتلذنا إلا لخلقه ، و بنوا على ذلك عدم تحريمها . تأثر أبو نواس بهذه الفلسفة وذهب إلى أن طبيعة الحياة نفسها

(١) المصدر السابق ص ٢٥٠

(٢) المصدر السابق ص ٣٥٤

تدعونا إلى أن نسعد باللذات ، على نحو ماذهبت المعمرية ، ولكنه لم يشأ أن يقول إن الله خلقها لنتمتع بها كما قال غلاة الكوفة ، وليس بعيداً أن يكون أبو نواس أخذ دعوته هذه من المعمرية مباشرة ، وذلك لسببين : أولهما أن اللذة التى دعا إليها هى لذة حسية ، وهى بعينها التى دعت إليها المعمرية ، وثانيهما ما نلاحظه فى أبى نواس ، من أنه إذا أراد أن يقتبس من مذاهب الكوفيين المتطرفين ، كان يعمد إلى الفكرة الأساسية التى وجهت الكوفيين المتطرفين إلى وجهتهم التى كانوا يريدونها ، فيأخذها و يخرجها فى الشكل الذى يلائمه ، وينتهى بها إلى نفس النتيجة التى كان يهدف إليها متطرفو الكوفة ، ذلك أمره فى اقتباسه فكرة غلاة الكوفة ، وهى الانحراف بالمدلولات القرآنية إلى غير ما وضعت له ليبيحوا اللذات ، تلك التى هدته أن يخرج فكرة عفو الله عن المذنب إلى هذا المخرج ، الذى حض به على التمتع بالملذات ، دون أن يصد عنها صاد ، نراه يتفق معهم فى الأساس والنتيجة ويختلف معهم فى الوسيلة ؛ ليس بعيداً أن يكون أبو نواس حين دعا دعوته هذه إلى اللذات ، أخذ من المعمرية مذهبها فى إباحة اللذات ، على أنها مطمع النفوس ، وغادر النتيجة التى رتبوا عليها قولهم هذا ، وهى تحليل الملذات ، وذلك لأنه لايستطيع أن يخرج قوله فى صورة يتحدى بها الإسلام فيحلل المحرم كما فعلوا .

صور أبو نواس اللذة أنها هدف العيش ، لأنها تملك الحس والشعور ، وتنسى الإنسان كل شىء فى دنياه ، وتشغله عن واجباته الدينية ، لأنه كان مفتوناً بها فتنة تجعلها هدف الحياة عنده ، وأنه كان فى أجوائها لا يعنى بشىء إلا بما تتركه فى نفسه من ذكرى حلوة ، ذلك إحساسه بها يبدو لنا فى مثل قوله [1] يتغزل فى غلام :

كم ساعة منك خطتها ملائكة　　　أزهو على الناس بالذنب الذى كتبوا

---

(١) راجع الديوان ص ٤١٠ وص ٣١٧ وص ٢٧٤ طبعة مصر سنة ١٨٩٨

وفى قوله :

إذا كانت بنات الكرم شربى ... وقبلة وجهى الحسن الجميل

أمنت بذين عاقبة الليالى ... وهان علىَّ ما قال العذول

وفى قوله :

خرجنا على أن المقام ثلاثة ... فطابت لنا حتى أقمنا بها شهراً

عصابة سوء لاترى الدهر مثلهم ... وإن كنت منهم لابريئاً ولاصفراً

إذا ما دنا وقت الصلاة رأيتهم ... يحثونها حتى تفوتهم سكرا

نرى أبا نواس فى قوله الأول يتحدث عن اللذة ، فيراها أثمن شىء يعتز به ويفخر على الناس ، لأن الملائكة كتبت ذنبه وسجلت لذته مع هذا الغلام الجميل ، الذى منحه الزهو والشرف بإمكانه أبا نواس من نفسه ، وإنه لزهو وشرف يتيه بهما على الناس ، وفى قوله الثانى يصور لنا شعوره واصفاً له أنه يدفعه إلى شيئين ، أحدهما الخمر ، وثانيهما طلبه أصحاب الوجوه الجميلة ، وإنه إذا كان يبغى لذته فى هذين الشيئين فقد أمن عاقبة الليالى واطمأن إلى دهره ، ولم يخش شيئاً فى حياته ، وإنه لذلك لا يلقى بالا إلى عذل أو لوم ، أما فى قوله الثالث فيحدثنا عن رحلة مع رفاق من طرازه ، خرج معهم ليقضى ثلاثة أيام فى قصف ولذة وشراب ، ولكن اللذة أنستهم أنفسهم فأقاموا شهراً ، يلهون ولا يعنون إلا بماهم فيه من نعيم ، ظل مع هؤلاء الصحبة الذين يعرفهم الناس ، أن نفوسهم انطوت على كثير من السوء ولا مثال لهم فى هذه الناحية ، تطيب نفسه بصحبتهم ، لأنه على مثالهم ، لا يبرأ مما يفعلون ، ولا يفوته شىء مما يأخذون ، ويلهو كما يلهون ، يمضى معهم فى شرب الخمر لا يعنيهم جميعاً إلا شربها ، يقبلون عليها إذا دنا وقت الصلاة ، ويظلون يحثونها حتى تفوتهم أوقاتها وهم سكارى . وظاهر من هذا الشعر تأثر أبى نواس بمذاهب الكوفيين المتطرفين فى اللذة ، ففى قوله الأول زها باللذة كما كان مجان الكوفة يزهون بها ، وفى قوله الثانى نظر إلى اللذة على أنها تلهمه الأمن فى حياته

وتبعث فيه الطمأنينة إلى دهره ، وهـذا يدل على أن اللذة نزلت فى نفسه منزلة العقيدة ، وهذا أمر تعتنقه المعمرية من الخطابية ، أما قوله الأخير فيشير إلى أنه خرج مع جماعة سوء ، لا يعنون بدين الإسلام ، ويعمدون إلى شرب الخمر ، إذا دنت أوقات الصلاة ، وجماعة هذا وصفهم يدل على أنهم يتبعون مذهب المعمرية ، أولئك الذين يقدمون على الإثم والفحشاء ، ويعتبرون ترك الفرائض تديناً ، وإشارة أبى نواس إلى صحابته أنهم عصابة سوء ، وأنه كان يأتى ما يأتون ، ويفعل مثل ما يفعلون ، توحى بأنه كان يشاركهم فى مذهبهم ، وهذا ما يدل عليه شعره .

قدمنا أبا نواس يدعو إلى اللذة دعوة عارية ، والآن نريد أن ننظر إليها فى أثوابها المختلفة ، التى خلعها عليها هذا الشاعر ، الذى اتصل بالأمين صلة وثيقة ، فاتخذت السياسة من هذه الصلة وسيلة للتشهير بهذا الخليفة . ويجب على الباحث حين ينظر إلى أبى نواس أن يقدر أنه يدعو إلى اللذة فى بغداد ، فى مجتمع تدين كثرته الساحقة بمذهب أهل السنة ، وأن رجلا فطناً ذكياً مثله ، لابد وأن يراعى هذه الحقيقة ، التى جعلته لا يعلل الحض عليها كما يعلل غلاة الكوفة ، وجعلته ينظر إلى حياة الناس وما لابسها من ترف وحب فى التمتع بنعيم الدنيا ، فيستغل ما يشاهد ، ويدعو الناس إلى التمتع بملاذ الحياة على أنها رجاؤهم فى دنياهم ، ونشط فى الدعوة نشاطاً ملحوظاً ، جعله يغرى أهل بغداد بهـا ، أولئك الذين كانوا على استعداد لقبولها ، لأن الترف أمرض نفوسهم ، تقدم إليهم مدعياً أن تحريمها لا يحول دون الإقدام عليها ، والظفر بها يسعد به الإنسان من نيلها ، وهو بذلك أراد أن يزيل العقبة الدينية ، أو على وجه أصح أراد أن يشجع الناس أن يلجوا أبواب اللذة ، مستغلا ذكاءه ومهارته فى تحريضهم ، ولندعه يصور لنا سبله فى التحريض فى قوله :

واشرب الخمر على تحريمها إنمـــا دنياك فانيـــــــه

وفى قوله :

فخذها إن أردت لذيذ عيش ولا تعدل خليلى بالمدام

وإن قالوا حرام قل حرام ولكن اللذاذة فى الحرام[(١)]

وفى قوله :

وخطيئة تعلو على مستامها يأتيك آخرها بطعم الأول

ليست من اللاتى يقول لها الفتى عند التذكر : ليتنى لم أفعل

حللت لا حرجا عليَّ حرامها ولربما حللت غير محلل[(٢)]

فى هذا الشعر نراه فى قوله الأول يحض على شرب الخمر ، لأنها وإن كانت محرمة ففيها لذة ترنو إليها نفوسنا ، وإذا لم نحقق لنفوسنا أهواءها انقضى ما نحلم به ، وذهب مع الدنيا التى تذهب وتنتهى ؛ وفى قوله الثانى يدعو طالب اللذة إن أراد لذة العيش حقاً ، أن يبادر إلى شرب الخمر ، وألا يعدل بها شيئاً ، وإذا ماقيل له أن ما يشرب إنما هو حرام ، فعليه أن يجيب إن ما يشرب هو حرام حقاً ، ولكن اللذة فى هذا الحرام ، وأنه إنما يأتيها استجابة لهوى نفسه ، وفى قوله الأخير يتغنى بالخطيئة ويراها تجل على أن يصل إلى مداها خيال من يطلبها ، لأنه لا يدرك جمالها إلا حين يقترفها ، فإذا أتاها فسيظل يتذوق حلاوة طعمها ، التى لا تنقضى بانقضاء جهده فى استيعابها ، لأنها تمنحه لذة فى آخرها تعدل لذته فى أولها ، وهى خطيئة تملأ النفس سعادة ، وليست من هذا الطراز الذى إن أقدم عليه الفتى وانتهى الأمر ، ندم على ما كان منه ، وإذا جاءته الذكرى أقلقته ، وتمنى لو لم يقترف هذه الخطيئة ، وذلك لأنها خطيئة حلوة المذاق ، حلَّلها الشاعر لنفسه وهى محرمة ، وأباحها غير متحرج لأنه فى حياته اليومية ربما حلل لنفسه

---

(١) راجع الديوان ص ٣٢٧ ثم ٣٢٧ طبعة مصر سنة ١٨٩٨

(٢) ابن منظور — أخبار أبى نواس ج ١ ص ٩١ القاهرة سنة ١٩٢٤

أشياء في سبيل المال ، أو الإبقاء على الحياة ، أو ما إلى ذلك وهي محرمة ، وهو يقيس تحليله هذه الأشياء على تحليله للذة ، ليحقق لنفسه شهواتها ؛ و إذا كان أبو نواس قد حض الناس على اقتراف الإثم رغم مافيه من تحريم ، فقد كان هو في حياته مثالاً ناطقاً لذلك ، وصور لنا هذا التحليل لنفسه في قوله :[1]

سأشربها صرفاً و إن هي حرمت　　　فقد طال ما واقعت غير محلل

وفي قوله :

و إن عذلك العواذل لست ممن　　　يجانب لذة حذر الأنام
حرام كان أوله حلالاً　　　فحل الحل يذهب بالحرام

وفي قوله :

قد مللت الحلال من طول شربي　　　يا ابن فضل فداوني بالحرام

في هذا الشعر نراه في البيت الأول يذهب إلى أنه يصر على شرب الخمر ، و إن كانت حراماً ، بدعوى أنه طالما أتى غيرها من المحرمات ، فلم يمنعها هي عن نفسه ؟ و يبيح غيرها لسبب من هذه الأسباب التي تدفع الرجل في حياته اليومية أن يحلل لنفسه ما حرّم الله ، أما في قوله الثاني فيصور نفسه ، لا يعبأ بقول عاذل يلومه على شرب الخمر ، لأنه لا يترك لذته خشية الناس ، أو تجنباً للوم اللائمين ، أو حذر أعين المتطلعين ، وهو يقدم على هذا الشراب بشجاعة ، و إنه لشراب أوله حلال يمضي يعب منه إلى القدر الحرام منه ، وقوله هذا يشير إلى هذا المذهب الذي يحلل من الشراب القدر الذي لا يسكر ، و يعتبر الحرام منه يبدأ من القدح الذي يسكر[2] ، وهو رأى ذهب إليه بعض معاصري أبي نواس ، أما في قوله الثالث فيصرح إلى أنه ملّ الشراب الحلال كالماء وغيره ، و إن دوام شربه له

---

(١) راجع الديوان ص ٣١٧ و ص ٣٣٢ و ص ٣٣٣ طبعة مصر سنة ١٨٩٨

(٢) ابن قتيبة — الأشربة ص ٩١ و ص ٩٢ دمشق سنة ١٩٤٧

أسقم نفسه فتطلع إلى دواء ، وسأل ابن فضل أن يسقيه من الحرام الذى فيه علاج نفسه .

رأينا أبا نواس في هذا الشعر يدعو الناس ونفسه إلى التمتع باللذات التى يراها و إن كانت محرمة ، فإنها ليست الشىء اوحيد الذى يأتيه الإنسان فى حياته محرماً ، لأنه يبيح لنفسه أشياء محرمة و يأتيها ، فلم يحجم عن اللذة ؟ وهى وغيرها فى التحريم سواء ؟ و إذا كان الإنسان يبيح لنفسه محرماً فجدير به أن يبيح اللذة لنفسه ، لأن هوى النفس فيها ، هذا اللون من الدفاع عن اللذة والتحريض عليها يلقى قبولا لدى قوم ذهب بهم الترف مذاهبه ، ولقد كان أبو نواس لا يغفل عن هذه الناحية ، فلم يدع لوناً من التحريض ينجع فى البيئة التى يعيش فيها إلا جاء به ، وهذا واضح مما سبق لنا الإشارة إليه ، وفى قوله :

يا قهوة حرمت إلا على رجل   أثرى فاتلف فيها المال والنشبا[1]

إذ نراه أيضاً يعتمد على الحالة النفسية لرجل تدفق عليه المال ، فيحلل له شرب الخمر ، لأنه قادر على أن ينفق ، وزعيم بأن يحظى بلذته يطلبها بما لديه من مال .

حـ — حديثه عن الخمر

لسنا نريد فى هذه الكلمة أن نتحدث عن هذا الجمال الذى ينعكس فى خمريات أبى نواس ، ولأن نصور هذه المهارة الرائعة فى وصفه الخمر ، ذلك الوصف الذى جعل من أبى نواس سيد الشعراء ، يضرب به المثل فى تصويرها ، وفى بيان أثرها فى النفس والجسم ، وجعل النقاد لا يفضلون عليه أحداً ، لسنا نريد أن نتحدث عن هذا لأنه أمر خارج عن موضوع هذا البحث ، ولقد تناوله كثيرون قديماً وحديثاً ، ليس من هدف هذا البحث دراسة الخمريات فى جمالها الفنى ،

(١) الديوان ص ٢٤٧ طبعة مصر سنة ١٨٩٨

ألفاظها المختارة ، وإنما نريد أن ننظر فحسب إلى تأثره بالمتطرفين من الشيعة الكوفيين ، وهو يتحدث عن الخمر ، ولقد سبق أن بينا أن هؤلاء الكوفيين المتطرفين من الشيعة أباحوا الخمر ، ومنهم من حللها ولم ير فيها التحريم الذى رآه الإسلام ، وهؤلاء زعموا أن اللفظ الدال عليها فى كتاب الله هو إشارة لرجل ، على نحو ما بسطنا من أقوالهم (١) .

تغنى أبو نواس بما فى الخمر من جمال ، وأخذ يتفنن فى وصفها ويخلع عليها من الصفات ما جاد به خياله الخصب ، ويفيض عليها من الثناء والاطراء ما أسعفته ذاكرته به ، مما حفظ وشاهد ، يريد من وراء ذلك كله أن يحببها إلى الناس ، فيروا فيها ما يرى ، ويقدمها لهم كأثمن لذة ينبغى أن يطلبها الإنسان فى حياته ، ليقدموا على شربها كما يفعل ، ولقد ذهب فى سبيل هذين الغرضين مذاهب متعددة ، تختلف باختلاف الذين وجه إليهم القول ، دعا الأثرياء أن يبذلوا لها من مالهم لأنها لأمثالهم مباحة لغناهم ، محرمة على الفقراء الذين لايستطيعون أن ينالوا حظوتها ومتعتها كما سبق أن ذكرنا ، وجذب قلوب الذين تملأ نفوسهم النعرة العربية نحوها بأن قدم الخمر لهم ، على أنها أثيرة العرب والنبلاء كما فى قوله : ـ

لا تمكننى من العربيد يشربنى ولا اللئيم الذى إن شمنى قطبا
ولا المجوس فإن النار ربهم ولا اليهود ولا من يعبد الصلبا
ولا السفال الذى لا يستفيق ولا غر الشباب ولا من يجهل الأدبا
ولا الأراذل إلا من يوقرنى من السقاة ولكن أسقنى العربا
يا قهوة حرمت إلا على رجل أثرى فأتلف فيها المال والنشبا

نراه فى هذا الشعر يصور أن الخمر يجب أن تصان من العربيد ، حتى لايظهر منه سوء الأدب ، وحتى لايخرج على الآداب الواجب اتباعها فى مجالس الشراب ،

(١) راجع الخطابية ، الفصل الثانى من الباب الأولص ٧٣ وما بعدها من هذا البحث .

ويجب أن تمنع من هذا اللئيم الذى إن شمها اشمأزت نفسه وقطب جبينه ، لأنه لايدرى ما فيها من مفاتن ، وينبغى أن يحرم منها المجوس ، لأنهم يعبدون النار ، ويجب أن يحال بين اليهود والنصارى و بين التمتع بها ، وينبغى أن تحجب عن سفلة الناس ، أولئك الذين إن شربوها أسلمتهم إلى طور لا يستفيقون منه إلا بعد جهد ، مثلهم فى ذلك مثل غر الشباب الذين لايستطيعون تحمل سلطانها القوى ، وأن الخمر لها من المكانة ما يجعلها فى مستوى ينأى بها من أن يلج ساحتها أولئك الذين يجهلون آداب الشراب ، وما يصونها عن الأراذل الذين يفسدون جوها الجميل ، وهى فى مكانتها لا يسمو إليها إلا العرب ، ومن يوقرها من هؤلاء النبلاء الكرام الأغنياء ، الذين يجودون لها بأموالهم ؛ ويتحدث إلى الذين يتحرجون من شربها لما فيها من تحريم ، فيصور لهم أن هذا التحريم لايحول دون شربها ، لأنها أثمن ملاذ الحياة ، ويستغل اختلاف نظر الفقهاء فى الشراب المسكر فيزعم أن أمر الخمر خفىّ ، وليس من الوضوح بما يجعلهم يحجمون عنها ، كما فى قوله : ــ

تقسمتها ظنون الفكر إذ خفيت ... كما تقسمت الأديان آراء[1]

نراه يذهب إلى أن الخمر موضع خلاف الفقهاء ، وهم حين يبدون آراءهم يقولون بالظن ، ويعتمدون على الاستنتاج ، يذهب فيها أحدهم مذهباً ، ويرى غيره رأياً يخالف زميله ، وذلك كله نتيجة لخفاء أمرها عليهم ، لأن شأنها فى هذا الخفاء وعدم الوضوح هو شأن بعض المسائل الدينية الغامضة علينا ، تختلف فيها وتتعدد فيها الآراء والمذاهب ، وأبو نواس يريد من وراء ذلك أن يوهم أصحاب اللذة أو الراغبين فيها ويحجمون عن الخمر ، أن أمرها ليس واضحاً ذلك الوضوح الذى يفرق بين الحق والباطل فيها ، ويدير أبو نواس وجهه نحو المترفين فيصور لهم الخمر أنها متعة فى هذه الحياة الفانية ، وينبغى أن تنالها قبل فواتها ، لما لها من أثر فى النفس تذهب به أثر الهم والغم ، وتمنح شاربها لذة ومرحاً ونسياناً لمايتنازعه من أفكار سوداء تقلق حياته ، وهذا ما يبدو فى قوله :

(١) الديوان ص ٢٣٦ طبعة مصر سنة ١٨٩٨

أديرا على الكأس يتقشع الغم ولا تحبسا كأس ففى حبسها إثم[1]

تراه يدعو ساقييه إلى أن يناولاه الكأس ، لأن نفسه قد أثقلها الهم ، يبتغى أن يزيل هذا الغم عنها ، ويلح على ساقييه إلحاحاً يجعله يطلب منهما ألا يحبسا كأسه ، لأن فى حبسهما له حرماناً من اللذة ، وضياعاً للمتعة ، وصيانة لهذا الغم ، الذى يريد أن يخرج منه بالخمر ، وهذا كله إثم يرتكبانه إذا لم يقدما الكأس .

بهذه الوسائل وأمثالها دعا أبو نواس إلى شرب الخمر ، وشجع الناس بمختلف مشاربهم أن يقتحموا ساحتها ، رافعاً ماعليها من حظر ، مبيناً ما فيها من إباحة ، ونحن إذا أردنا أن ننظر إلى دعوته على ضوء تعاليم الشيعة المتطرفين الذين أباحوا الخمر أو حللوها ، نجده يختلف معهم فى الوسائل ، ويتفق وإياهم فى النتيجة ، ذلك لأن متطرفى الشيعة أنكروا مافى الخمر من تحريم فأباحوا شربها ، أما أبو نواس فاعترف أنها محرمة ولكن لذة الإنسان فيها ، ولا ينبغى أن يقف هذا التحريم حائلاً دون شربها ، لأنها لذة الحياة ، وإذا لم يبادر المرء بأن يقبل عليها فاتته وأدركته المنية ، فيذهب دون أن يتمتع بملذات الحياة ؛ ولم يخف على القدماء ما فى قول أبى نواس من شر دعاهم أن يصفوه بالزندقة ، ولعل خير مثال يؤيد وجهة نظرهم ، ويكشف عن حقيقة دعوة أبى نواس ، وتأثره بالمذاهب التى فتنت مجان الكوفة هو قوله :

ألا فاسقنى خمراً وقل لى هى الخمر ولا تسقنى سراً إذا أمكن الجهر
فعيش الفتى فى سكرة بعد سكرة فإن طال هذا عنده قصر الدهر
وما الغبن إلا أن ترانى صاحياً وما الغنم إلا أن يتعتعنى السكر
فبح باسم من أهوى ودعنى من الكنى فلا خير فى اللذات من دونها ستر
ولا خير فى فتك بغير مجانة ولا فى مجون ليس يتبعه كفر[2]

---

(١) المصدر السابق ص ٣٢٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٧٣

فى هذا الشعر نرى أبا نواس يطلب من ساقيه أن يناوله الكأس ، وأن يقول له وهو يقدمه : إن ما فيه لهو الخمر ، حتى تلتذ أذنه بسماع اسمها ، كما تلتذ نفسه بنشواها ، وهو يريد أيضاً أن يشرب جهرة ، إذا لم يكن هناك ما يجعل ساقيه يعدل عن ذلك ، ويقدم له الكأس خفية ، إنها الخمر التى فتنته وغلبت الفتى على أمره ، فجعلت حياته فى أن يتبع السكرة السكرة ، وكلما جد فى ذلك ونشط مضت أيامه سراعاً ، يطويها الدهر على عجل ، فلا يحس لها ثقلا ولا طولا ، ولا يشعر بضجر من أعبائها ، لأنه يعيش فى نعيم الخمر ، وأنه لمن الغبن والحيف أن يحرم أبو نواس من هذه الخمر لحظات فيُرى صاحياً غير سكران ، وأنه لغنم وفوز أى فوز أن يذهب به السكر مذاهبه ، لأن لجو الخمر عنده خلابة وجاذبية تدفع أبا نواس أن يطلب من ساقيه أن يزيده شعوراً بالسعادة ، فيبوح له باسم فاتنة روحه وهى الخمر ، لايكنى عنها ولا يوارى ، لأن فى هذا الذكر وفيها لذات ، ولا خير فى لذة ينالها صاحبها وهو قلق على نفسه ، يظل طيلة وقته يتوجس خيفة من أن يكشف أمره ، فيخفى نفسه بما يستطيع من حجب ، لذة كهذه لا خير فيها ، كما لا خير فى فتك يحظى به صاحب لذة لا يتهيأ له فيه جو من المجون يشعره بحلاوة اللذة ، ذلك الجو الذى لا خير فيه إذا لم يكن مليئاً بالكفر والخروج عن تعاليم الدين . فى هذا الشعر الذى جعل القدماء يضربون به المثل على زندقته ، نراه لا يحتاط ويخرج عن المألوف منه ، فيصرح ويعترف بأنه يرغب فى الخمر للخمر ، ويبوح بمكنون نفسه بأنها لذة يجب أن تنال جهرة ، وإذا عرفنا أنه كان ماجناً ، ونظرنا إلى البيت الأخير من هذا الشعر ، تبين لنا أنه يكشف القناع عن نفسه فى حديثه عن الخمر ، وأن القدماء محقون حين وصفوه بالزندقة حين سمعوا هذا الشعر منه ، ذلك لأنه يصور أن طلب اللذة لا خير فيه إلا بالخلاعة والمجون ، ولا جدوى من هذا المجون إذا لم يكفر صاحبه بالدين ، وهذا قول من تأثر تأثراً مباشراً بأقوال الخطابية والجناحية من

غلاة الشيعة ، الذين حضوا أتباعهم أن يكفروا بالدين ، ويتبعوا أهواءهم فى اللذات التى تهوى إليها نفوسهم .

غلا أبو نواس فى حب الخمر غلواً دفعه أن ينزلها منزلة القداسة والإجلال ، وهذا بلا شك نتيجة تأثره بالتطرف والإسراف اللذين كانا يحوطانه فى حياته بالكوفة فى صباه ، هذا الإسراف جعله ينظر إلى الخمر أنها من القداسة إلى حد أن الملوك كانوا يسجدون لذكرها ، كما يبدو ذلك فى قوله :

ومدامة سجد الملوك لذكرها جلت عن التصريح بالأسماء

ها هو ذا أبو نواس يجعل للخمر من القداسة والسمو فى نفوس الملوك السابقين ما حفزهم لأن يسجدوا لمجرد ذكرها ، ومن الروعة والجلالة فى نفوس عشاق الخمر أمثاله من معاصريه ، ما أقامها فى نفوسهم فى منزلة أكبروها عن التصريح باسمها ، هذه الروعة أو هذه القداسة التى يضيفها أبو نواس إلى الخمر ، والتى تملكت نفوس معاصريه من أمثاله يصفها لنا ، بأنها ذهبت بهم مذهب هؤلاء الملوك السابقين ، فجعلتهم لا يطيقون أن يصبروا على ألا يسجدوا لها ، إذا رأوها مقدمة عليهم ، كما فى قوله :

فجاء بها زيتية ذهبية فلم نستطع دون السجود لها صبراً

وأنَّ لها من الكمال والمنزلة ما تستحق بهما التكريم ، كما ذهب فى قوله :

أثن على الخمر بآلائها وسمها أحسن أسمائها

ولقد علق على هذا البيت الأستاذ الدكتور طه حسين قائلا « أليس الشطر الأول منه تسبيحاً للخمر ؟ أليس الشطر الثانى منه تقديساً للخمر ؟ أليس فى هذا البيت على سهولته و براءته من ألفاظ المجون أشدّ ألوان المجون ؟ أليس فيه الاستهزاء بالدين والسخرية منه ؟ أليس يذكرك القرآن ؟ أليس يذكرك قول الله تعالى : « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها » (١) ، وإنى وإن كنت أتفق مع الأستاذ

---

(١) حديث الأربعاء ج ٢ ص ١٠٩ .

الكبير فيما ذهب إليه ، من أن أبا نواس فى هذا البيت يضفى على الخمر لوناً من التقديس ، فلا أميل إلى ما ذهب إليه ، من أن أبا نواس قصد به الاستهزاء بالدين والسخرية منه ، ذلك لأنه رجل كان مفتوناً بلذته ، مغرماً بها ، فكان يصفها بما يتلاءم مع مكانتها فى نفسه ، ولم يكن يعنيه غير هذا ، ويضاف إلى ذلك أنه لم يكن معنياً بالطعن فى الإسلام حتى يمكن صرف قوله إلى هذا المنحى وهو الاستهزاء بالدين والسخرية منه ، وإنما كان ما بدر منه هو نتيجة تأثره بمذاهب غلاة الكوفة والخطابية منهم خاصة ، أولئك الذين حللوا المحرمات ، وأباحوا اللذات ، وتدينوا بترك الفرائض ، وجعلوا التمتع باللذات من أسس عقيدتهم ، وهذا التأثير لم يتجاوز به أن يقف موقف العداء الصريح للإسلام . كان لا يعنى أبو نواس إلا أن يصور الفتنة الشديدة بالخمر ، الصادر من قلب آمن باللذة مذهباً فى الحياة وللحياة ، ويحرص أن يظهر هذه الفتنة فى أحب وأكمل مظاهرها ، لا يثنيه عن ذلك وصف ينتهى بالموصوف إلى التقديس .

د — حديثه عن الغلمان

اشتهر أبو نواس بالغزل بالغلمان ، شهرة جعلته إذا ذكر هذا الفن فى الأدب العربى اقترن اسمه به ، ذلك لأنه أكثر الشعر فى هذا اللون من القول ، وأجاد فيه وأتى فيه بالخيال البديع والمعنى الرائق والتشبيه الخلاب ، كان يدفعه إلى ذلك رغبة اكتسبها من صباه ، حين كان يعيش مع مجان الكوفة ، ومجون أبعده عن المثل العليا للأخلاق ، وميل فيه إلى حب اللذة والدعوة لها ، ذلك الميل الذى أملته البيئة الكوفية عليه فى صغره ، هذه البيئة التى أظلت غلاة الشيعة ، الذين أباحوا أنواع اللذات ، ومنها اللذة مع الغلمان ، التى شاعت زمن أن كان يعيش الشاعر فى الكوفة مع أستاذه والبة بن الحباب الأسدى .

كان مجان الكوفة يصفون لذتهم مع الغلمان فى غير حياء ولا خجل ، وعاش

أبو نواس ينهم يستمع إليهم ويكتوى بنار رغبتهم الآثمة ، حتى إذا ماعاد إلى البصرة ظل الداء يلازمه ، حدث أبو سعيد الجهنى عن أخيه بدر البراء الذى كان يبرى العود فى السوق قال «كان أخى صاحب غلمان ثم أقلع وتاب وتزوج وولد له أولاد ، وكان فى أيام فتوته له غلمان أبو نواس من جملتهم [1] » ، أفسد مجان الكوفة أبا نواس وعلموه أن يكون على مثالهم ، فشب يبتغى من اللذة ما كانوا يبتغون ، روى جماعة «أن أبا نواس أغرم بغلام من ثقيف وكان الغلام قد نسك فكان لا يدخل المسجد إلا للقرآن والفرائض ولا يتشاغل بغيرهما مخافة أن يحتال عليه أبو نواس ولكنه مازال يحتال عليه حتى جالس أهل النحو ثم مال به إلى أهل العروض وما زال ينقله من علم إلى علم حتى أقعده فى حلقة الشعراء» و بذلك تمكن من افساده [2] .

تغنى أبو نواس بلذاته غناء المفتون بمتعته مع الغلمان ، وأخذ يصف هؤلاء الغلمان فى ألفاظ رقيقة لها جرس جميل ، انظر إلى قوله :

وعندها قمر فى طرفه حور ... فى دلّه خفر فى حسن تمثال
مفاكه عبث مقاله أنث ... فى طرفه نفث قتال أبطال
يسقيك من يده خمراً وناظره ... سحرا ومن فمه سكرا على حال

على هذا النحو كان يتحدث عن الغلمان ، حتى ذاع شعره ولفت الأنظار إليه ، مما جعل الأمين يضطر إلى حبسه ، حين ضج العقلاء خشية من تأثيره ، حبسه الأمين فى سجن الزنادقة ، ذكر الجهشيارى أنّه «كان للفضل بن الربيع خال يستعرض أهل السجون ويتعهدهم فدخل إلى الحبس الذى هو (أبو نواس) فيه ولم يكن يعرفه فقال له ياهذا ، أنت زنديق ، فقال له أبو نواس : معاذ الله . فقال له : فلعلك ممن يعبد الكبش ، فقال له : أنا آكل الكبش بصوفه . فقال له :

(١) ابن منظور . أخبار أبى نواس ج ١ ص ٤٨ القاهرة سنة ١٩٣٤

(٢) المصدر السابق ص ١٧٥

فلعلك تعبد الشمس ، فقال له إنى أتجنب القعود فيها بغضا لها ، فقال : بأى جرم حبست ؟ فقال لأنى أنام خلف الناس ، فقال له ليس الأمر كذلك ، قال والله لقد صدقتك » ، فذهب إلى الفضل وأبلغه ألا يحبس الناس بغير جرم ، وتقول الرواية إن الفضل شفع له عند الأمين فأطلقه[١] . ألقى الأمين أبا نواس فى سجن الزنادقة ، لأنه يستمتع بلذة غير مباحة ، بل وغير مألوفة ، لذة نادى بها مجان الكوفة وغلاة الشيعة ، ودعوا إليها ودعا أبو نواس مثلهم إليها ، ولكنه كان أقوى تأثيراً وأشد منهم نفوذا ، لجمال شعره وحلاوة لفظه ، وكان يبعده عن المظنة أنه لم يكن يطعن فى الإسلام مثلهم ، أو يسفّه تعاليمه ، أو يزعم أن ألفاظ القرآن الدالة على الأشياء المحرمة هى إشارات لأسماء رجال ، كما ادعى غلاة الشيعة الكوفيون .

أسرف أبو نواس فى وصف اللذة مع الغلمان كما أسرف فى وصف الخمر ، فراح يصور أن اللذة مع الغلمان لاتعدلها لذة ، كما فى قوله :

من كان تعجبه الأنثى ويعجبها   من الرجال فأنى شفنى الذكر

أسرف لأنه تظاهر أن الذكر عنده خير من الأنثى ، مما لايتفق وما قد وصفه به ابن المعتز ، من أنه كان محبا للنساء[٢] على غير مايظهر ، ولقد ذهب به هذا الاسراف إلى حد أن صور أن أعزّ متعة فى الحياة هى التى تبتغى عند الغلمان ، كما يتضح ذلك من قوله :

أعز العيش وصل المرد دهرى   وبؤس العيش وصلى للغوانى

ودفعه هذا الاسراف إلى حد أن تجاهل ما للأنبياء من إجلال يجعلهم بمنأى من أن يكونوا أشباه غلمان تسعى وراءهم شهوات الشاعر ، ولكنها اللذة والأيمان بها جعلته لايعبأ بذلك ، قال يتغزل فى غلام اسمه موسى :

يا سمى الذى كلم الله   ه وأدنى مكانه تقريبا

---

(١) الوزراء والكتاب — ص ٢٩٦ و ٢٩٧

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٣٢٥ بولاق

وشبيه الذى تلبث فى السجـ ـن سنينا وكان براً نجيبـا
وابن قارىء القرآن غضا كما أنز ل قد سمت قلبى التعذيبا[١]

وخرج به الاسراف إلى مسلك جعله يفضل اللذة مع الغلمان ، تفضيل المكبر لها ، الهائم فى روعتها وقداستها ، ذهب فيها كما ذهبت به الخمر فى تقديسها ، انظر إلى قوله :

غريب الحسن ليس له ضريب بعيـد فى مطالبـه قريب
تفرد بالجمـــــال بغير مثل وأخلته المذمة والعيـوب[٢]

نراه يصف هذا الغلام الذى اشتهاه ، بأن جماله لانظير له ، وهو فى غرابة حسنه يسمو سموا يجعل الظفر به بعيد الاحتمال ، و إن أطمع فى القرب منه ، ذلك لأنه تفرد بالجمال الذى لايجد له مثالا ، و بالـكمال الذى خلا من العيب والنقد ، أقول أن فى هذا الوصف اسرافا يتجاوز الحد ، لأن أبا نواس حين كان يصف كان ينظر إلى قول الله تعالى « ليس كمثله شىء » ، ألا تراه يجعل جمال الغلام من غير ضريب ! وألا تحس فى قوله « تفرد بالجمال بغير مثل » أنه يجعل جمال هذا الغلام لا كمثله شىء ! ! وأنه بوصفه هذا حاز صفات الـكمال وخلا من أى عيب أو نقص ، ذلك دأب أبى نواس فى إكبار اللذة .

تغنى أبو نواس بهذه اللذة مع الغلمان ، غناء كان فتنة للناس ، وكانت روحه الخفيفة تضفى على شعره حلاوة فوق حلاوة لفظه ، وجمال شعره وجودة خياله . اتخذ شعره طريقه إلى القلوب يغزوها ، وظفر أبو نواس كشاعر بمـا لم يتح مثله لمعاصر له ، قال محمد بن عمر « لم يكن شاعر فى عصر أبى نواس إلا وهو يحسده

---

(١) الديوان ٤١٠ مصر سنة ١٨٩٨ الذى كلم الله هو موسى عليه السلام والذى لبث فى السجن هو يوسف عليه السلام وقارىء القرآن غضا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم

(٢) المصدر السابق ص ٤٠٨

لميل الناس إليه وشهوتهم لمعاشرته و بعد صيته وظرف لسانه[١] » ، سار شعره فى الغزل بالغلمان كما أحب ، ونجح فى أن يشجع الراغبين فى هذه اللذة أن يحظوا بها وأن يسعوا لنيلها ، وترتب على هذا الميل من الرجال للتمتع بهذه اللذة الشاذة ، أن اضطرت الجوارى أن يهيئن أنفسهن على النحو الذى يرغب فيه الرجال ، و بدين فى صورة الغلمان ، وعرفن بالغلاميات ، وكان بينهن و بين الغلمان منافسة قوية فى تملق الرجال ، قال أبو نواس يصف غلامية :

مطمومة الشعر فى قمص مزررة ... فى زى ذى ذكر سيما وسيماها[٢]
فلو يراها غـلام ثم يلمحها ... عض الأنامل لولا اللحظ أدماها.

استشرى هذا الداء الذى لانكاد نتبينه أيام الرشيد ، استشرى وذاع أيام الأمين ، حين كان المجان وعلى رأسهم أبو نواس يتنافسون فى وصف هذه اللذة ، التى أكثر فيها الشعر أبو نواس كثرة يدل عليها ديوانه ، وما جاءت به الأخبار ، و إن ظهور الغلاميات أيام الأمين يذهب بنا إلى القول أنه كان نتيجة لهذه الدعاية ، التى قام أبو نواس فى المقام الأول بها ، ومعه المجان الشعراء ، الذين سنتحدث عن بعضهم فى هذا البحث .

ونستطيع أن نقول فى إجمال ، أن أبا نواس تأثر بالمذاهب المتطرفة التى ظهرت بالـكوفة ، يبدو ذلك واضحا فيما تمثلنا به من شعره ، الذى يشير إلى اكباره اللذة مع الغلمان ، تلك اللذة التى دعا إليها غلاة الـكوفة ، و إلى تقديسه لها تقديس الذى آمن بها ، واتخذ اللذة الحسية عقيدة فى الحياة ،كالخطابية والجناحية ، وافراطه فى وصف الغلمان افراطاً أراد منه أن تكون هذه اللذة الشاذة موضع إقبال الناس عليها ، كما طمح فى ذلك دعاة الـكوفة الأباحيون ، وفتنته بها فتنة جعلته يتغنى بها غناء الذى يرى الظفر بها سعادة ، كما صورها مجان الـكوفة ، والنـاقد حين

---

(١) ابن منظور . أخبار أبى نواس ج ١ ص ٥٨ القاهرة سنة ١٩٢٤

(٢) يقال له سيمة الصلاح أى علامة الصلاح والسيما والسيماء الحسن والبهجة .

ينظر إلى هذا كله يرى أن حياة أبى نواس مع والبة بن الحباب كان لها أكبر الأثر فى هذا التوجيه ، كما وأن مرضه باللذة بالغلمان انتابه وهو فى هذا المصر ، وظلت جراثيم الداء تأكل نفسه حتى أصبح شاعراً يشار إليه بالبنان ، فحدث عن نفسه ولذته حديثاً قوياً أخاذاً ، وكان فى الناس ميل إلى الترف ورغبة فى الأخذ بأسبابه ، فلقيت دعوته إلى اللذة أذناً صاغية وقلباً واعياً ، وخلبتهم هذه اللذة الشاذة فذاقوا طعمها ، وجلبوا إلى قصورهم الغلمان الفاتنين والجوارى الحسان ، اللاتى عملن على إرضاء شهواتهم ورغباتهم ، بأن ظهرن بمظهر الغلمان ، وعرفهن المجتمع بالغلاميات .

دعوة مطيع بن إياس والحسين الخليع إلى اللذة

نريد أن نفرد لهذين الشاعرين الخليعين تقديماً خاصاً بهما ، لما لهما من أهمية فى هذا العصر الذى ندرسه ، ولنبدأ بمطيع بن إياس الكوفي ، الذى أشرنا أن المسعودى فى مروج الذهب قد قال عنه ، إنه كان من الذين يدعون إلى المذاهب المتطرفة فى الكوفة ، يترجمها ويذيعها على الناس ، وتاريخ حياة هذا الشاعر يدل دلالة واضحة على تأثره العميق بالمذاهب المتطرفة ، قال علي بن محمد النوفلى عن أبيه وعمومته « إن مطيع بن إياس وعمارة بن حمزة من بنى هاشم وكانا مرميين بالزندقة نزعا إلى عبد الله بن معاوية بن جعفر بن أبى طالب لما خرج فى آخر أيام بنى أمية وأول ظهور الدعوة العباسية بخراسان وكان ظهر على نواح من الجبل منها اصبهان وقم ونهاوند فكان مطيع وعمارة ينادمانه ولا يفارقانه[(١)] » ، ولقد سبق أن بينا أن عبد الله بن معاوية هذا زعم لاتباعه أنه إله ، وأنه ألبس التشيع ثوب الأباحية السافرة ، وحلل الخمر والميتة ونكاح المحارم وأنكر القيامة ، وأن اتباعه منهم كوفيون وغالبيتهم فرس ، واتصال مطيع برجل مثل عبد الله

(١) الأغانى ج ١٢ ص ٧٨ طبعة الساسى سنة ١٣٢٣ هـ

ابن معاوية يؤدى إلى تأثره بالمذاهب الأباحية ؛ انتقل مطيع بن إياس إلى بغداد ، وانقطع لخدمة جعفر بن أبي جعفر المنصور ، فكان معه حتى مات ، وظل مطيع فى بغداد حتى مات أواخر أيام المنصور أو فى أوائل أيام المهدى ، وكانت صحبته لجعفر بن المنصور مدعاة لأن تثير المنصور عليه ، روى المدائنى قال « كان مطيع بن إياس يخدم جعفر بن أبي جعفر المنصور و ينادمه فكره أبو جعفر ذلك لما اشتهر به مطيع فى الناس وخشى أن يفسده فدعا بمطيع وقال له عزمت على أن تفسد ابنى علىّ وتعلمه زندقتك » ، وحذره من اتصاله بجعفر ، وذكر محمد بن الفضل السكونى قال « رفع صاحب الخبر إلى المنصور أن مطيع بن إياس زنديق و إنه يعاشر ابنه جعفراً وجماعة من أهل بيته و يوشك أن يفسد أديانهم و ينسبوا إلى مذهبه فقال له المهدى أنا به عارف أما الزندقة فليس من أهلها ولكنه خبيث الدين فاسق مستحل للمحارم قال المنصور فأحضره وانهه عن صحبة جعفر وسائر أهله فأحضره المهدى ، وقال له يا خبيث يا فاسق قد أفسدت أخى ومن تصحبه من أهلى والله لقد بلغنى أنهم يتقارعون عليك ولا يتم لهم سرور إلا بك فقد غررتهم وشهرتهم فى الناس ولو لا أنى شهدت لك عند أمير المؤمنين بالبراءة مما نسبت إليه بالزندقة لكان أمر بضرب عنقك وقال للربيع أضر به مائتى سوط واحبسه قال ولم يا سيدى ؟ قال لأنك سكير خمير قد أفسدت أهلى كلهم بصحبتك فقال له إن أذنت وسمعت احتججت قال قل قال أنا امرؤ شاعر وسوق إنما تنفق مع الملوك وقد كسدت عندكم وأنا فى أيامكم مطرح وقد رضيت فيها مع سعتها للناس جميعاً بالأكل على مائدة أخيك » وأخذ يبرر مسلكه والمهدى ينصت له حتى انتهى من حديثه وكان المهدى « يشكر له قيامه فى الخطباء ووضعه الحديث لأبيه فى أنه المهدى » ، فعفا عنه[1] ؛ وهذه الرواية أدق من رواية المدائنى ، لأن مطيعاً بعد أن اتهم

---

(١) الأغانى ج ١٢ ص ٩٦ طبعة الساسى سنة ١٣٢٣ هـ والخمير هو شريب الخمر « اللسان » .

بالزندقة و إفساد جعفر أحب المهدى أن يحميه و يدفع عنه ، لما له من فضل وضعه حديثاً على لسان رسول الله أنه المهدى ، وأنه الذى يخلف أباه ، فتحين هذه الفرصة وأبعده عن بغداد ، بأن ولاه عملا في البصرة .

كان مطيع بن إياس الكنانى يتجه إلى هذه المذاهب الأباحية عن عقيدة ، يؤلف فيها الكتب و يعلمها أهله ، نستطيع أن ندرك ذلك مما يروى عن ابنته بعد موته ، ذكر أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل الكاتب « أن الرشيد أتى ببنت مطيع ابن إياس فى الزنادقة وكانت قد قرأت كتابهم واعترفت به وقالت هذا دين علّمنيه أبى وتبت منه فردها إلى أهلها[1] » ، و يدل تاريخ حياته على أنه كان نشطاً فى نشر المذاهب الأباحية ، وأنه كان يمارسها فى حياته ، وكان نشاطه فى بغداد محصوراً فى اتصاله بالأمراء ، وتعليمهم أن يبيحوا اللذات لأنفسهم ، وأن يشربوا الخمر ، ولم يكن يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك لأن السياسة التى رسمها آنئذ بنو العباس لأنفسهم لم تكن تأذن لأمثاله أن تكون له الحرية ، التى أتيحت لأبى نواس من بعده . وكان لمطيع فضل التمهيد لأبى نواس وأمثاله أن يحدثوا الأمراء عن اللذات ، وعلّم هؤلاء الأمراء أن يستمعوا لهذا النوع من الحديث ، فكانت الخطوة التى قام بها هامة فى إعداد الأثرياء لسماع دعاة اللذة .

أما الحسين بن الضحاك فهو بصرى المولد والنشأة ، وكان يلقب بالخليع ، وكان من تلاميذ بشار وابن مدرسته ، وكان صديقاً لأبى نواس ، قال عن نفسه « كنت أنا وأبو نواس تربين نشأنا فى مكان واحد وتأدبنا بالبصرة وكنا نحضر مجالس الأدباء متصاحبين ثم خرج قبلى عن البصرة وأقام مدة واتصل بى ما آل إليه أمره و بلغنى إيثار السلطان وخاصته له فخرجت عن البصرة إلى بغداد ولقيت الناس ومدحتهم وأخذت جوائزهم وعددت فى الشعراء وهذا كله أيام الرشيد إلا أنى لم أصل إليه واتصلت بابنه صالح فكنت فى خدمته » ، ويمضى فى حديثه

(١) المصدر السابق جـ ١٢ ص ٨٥

إلى أن يقول « واتصلت بمحمد بن زبيدة وخدمته ثم اتصلت خدمتى له فى أيام خلافته[١] » ، ومن هذا يتضح أنه انتقل إلى بغداد قبل أن يتولى الوزارة الفضل ابن الربيع أى قبل سنة ١٨٧ هـ بقليل . كانت شهرته بالخلاعة والمجون تجعل الخلفاء يخشون على أبنائهم من تأثيره ، تحدث عن نفسه فى ذلك فقال « ضربنى الرشيد فى خلافته لصحبتى ولده ثم ضربنى الأمين لممايلة ابنه عبد الله ثم ضربنى المأمون لميلى إلى محمد ثم ضربنى المعتصم لمودة كانت بينى و بين العباس بن المأمون ثم ضربنى الواثق لشىء بلغه من ذهابى إلى المتوكل وكل ذلك يجرى مجرى الولع بى والتحذير لى ثم أحضر المتوكل وأمر شفيعاً بالولع بى فتغاضب المتوكل علىّ فقلت له يا أمير المؤمنين إن كنت تريد أن تضربنى كما ضربنى آباؤك فاعلم أن آخر ضرب ضربته بسببك فضحك وقال بل أحسن إليك ياحسين وأصونك وأكرمك[٢] » ، منذ انتقل الحسين الضحاك إلى بغداد ، ظل بها ولم يفارقها إلا فى أيام المأمون ، خشية منه ولولائه لمحمد الأمين ، عاد إلى البصرة وظل بها حتى تولى المعتصم ، فرجع إلى بغداد و بقى فيها .

تعلّم الحسين الخليع المجون فى البصرة ، وعرف المذاهب الكوفية المتطرفة من صلاته بأهل الكوفة ومن أبى نواس ومن غيره ، فقال الشعر فى الخمر ودعا إلى اللذة ، ولما انتقل إلى بغداد كان نشاطه منحصراً فى دائرة القصور ، ومن يتصل بخدمة هذه القصور ، وظل كذلك طوال حياته ببغداد لاينزل إلى الشعب كما كان يفعل أبو نواس ، حين كان يلقى الناس فى مجلسيه اللذين أقامهما ببغداد ، أحدهما بالكرخ والآخر بعسكر المهدى ، ولذلك لانرى له من الأثر ما كان لأبى نواس فى نفوس أهل بغداد ، كان سمير الأمراء يخلب لبّهم بحديثه وشعره القوى الرصين ،

---

(١) المصدر السابق جـ ٦ ص ١٧٤ طبعة الساسى سنة ١٣٢٣ هـ

(٢) المصدر السابق جـ ٦ ص ٢٠٥ طبعة الساسى سنة ١٣٢٣ هـ ولع فلان بفلان يولع به إذا لج فى أمره وحرص على إيذائه (اللسان) .

وكانت بينه و بين أبى نواس منافسة فى وصف الخمر ، تغلب فيها أبو نواس لشهرته بين الناس ، و إلفهم منه قول الشعر البديع فى وصف الخمر ، قال صاحب الأغانى فى ذلك « وكان أبو نواس يأخذ معانيه (أى معانى الحسين) فى الخمر فيغير فيها و إذا شاع له شعر نادر فى هذا المعنى نسبه الناس إلى أبى نواس[١] » ، ولئن كان الخليع قد عمل فى دائرة محدودة فقد كان له فى هذه الدائرة تأثير قوى ، جعله من المقربين إلى الأمراء وإلى محمد الأمين بخاصة ، كان يتحدث إلى هؤلاء الأثرياء عن الخمر والغلمان والجوارى ، حديثاً يبسطه أبو الفرج فى الأغانى ، وكانت له مع غلمان السادة والجوارى أحاديث ، طابعها الدعارة ، وسياها الفحش ، ومظهرها الخروج على القيم الخلقية ، وكان فى هذا الميدان يتجاوز أبا نواس و يسبقه ، كما يرى الناظر فى تاريخ حياته .

نشاط المجان فى بغداد

ا ـ سيرتهم

فى أواخر أيام الرشيد أو فى عصر الأمين ، ظهرت فى بغداد طائفةمن المجان، وكانوا لايعنون إلا بلذاتهم ، يشربون الخمر و يأتون الفحشاء فى غير حذرأوحيطة، و يتحدثون عن ملذاتهم فى صراحة لايحجبها خوف ، ولا ينأى بهم عنها خشية من الله ، وكان غالب هؤلاء من أهل الكوفة أو من البصرة ، كان منهم اسماعيل القراطيسى وهو اسماعيل بن معمر الكوفى مولى الأشاعثة ، وكان مؤلفاً للشعراء يقصده أبو نواس ومسلم بن الوليد وأبو العتاهية وغيرهم ممن فى طبقتهم ومثالهم ، يقصدون منزله ويجتمعون عنده ، ويقصفون ، ويدعو لهم القيان وغيرهن من الغلمان و يساعدهم ، وأياه يعنى أبو العتاهية فى قوله :ـ

---

(١) المصدر السابق ج ٦ ص ١٦٥ طبعة الساسى سنة ١٣٢٣ هـ .

لقد أمسى القراطيسى رئيساً فى الكشاخين [1]

ومنهم أبو الشيص محمد بن رزين بن سليمان الكوفى ، وهو عم دعبل الخزاعى ، وعن ابن دريد أنه سأل أبا حاتم عن رأيه فى خمسة وعشرين شاعراً ، من بينهم أبو الشيص ، فقال عنه « فأبو الشيص قال جد كله فيه حلاوة و بشاعة كالسدرة التى نفضت فيها المستعذب والمستبشع [2] » ، وعلى بن الخليل وهو من أهل الكوفة وكان مولى معن بن زائدة الشيبانى ، وكان يعاشر صالح بن عبد القدوس لايفارقه . كان الكوفيون كثرة ، منهم المشهور ومنهم غير المذكور على ألسنة الناس ، وكان من أهل البصرة عدا أبا نواس والحسين بن الضحاك الخليع الفضل الرقاشى صاحب المفضليه ، وهى فرقة كانت فى البصرة ، وكان الفضل هذا خليعاً ماجناً ، كان هؤلاء المجان يجتمعون فى الحانات والبساتين ، وكثيراً ما كانوا يلتقون لينظروا كيف يقضون يومهم أو ليلتهم ، يبسط كل واحد منهم مالديه من لذة فاتنة مغرية ، ثم يجتمعون على رأى و يذهبون إلى بيت من وقع عليه الاختيار ومن أحاديثهم فى ذلك قول القراطيسى : —

ألا قوموا بأجمعكم إلى بيت القراطيسى
لقد هيا لنا المنزل غلام فاره طوسى
وقد هيا الزجاجات لنا من أرض بلقيس
وألواناً من الطير وألواناً من العيس
وقينات من الحور كأمثال الطواويس
. . . . وفى طاعة إبليس [3]

(١) الأغانى ج ٢٠ ص ٨٨ طبعة الساسى سنة ١٣٢٣ هـ والكشح داء يصيب الإنسان فى كشحه أى فى خصره (اللسان)

(٢) ديوان أبى نواس ص ١١ طبعة مصر سنة ١٨٩٨

(٣) الأغانى ج ١٠ ص ٨٩ طبعة الساسى سنة ١١٣ هـ حذفنا الشطر الأول من البيت الأخير لما فيه من فحش .

اشتهرت مجالس هؤلاء المجان بالخلاعة وشرب الخمر و إتيان الفحشاء مع النساء والغلمان ، وكانوا أثناء لذتهم تلعب الخمر برؤوسهم ، فيصرحون بمكنون أفئدتهم ، فيصورون اللذة هي الحياة ، وأن لا لذة فى الدنيا سوى الفحشاء والخمر ، وأنهم يأتونهما عن عمد ساخرين بتحريمهما ، هازئين بالنهى عنهما ، والمتأمل لمذاهب الكوفيين من غلاة الشيعة الذين حللوا المحرمات وسخروا بالدين ، يجد مذاهبهم يطبقها هؤلاء المجان تطبيقاً لا يصطنعون فيه حيطة ولا حذراً ، ولا يخشون منه عقاباً من السلطان .

ب ـ المجان والخمر

كان مطيع بن إياس يذهب إلى أن فى الخمر معنى من معانى « الجنة يذهب الحزن كما حكى الله عز وجل عن أهلها[1] » ومن خمرياته قوله :ـ

ويلى ممن جفانى وحبه قد برانى
وطيفه يلقانى وشخصه غير دانى
أغر كالبدر يغشى بحسنه العينان .

إلى أن يقول :ـ

فرب يوم قصير فى جوسق وجنان
بالراح فيه يحيا والقصف والريحان
وعندنا قينتان وجهاهما حسنان الخ[2]

ما لدينا من شعره قليل ، ويبدو أن خمرياته كانت تسير على هذا النمط السهل الجميل ، ويمكن أن نرى فيما أثر عنه من أنه يرى فى الخمر معنى من معانى الجنة ، أنه كان يذهب فيها مذهب المعمرية من الخطابية ، يرى كما يرون أن الجنة ما يصيب الناس من لذة وسعادة فى دنياهم .

(١) الثعالبى — الإيجاز والإعجاز خمس رسائل طبع الآستانة ١٣٠١ هـ
(٢) الأغانى ج ١٢ ص ٨٣ ، ص ٨٤ طبعة الساسى سنة ١٣٢٣ هـ

كان هؤلاء المجان كثيراً مايلتقى بعضهم بعضا ، يسأل أحدهم أن ينشده الآخر ماقال فى الخمر ، ومن ذلك ماقيل إن أبا نواس لقى الحسين الخليع ورجاه أن ينشد ، فأنشد قصيدته الهمزية الرائعة التى مطلعها :

بدلت من نفحات الورد بالآء ومن صبوحك در الأبل والشاء

فلما انتهى إلى قوله :

حتى إذا ما اسندت فى البيت واحتضرت عند الصبوح بساتين أكفاء
فضت خواتمها فى نعت واصفها عن مثل رقراقة فى جفن مرهاء

وتقول الرواية على لسان الحسين « فصعق صعقة أفزعتنى (أفزعت الحسين) وقال أحسنت والله يا أشفر (لقب الخليع) فقلت : ويلك ياحسن إنك أفزعتنى والله، فقال : بلى والله أفزعتنى ورعتنى هذا معنى من المعانى التى كان فكرى لابد أن ينتهى إليها أو أغوص عليها وأقولها فسبقتنى إليه واختلسته منى وستعلم لمن يروى إلى أم لك ؟ فكان والله كما قال سمعت من لايعلم يرويها له[١] »،كان المجان يتقابلون ليسمع بعضهم بعضا ، وكانوا يتنافسون فى وصف اللذة والخمر ، يبتغى كل واحد منهم أن يظهر على صاحبه ، وأن يتفوق ليحظى بشرف الجودة فى وصف الملذات والخمر ، هذا التسابق يصور لنا نفوسهم المتحررة من قيود الدين والأخلاق ، تلك القيود التى دعا إلى تحطيمها غلاة الشيعة من الكوفيين ، فإذا كان هؤلاء الشعراء كوفيين أو ممن اتصلوا بالكوفيين ، وكانوا مجانا ، بدا لنا أثر تعاليم الغلاة من الشيعة ووجه قيام هذه المنافسة ، التى كسب من ورائها الشعر وخسرت الأخلاق ، كسب الشعر لأنه اتخذ سبيلا جديداً ، فبعد أن كان الشاعر يبدأ قصيدته بالوقوف على الديار يبكيها ويندبها ، عدل الشاعر عن التقليد وأخذ

---

(١) الأغانى ج ٦ ص ١٦٦ الساسى سنة ١٣٢٣ هـ — الآء = نبت كالورد ، رقراقة = دمعة ترقرق ، مرهاء = المرأة لم تكتحل

يلائم بين حياته وفنه ، ولما كان كثرة الشعراء من هؤلاء المجان الذين تفتنهم الخمر بدأوا قصائدهم بوصفها ، كما نرى فى شعر أبى نواس والحسين الضحاك وغيرهما كثير ، أما خسران الأخلاق فيحدثنا فى ذلك ابن قتيبة قائلا « ومن شربة النبيذ الشطار والخلعاء والمجان فحملهم الكأس على المجون ، وحملهم المجون على ركوب الكبائر معلنين ، واتيان الفواحش مجاهرين ويرون أتم ذلك لذة أظهره ، وأنقصه مسرة أستره[١] » .

وكما كان أبو نواس يحرض الناس على شرب الخمر ، كان الخليع يحض الخلفاء والأمراء الذين اتصل بهم على شربها ، ومن ذلك مايروى أن أبا العباس الرياشى قال حدثنا الحسين بن الضحاك قال « دخلت على الواثق ذات يوم وفى السماء لطخ غيم فقال لى ما الرأى عندك فى هذا اليوم ، فقلت يا أمير المؤمنين ماحكم به وأشار إليه قبلى أحمد بن يوسف فإنه أشار بصواب لايرد وجعله فى شعر لايعارض فقال وما قال ، فقلت قال :

أرى غيما تؤلفه جنوب وأحسبه سيأتينا بهطل
فعين الرأى أن تدعو برطل فتشربه وتدعو لى برطل

فقال : أصبتما ، ودعا بالطعام وبالشراب والمغنين والجلساء واصطبحنا[٢] » ، وسيرة الحسين الخليع مع الأمين هى من الشهرة بحيث لاتحتاج إلى بيان ، أما بقية المجان فكانوا يحثون بعضهم بعضا لاقتناص اللذات وشرب الخمر ، وقضاء الحياة فى التمتع بها وأمرهم مشهور معروف ؛ هذه الحياة الماجنة وهذه المعانى الشعرية التى وصفت الخمر لتحبب فيها ، لاتدع مجالا للشك فى سيطرة مذهب اللذة أو سيطرة إيحائه على الأقل ، ذلك المذهب الذى نادى به غلاة الشيعة الاباحيون .

---

(١) الأشربة ص ٤١ دمشق سنة ١٩٤٧

(٢) الأغانى ج ٦ ص ١٧٢ الساسى سنة ١٣٢٣ هـ لطخ غيم أى قليل غيم

حـ - شيوع اللذة مع الغلمان

هذه اللذة التى أباحها غلاة الكوفة من الخطابية والجناحية كانت من أعز اللذات لدى المجان ، سجل ذلك أبو نواس عن نفسه ، والحسين الخليع كان لايقل عن أبى نواس رغبة فى الغلمان ، بل لعله كان أعشق لهذه اللذة من صاحبه ، كان يسعى إلى الغلمان ، ويذكر عنه الأغانى فى ميله إليهم القصص الفاحشة ، ونستطيع أن نذكر فى كلفه بالغلمان مايروى أنه « كان يتعشق غلاما لأبى عيسى بن الرشيد اسمه يسر ، وحدث بينه و بين أبى نواس ملاحاة ، فقال لأبى نواس والله للنعل الذى يطأ عليها يسر أحسن عندى من صاحبك ومن القمر ومن كل ما أنتم فيه » ، وكان أبو نواس جالساً مع غلام فى ليلة قمراء . تغنى هؤلاء المجان بهذه اللذة غناء فاتنا ، وظلوا يلحون فى وصفها ، وفى جمال اللذة التى تتاح فى ذلك ، حتى يبدو أنه كان من نتيجة ذلك ، شيوعها فى القصور ، يدلنا على ذلك ما يروى عن الأمين وما يقال إن حاجبا ذهب إلى منزل محمد بن عبد الملك الزيات فرأى غلمانا روقة فقال :

وعلى اللواط فلا تلومن كاتباً إن اللواط سجية الكتاب

فسمع محمد هذا القول فأجاب ؟

وكما اللواط سجية الكتاب فكذا الحلاق سجية الحجاب [(١)]

وما يقال إن الغلام عمير المأمونى اجتاز « بمحمد بن عبد الملك الزيات وكان (الغلام) أحسن خلق الله وجها وكان محمد يجن به جنونا فقال :

راح علينا راكبا طرفه أغيد مثل الرشأ الآنس [(٢)]

---

(١) الأغانى جـ ٢٠ ص ٤٩ الساسى سنة ١٣٢٣ هـ غلمان روقة = ما حسن من الوصفاء . (اللسان)

(٢) المصدر السابق جـ ٢٠ ص ٥٤ الساسى سنة ١٣٢٣ هـ .

وما رمى به أحمد بن أبى دؤاد ، من أنه كان ميالا إلى هذه اللذة ، وما عرف عن قاسم التمار المعتزلى ، وكان من أهل البصرة ويقضى معظم وقته فى بغداد ، شاع هذا الداء أو قل هذا الوباء حتى أضحى فى العصر الذى يلى العصر الذى نتحدث عنه أمراً يبتغى ، ويسعى إليه ، و بلغ من حرصهم على الحظوة بهذه اللذة أن اتخذ الرجال الغلمان فى بيوتهم لشهواتهم ، وكانوا آثر عندهم من الجوارى ، ولا جدال فى أن هذه اللذة ، التى أشاعها المجان ، هى من وحى تعاليم الإباحيين .

ء — المجان يعلّمون الجوارى المجون

كان هؤلاء المجان الذين فتنهم مذهب اللذة ، لايهدأون ولايقصرون نشاطهم على ناحية من النواحى ، رأوا الجوارى وهن نسوة أتى بهن ليكن زينة القصور وموضع اللذة ، فأخذوا يتعرضون لهن بالوصف تارة ، و بالغزل تارة أخرى ، وفى النساء ميل إلى سماع الحديث عن محاسنهن ، وفى الجوارى استعداد قوى للتبذل ، فالتقت الرغبتان ، رغبة المجان أن يتخذوا منهن لأنفسهم ولأغراضهم أداة للتحدث عن اللذة ، ورغبة الجوارى أن يستمعن إلى الحديث عنهن ، لترتفع قيمهن ومقاديرهن عند السادة ، وكان من ذلك أن شاع جوّ من التبذل والخلاعة ، تصفه دواوين الشعراء وتتحدث عنه الكتب الأدبية ، ولا إخال أحدا يدرس الأدب العربى يجهل ذلك ، وكل ما يعنينى فى هذا المسألة ، أن أبرز الأثر الذى تخلّف نتيجة الميل إلى مذهب اللذة ، ذلك المذهب الذى نادى به غلاة الشيعة ، وتأثر به المجان الشعراء تأثراً قوياً ، فراحوا ينادون به و يحببونه إلى النـاس ، و إلى من يتصلون بهن .

قلت إن الشعراء المجان كانوا يحتالون على هؤلاء الجوارى لـكى يقبلن على ما يقبلون عليه من لذة وارتكاب الـكبائر ، أخذوا من مدحهن وتملقهن بمعسول

الألفاظ وسيلة للوصول إلى أغراضهم ، وها هو ذا أبو نواس يحدثنا عن ذلك ، فيقول من قصيدة :

فما زلت بالأشعار فى كل مشهد　　ألينها والشعر من عقد السحر
إلى أن أجابت بالوصال وأقبلت　　على غير ميعاد إلى مع العصر
فقلت لها أهلا ودارت كؤوسنا　　بمشمولة كالورس أو شعل الجمر
فقالت عساها الخمر إنى بريئة　　إلى الله من وصل الرجال مع الخمر
فقلت اشربى إن كان هذا محرما　　ففى عنق ياريم وزرك مع وزرى
فطالبتها شيئاً فقالت بعبرة　　أموت إذن منه ودمعتها تجرى
فما زلت فى رفق ونفسى تقول لى　　جويرية بكر وذا جزع البكر
فلما تواصلنا توسطت لجة　　غرقت بها ياقوم من لجج البحر (١)

ويقول الحسين بن الضحاك الخليع فى ذلك :

لست أنسى الغرير　　رة إذ بحت بالشجن
قولها إذ سلبتها　　عن كثيب وعن عكن
ليس يرضيك يا فتى　　من هوى دون أن تهن
فامتزجنا معا مما　　زجة الروح للبدن (٢)

استدرج المجان الجوارى إلى ميدان المجون والخلاعة ، ونجحوا فى ذلك نجاحا باهراً ، حتى كلفت الجوارى بهم وتعلقت شهواتهم بهن ، ولما انتهى الأمر بالجوارى أن كن يمنحن من أنفسهن مايشاء المجان ويحبون ، أخذن بدورهن يصطفين من بينهم من يحقق رغباتهن ، وكانت الواحدة منهن غالبا ما يكون لها أكثر من محب أو راغب فيها ، ويصور لنا أبو نواس ذلك فى قوله :

علىَّ عين وأذن من مذكرة　　موصولة بهوى اللوطى والغزل

---

(١) ابن منظور . أخبار أبى نواس جـ ١ ص ١٦٩ و ص ١٧٠
(٢) الأغانى جـ ٦ ص ١٨٠ الساسى سنة ١٣٢٣ هـ

كلاهما نحوها سام بهمته على اختلافهما فى موضع العمل[(١)]

نبذلت الجوارى وانحدر ببعضهن السبيل إلى المجون والخلاعة ، فأخذن يجرين فى الميدان الذى أعده لهن المجان ، كن يجتمعن معهم ويذهبن مذاهبهم ، وتحدثنا الرواية عن إحداهن وهى عنان جارية الناطفى بما لايدع سبيلا إلى الشك فى ذلك ، قيل اجتمع أبو نواس والفضل الرقاشى والحسين الخليع ومحمد بن رزين وعمرو الوراق والحسين الخياط وعنان جارية الناطفى وعلى بن الخليل الكوفى واسماعيل القراطيسى وزين الكلبى على مجلس على الصراة ، فتناشدوا أشعارهم وأشعار غيرهم حتى إذا أرادوا الانصراف بعد الظهر اقترح أبو نواس أن يقول كل واحد منهم شعراً ، فأخذ كل شاعر وماجن يعدد مالديه من ملذات ، ولما جاء دور عنان قالت :

مهلا أفديك مهلا عنان أحرى وأولى
بأن تنال لديها أشهى النعيم وأحلى
فإن عندى حراما من الشراب وحلا
لا تطمعوا فى سواى من البرية كلا
يا أخوتى خبرونى أجاز حكمى أم لا[(٢)]

ونحن إذا نظرنا إلى هذا الشعر الذى تقوله عنان ، وإلى الشعر الذى يقوله كل ماجن ، يحاول به أن يجذب رفاقه أن يمضوا الليل عنده ، نراه ينطق باللذة الآثمة ، ويدل على استباحتهم لها وشغفهم بها[(٣)] . هذا الجو الذى أحدثه المجان واقتحمته الجوارى ، يدل على مقدار تأثرهن بالدعوة إلى اللذة ، التى نادى بها المجان ، تأثراً جعل عنانا وأمثالها يسرن فى طريق الملذات ، على نحو تهدر فيه مثل الأخلاق وتهمل تعاليم الدين .

(١) الديوان ص ٨٧ طبعة مصر سنة ١٨٩٨
(٢) ديوان أبى نواس ص ٤٠ مصر سنة ١٨٩٨
(٣) راجع المصدر السابق من ص ٣٨ إلى ص ٤١ والجاحظ المحاسن والأضداد من ص ١٩٤ إلى ص ١٩٦ ليدن سنة ١٨٩٨

فى هذا الجو الذى اشتركت فيه الجوارى والمجان ليقيموا فيه دعائم اللذة ، أخذ الغزل فى الشعر العربى يتحول لينسجم مع الحياة الجديدة ، التى وصلت إليها الدولة الإسلامية فى حضارتها ، ونفوس المجان الشعراء فى تعطشها إلى الشهوة ، فأخذ يصور هذه العلاقة بين الرجل والمرأة على نحو ما أرادت الحياة التى يحياها الشعراء والجوارى ، وأخذ اللفظ يرق ليمثل نفوس الشعراء ، وليصور هذه الحياة المترفة ، التى تلعب فيها الملذات دوراً خطيراً ، حتى يكون أداة قوية ينفذ إلى القلوب ، أو يثير الإحساس بما يريد الشاعر منه ، ولسنا هنا بصدد دراسة مثل هذا الموضوع ، فموضعه الدراسة الفنية للشعر ، ولكنا رأينا أنفسنا مضطرين إلى الإشارة وحسبنا منها الدلالة ولفت النظر ؛ لأن اللفظ فى سهولته ورقته شارك فى الدعاية لمذهب اللذة .

مما سبق أن سقناه عن المجان فى بغداد ، يتبين فى جلاء أن مذهب الإباحيين الكوفيين فى إيثار اللذة و إهمال تعاليم الإسلام فى سبيلها ، قد نجح على يد هؤلاء الشعراء المجان ، الذين لم يقصروا اللذة على أنفسهم بل دعوا إليها فكانوا ألسنة للأباحيين ، صاغوا دعوتهم على النحو الذى يلائمهم ويلائم البيئة .

٢ — الهجـــاء

وتأثره بالعقائد المتطرفة

كان شعراء بغداد فى العصر الذى نتحدث عنه كوفيين أو ذوى صلة قوية بهم ، فلا عجب أن نرى الهجاء ينتقل بصورته التى كان عليها فى الكوفة إلى بغداد ، و إذا كان أمر الهجاء على هذا الوضع ، تعين علينا أن نشير إلى كل ناحية منه ، وحسبنا ذلك لأنا قد فصلنا القول فيه من حيث مصادره .

كما كان السبب والشتم وثلب الأعراض شيمة للهجاء فى الكوفة ، كان الأمر كذلك فى بغداد ، و إليك مثالا ماذكره النوبختيون أن أبا نواس عنى

عبد الله بن أبى سهل بن نوبخت بقوله :ـ

ثقيل يطالعنا من أمم إذا سره رغم أنفى ألم

فأجابه أخوه عنه يهجو أبا نواس قائلا :ـ

وذى ثروة من قبيح الشيم صريح الدناءة مولى الكرم

بعينيه عن كل خير عمى وبالأذن عن كل حسن صمم

خفى على أعين المكرما ت وأشهر فى ريبة من علم

إذا رفعت للخنا راية ألح على ساقه واعتزم

ويعدو بحرفته للصديق وإن حصنته دروع النعم

وينمى إلى حكم دعوة وما إن له سبب فى حكم[1]

وكانوا كثيراً مايفحشون فى هذا الهجاء ، فحشا يفوق ما كان عليه الأمر فى السكوفة ، وهو فحش اشتقوه من حياتهم التى اصطبغت بطابع الخلاعة والتحرر من قيود الأخلاق وإتيان الفاحشة مع النساء والغلمان ، واقتحم هذا الميدان خليعات الجوارى نخص بالذكر منهن عناناً « وكانت لاتبالى ماقالت » ، وقع بينها وبين أبى نواس بما يوجب المهاجاة ، فكانت بينهما مهاجاة تمتاز بالفحش من كليهما والسب والطعن والتشهير[2] . ومما يلفت النظر أن الروح التى أشاعها المجان فى الهجاء غلبت وسادت ، حتى نرى امرأة كعنان سارت فى نفس الطريق الذى اتخذه المجان ، وذلك لأنها كانت تعيش فى الجو الفنى الذى أحدثوه فى بغداد ، وشأن غيرها كشأنها سواء بسواء ، كان المجان كثرة وكانوا يمتازون بجودة الشعر ، فسارت الحياة الفنية على النهج الذى رسموه .

وكما كان من أغراض الهجاء فى السكوفة إيقاع الخصم وتحريض أولى الأمر

(١) راجع دايوان أبى نواس ص ٣٤ و ص ٣٥ طبعة مصر سنة ١٨٩٨

(٢) ابن منظور ـ أخبار أبى نواس جـ ١ ص ٣٤ القاهرة سنة ١٩٢٤ .

للتنكيل به ، نراه فى بغداد يسلك هذا السبيل أيضاً ، ومن ذلك ما قال أبو نواس يهجو اسماعيل بن صبيح كاتب سر الأمين ، وكان ولاؤه لبنى أمية ، قال يحرض عليه الأمين من قصيدة : ـ

أتسمن أولاد الطريد ورهطه   باهزال آل الله من نسل هاشم
وإن ذكر الجعدى أذريت عبرة   وقلت أدال الله من كل ظالم[1]

وكانت المنافسة بين الشعراء فى بغداد ، سبباً من الأسباب التى جعلتهم يتهمون خصومهم بالزندقة ، على نحو ما كان يفعل مجان الكوفة ، حقد أبو نواس على ابراهيم النظام فقال فيه : ـ

قولا لإبراهيم قولا هترا   غلبتنى زندقة وكفراً
إن قلت ماتشرب قال خمرا   أو قلت ماتنكح قال دبرا
أو قلت ماترك قال برا   أو قلت ماترهب قال بحرا
أو قلت ماتقول قال شرا   أصلاه ربى لهبا وجمرا[2]

وغلبه إبان بن عبد[3] الحميد وكان مثله فى المجون ، إذ استطاع أن يحظى من البرامكة بالقرب دون أبى نواس ، فاحنقه ذلك وتجرد للتشهير به ، ومن حملته عليه قوله : ـ

شهدت يوماً إبانا   لا در در أبان
ونحن حضر رواق الـ   أمير بالنهروان
حتى إذا ماصلاة الـ   أولى دنت لأوان
إذ قام منذر ربى   بالبر والإحسان
فكل ما قال قلنا   إلى انقضاء الأذان

(١) الديوان ص ١٧٠ مصر سنة ١٨٩٨

(٢) المصدر السابق ص ١٨٦ الهتر = السقط من الكلام .

(٣) كان إبان بن عبد الحميد يخالط مجان الكوفة قبل انتقاله إلى بغداد

فقال كيف شهدتم بذا بغير عيان
لا أشهد الدهر حتى تعاين العيان
فقلت سبحان ربى فقال سبحان مانى
فقلت عيسى رسول فقال من شيطان[1]

ونحن إذا تأملنا حياة المجان لانجد أحداً يفضل أحداً ، و إبان ليس شراً من أبى نواس ، إذ كانوا جميعاً تستهويهم مذاهب انحرفت بهم إلى هذا الطريق الآثم ، ولكن طلب العيش والرجاء فى نيل الجوائز ليحققوا لأنفسهم ماتشتهى ، جعلهم يتنافسون و يسب بعضهم بعضاً ، ويطعن بعضهم فى بعض بالزندقة والكفر ، يبتغون من وراء ذلك أن ينتصر أحدهم على منافسه ، كما نرى فى المنافسة التى كانت بين أبى نواس و إبان بن عبد الحميد ، الذى قربه البرامكة وأغدقوا عليه النعم ، وكما نلحظ فى منافسة الشعراء على باب الرشيد .

وخلاصة القول أن الهجاء الذى عهدناه فى الكوفة بين الشعراء المجان فى أواخر أيام الدولة الأموية انتقل بطابعه إلى البصرة ثم إلى بغداد ، وكان الشعراء قد مرنوا عليه فازدادوا فحشاً على فحش ، وتفننوا فى اتهام بعضهم بعضاً بالزندقة والكفر ، ووصلوا فى ثلب الأعراض إلى حد تشمئز منه النفوس و ينكره الذوق السليم .

٣ — دلائل أخرى من تأثر المجان ببعض العقائد الكوفية

يرى الباحث فى وضوح أن لم يكن المجان فى بغداد متأثرين بمذهب اللذة وحده ، ولا بمذهب الكوفيين فى الهجاء وحده ، و إنما يلاحظ أن هؤلاء المجان حين كانت تذهب بهم الخمر مذاهبها ، أو تطغى عليهم عاطفة جامحة تجعلهم يخرجون عن طورهم ، يظهرون آيات تأثرهم بتلك العقائد الكوفية المتطرفة التى تحدثنا عنها ، نلاحظ أبا نواس وهو يهجو إبان بن عبد الحميد لايتهمه بالزندقة

(١) ديوان أبى نواس ص ١٨٠ مصر سنة ١٨٩٨ .

فحسب ، أو باتباع تعاليم مانى وحدها ، و إنما يرميه بذلك المذهب الذى قال به الجعد بن درهم فى الكوفة ، وقتله من أجله خالد القسرى الوالى ، وهذا المذهب هو الذى ينكر صفات الله ، التى أتى بها القرآن ، انظر إلى أبى نواس وهو يهجو إبانا فى قوله : ـ

فقلت موسى نجـ ـى المهيمن المنان
فقال ربك ذو مقـ ـلة إذن ولسان
أنفسه خلقـته أم من فقمت مكانى[1]

نرى أبا نواس يصور أبانا أنه ينكر أن الله كلم موسى عليه السلام ، وأن الحجة فى الإنكار هى إنه إذا سلم القائل بتكليم الله تعالى موسى ، فيكون له مقلة ولسان يتحدث به ، على نحو مايفعل الإنسان ، و إذا كان الله تعالى كذلك فهل هو الذى خلق نفسه أم من الذى خلقه ؟ يشير أبو نواس فى هذا الشعر ، إلى أن إبانا ينكر صفتين أو أكثر من صفات الله سبحانه وتعالى ، وهما تكليم موسى ورؤيته ، يريد بذلك أن يصوره خارجاً على دين الإسلام متبعاً لعقيدة من عقائد الكوفيين المتطرفين ، ويؤيد الذين اتهموا إبانا بالزندقة ، بواقعة ربما كان أبو نواس اختلقها ليطعن منافسه ، ويحرج الذين قربوه ، ويلفت نظرنا فى هذا الشعر أن الحوار الذى جاء به أبو نواس يصور تصويراً واضحاً هذا المذهب الكوفى ، وهذا يوحى بأنه هو أيضاً يعرفه ، يبدو ذلك فى إشارته إلى أن وصف الله تعالى بالكلام والرؤية ينتهى إلى أنه محدث ، وأنه على هذا الوصف ليس خالقاً ، كما يبدو واضحاً من التساؤل إن كان قد خلق نفسه أو عن الذى خلقه .

فإذا انتقلنا من أبى نواس إلى الحسين الخليع نجده متأثراً بمذاهب الرافضة ، وكانت تبدو صفحته إذا ماشرب الخمر ، ويكشف عن وجهه إذا عربد ، وهذا ما أفزع ابراهيم بن المهدى منه ، قيل إنه شرب يوماً عند ابراهيم بن المهدى فجرت

---

(١) ديوان أبى نواس ص ١٨٠ مصر ١٨٩٨

بينهما ملاحاة فى أمر الدين والمذهب ، فدعا له ابراهيم بنطع وسيف وكاد يقتله .[١]

هذه الآراء الدينية التى تشير إليها الرواية ، ولم تفصح عنها ، نستطيع أن ندركها مما يذكر الأغانى عنه فى قوله « و بلغ من جزعه عليه (على موت الأمين) أنه خولط فكان ينكر قتله لما بلغه و يدفعه و يقول إنه مستتر و إنه قد وقف على تفرق دعاته فى الأمصار يدعون إلى مراجعة أمره والوفاء ببيعته ضنا به وشفقه عليه[٢] » وهذا واضح الدلالة على أن الحسين يصور الأمين على نحو مايصور الرافضة مهديهم محمد بن الحنفية ، يصوره غائباً مستتراً وأنه سيعود وأن له دعاة منتشرين فى الأمصار على نحو ما كانت تفعل الرافضة ، هذه الفكرة فى عودة الأمين تظهر فى شعر الحسين فى رثاء الأمين فى قوله : ــ

سألونا أن كيف نحن فقلنا ... من هوى نجمه فكيف يكون

نحن قوم أصابنا حدث الدهـ ... ـر فظلنا لريبة تستكين

نتمنى من الأمين إيابا ... لهف نفسى وأين منى الأمين[٣]

كان الحسين متأثراً تأثراً عميقاً بعقيدة الرافضة فى الإمام ، يبدو ذلك واضحاً فى نظره إلى الخليفة ، نراه يتحدث عن الأمين بعد قتله فينكر موته ، و يراه مستتراً سيعود و يملك ، ونراه يمدح الواثق فيتمثله الإمام المعصوم ، الذى يملأ الدنيا أمنا وعدلا ، والذى يُظل الناس بعصمته ، و يراه المرتجى للخلق ، قال يمدح الواثق من قصيدة : ــ

خلقت أمين الله للخلق عصمة ... وأمنا فكل فى ذراك وظلكا[٤]

فها هو ذا يصور الواثق أنه خلق أمين الله على الأرض ، وأنه خلق معصوما

---

(١) الأغانى ج ٦ ص ١٧٤ الساسى سنة ١٣٢٣ هـ .

(٢) المصدر السابق ج ٦ ص ١٦٧

(٣) المصدر السابق ج ٦ ص ١٦٨

(٤) المصدر السابق ج ٦ ص ١٧٢

يمنح الناس أمنا ، ويقضى على ما فيها من فساد وظلم ، وأنهم يستطيعون أن يعيشوا تحت رعايته وظله ، عيشة هنيئة ليس فيها خصام ولا نزاع ، وأظننى فى غير حاجة فى أن أشير إلى أنه اقتبس من تعاليم الرافضة عن المهدى المنتظر ليمدح الواثق ، لأن الرافضة كانت تقول إن المهدى وهو ابن الحنفية سيعود إلى الأرض فيملؤها نوراً بعد ظلام ، وأمناً بعد خوف ، وعدلاً بعد ظلم ، وأن الناس يعيشون فى رعايته عيشة لا تعرف الخصام ولا النزاع .

ذكرنا أن بيان بن سمعان والمغيرة بن سعيد من غلاة الشيعة كانا يعمدان إلى آيات بعينها فى القرآن الكريم ، يستشهدان بها على صحة ماذهبا إليه من قول أو عمل ، أخذ أبو نواس فكرة تحويل الأثر الدينى إلى اتجاه يؤيد به الاتجاه الذى زعمه الدعى الشيعى ، وذهب إلى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يزعم أنها تؤيد ما ذهب إليه من مجون ، انظر إلى قوله وهو يتغزل :ـ

قل للمليح أما تروى الحديث بما … خالفت فيه وقد جاءت به الصحف
إن القلوب لأجناد مجندة … لله فى الأرض بالاهواء تختلف
فما تعارف منها فهو مؤتلف … وما تناكر منها فهو مختلف (١)

ألا تراه يتخذ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لاثبات أن تعلق شهوته بالحبيب كان ينبغى أن يقابل بنظيره ؟ لأن القلوب إذا تعارفت ائتلف صاحباها ، ولم تقف جرأته عند هذا الحدّ بل ذهبت به إلى وضع الأحاديث على ألسنة المحدثين لهذا الغرض الذى أسلفنا ذكره ، قال ابن عائشة « دخلت بغداد أريد السماع من عبد الله بن المبارك فلما صرت إلى واسط قلت لو دخلت إلى هذا الشيخ اسحاق الأزرق فصرت إليه وسلمت عليه فلما رآنى أجهش باكياً فقلت له ما الذى يبكيك ؟ قال ألم تر إلى هذا الفاسق ! قلت أى فاسق ؟ قال الحسن بن هانىء قلت مالك وله ؟ قال كذب على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وزعم

---

(١) ابن منظور أخبار أبى نواس ج ١ ص ٨٨ سنة ١٩٢٤

أنى حدثته عن عبد الله بن مسعود ولا والله ما حدثته به ولا تكلمت به قلت وماهو ؟ قال يا جارية هاتى القرطاس الذى دفعته إليك بالأمس فجاءت به فإذا فيه : ـ

يا حسن المقلتين والجيد ... وقاتلى منك بالمواعيد
توعدنى الوعد ثم تخلفه ... فيا بلائى من خلف موعودى
حدثنى الأزرق المحدث عن ... عمرو بن رسم عن ابن مسعود
لا يخلف الوعد غير كافرة ... أو كافر فى الجحيم مصفود
وحابس الدور بالحديث عن الـ ... قوم وتسويف صاحب العود(١)

وله مع أستاذه المحدث عبد الواحد بن زياد فى البصرة أحاديث كان يختلقها قصد العبث والمجون والدعابة . هذه الجرأة على أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والذهاب بها إلى وجهة غير التى وضعت لها تصور لنا أبا نواس ومن سلك سبيله ، أنهم كانوا يأتمون بصنيع غلاة الشيعة ، يبغون من وراء ذلك أن يحققوا لأنفسهم ما يشتهون ، سواء أ كان ذلك لذة أو صلة أو تقرباً من السلطان ، ويروى فى ذلك الفضل بن إياس الهذلى الكوفى « ان المنصور كان يريد البيعة للمهدى ، وكان ابنه جعفر يعترض عليه فى ذلك فأمر باحضار الناس فحضروا وقامت الخطباء فتكلموا وقالت الشعراء فأكثرت فى وصف المهدى وفضائله وفيهم مطيع بن إياس فلما فرغ من كلامه فى الخطباء وانشاده فى الشعراء قال للمنصور يا أمير المؤمنين حدثنا فلان عن فلان أن النبى صلى الله عليه وسلم قال المهدى منا محمد بن عبد الله وأمه من غيرنا يملؤها عدلا كما ملئت جوراً وهذا العباس بن محمد أخوك يشهد على ذلك ثم أقبل على العباس فقال أنشدك الله هل سمعت هذا ؟ فقال نعم مخافة من المنصور فأمر المنصور بالبيعة للمهدى ولما انقضى المجلس وكان العباس بن محمد لم يأنس به قال أرأيتهم هذا الزنديق إذ كذب على الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم حتى استشهدنى على كذبه فشهدت له خوفاً

---

(١) المصدر السابق جـ ١ ص ١٥١ و ١٥٢

وشهد كل من حضر عليّ بأنى كاذب[١] » أما وقد حرر المجان أنفسهم من الإسلام ، لذلك نراهم يسيرون خلف غلاة الشيعة يكذبون ويختلقون مثلهم .

حرر الكوفيون المتطرفون أنفسهم مما رأى فيه المسلمون تقديساً ، هذه النزعة التى لازمت المتشيعين الكوفيين ، تأثر بها أبو نواس وأملت عليه أن يتحرر مما أخذ المسلمون أنفسهم به ، من إكبار وتقديس لبيت الله العتيق بمكة ، وذلك ما يشهد به شعره ، وما تقول به الرواية ، قال الجماز « إن أبا نواس حين حج كان يطوف بالبيت يتبع امرأة بعينها عرفها أنها جنان وكانت تلثم الحجر الأسود ويلثمهُ معها ويلصق خده بخدها فقال له قد رأيتك وما صنعت اليوم فقال يا أحمق وحسبت قطع المهامه والسباسب والرمال للذى حججت له وإليه[٢] » ، وجنان هذه هى التى حج من أجلها ، ويقول فى الصاق خده بخدها : ـ

وعاشقين التف خداهما عند التثام الحجر الأسود

هذه النزعة بعينها هى التى جعلته حين يتغزل بغلام يعرف باللهبى ، يقدم فيقول فى قصيدة هذا البيت : ـ

ولا تخطيت فى صلاتى إلى قراءتى تبت يدا أبى لهب[٣]

كان دأب أبى نواس أن تأتيه الفكرة ، فكان يدفعه تحرره من الشعور الإسلامى أن يصوغها على نحو طموحه الفنى ، غير عابىء بما تكون عليه الفكرة من مساس بالدين كما فى قوله : ـ

فإن يك باق أفك فرعون فيكم فإن عصا موسى بكف خصيب

قال ابن قتيبة « لما قال (أبو نواس) فإن يك باق أفك فرعون فيكم وبلغ الرشيد قال يا ابن اللخناء أنت المستخف بنبى الله موسى عليه السلام وقال لإبراهيم

---

(١) الأغانى جـ ١٢ ص ٨١ الساسى سنة ١٣٢٣ هـ

(٢) ابن منظور أخبار أبى نواس جـ ١ ص ١٩٥ القاهرة سنة ١٩٢٤

(٣) الديوان ص ٤٠٨ مصر سنة ١٨٩٨

ابن نهيك لتقتلنه بين عسكرى من ليلته فقال يا سيدى فأجل ثمود فضحك وقال أجله ثلاثا فبعث الأمين إلى ابراهيم فقال لئن مسست شعرة منه لأقتلنك فأقام عند ابراهيم حتى مات الرشيد[١] » ، ونرى الرشيد يحاسبه قبل ذلك على قوله : ــ

يقولون فى الشيب الوقار لأهله　　وشيبى بحمد الله غير وقار

إذا كنت لا أنفك عن طاعة الهوى　　فإن الهوى يرمى الفتى ببوار

قال أبو على الحسن بن فهم حدثنا أبى قال « لما قال أبو نواس هذه القصيدة وسمعها الرشيد فأنكر قوله وشيبى بحمد الله غير وقار ، قال للفضل قل لهذا الماجن أتقول إن الشيب غير وقار وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا يشيب المؤمن فى الإسلام إلا إذا كان ذلك حجابا له من النار فأحضره الفضل وقال له ذلك فقال لا أنكر الوقار بالشيب وما جاء الخبر به ولكنى قلت وشيبى أنا غير وقار لما أجاوز به من تعجيل الذنوب وتأخير التوبة والبيت الذى بعده يشهد لى وهو إذا كنت لا أنفك عن طاعة الهوى فأخبر الرشيد بذلك فضحك وقال هو أعلم بسريرته وقبح عمله[٢] » ، لم يكن أبو نواس فريداً فى هذه الناحية ، وإنما كان يشاركه فى ذلك صحابته من المجان ودواوينهم تنطق بتحررهم من قيود الإسلام ، وبعمق تأثرهم بمذاهب الكوفيين المتطرفين وخاصة ولعهم بمذهب اللذة .

(١) الديوان ص ١٠٣ مصر سنة ١٨٩٨

(٢) المصدر السابق ص ٧٣

الخلاصــة

انتقل المجان إلى بغداد يحملون بضاعتهم فى اللذة متـأثرين بمذاهب الغلاة الإباحيين من الشيعة المتطرفين ، يدعون لهـا بين المترفين الذين يحملهم الترف على تذوق ملاذ الحياة ، فاستمعوا إليهم فوجدوهم يلبسون اللذة لباساً براقاً فتاناً ، إذ جعلوها غاية تبتغى شأنها عند المترف شأن غيرها مما يدخل البهجة والسرور فى قلبه ، واستطاع أبو نواس من بين المجان أن يتفرد بلباقة وقدرة على إذاعة اللذة والخمر ، إذ أوهم أن تحريمها الذى جاء به الإسـلام لا يكون أبداً حائلا دون الاختصاص بها و بمزاياها وحلاوتها ، وناقش وجادل فى سبيل نشر مذهب اللذة ، ورد على المعتزلة الذين ذهبوا إلى أن الـكبائر تخلد أصحابها فى النـار ، واتخذ من خلاف الفقهاء فى الشراب المسكر ، أو على الأصح احتال فى أن يجعل اختلاف الفقهاء فى الشراب المسكر وسيلة لايهام الناس أن أمر الخمر خفية ، وأنها ليست من الوضوح حتى يقطع بتحريمها ، واستدرج المجان الجوارى لينزلن إلى الميدان ، ونجحوا فى ذلك حتى رأينا منهن خليعات لا يقللن رغبة عن المجان فى استباحة اللذات ؛ نجحت الدعوة إلى اللذة وغزت الرجال فعملوا على ارضاء شهواتهم ، واحتلت الجوارى فى قلوبهم مكاناً علياً ، وترتب على ذلك أن احتللن فى القصور والبيوت مكانة رفيعة لم تكن لهن من قبل ، و بلغت الفتنة بهن أن كان الرجال يريدون من نسائهم أن يتشبهن بهن .

دعا المجان إلى شرب الخمر و إلى تذوق اللذات مع النساء والغلمان ، وكان الترف المسرف يشجعهم على أن يتبعوا دعاة اللذة ، وكان الشعراء يعمدون إلى وصف ما يبتغون ، وصفا يجذب النفوس الحضرية ، فكان من ذلك تطور فى الفنون وخاصة فى الشعر والموسيقى الغناء ، تغيرت ملامح الشـعر إذ أصبح ملائما لتلك الحياة الباسمة المترفة ، ونجح الشعراء فى أن يجعلوا الغزل يشمل الغلام كما يشمل المرأة ،

وأضحت أخيلته تشتق من الحياة الواقعة ، لا من الصحراء برمالها وأحجارها وجدبها ، ولا من هذه الأوصاف التى كانت تفتن العربى والبدوى بالمرأة ، ولكن من خلاعة النساء ودلالهن وأثوابهن المزركشة وشعورهن المطمومة ومايفتن الحضرى من المرأة ، وساعد ذلك فى الاغراء باللذة .

كان المجان يعنون أشد العناية بلذاتهم ، يسعون إليها فرادى أو مجتمعين ، يذهبون إلى القصور أو إلى البساتين والخانات ويمجنون ويلهون ويسكرون ، وفى أثناء سكرهم وخروجهم عن وعيهم ، كان يبدر منهم ما يصور تأثرهم ببعض عقائد الكوفيين المتطرفين ، فمنهم من ذهب إلى إنكار البعث والحساب ، ومنهم من كان يميل إلى أقوال الرافضة ، وكانوا جميعاً يستبيحون اللذات ، ويجاهرون بارتكاب الكبائر ، لا يخشون فى ذلك تقليداً ، ولا يرعون للدين تعاليما ، وساعدهم أن يسلكوا هذا السبيل أنهم صوروا أنفسهم ماجنين ، لا شأن لهم بالدين ، وأوهموا أنهم لا يستجيبون إلا لشهواتهم ، التى تحكمت فيهم وفى مشاعرهم ، وكان لظهور المجان فى بغداد ، وخاصة أيام الأمين ، أثر واضح فى الحياة ، إذ نشأ جو من المرح واللهو واللذة هتفت به ألسنتهم ، فوصفوا اللذات وصفاً سافراً حقق ما كانوا إليه يرغبون ، وإليه يسعون .

الباب الثالث

الفصل الثاني

رد فعل الدعوة إلى اللذة

حركة مقاومة الفساد فى بغداد

فى عصر الأمين أخذت اللذة تفتن قلوب أهل بغداد ، والترف يلعب بعقولهم ، فيوجههم إلى مسالكه ، والمجان الشعراء فى هذا الجو يتغنون بما فى اللذة من فتنة ، وبما في الخمر من تأثير تذهب بشاربها إلى عالم يرى القبيح فيه جميلا ، كما كان يقول أبو نواس ؛ في هذا الجو الفاتن الأخاذ بقلوب الذين سيطرت عليهم الحضارة العباسية ، وجد رجال الدين أو قل رجال الحديث أنفسهم لا يستطيعون للحال إصلاحاً ، فأخذوا يصورون هذا الفساد الخلقى فى صورة أحاديث ، رويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تحدث فى ذلك أحمد بن ابراهيم أبو عبد الله الحربى فروى حديثاً قال فيه إنه روى عن رسول الله « إذا كان سنة خمسين ومائة فخير أولادكم البنات ، فإذا كان سنة ستين ومائة فأمثل الناس يومئذ كل حاذ . قلنا : يا رسول الله ، وما الحاذ ؟ قال : من ليس له ولد خفيف المؤونة »(١) ، وهذا الحديث يشير إلى أن التطور العام فى نفوس الرجال بدأ منذ سنة ١٥٠ ﻫ أى من عهد المنصور ، وإنه لتطور يتمنى فيه الرجل الصالح ألا يكون له من الولد غير البنات ، ويأخذ هذا التطور السىء مجراه حتى تكون

(١) الخطيب البغدادى ـ بغداد ج ٤ ص ٩

سنة ١٦٠ هـ أى فى عصر المهدى ، فيفضل الرجل ألا يكون له من الأولاد أحد ؛ وتحدث عبد الرحمن بن الجارود بإسناد له عن رسول الله قال « يكون فى أمتى خسف ومسخ وقذف ، قالوا : يارسول الله ومتى يكون ذلك ؟ قال إذا ظهرت القينات والمعازف والخمور »[١] ، وهذا الحديث يصور فى وضوح ما كان عليه المجان والجوارى مما أسلفنا ذكره ، كما يشير إلى فتنة الناس بالحياة الحضرية التى كانوا يحيونها ؛ وتحدث أحمد بن العباس بن أشرس ، فذهب مذهب الناقد الساخط ، روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « لعن المخنثين من الرجال ، والمتشبهات من النساء بالرجال »[٢] ، وهذا الحديث يشير إلى الغلمان المخنثين ، الذين كانوا فتنة فى القصور وفتنة للمجان ولمن شذ ميله ، كما كانت الغلاميات مبعث استثارة للذة ، وأشار إلى هذه الأحاديث وغيرها يحى بن معين فى قوله : « كان ببغداد قوم يضعون الحديث كذابين » ، ذكر من هؤلاء أبو داود النخعى سليمان بن عمرو ومحمد بن زياد الميمونى وإسحاق بن نجيح الملطى[٣] ، ولم يكن يحيى بن معين الناقد المعروف يقول وحده بوجود هذه الطائفة ، التى اتخذت من الحديث وسيلة لتصوير ما كان عليه أهل بغداد من انحدار خلقى ، بل يعزز قوله أبو أمية الأحوص بن المفضل الغلابى فى قوله « قال لى أبى : كان ببغداد رجال يكذبون ويضعون الحديث منهم أبو داود النخعى »[٤] ، هذه الحركة من رجال الحديث بدأت فى عصر الرشيد فيما يظهر ، وأخذت مستمرة فى طريقها ، وكان القصد منها لفت نظر الناس إلى ما هم عليه من تحول خلقى ، ثم جذبهم إلى تعاليم الدين ، سئل أحمد بن محمد المعروف بغلام خليل ، وهو بصرى سكن بغداد عما

---

(١) المصدر السابق جـ ١٠ ص ٢٧٣

(٢) المصدر السابق جـ ٣ ص ٣٢٧

(٣) المصدر السابق جـ ٥ ص ٢٧٩ و جـ ٦ ص ٣٢٣ و جـ ٩ ص ١٨

(٤) المصدر السابق جـ ٩ ص ١٩

وضعه من أحاديث قال « وضعناها لنرقق بها قلوب العامة »[1] هذا اللون من الأحاديث كان يلقى آذانا صاغية و إقبالا على صاحبه ، حتى قيل إن غلام خليل الذى توفى سنة ٢٧٥ ﻫ فى بغداد حمل فى تابوت لدفنه بالبصرة ، وانحدر الناس ركبانا ومشاة وفى الزواريق إلى كلواذى ودونها وأسفلها لتشييع جنازته ، وهذا يدل على ما كان له من مكانة فى قلوب الناس .

لم يكن لهذه الحركة ، حركة وضع الأحاديث ، التى قام بها رجال الحديث أثر يذكر فى محاربة الفساد ، إذ استمر الناس تفتنهم ملاذ الحياة ، التى دعا إليها دعاة اللذة ، حتى كانت الفتنة بين الأمين والمأمون ، وما كان بينهما من حروب، نتج عنها اختلال الأمن ، وضعف السلطة القائمة فى بغداد عن ضبط الأمور فيها ، وزاد الأمر سوء استعانة الأمين بالعيارين يدافعون عن بغداد ، فدافعوا عنها فى بطولة رائعة ، ولكنهم كانوا لاينفكون يؤذون أهل البلد بتصرفاتهم وشهواتهم ، إيذاء كان مثار قلق السكان على أنفسهم وأموالهم وأولادهم ، ولقد صور لنا هذه الحال الشاعر الأعمى على بن أبى طالب ، تصويرا قويا حفظه المسعودى فى مروج الذهب (ﺟ ٦ من ص ٤٤٧ إلى ص ٤٥١ طبعة باريس) إذ سجل قصيدته التى مطلعها :

تقطعت الأرحام بين العشائر ... وأسلمهم أهل التقى والبصائر
وحل انتقام الله من خلقه بهم ... لما اجترموه من ركوب الكبائر
فلا نحن أظهرنا من الذنب توبة ... ولا نحن أصلحنا فساد السرائر

وفيها يقول :

كأن لم يكن دين ولم تكن غيرة ... فيخرجهم عن هتك ستر الحرائر

وفيها يصف سوء ما وصل إليه أهل بغداد فى قوله :

وحل بهم ما حل بالناس قبلهم ... فأضحوا أحاديثا لباد وحاضر

---

(١) المصدر السابق ﺟ ٥ ص ٧٩

ويحدثنا الطبرى (سنة ٢٠١ ص ١٠٠٨ طبعة أوروبا) عن هذه الفوضى التى سادت بغداد فيقول « إن فساق الحربية والشطار الذين كانوا ببغداد والكرخ آذوا الناس أذى شديداً ، وأظهروا الفسق وقطع الطريق وأخذ الغلمان والنساء علانية من الطرق ، فكانوا يجتمعون فيأتون الرجل فيأخذون ابنه فيذهبون به فلا يقدر أن يمتنع » ويحدثنا عن نهب الأموال والمتاع ، ولا سلطان يمنعهم ، لأن السلطان كان يعتز بهم ، لأنهم بطانته وجنوده ، الذين يدافعون عن بغداد . وصلت الحال حين اضطرب أمر بغداد إلى أسوأ ما كان يتمنى دعاة اللذة ، الذين ملأوا جو المصر فى زمن الأمين غناء بها ، ووجدت الشهوات فى هذا الاضطراب فرصة للتمتع بالملذات ، التى وصفت بأنها سعادة الحياة ، فانطلقت من عقالها لا تجد لها وقفاً ولا دفعاً ، واستجاب العيارون لخلجات نفوسهم الأمارة بالسوء ، فحرروا أنفسهم من كل قيد دينى أو اجتماعى ، ومضوا يأخذون من هذه اللذات دون أن يقيموا لأنفسهم حدوداً ، وسعوا فى نشوة الظفر باللذة يلحون فى طلبها ما استطاعوا إليها سبيلا ، لا يرعون للمرأة إحصاناً ، ولا للفتى والفتاة صيانة وشرفاً ، و باختصار تعرضت الأعراض — بعد مقتل الأمين واضطراب الأمن — إلى أقبح استباحة عرفها تاريخ الحياة الإسلامية فى مصر من الأمصار إلى ذلك الوقت ، والناقد يرى ذلك كله نتيجة كان لا بد منها ، فى فترة اضطر بت فيها الأمور ، وأعقبت ترفاً مسرفاً وحرية أتيحت للمجان ، فيها كانوا يتغنون باللذة ، و يرونها أسعد هدف فى الحياة و يحضون الناس على الإقبال عليها دون حيطة أو حذر ، ينادون بذلك والأمين غافل عنهم بشهواته ، قد تركهم وما يشتهون ، ولم يقم عليهم رقيباً يزجرهم إذا أسرفوا ، و يقومهم إذا أساؤا . فى هذه الضجة الكبرى والفساد الشامل ، الذى نتج عن النزعات والشهوات تبدو فى الأفق حركة لمقاومة هذا الفساد الخطير ، عرفت بحركة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، للدفاع عن الشرف والمال والولد ، وقمع الفتنة التى أثارتها الشهوات ، يقول الطبرى (سنة ٢٠١ ص ١٠٠٩

طبعة أوروبا) « قام صلحاء كل ربض وكل درب فمشى بعضهم إلى بعض وقالوا إنما فى الدرب الفاسق والفاسقان إلى العشرة وقد غلبوكم وأنتم أكثر منهم ، فلو اجتمعتم حتى يكون أمركم واحداً لقمعتم هؤلاء الفساق وصاروا لا يفعلون ما يفعلون من اظهار الفسق بين أظهركم » .

دعا إلى هذه الحركة التى تعمل للقضاء على الاثم والعدوان رجل يقال له خالد الدرويش ، بأن طلب من جيرانه وأهل بيته وأهل محلته أن يعاونوه على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فأجابوه إلى ذلك ، وطلب بعد ذلك من الفساق أن يكفوا عن أعمالهم الآثمة ، وتصرفاتهم الفاجرة فأبوا ، وتحدوه وانطلقوا يريدون القضاء على خالد الدرويش ، ولكنه استطاع بمعاونيه أن يهزمهم ويبعد الشر عنه وعن معاونيه ؛ وبعد يومين أو ثلاثة من قيام خالد بحركته ، قام رجل يقال له سهل بن سلامة يقطن منطقة الحربية فى الجهة الشرقية من بغداد ، وهو من أهل خراسان وكان يكنى أبا حاتم «فدعا إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والعمل بكتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وعلق مصحفاً فى عنقه ثم بدأ بجيرانه وأهل محلته فأمرهم ونهاهم فقبلوا منه ثم دعا الناس جميعاً إلى ذلك الشريف منهم والوضيع بنى هاشم ومن دونهم وجعل له ديوانا يثبت فيه اسم من أتاه منهم لمبايعته على ذلك وقتال من خالفه وخالف ما دعا إليه كائناً من كان فأتاه خلق كثير فبايعوه ثم إنه طاف ببغداد وأسواقها وأرباضها » ، وأوقف حركة الفساق بالقوة(١) ، ومن دعوة هذين الرجلين إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يتبين لنا ما يأتى :

أولا — أن خالدا دعا إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر للقضاء على الفساد وحماية أهله ومعاونيه وأنه هو الذى بدأ بهذه الحركة .

---

(١) الطبرى سنة ٢٠١ ص ١٠٠٩ و ص ١٠١٠ طبعة أوروبا

ثانيا ـ اقتفى سهل بن سلامة الأنصاري[1] خالدا فى أول الأمر ، ثم بدا له أن تكون حركة مقاومة منظمة ، فأعد سجلا يثبت فيه أسماء الأتباع ، ومن قبل أن يعاونه أصبح مجنداً .

ثالثاً ـ دعا سهل إلى اتباعه الناس جميعاً ، ولم تكن حركته على غرار حركة خالد ، أن يجند كل منطقة سكانها لدفع الشر ، بل ألزم سهل اتباعه قتال من خالفه ، لا فرق فى ذلك بين سلطان وسوقة وشريف وغير شريف .

نستطيع بهذا الإيضاح أن نفرق بين حركتى الدرويش وسهل بن سلامة ، فنرى الأول فى جلاء يعمل لخير المجتمع وعشيرته ، ولا يقصد من وراء نهضته للدعوة للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلا الأمن واستتباب النظام والاطمئنان على المال والولد ، يدلك على ذلك قوله « لا أعيب على السلطان شيئاً ولا أغيره ولا أقاتله ولا آمره بشىء ولا أنهاه » ، يعنى بذلك أن لا شأن له بالسياسة ، ولا يهتم إلا بالأغراض الاجتماعية ، وهو فى ذلك يتبع نظرية البصريين فى الاصلاح الاجتماعى ، أما سهل بن سلامة فتهدف حركته فى تنظيمها وقيامها على التصدى للسلطان إلى السياسة ، تدرك ذلك مما أورده الطبرى من قوله يقابل به قول خالد « وقال سهل بن سلامة لكنى أقاتل كل من خالف الكتاب والسنة كائناً من كان سلطاناً أو غيره والحق قائم فى الناس أجمعين فمن بايعنى على هذا قبلته ومن خالفنى قاتلته[2] » ، ومن هذا يتبين أن الدعوة للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عند سهل تقوم على القوة المنظمة ، وأنه يستبيح لنفسه الخروج على السلطان قياما بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهذا الذى ذهب إليه سهل بن سلامة نجده

---

(١) اللقب نسبة إلى اللقب الذى خلعه المنصور على بعض أبناء خراسان الذين أتى بهم وأسكنهم بغداد فيحب التفرقة بينه وبين أنصار المدينة .

(٢) الطبرى سنة ٢٠١ هـ ص ١٠١٠ طبعة أوروبا

فى تعاليم الزيدية وتعاليم[١] الروافض ، فى قولهم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يبدو أن سهل بن سلامة كان متأثراً بمذهب الزيدية فى قوله بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وذلك لسببين مهمين ، أولهما أنه اعتمد على رجال الحديث على نحو ما كانت الزيدية تفعل حين كانوا يهمون بالخروج على السلطان ، وثانيهما أنه كان يقتدى بسياستهم ، يخفى الغرض السياسى و يظهر الغيرة على الدين ؛ وتأثره بمذهب الزيدية أمر قريب الاحتمال ، لأنه من أهل خراسان أولئك الذين قاتلوا مع يحيى بن زيد الذى خلف والده زيد بن على ، وظل مذهب الزيدية من بعده فى خراسان ، هذا المذهب الذى جعل سلم بن سالم البلخى المحدث يدعو له ،ويصفه محمد بن سعد فيقول « سلم بن سالم البلخى يكنى أبا محمد وكان مرجئا ضعيفا فى الحديث ولكنه كان صارما يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وكانت له رئاسة بخراسان فبعث إليه هارون أمير المؤمنين فأقدمه عليه فحبسه فلم يزل محبوسا إلى أن مات هارون ثم أخرجه محمد بن هارون حين ولى الخلافة من سجن الرقة فقدم بغداد فأقام بهـا قليلا ثم خرج إلى خراسان فمات بها[٢] » ، وظاهر أن الرشيد حبسه خشية من حركته ، ولدينا من الشواهد ماينبئ بأن حركة سهل بن سلامة كانت سياسية ، نرى ذلك فيما يذكره الطبرى ، من أن من بين أتباعه كان منصور ابن المهدى وخزيمة بن خازم والفضل بن الربيع ، وإذا عرفنا أن حركة سهل بدأت بعد قتل الأمين رأينا فى انضمام هؤلاء القادة المغزى السياسى ، وخاصة وأن عيسى بن محمد بن أبى خالد ــ الذى كان من اتباع سهل ــ ومنصور بن المهدى ، كانا يحاربان جيوش المأمون ، ولما لم يستطع عيسى أن يمضى فى القتال إلى نهايته ، ورأى ألا بد من الصلح اصطلح مع رجال المأمون ، وأرسل إلى سهل من يغتاله

---

(١) Friedlaender, The Journal of the American Oriental Society, vol., 29, p.92

(٢) طبقات ابن سعد الجزء التاسع من المجلد السابع ص ١٠٦ ليدن سنة ١٩١٨

فضربه ضربة لم تعمل فيه ، و يمكن أن نرى فى ذلك أن عيسى بعد عجزه عن قهر جيوش المأمون ، واضطراره ابرام الصلح ، خشى أن يؤول الأمر إلى سهل فأراد قتله ، ومما له دلالة خاصة أن المطلب بن عبد الله بن مالك الخزاعى ـ وقد كان هو أيضاً من اتباع سهل ـ حين رأى أن نجم المأمون فى ازدهار ، قام يدعو للمأمون فى بغداد ، فاعترضه سهل «وقال له ليس على هذا بايعتنى»[١] وقاتله قتالا شديداً ؛ كل ذلك يقودنا إلى القول أن حركة سهل بن سلامة الأنصارى كانت تهدف إلى أغراض سياسية ، واتخذت من الدعوة للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وسيلة لذلك ، و إن كانت تعمل فى الظاهر لمحاربة الفساد .

والخلاصة أن حركة خالد الدرويش كانت تعمل لخير المجتمع ، تدفع الشر ولا تسعى إليه ، كان موقف زعيمها موقف المدافع عن الأعراض والأموال والقضاء على الفتنة ، دون أن يكون له شأن برجال الدولة ، وكان قتاله للفساق أمراً اضطر إليه للدفاع عن النفس ومثل الأخلاق وتعاليم الدين ، أما سهل بن سلامة فلم يقنع بالقضاء على الشر بل ظل قائماً بحركته يسيطر على بغداد ، التى تحوم حولها الجيوش لتقتحمها ، يتحدى السلطان و يطلق يد شيوخ الحديث فى عقاب الآثمين « فكانوا يحبسون و يعاقبون[٢] » ، وخصص لتنفيذ العقوبة فى الفساق رجلا من أهل الحديث ، هو أحمد بن الفرج بن سليمان أبو عتبة الملقب بالحجازى ، الذى عرف فى بغداد بالغداف (أى الغراب) ، وكان هذا الرجل قاسياً غليظاً ، قال عنه محمد بن عوف « وكان أيام أبى الهرماس[٣] يسمونه الغداف (الغراب) وكان له ترس فيه أربع مسامير كبار ، إذا أخذوا رجلا يريدون قتله ، صاحوا به أين

---

(١) الطبرى سنة ٢٠١ ص ١٠١١ طبعة أوروبا

(٢) الخطيب البغدادى ـ بغداد جـ ١٢ ص ٣٥٠

(٣) فى الأصل أبو الهرناس وأظنه خطأ وصوابها ، أبو الهرماس يعنى أبا الأشبال وهو سهل بن سلامة .

الغداف ؟ فيجىء فإنما يضرب به بها أربع ضربات حتى يقتله قد قتل غير واحد بترسه ذاك » ، والحجازى هذا كان من رجال الحديث الذين وصفوهم بالكذب ، ورئى يشرب مع فتيان ومردان[1].

اضطرت الظروف المأمون أن يسرع لدخول بغداد ، واستطاع بسياسته ورفقه أن يجعل سهل بن سلامة الأنصارى يعود إلى لبس السواد وأخذ الأرزاق ، على أن فريقا من اتباعه امتنعوا أن يحذوا حذو سهل ، سنتحدث عن أمرهم فيما بعد ، وقد اضطروا أن يلزم كل واحد منهم بيته يتحين الفرص . كان نتيجة هذه الحركة التى قامت لمحاربة الفساد وهى حركه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، أن اضطر الشعراء المجان أن ينصرفوا من بغداد ، وأن تختفى صيحاتهم بفتنة اللذة زمنا ، حتى دخل المأمون بغداد ، واتخذ اجراءاته فى سبيل القضاء على الفتنة فيها ضرب الحسين الخليع ، ومنها أمره وزيره الفضل بن سهل أن يحرم شرب النبيذ ، فأذاع تحريمه وأمر بعقوبة شاربه[2] ، هذه النتيجة التى انتهت إليها هذه الحركة دع عنك الفشل السياسى الذى لقيته ، كانت فوزاً لرجال الحديث على دعاة اللذة وترتب على هذا الظفر قهر مذهب اللذة ، الذى كان يوحى للشعراء المجان أن يذهبوا مذاهبهم ، فى إثارة الشهوات ووصف مافيها من نعيم ، نظروا إليه على أنه غاية فى الحياة ، اختفى مذهب اللذة أو على أدق تعبير انسحب دعاته من مسرح بغداد ، واضطر الشعراء حين عادوا إلى بغداد بعد قيام المأمون بواجباته الملكية فيها ، أن يلتزموا جانب الجد فى الشعر ، واتخذوا من المدح الذى كادوا يوقفون جهودهم عليه ميدانهم ، أما الخمريات والغزل بالغلمان وهذه المساجلات التى كانت بين المجان وخليعات الجوارى فقد أصبحت ذكرى فى القلوب ، وتاريخا يتردد على اللسان ؛ ظل الأمر على الوجه ، وظل المأمون يعنى عناية خاصة بأمر بغداد ، حتى

---

(١) الخطيب البغدادى ـ بغداد ج ٤ ص ٣٤٠ .

(٢) الجهشيارى الوزراء والكتاب ص ٣٠٨ القاهرة سنة ١٩٣٨

بدا له أن أمرها قد هدأ فأباح النبيذ ، وعادت مجالس الغناء ، ولكن هذه الحرية فى القول التى عهدناها أيام الأمين لم تعد ، وبذلك نستطيع أن نقول إن مقاومة الفساد الذى لازم حركة بغداد كانت له آثار حسنة ، أعاد للعقل سلطانه على النفوس وعلى الشعر .

دخل المأمون بغداد وأخذ يراقب حركة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مراقبة شديدة ، فلما شعر الكارهون لحكمه بيقظته ، أخذوا ينقدون حكمه كتابة فى رقاع و يلقونها فى الطرق ، ذكر طيفور أن ابراهيم بن السندى المتولى إبلاغ المأمون أخبار بغداد « وجد رقاعا فيها لعن على السلطان ورفع الأمر إلى المأمون فأشار المأمون بتمزيق هذه الرقاع متى وجدوها دون أن تقرأ فتختنق فكان ما قال[1] » ، وكان رجال الحديث لا يفتأون يقومون بجهودهم فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، رغم أمر المأمون بوقف هذا النشاط ، قال الحسن بن الصباح البزار ، وهو رجل كان له جلالة عظيمة فى بغداد ، و يرفع من قدره رجال الحديث ، قال « أدخلت على المأمون ثلاث مرات » ، رفع إليه أول مرة أنه يأمر بالمعروف « وكان نهى أن يأمر أحد بمعروف » فقال لى « أنت الحسن البزار ؟ قلت نعم يا أمير المؤمنين قال وتأمر بالمعروف ؟ قلت لا ولكنى أنهى عن المنكر قال فرفعنى على ظهر رجل وضربنى خمس درر وخلى سبيلى[2] » ، وإن لم يكن المأمون قد أساء الظن بالحسن البزار إلا أنه كان حريصا أن يسبر غور الرجال فى هذه الدعوة للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ذكر الخطيب البغدادى « لما دخل المأمون بغداد نادى بترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وذلك أن الشيوخ ببغداد كانوا يحبسون و يعاقبون فى المحال فنادى بذلك لأن الناس قد اجتمعوا على إمام

---

(١) بغداد ص ٦٩

(٢) الخطيب البغدادى بغداد ج ٧ ص ٣٣١

قال فدخل أبو نعيم[1] بغداد فى ذلك الوقت فنظر إلى رجل من الجند قد أدخل يده بين فخذى امرأة فزجره أبو نعيم فتعلق الجندى بأبى نعيم ودفعه إلى صاحب الشرطة وعلى الشرطة يومئذ عياش وصاحب الخبر أبو عباد فكتب بخبره إلى المأمون فأمر بحمله إليه قال أبو نعيم فأدخلت عليه وقد صلى الغداة وهو يسبح بحب فى شىء من فضة فسلمت عليه فرد السلام فى خفاء شبه الواجد ـ فبينا أنا قائم إذ أتى غلام بطست وابريق فنحانى من بين يديه فأجلسنى حيث ينظر وقال لى توضأ قال فأخذت الأناء وتوضأت كما حدث الثورى حديث عبد خير عن علىّ ثم جىء بحصير فطرح لى فقمت وصليت ركعتين كما روى عن أبى اليقظان عمار بن ياسر أنه صلى ركعتين فأوجز فيهما ثم صاح بى إليه فجئت فأمرنى فجلست فقال لى ما تقول فى رجل مات وخلف أبويه فقلت لأمه الثلث وما بقى فلأبيه فخلف أبويه وأخاه فقلت لأمه الثلث وما بقى لأبيه وسقط أخوه قال فخلف أبويه وأخوين فقلت لأمه السدس وما بقى لأبيه فقال لى فى قول الناس كلهم ؟ فقلت لا فى قول الناس كلهم إلا فى قول جدك فإنه ما حجبها من الثلث إلا بثلاث أخوة فقال لى يا هذا من نهى مثلك أن يأمر بالمعروف إنما نهينا أقواما يجعلون المعروف منكراً قال فقلت فليكن فى ندائك لا يأمر بالمعروف إلا من أحسن أن يأمر به فقال لى انصرف أو كما قال[2] » .

ظلت حركة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى بغداد ، ولكنها كانت على يد رجال يحسنون الدعوة ويفهمون الدين ، وكان القائمون بها يحاولون فى رفق أن يصلحوا النفوس التى أفسدها الترف والدعوة إلى اللذة ، وكان المأمون حريصا

(١) أبو نعيم هو الفضل بن دكين صاحب الدكينية من الزيدية وهو كوفى كان يتشيع ويخفى تشيعه ، توفى سنة ٢١٩ هجرية وهو من رجال الحديث (مفاتيح العلوم للخوارزمى ص ٢٩ . الخطيب البغدادى ج ١٢ ص ٣٥٧)

(٢) بغداد . ج ١٢ ص ٣٥٠

على أن يرعى بغداد ، رعاية لا تمكن من القيام بحركات متطرفة ، أو دعوات آثمة ، وأسلست بغداد قيادها للمأمون ، حتى ظهرت فى الأفق نظرية خلق القرآن ، التى لم تمكنه منيته أن يرعاها ، وتحولت الحركة التى عهدناها فى بغداد تحارب الرذيلة والأثم نحو هذه النظرية تعارضها ، تلك النظرية التى كانت بغيضة عند أهل بغداد ، يدلنا على ذلك ثوراتهم عليها ، وفى ذلك قيل « هاجت العامة على بشر المريسى وسألوا ابراهيم بن المهدى (أقيم خليفة بعد مقتل الأمين) أن يستتيبه فأمر ابراهيم قتيبة بن زياد (القاضى) أن يحضر مسجد الرصافة » قال محمد بن عبد الرحمن الصيرفى « شهدت مسجد الجامع وقد اجتمع الناس وجلس قتيبة بن زياد للناس وأقيم بشر على صندوق من صناديق المصاحف عند باب الخدم » ، وقام المستمليان يذكران أن أمير المؤمنين (ابراهيم بن المهدى) أمر قاضيه أن يستتيب بشر بن غياث المريسى من أشياء عدداها فيها ذكر القرآن وغيره » ، ورفض بشر أن يجيب على الاتهام ، وكثر الناس عليه حتى كادوا يقتلونه ، فادخل إلى باب الخدم وتفرق الناس[1] ؛ وما يروى أن المعتصم ولى فى خلافته شعيب بن سهل الرازى ، وجعل إليه الصلاة بالناس فى مسجد الرصافة فى أيام الجمع والأعياد ، وقال الحارث بن أبى أسامة « سنة سبع وعشرين ومائتين فيها وثب قوم يوم الجمعة لثلاث ليالى بقين من شهر ربيع الأول فى مسجد الرصافة على رجلين من الجهمية فضربوهما وأذلوهما ثم مضوا إلى مسجد شعيب بن سهل القاضى يريدون محو كتابة كتبها على مسجده يذكر فيها أن القرآن مخلوق فأشرف عليهم خادم لشعيب فرماهم بالنشاب فوثبوا فأحرقوا باب شعيب وانتهب ناس منزله وأرادوا نفسه فهرب منهم وهو أول قاض حرق بابه وانتهب منزله فيما بلغنا وكان يقول قول جهم مبغضا لأهل السنة متحاملا عليهم منتقصا لهم لا يقبل لأحد منهم صرفا ولا عدلاً[2] » ، وهذا القاضى كان يبغض أهل بغداد ، وكان

(١) الخطيب البغدادى ـ بغداد ج ١٢ ص ٤٦٤

(٢) المصدر السابق ج ٩ ص ٢٤٣

أهل بغداد يبغضونه لاختلافهما فى المذهب . مات المأمون وخلفه المعتصم ، وكان رجلاً عسكرياً يمتاز بما للجندى من صفات ، ولكنه لم يكن مثقفاً ، وظلت الدعوة إلى خلق القرآن تمضى فى طريقها على النحو الذى يفصلها التاريخ ، وكانت حركة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر منزوية حتى تولى الواثق ، واشتدت حركة خلق القرآن حين وجه إليها المعتزلة جل عنايتهم لحمل الناس على اعتناق مذهبهم ، يظاهرهم هذا الخليفة الذى أضحى مثلهم متحمسا لهذا المذهب ، وعندئذ اتجهت حركة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تجابه هذا الخطر ، الذى رآه أهل الحديث خطرا على العقيدة .

حركة أحمد بن نصر الخزاعى

الآن وقد بينا أمر هؤلاء القادة الذين قاموا باسم محاربة الفساد ، يدعون الناس إلى العمل بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ويخضعون بغداد لسلطانهم ، ويقهرون مذهب اللذة الذى فر دعاته من الميدان ، خوفا على أنفسهم من القتل ، نمضى فى بحثنا فى هذه الحركة لنستكمله فى العصر العباسى الأول ، الذى نتصدى لبحثه ، لأنها كانت من جهة متأثرة بنظر الزيدية فى العمل بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومن جهة أخرى قامت لمحاربة الفساد الذى نادى به المجان ، وتقدم أحمد بن نصر الخزاعى أهم شخصية بعد سهل ، ولقد سبق أن ذكرنا فى حركة سهل بن سلامة ، أن من بين اتباعه قوماً لزموا بيوتهم وآثروا الأنزواء ، ولم تطاوعهم نزعاتهم أن ينهجوا منهج سهل ، وكان من بين هؤلاء أحمد بن نصر الخزاعى ، وهو رجل كان من المحدثين ويقولون عنه إنه كان من أهل الفضل والعلم مشهوراً بالخير أمارا بالمعروف قوّالا بالحق ، ينحدر من أسرة من خراسان ، وكان جده مالك بن الهيثم الخزاعى أحد نقباء بنى العباس فى ابتداء الدولة العباسية ، ظل هذا الرجل ملتزما بيته حتى اشتدت حركة خلق القرآن أيام

الواثق ، فأخذ يعمل سراً على الخروج على السلطان ، وأخذ ينقد الواثق نقداً لاذعاً ، و يعطن فيه طعناً دامياً ، على مسمع من رجال الحديث الذين يرتادون بيته ، و يؤثرون مذهب أهل السنة ، وظل كذلك حتى دبر مؤامرة لقلب نظام الحكم ، يذكرها الخطيب البغدادى برواية محمد بن يحيى الصولى ، و يحدثنا الطبرى عنه وعن ابتداء أمره فيقول « أحمد بن نصر بن مالك بن الهيثم الخزاعى ومالك بن الهيثم أحد نقباء بنى العباس وكان ابنه أحمد يغشاه أصحاب الحديث كيحيى بن معين وابن الدورق وابن خيثمة ، وكان يظهر المباينة لمن يقول القرآن مخلوق مع منزلة لأبيه كانت من السلطان فى دولة بنى العباس و يبسط لسانه فيمن يقول ذلك مع غلظة فى الواثق كانت على من يقول ذلك وامتحانه إياهم فيه وغلبة أحمد بن أبى دؤاد عليه فحدثنى بعض أشياخنا عمن ذكره أنه دخل على أحمد بن نصر في بعض تلك الأيام وعنده جماعة من الناس فذكر عنده الواثق فجعل يقول ألا فعل هذا الخنزير أو قال هذا الكافر وفشا ذلك من أمره فخوف بالسلطان وقيل له قد اتصل أمرك به فخفه وكان فيمن يغشاه رجل فيما ذكر يعرف بأبى هارون السراج وآخر يقال له طالب وآخر من أهل خراسان من أصحاب اسحاق بن ابراهيم بن مصعب صاحب الشرطة ممن يظهر له القول بمقالته فحرك المطيفون به يعنى أحمد بن نصر من أصحاب الحديث وممن ينكر القول بخلق القرآن من أهل بغداد وحملوه على الحركة لإنكار القول بخلق القرآن » ، أما رواية محمد بن يحيى الصولى فلا تجعل أحداً يحرض أحمد بن نصر ، وتصوره زعيم الحركة المدبر لها ، ونحن إذا نظرنا إلى كل من الصولى والطبرى نراهما يذكرانه على أنه أحد زعماء حركة سهل ، ورجل هذا وصفه فى غير حاجة إلى تحريض ، وكل مايعنيه الفرصة المناسبة والأعوان ، تحدث الصولى عن حركته فقال « ثم إن أمره تحرك ببغداد في آخر أيام الواثق واجتمع إليه خلق من الناس يأمرون بالمعروف إلى أن ملكوا بغداد وتعدى رجلان من أصحابه يقال لأحدهما طالب فى الجانب الغربى و يقال للآخر

أبو هارون فى الجانب الشرقى وكانا موسرين فبذلا مالا وعزما على الوثوب ببغداد فى شعبان سنة إحدى وثلاثين ومائتين فنمّ عليهم قوم إلى اسحاق بن ابراهيم » .

ونحن إذا قابلنا رواية الطبرى بهذه الرواية يبدو لنا أن الذى نم ووشى ، هو الذى يشير إليه الطبرى ولم يسمه ، وهو ذلك الخراسانى الذى دسه اسحاق ابن ابراهيم بن مصعب صاحب الشرطة ، على أحمد بن نصر ليبلغ حركاته إلى أولى الأمر ، مظهراً له أنه على مقالته ، ويتحدث محمد بن يحيى الصولى عن الاجراءات التى اتخذت للقضاء على الحركة فيقول « فأخذ جماعة فيهم أحمد بن نصر وأخذ صاحبيه طالباً وأبا هارون فقيدهما ووجد فى منزل أحدهما أعلاماً وضرب خادماً لأحمد بن نصر فأقر أن هؤلاء كانوا يصيرون إليه ليلا فيعرفونه ماعملوا فحملهم اسحاق مقيدين إلى سر من رأى فجلس لهم الواثق وقال لأحمد بن نصر دع ما أخذت له ماتقول فى القرآن ؟ قال كلام الله قال أفمخلوق هو ؟ قال هو كلام الله قال أفترى ربك فى القيامة ؟ قال كذا جاءت الرواية فقال ويحك يرى كما يرى المحدود المجسم يحويه مكان ويحصره الناظر أنا أكفر برب هذه صفته ماتقولون فيه فقال عبد الرحمن بن اسحاق وكان قاضياً على الجانب الغربى فعزل هو حلال الدم وقال جماعة من الفقهاء كما قال . فأظهر ابن أبى دؤاد أنه كاره لقتله فقال للواثق يا أمير المؤمنين شيخ مختل لعل به عاهة أو تغير عقل يؤخر أمره فقال الواثق ماأراه إلا مؤدياً لكفره قائماً بما يعتقده منه ودعا الواثق بالصمصامة(١) وقال إذا قمت إليه فلا يقومن أحد معى فأنى أحتسب خطاى إلى هذا الكافر الذى يعبد ربا لانعبده ولا نعرفه بالصفة التى وصفه بها ثم أمر بالنطع فأجلس عليه وهو مقيد وأمر بشد رأسه بحبل وأمرهم أن يمدوه ومشى إليه حتى ضرب عنقه » ، أما أصحاب أحمد بن نصر فيقول الطبرى أنهم صيروا فى الحبوس « وقيد أبو هارون وطالب بسبعين رطلا من الحديد كل واحد منهما » ، وأمر الواثق بتتبع أنصار

(١) سيف عمرو بن معدى كرب الزبيدى كان قد أهدى إلى موسى الهادى

أحمد بن نصر وحبسهم فى سجون الظلمة ، فحبسوا ومنعوا من أخذ الصدقة التى يعطاها أهل السجون . ومنعوا من الزوار وثقلوا بالحديد[١] ، قتل أحمد بن نصر الخزاعى وفصلت رأسه من جسده ، وصلب الجسم بسر من رأى والرأس فى بغداد ، فترة فى الجانب الشرقى وأخرى فى الجانب الغربى ، يحرسها رجالة وفرسان يحفظونها ، ولأهل بغداد فى هذه الرأس أساطير ، منها أنهم زعموا أنهم شاهدوها تقرأ القرآن ، ولم تزل رأس أحمد بن نصر منصوباً ببغداد ، وجسده بسر من رأى ، إلى أن حط وجمع بين رأسه و بدنه ودفن بالجانب الشرقى من بغداد، وقتل سنة ٢٣١ هـ ودفن سنة ٢٣٧ هـ .

كان لاضطهاد القائمين بحركة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى أيام المعتصم ، والقضاء على زعمائها أيام الواثق ، أن عاد الأمر إلى ما كان عليه أيام الأمين وأخذ الشعراء فيما كانوا يقولون الشعر فيه ، من غزل بالغلمان ومن وصف للخمر ، و بلغ الأمر حداً أن الشاعر أحمد بن محمد العبر الهاشمى كان أيام المتوكل يتكسب بالمجون[٢] ، وأن وزير المتوكل محمد بن الفضل الجرجرائى كان ينشغل عن أمور الدولة باللهو ، وعاتبه المتوكل « على اشتغاله بالملاهى والقيان عن أعمال السلطان فقال يا أمير المؤمنين إن مقاساة هموم الدنيا لاتتأتى إلا باستجلاب شىء من السرور[٣] » وكان محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم يعشق الغلمان والجوارى ، وله فى هذا الميدان قصص وشعر ترويهما كتب الأدب . وختام القول فى حركة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر التى قادها سهل بن سلامة الأنصارى وختمت فى العصر العباسى الأول بأحمد بن نصر الخزاعى ، أنها حركة قامت على

---

(١) راجع الطبرى من ص ١٣٤٣ إلى ص١٣٤٩ . والخطيب البغدادى بغداد جـ ٥ ص ١٧٦ و ص ١٧٧

(٢) الخطيب البغدادى . بغداد جـ ٥ ص ٤٠

(٣) الثعالبى خمس رسائل ص ٢٦ الأستانة سنة ١٣٠١ هـ

النحو الذى رسمه بعض المتطرفين من الشيعة ، تظهر الغيرة على الدين وتبطن الغرض السياسى الذى تسعى وراءه ، ونجحت فى أول أمرها فى أن تطهر بغداد إبان محنتها من الفساق ودعاة اللذة ، حين ضعف القائمون على الأمور فيها ، من أن يقيموا فيها الأمن والنظام ويصدوا الآثمين عن شهواتهم الفاجرة ، وكان لنشاطهم أثره ، إذ اختفى المجان وظلوا يرهبونها حتى أصمتها المأمون ، فعادوا فى عهده حريصين حذرين ، ثم مالبثوا فى عهد خلفه أن استأنفوا سيرتهم الأولى ، ولم يكونوا فى هذه المرة هدف حركة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لاتجاهها إلى معارضة الداعين إلى مذهب خلق القرآن ، وانصرف القائمون على حركة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عن محاربة الفساد ، وعنوا بمقاومة نظرية خلق القرآن ، وظلوا كذلك إلى العصر الذى يلى العصر الذى نتحدث عنه .

واسط والمذاهب الكوفية المتطرفة

تحدثنا عن الكوفة والبصرة و بغداد و بقى أمر واسط ، وتعمدنا أن نؤجل الحديث عنها ، لأن البحث فى أمرها فى العصر العباسى الأول ، يدل فى وضوح وفى جلاء ، أن هذا المصر كان بريئاً من هذه التيارات المتطرفة ، التى انتابت غيره من أمصار العراق ، وذلك لأن هذا البلد حين أنشأه الحجاج تخير له السكان ، وظل طوال حكمه لايأذن بالهجرة إلى واسط إلا بإذنه ، قطن واسطاً أنصار بنى أمية وتفر يق من الأسرة الأموية ، وظلت بعد الحجاج موضع رعاية خلفائه أمراء العراق ، وظفرت منهم بما تستحقه من عناية ، فكانت فضلا عن أنها مقر أمراء العراق وفيها الدواوين موضعاً ينزل فيه جيوش بنى أمية المرسلة من الشام ، أخذت واسط فى النمو والازدهار حتى جاء حكم بنى العباس ، وفى المصر نهضة زراعية يشار إليها بالبنان ، ثم ظهرت فيها الصناعة وأخذت فى الرقى بخطى واسعة ، ولم يكد النصف الأول من القرن الثانى يؤذن بالانتهاء حتى أضحت بها صناعات تنافس مثيلاتها فى المدن الأخرى .

لم تكن واسط بعد الحجاج مغلقة فى وجوه القادمين أو الزائرين ، و إنما كان أهلها من أنصار بنى أمية المعروفين بذلك المتشبثين بمذهب أهل السنة، ولم يتأثروا بالحركات المتطرفة ، وظل أمرهم كذلك حتى أظلهم الحكم العباسى ، و بلغ من نفور أهلها لمذاهب الكوفيين المتطرفين أن أى خروج عما ألفوه كان يثير ريبتهم[1] ؛ كانوا بمنأى عن التيارات المتطرفة ، رغم القرب والصلة بين واسط و بين الكوفة ، وانتقال بعض الكوفيين لتمصيرها ، وتردد بعض الكوفيين المتطرفين عليها ، أمثال حماد عجرد وعمارة بن حمزة وغيرهما ممن أغوتهم اللذة وغرقوا فى لججها ، كان هؤلاء المتطرفون يترددون على واسط لزيارة أهلهم فيها ؛ هذا المظهر الذى لازم واسطاً فى العصر العباسى ظل سيماها حتى أيام ابن بطوطة ، الذى يحدثنا عنها وعن صلاح أهلها حديث المثنى عليهم ثناء عاطراً[2] ، حقاً لقد ظهرت فى واسط الدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولكن هذه الدعوة كان لها طابع مثيلتها فى البصرة ، قصد بها الإصلاح الاجتماعى[3] لاغير .

وخلاصة القول أن الحجاج منشىء واسط تخير لها سكانها حين بناها ، وحرص على أن يكونوا جميعاً من أهل السنة ، أو على أصح تعبير ممن يظاهرون السلطان ، و يكونوا عوناً له على أعدائه ، وأنها ظلت طوال العصر الأموى موضع رعاية ولاة العراق ، يقطنها طائفة من رجال بنى أمية ، وممن يعنيهم أن يكون السلطان لهم دون سواهم ، فجاءهم العصر العباسى وهم قوم يعنون بالزراعة وتنمية مواردهم ، فأعطوا الطاعة لبنى العباس بعد سقوط دولة بنى أمية ، وظلوا يعنون بأمورهم ومواردهم وصناعاتهم التى وصلت إلى أوجها فى العصر العباسى الأول ، بعيدين عن الأمور السياسية وتياراتها الجارفة .

---

(١) الخطيب البغدادى بغداد جـ ٧ ص ١٦ و ص ١٧

(٢) ابن بطوطة جـ ٢ ص ٣ طبعة باريس

(٣) الخطيب البغدادى ـ بغداد جـ ١٤ ص ٣٤٦

« خاتمـــــة »

قامت المذاهب الشيعية المتطرفة فى الكوفة فى القرن الثانى الهجرى ، ونادى بها رجال يبغضون الدولة والإسلام ، يأملون فى تقويض نظامها وهدمها ، ليستردوا ملكاً ضائعاً ، وليحيوا مجدهم الزائل ، ولئن فشلوا فى أن يصلوا إلى هدفهم المنشود ، فقد نجحوا فى إقامة فرق تعمل بتعاليمهم ، و بدت آثار هذه المذاهب المتطرفة فى البيئات الأدبية ، فى مختلف أمصار العراق فى العصر العباسى الأول ، على نحو مافصلنا القول ، ذلك لأن هذه المذاهب لقيت دعاة ينشرون منها مالاءم البيئة والناس ، وعملت الحياة على نجاح ماينشرون و يجدون في الدعوة إليه ، وظفر الدعاة وكانوا شعراء وأدباء بفوز أتاح للشعر أن تنفتح له أبواب كانت مغلقة دونه ، لايلجها ولايحاول الدنو منها ، كالغزل فى الغلمان والحرية في الوصف والتغنى باللذات على شكل لم يكن مألوفاً ، وكان أهم مذهب لقى من الناس ترحاباً مذهب اللذة ، لما كانوا عليه من ميل إلى الترف ، دفعهم إليه أموال تتدفق واستقرار فى أمور الحياة ، جعلهم يتطلعون إلى ملذات الحياة الفاتنة ، يشحذ عزيمتهم للمضى إليها شعراء مجان ، يتحدثون عن اللذة فيصفونها أنها أسعد منال فى الحياة ، و يصورون الإحساس بالظفر بها أنه الإحساس بالنعيم ، وحفزتهم الحياة التى يعيشون فيها ، وفتنتهم باللذة أن ينكروا على غيرهم من الشعراء وصف الأطلال والوقوف على الآثار ، فى أرض يقيمون فيها ذات زروع خضراء ، و بساتين غناء ومياه جارية ، ومعهم جوار كاعبات يلعبن بالألباب ، يشاهدن فى القصور ولدى النخاسين فيملأن النفوس والقلوب ، وكان من التفاعل بين الحياة و بين نفوس الشعراء المجان ، المتأثرين بمذاهب الكوفيين (١) المتطرفين ، أن تلاءم الشعر

---

(١) الخياط المعتزلى — الانتصار ص ١٤٢

والحياة فى اللفظ وفى الخيال ، واقتصر التقليدفى الشعر على المدح فى الرسميات حين يمدح الخلفاء .

الآن وقد عرضنا ما انتهى إليه جهدنا فى فصول هذا البحث ، نطوى صفحته على أمل مجدد ، فى عودة لدراسته فى ميدان أوسع ، وحسبى من هذا البحث الشاق ، أن يثير الباحثين إلى هذا الموضوع ، فلست أدعى أننى قلت الكلمة الأخيرة ، فالكمال لله وحده ، وهو حسبى نعم المولى ونعم النصير .

أهم مصادر البحث

١ – مصادر الفرق والملل والنحل

الاسفراييني (أبو المظفر طاهر بن محمد ٤٧١ هـ) . التبصير في الدين وتمييز الفرق الناجية من فرق الهالكين – المخطوطة المحفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس رقم Arabe 1452 وطبعة القاهرة . (الشيخ زاهد الكوثري)

الأشعرى (أبو الحسن على بن اسماعيل ٣٢٤ هـ) . مقالات الإسلاميين – استانبول ١٩٢٩

الأصبهانى (أبو نعيم أحمد بن عبد الله ٤٣٠ هـ) . حلية الأولياء – القاهرة ١٩٣٢

أبو حنيفة النعمان المغربى (أبو حنيفة النعمان بن محمد بن منصور بن أحمد بن حيون ٣٦٣ هـ) . دعائم الإسلام – القاهرة ١٩٥١

البغدادى (أبو منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد ٤٢٩ هـ) .
١ – أصول الدين استانبول ١٩٢٨
٢ – الفرق بين الفرق القاهرة ١٩١٠
٣ – مختصر الفرق . . « ١٩٢٤

البيرونى (أبو الريحان محمد بن أحمد ٤٤٠ هـ) . تحقيق ما للهند من مقولة – أورو با ١٨٨٧

الخياط المعتزلى (أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد بن عثمان بعد سنة ٣٠٠ هـ) . الانتصار – القاهرة ١٩٢٥

السبكى (تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب ابن تقى الدين سنة ٧٧١ هـ) . طبقات الشافعية الكبرى القاهرة ١٣٢٤هـ

الشهرستانى (أبو الفتح محمد بن عبد الكريم ٥٤٨ هـ) الملل والنحل (على هامش الفصل فى الملل لابن حزم) القاهرة ١٣١٧ هـ وطبعة لندن ١٨٤٢

القاسم بن ابراهيم (سنة ٢٤٦ هـ) . الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع نشره جويدى سنة ١٩٢٧

الكشى (أبو عمرو محمد بن عمر بن عبد العزيز) . أخبار الرجال ـ بومبى ١٣١٧هـ

الملطى (محمد بن أحمد بن عبد الرحمن ٣٧٧ هـ) . التنبيه والرد على أهل الأهواء استانبول ١٩٣٦

النوبختى (أبو محمد الحسن بن موسى بعد ٢٠٠ هـ) فرق الشيعة ـ استانبول ١٩٣١ وطبعة النجف .

٢ ـ المصادر التاريخية

ابن الأثير (أبو الحسن على بن أحمد بن أبى الكرم ٦٣٠ هـ) الكامل فى التاريخ طبعة أوربا ١٨٧٠

ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد سنة ٨٠٨ هـ) . العبر وديوان المبتدأ والخبر القاهرة ١٢٨٤هـ

ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم ابن أبى بكر سنة ٦٨١ هـ) . وفيات الأعيان القاهرة ١٢٨٣ هـ .

ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى ٢٧٦ هـ) . المعارف القاهرة ١٩٣٥ وطبعة أوروبا

ابن مسكويه (أبو على أحمد بن محمد سنة ٤٢١ هـ)	تجارب الأمم ليدن ١٩١٣
ابن النديم (محمد بن اسحاق ٣٨٣ هـ)	الفهرست ليبزج ١٨٧١
أبو يوسف (يعقوب بن ابراهيم ١٩٢ هـ) .	الخراج القاهرة ١٣٠٢ هـ
البلاذرى (أحمد بن يحيى بن جابر سنة ٢٧٩ هـ) .	أنساب الأشراف القدس ١٩٣٨
البيرونى (أبو الريحان محمد بن أحمد)	الآثار الباقية ليبزج ١٩٢٣
الثعالبى (أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل ٤٢٩ هـ) .	لطائف المعارف أوربا ١٨٦٧
الخطيب البغدادى (أبو بكر أحمد بن على ٤٦٣ هـ) .	بغداد ـ القاهرة ١٩٣١
الطبرى (محمد بن جرير سنة ٣١٠ هـ)	تاريخ الطبرى ـ طبع أوربا ١٨٧٩ ـ ١٩٠١ .
طيفور (أحمد بن أبى طاهر سنة ٢٨٠ هـ)	بغداد ـ ليبزج ١٩٠٨ .
قدامة بن جعفر (٢٣٧ هـ) .	كتاب الخراج وصناعة الكتاب ـ مخطوطة محفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس رقم Arabe 5907
الماوردى (أبو الحسن على بن محمد بن الماوردى ٤٥٠ هـ) .	الأحكام السلطانية طبع أوربا ١٨٥٣
محمد كرد على	رسائل البلغاء ـ القاهرة ١٩٤٦
المسعودى (أبو الحسن على بن الحسن بن الحسين بن على ٣٤٦ هـ)	١ ـ مروج الذهب ـ باريس ١٨٦١ ـ ١٨٧٧ ٢ ـ التنبيه والأشراف ليدن ١٨٩٣

هشام الكلبي (هشام بن محمد بن السائب الكلبي ٢٠٤ هـ) . الأنساب مخطوطة بالمتحف البريطاني رقم Add. 22397

نصر بن مزاحم المنقري (٢١٢ هـ) . موقعة صفين ـ القاهرة ١٣٦٥ هـ

يحيي بن آدم (٢٠٣ هـ) . الخراج ـ القاهرة ١٣٤٧ هـ

اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب ٢٨٢ هـ) تاريخ اليعقوبي ـ ليدن ١٨٨٣

٣ ـ المصادر الأدبية

ابن حمدون (محمد بن الحسن البغدادي بعد ٥٦٢ هـ) . تذكرة ابن حمدون ـ القاهرة ١٩٢٧

ابن عبد ربه (أبو عمر أحمد بن محمد سنة ٣٤٩ هـ) . العقد الفريد ـ القاهرة ١٩٤٠ وطبعة بولاق

ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري) . ١ ـ طبقات الشعراء ـ طبع أوروبا
٢ ـ عيون الأخبار ـ طبعة دار الكتب المصرية .

ابن المقفع (عبد الله) . ١ ـ الأدب الكبير نشر زكي باشا القاهرة ١٩١٢
٢ ـ الأدب الصغير نشر زكي باشا القاهرة ١٩١١

ابن منظور (محمد بن مكرم بن علي ٧١١ هـ) أخبار أبي نواس سنة ١٩٢٤ الجزء الأول

أبو الفرج الأصفهاني (علي بن الحسين ٣٥٦ هـ) . الأغاني ١٣٢٣ هـ والطبعات الأخرى

الباقلاني (أبو بكر محمد بن الطيب ٤٠٣ هـ) اعجاز القرآن على هامش الإتقان للسيوطي سنة ١٣١٨ هـ

الثعالبى (أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل) .
١ ـ ثمار القلوب سنة ١٩٠٨
٢ ـ خمس رسائل القسطنطينية ١٣٠١ ﻫ

الجاحظ (عمرو بن بن بحر بن محبوب سنة ٢٥٥ ﻫ) .
١ ـ الحيوان طبع هارون القاهرة ١٩٣٨ـ ١٩٤٧
٢ ـ البيـان والتبيين القاهرة ١٣٣٢ ﻫ والطبعات الأخرى
٣ ـ المحاسن والأضداد ليدن ١٨٩٨
٤ ـ البخلاء طبعة دار الـكتب المصرية
٥ ـ الرسائل
ا ـ الحنين إلى الأوطان القاهرة ١٣٣٣ﻫ
ب ـ ثلاث رسائل القاهرة ١٣٤٤ ﻫ
ﺣ ـ أربع رسائل القاهرة ١٩٤٣
ى ـ إحدى عشر رسالة القاهرة ١٣٢٤ ﻫ
ﻫ ـ ثلاث رسائل ـ ليدن ١٩٠٣
و ـ ثلاث عشرة رسالة ـ القاهرة ١٩٣٣

الجهشيارى (أبو عبد الله محمد بن عبدوس ٣٣١ ﻫ) .
الوزراء والـكتاب ـ القاهرة ١٩٣٨

دواوين الشعراء
ديوان أبى العتـاهية الأنوار الزاهية فى ديوان أبى العتاهية ببيروت ١٨٨٦ ديوان أبى نواس ـ القاهرة ١٨٩٨

المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد٢٨٥ﻫ)
الـكامل ـ القاهرة ١٣٣٩ ﻫ والطبعات الأخرى .

ياقوت الحموى (أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله ٦٢٦ هـ) . إرشاد الأديب لمعرفة الأديب ـ القاهرة ١٩٣٨

٤ ـ المصادر الجغرافية

الاصطخرى (أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسى ٣٤٠ هـ) صور الأقاليم ـ ليدن ١٩٢٧

ابن حوقل (محمد بن حوقل سنة ٣٦٧ هـ) المسالك والممالك ـ ليدن ١٨٧٢

ابن خرداذ به (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله تقريباً ٢٨٠ هـ) المسالك والممالك ـ ليدن ١٨٨٩

ابن رسته (أبو على أحمد بن عمر ٣٦٠ هـ) الأعلاق النفسية ـ ليدن ١٨٩١

ابن الفقيه الهمذانى (أبو بكر أحمد بن محمد) . البلدان ـ ليدن ١٨٨٥

البلاذرى (أحمد بن يحيى بن جابر) فتوح البلدان ـ القاهرة ١٩٣٢

المقدسى (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد ابن أبى بكر سنة ٣٧٥ هـ) . أحسن التقاسيم ـ ليدن ١٩٠٦

ياقوت (أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله) . كتاب البلدان ـ ليدن ١٨٩٢

اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب بن واضح) . البلدان ـ القاهرة ١٩٣٧

٥ ـ المصادر الحديثة

ا) العربية

أحمد أمين ـ دكتور	١ — فجر الإسلام
	٢ — ضحى الإسلام
حسن ابراهيم حسن ـ دكتور	١ — الفاطميون فى مصر
	٢ — تاريخ الإسلام السياسى
طه حسين ـ دكتور	حديث الأربعاء

ب) مصادر أوروبية

Bevan, C. W.	Manichaeism, Encyclopedia of Religion & Ethics
Brandt, W.	Mandaeans, Encyclopedia of Religion & Ethics
Browne, Edward G.	A Literary History of Persia, London 1919
Carnoy, A. J.	Zoroastrianism, Encyclopedia of Religion and Ethics
Dhalla, M. N.	Zoroastrian Civilisation, New York, 1922
Emmet, C. W.	Messiah. Encyclopedia of Religion and Ethics
Friedlaender, I.	The Hetrodoxies of the Shi'a. The Journal of the American Oriental Society, vols, 28A,29 1907-1909 (Abbreviation J.A.O.S.)
Gray, Louis H.	Marraige, Encyclopedia of Reliogion and Ethics
Hyanson Elbert M.	Messiah, Encyclopedia of Reliogion and Ethics
Levy, Reuben	A Baghdad Chronicle, Cambridge 1929
Lewis, Bernard.	The Origin of Isma'ilism, Cambridge 1940

Margoliouth, D.S.	Khattabiyya, Encyclopedia of Islam
Massignon, L.	Mission en Misopotamie, Caire 1919-1912
	Hallaj, Encyclopedia of Islam
Mez, Adam	The Renaissance of Islam, trans. by Khuda Bukhsh, London, 1937
Nickolson	Mazdek, Encyclopedia of Religion and Ethics
Nyberg, H. S.	Mu'tazila, Encyclopedia of Islam
Obermann, Julian.	Political Theology in Early Islam. The Journal of the American Oriental Society vol. 55, 1936
Robertson Smith, W.	Lectures on the Religion of the Semites
Runciman, S.	The Medieval Manichee, Cambridge 1947
Le Strange, Guy.	Baghdad, Oxford 1924
Suhrawardy	Mussulman Culture, Calcutta 1934
Van Vloten, G.	Recherche sur la Domination Arabe, Amsterdam, 1892
Weir, T. H.	Muhammadanism in Syria, Egypt and Mesopotamia, Encyclopedia of Religion and Ethics
Wellhausen.	Arab Kingdom trans. by Margaret Graham Weir, Calcutta 1927

فهرس الأعلام

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(غ)

(ف)

فهرس الطوائف

فهرس الأماكن

فهرس القبائل

(ق)

(ك)

(م)

(ه)

(ى)


AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT